حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

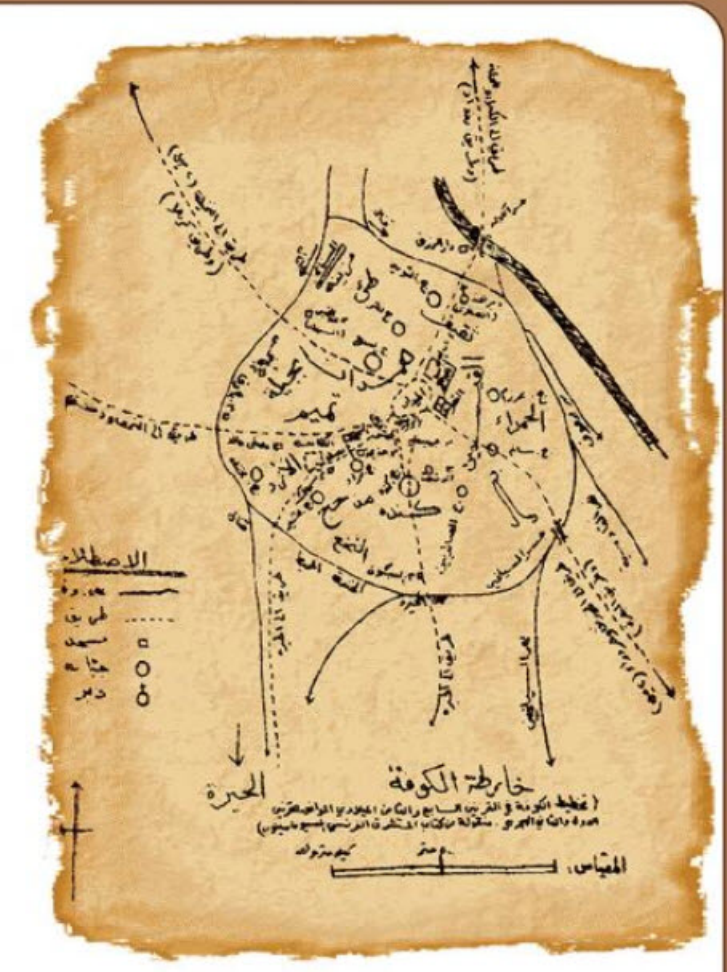

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكوفة
في الأدب النجفي المعاصر

الأستاذ الدكتور محمد حسن علي مجيد الحلي
الكلية الإسلامية الجامعة- النجف الأشرف

ليس من الممكن التحدث عن عموم تراث النجف الأدبي الذي ذكر الكوفة... لأن الوشائج بين الكوفة والنجف أوسع من أن تحشر في بحث أو توجز في بيان سريع. فالكوفة إحدى حواضر العرب الكبرى في عصور النهضة والنجف خليفتها ووارثة نهضتها ومجدها وهما كالبلاد الواحدة، والعلاقة بين أدباء النجف والكوفة متينة، سواء في العصر الحديث أو فيما سبق من العصور، وإنما سنكتفي من هذا وذاك بإشارات سريعة بما يناسب حجم هذا البحث. لأن الأدب النجفي المعاصر تناول الكوفة كثيراً جداً، وإنه كامن في كل مصادر الأدب النجفي ودواوين شعرائه المعاصرين، ومجاميعه الشعرية المطبوعة والمخطوطة، وإن جردها كلها، وإيراد كل ما يتناول الكوفة في كل مصادره فيها يؤلف أكبر بحث يمكن أن يقع في كتاب ضخم وعليه فإننا سوف نقتصر على المشهور والطرف والمهم منه....

فمن تلك الوشائج المتينة بين أدباء النجف والكوفة في العصر الحديث إن الشاعر الكوفي المرحوم (الشيخ علي البازي)، ابن الكوفة وشيخ أول التاريخ الشعري في العراق في زمانه والمتوفى سنة ١٩٧٣م، قرظ وأرخ أضخم موسوعة أدبية ضمن تراث النجف الشعري، وشعرائها لمؤلفها المرحوم (الشيخ علي الخاقاني) المتوفى سنة ١٩٧٥، والموسومة (شعراء الغري) التي وقعت في اثني عشر جزءاً. قد قرض الشيخ البازي وأرخ الجزء الأول من تلك الموسوعة، والذي صدر سنة ١٣٧٢هـ في مقطوعة شعرية طريفة طويلة، قال فيها:

إن (علي) القدر في سعيه ... بكل فضل ومديح حري
وافى بمجهود له قد سما ... شأواً على العيوق والمشتري
مفخرة الأجيال أضحى ألا ... يا أدباء العصر فيه فخري
أحيا لنا حاضر آثارنا ... ومن مضى من سالف الأعصر
وما انتقت بنات أفكارهم ... في سائر الأوزان والأبحر

في شعراء النجفيين قل: أرخت: (بل في أدباء الغري)[1]

ومن شعراء الكوفة القدماء الذين ذكروا النجف وتاقوا إلى بقعتها المباركة الشريفة: الشاعر العباسي (علي بن محمد العلوي الحماني الكوفي).

الذي قال تشوقاً:

فيا أسفي على النجف المعرى ... وأودية منورة الأقاحي
وما بسط الخورنق من رياض ... مفجرة بأفنية فساح
وواأسفاً على القناص تغدو ... خرائطها على مجرى الاشاح[2]

وهذا شاعر آخر يصف النجف وظباءها وأوانسها بهذه الأبيات الطريفة التي تداخل فيها الحنين ووصف الطبيعة بالغزل والتشوق، حين يقول:

وبالنجف الجاري إذا زرت أهله ... مهاً، مهملات ما عليهن سائسُ
خرجن بحب اللهو في غير ريب ... عفائف، باغي اللهو منهن آيسُ
يردن إذا ما الشمس لم يخش حرها ... ظلال بساتين جناهن يابس
إذا الحر آذاهن لذن بفينة ... كما لاذ بالظل الظباء الكوانس
لهن إذا ما استعرضتهن عشية ... على ضفة النهر المليح مجالس
يفوح عليه المسك منه وإن تقف ... تحدث، وليست بينهن وساوس[3]

ويبدو هنا إن الشاعر يمد أرض النجف إلى الكوفة، ويعد الكوفة والنجف بلاداً واحداً، فها هو الشاعر يتحدث عن نهر النجف وبساتينها، ونحن نعرف إن النجف القديمة والحديثة ليست بذا نهر، إلا إذا امتدت إلى الكوفة وكونت بلدة واحدة.....

قال السهيلي في تفسير كلمة (النجف): «وبالفرع لعينان يقال لاحدهما الربى، وللأخرى النجف تسقيان عشرين ألف نخلة، وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنع سيل الماء إن يعلو الكوفة

(١) شعراء الغري-علي الخاقاني ج١/ص٢- المط الحيدرية-النجف- ص١/١٩٤٥، ج٦/١٩٥٤، ج٧/١٩٥٥.
(٢) شعراء الغري ج١/٨.
(٣) شعراء الغري ج١/٩.

ومنابرها»[1]، وكان ظهر الكوفة الذي هو النجف كما اصطلح على ذلك الجغرافيون يدعى (خد العذراء)، لأنه ينبت الشيح والقيصوم والشقائق والخزامى والاقحوان وغيرها من نبات الأرض والبر والصحراء، الذي هو أقرب إلى طبيعة أرض النجف ومناخها فشبهت به، ولكون النجف ذات تربة طيبة ومناخ حسن وهواء نقي اتخذها الملوك منذ أقدم العصور متنزهاً لهم ومصيفاً، فقد اتخذ منها الساسانيون ثم المناذرة ثم العباسيون محل استراحة لهم واستجمام فبنوا فيها القصور الشامخة الضخمة، منها قصر الخورنق والسدير المشهوران، ومنها قصر أبي الخصيب مرزوق بن ورقاء مولى المنصور، وكانوا يأتون إليه وقت الربيع وموقعه قرب السدير يشرف على النجف، وكان إلى جانبه ديارات للنصارى، وكان هناك قصر آخر، يعرف بـ (الأبيض)، يقال أنه أحد أبنية الخليفة هارون الرشيد، ويظهر أنه واسع المساحة يرتبط من جهة بالحيرة، ومن الجهة الأخرى بالكوفة، وقد قال فيه بعض شعراء الكوفة:

يا دار غيّر رسمها ... مرّ الشمال مع الجنوبِ
بين الخورنق والسدير ... فبطن قصر أبي الخصيبِ
فالدير فالنجف الأشم ... خيار أرباب الصليبِ[2]

قلنا: إن الكوفة والنجف كانتا تؤلفان بلداً واحداً، فمدرسة النجف في اللغة والنحو في العصور المتأخرة-إن صحّ افتراض وجود مدرسة نجفية في اللغة والنحو-هي مدرسة الكوفة القديمة المشهورة في اللغة والنحو العربي، التي إحدى مدرستي العلوم اللغوية التأسيسية في العراق، بل في النحو العربي كله، هما مدرستا الكوفة والبصرة المشهورتان.

والشخص الكوفي-في الوقت الحاضر-يقول (أنا نجفي) حينما يسأل في مكان آخر عن بلاد ينتسب إليه أو عن مدينته، ويفخر بهذا الانتساب ويكون معروفاً لدى الناس، لما للنجف من مكانة علمية ودينية وحضارية مرموقة، باعتبار الكوفة والنجف بلداً واحداً... لذلك كونت الكوفة الرئة التي تتنفس منها النجف وكونت الكوفة ومناظرها الطبيعية ونهر فراتها وشواطئها ورياضها ومياهها وزروعها وبساتينها جنة النجفيين وأماكن راحتهم، ومحطات سياحتهم، ففيها يتنزهون شهور السنة كلها، ويقضون فيها أسعد الأوقات وامتع الساعات بعدد أيام العمل وأيام الارهاق، وإليها تهفو نفوسهم كلما سنحت فرصة أو دعا للذهاب إليها داع منهم فيقيمون فيها ليالي وأياماً، وعلى شواطئ نهرها العريض يسرحون، ويمتعون النظر ويريحون الجسد، ويجددون فيها نشاط الفكر، ويأكلون ويشربون وعلى شاطئ نهرها كثيراً ما يفطرون في رمضان، وعلى شواطئه وفي مائها العذب المتسلسل الرقراق يقولون الشعراء ويتناظرون ويصفون ويطنبون، لذلك وجدنا في الأدب النجفي المعاصر ذكراً كثيراً للكوفة وأيامها، ووصفاً ممتعاً لنهرها وبساتينها ونواعيرها. حتى عرفت بعض قصائدهم باسم (المائيات) تلك التي ينظمونها على شط الكوفة وعند مياهها، تحتوي على ذكر الماء وألوانه ولذة العوم به، أو عندما يأخذ أحدهم على الآخر أن يعّين له قافية ووزناً وموضوعاً فيطلب منه أن ينظم حوله بيتاً من الشعر وهو تحت الماء ولا يخرج منه الأنظمة وينشده حال خروجه منه، فإذا تعسر عليه ذلك خسر الرهان، الذي هو في أغالب قدح شاي حار ممتع أو أكلة شهية، وقد وجدت كثيراً من هذا النوع في الأدب النجفي، وهو أقرب إلى المسابقات في الشعر والمساجلات في مياه الكوفة ومناظرها وأجوائها وبساتينها، وأيام أقامتهم فيها، والساعات الممتعة التي قضوها، لجماعات كثرة وعدد كبير من أدباء النجف، نذكر منهم على سبيل المثال الجماعة التي ضمت يوماً ما في الكوفة من شعراء النجف: الشيخ جواد الشبيبي، والشيخ هادي آل كاشف الغطاء، والسيد علي العلاق، والشيخ عبد الحسين الجواهري، والشيخ عبد الحسين الحلي، والسيد رضا الاصفهاني وغيرهم.... وكان هذا النوع من الأدب النجفي في الكوفة وأجوائها يمتاز من غيره بكثير من الظرف والفكاهة وحسن النظم وسلاسة التعبير ورقة الخيال وطرافة المعاني وجمال الصورة، وصدق الوجدان، ولم يكن هذا النوع من الأدب يختص بالشعر النجفي وحده، إنما بنثرها أيضاً، فقد وصف شعراء النجف في كتاباتهم ورسائلهم الكثير من طبيعة الكوفة من ماء وهواء وأنواء وأجواء، وطيور وأزهار وبساتين وفواكه، لاسيما بعد أن يمر زمن على جلساتهم فيها، وتنقضي أيام الانس فيها فيحنون إليها، وتبقى ذكرتها عالقة في نفوسهم واذهانهم حية ممتعة، فيهفون إليها ويتطلعون لأمثالها، فإن استطاعوا وحققوا فذلك غاية المنى وإن سارت فيهم عجلة الزمن وتفرقت جموعهم، وحالت بينهم الأيام والمشاغل دون ذلك، رجعوا إلى ذكرياتها، وحنوا إلى أيامها وتراسلوا شعراً أو نثراً حول لذيذ متعها، ومن ذلك-مثلا-ما جاء في إحدى رسائل الشيخ جواد الشبيبي (ت عام ١٩٤٤م) لصديقه الشيخ هادي آل كاشف الغطاء يذكر فيها ليلة من ليالي الأدب ومجالسه في الكوفة، ولسفرة نهرية قاموا بها في شط الكوفة قبل زمان عاموا فيها على وجه الشط بسفينة شراعية، جاء فيها قوله:

«وبعد: فهل بلغك إن ليلتنا بالجسر (ويقصد جسر الكوفة أو الكوفة نفسها كما كان يسميها النجفيون حينذاك)، أذكرتنا أيام الجزيرة الخضراء (ويقصد بها جزرة في وسط شط الكوفة كانوا يعبرون إليها أو يقيمون فيها) وجلوسنا تحت شعاع القمر،.. وفي صبيحتها حللنا زورقاً جرى من الفرات على مثل

(١) المصدر نفسه ١/ص٨.
(٢) المصدر نفسه ١/ص١٠.

لجة بذلك، وخفقت عليه ذؤابة شراع أوهمتنا أنها مقتطفة من فضل علمك، حتى أوصلتنا جدول الفرات إلى بحر لو قذف اللؤلؤ فيه وكان عذباً لخلته بحر حلمك المتلاطم...»[١]

هذا الوصف الوجداني يدل على تعلق نفوسهم بالكوفة وذكرياتها التي طبعت أيام الكوفة وطبيعتها ومياهها وفراتها وخضرتها ونخيلها في نفس هذا الأديب النجفي ولدى غيره من أدباء النجف، حتى كونت رافداً مهما من روافد التراث النجفي المعاصر...

ولكن الشيخ الشبيبي لم يسطر ذكرياته وخواطره نثراً فحسب، إنما ظل يلهج بها شعراً، ويذكر الكوفة وأيامها ومفاتن جمال الطبيعة فيها ن أشجار وكروم وخرير الجداول وأصوات النواعير وهدير الموج وهو جالس تحت ظلال النخيل وعثاكيل التمر المتهدلة،... ومن ذلك وصفه لمنظر بقي في ذهنه لواحدة من سفراته إلى الكوفة وإقامته فيها، حتى ضمنها في قصيدة طويلة، بعث بها إلى صديقه الشيخ عبد الحسين الحلي، الذي كان قد شاركه تلك الأيام الزاهية الخوالي ومباهجها، وإلى شلة الأنس التي كان عقدها منضوماً أيام ذاك، وكان الشيخ الشبيبي بعد قد سكن في بغداد.... قال في مطلعها:

ميلوا إلى الوصل يا أهل الوفا ميلوا
فالقطع منكم بدا والحبل موصولُ

وبعده بأبيات يعرج على الذكريات فيقول:

أهل الفرات أهل يرضى ضميركم الـ
ـعاني الرسوم به أن يقرن النيلُ
تحيّر الفكر هل كانت زوارقه
أجرى وأثبت من تلك الأساطير
وفي المنافي بيوت بين ساكنها
للركب حلّوا إلى التدريس أو ميلوا
في كل يوم لهم عيد وعادتهم
إن تنحر الخيل والكوم المراسيل

والوجوه التي ضمّها ذلك الجمع من الأحبة أيامئذ فيقول:

وللكروم وراء القصر مثمرة
عفص الجمود وللأعشاب ترحيل
والورق تهدل في الأغصان ساجعة
وللعناقيد في الأوراق تهديل
وفتية كسيوف الهند جوهرها
على المضامين قبل الطبع مجهول
لا تمسك المال أيديهم لجودهم
إلاّ كما تمسك الماء الغرابيل
إن فاكهوا فرزين الحلم تحملـه
إخلافهم، وهو باللذات مشغول
أصولهم شبتات إن دوحهم
له من المجد تفريع وتأصيل
غذاء روحي غذوا والنفس ليس لها
إلاّ الفكاهة مشروب ومأكول
مباني الجسر ناجيني على بعد
فالقلب عندك رهن الحب متبول
هل السواقي على عهدي مناهلها
فبعضها مغمد والبعض مسلول
وهل عرائش ذاك النخل مرسلة
على ترائبها تلك العثاكيل
أحبابنا بالحمى إن ضن وابله
عليكم فركام الدمع مبذول[٢]

لكن ضن الشيخ الشبيبي إلى الكوفة لا ينقطع، إذ هو تترى عليه الأنباء بأن الشلل التي عهدها ما تزال الكوفة وبساتينها وشواطئها وإن مجالس الأصحاب فيها عامرة بجلاسها، فيهيج به الحنين إليها والشوق إليها ولمرابعها مرة أخرى، فيكتب لهم متلهفاً عليهم، ويخبرهم إن سلوانهم وسلوان مجالسهم عاد من المستحيل عليه، وإن فراقه الاضطراري لهم هو فراق الروح للجسد، ثم يعاتبهم على نسيانهم له، وقد كان هو أُنس مجالسها وقطب رحاها ومركز دائرتها وزينة شبانها، لنسمعه في هذا الجزء من قصيدة أخرى يقول:

تناسيتم عهد الإخاء كأنما ... يسير حثيثاً في ممائكم الهجرُ
وجدتم سبيل الهجر سهلاً وإنه ... عليَّ إذا ما رمت أسلكه وعرُ
ولولاكم لم يملك الشعر مقودي ... وإني من يلقي له المقود الشعر[٣]

كما أنبرى الشيخ جواد الشبيبي في وصف مرابع الكوفة وجمال الفرات فيها في قصائد كثيرة، مما ينم عن تعلق شديد بتلك المغاني، وحنين كبير إلى أيامها وانسجام مع أخبارها، ولكن بأسلوب يغلب عليه طابع الجزالة، ومفردات البداوة ومعانيها وقوتها وألفاظها، يزجها في بعض قصائده عندما يعصف به الشوق وتأخذه الذكريات، وحين تهفو إليه نفسه، حين تقول في واحدة منها:

خذوا أثر المرتاد فالمربع النضرُ
بحيث الحيا الهتان سبله الجسرُ
وميلوا عن الحي الحلال فدونه
شفار المواضي والردينية السمرُ

(١) الشبيبي الكبير - حمود الحمادي - ص٢٠٨ مطبعة النعمان النجف ١٩٧٢.

(٢) الشبيبي الكبير/ص٣١٣، شعراء الغري ٣٨٤/١.

(٣) الشبيبي الكبير ٣١٥.

سقى الغيث ربعاً كنت نشر شميمه
ولا لف إلاّ عن عوارضك النشر
وغادي الندى نور الجزيرة مونقاً
يشبّ بقلبي جمرة اللاعج الذكر
وظلاً تفيأناه فليته
يعود علينا بالصفا ذلك العصر[1]

كما وصف الكوفة وأيامها ومجالسها والخيام التي يضربها النجفيون على شاطئ نهر الكوفة شعراء كثيرون، منها مثلاً وصف الشاعر الشيخ محسن الخضري لخيمة ضربها أحد وجهاء النجف على ساحل نهر الكوفة وهي طريفة يمكن مراجعتها في ديوانه[2].

وقد كان لوسائل النقل التي ينتقل بها النجفيون من النجف إلى الكوفة في ذهابهم وإيابهم نصيب من ذلك الوصف والشعر النجفي، وما في تلك الوسائل وفي التنقل من متعة، مما فيها من أعجاب ويصدرون عنها من خيال حين يشقون البر-في ذلك الوقت- بين المدينتين في السياحات الباكرة عند الذهاب، او في ساعات الغروب الساحرة عند الإياب، وهم يتابعون مناظر الطبيعة الفاتنة ومتغيراتها، والشمس ومسارها، والأرض ومرتفعاتها وانحداراتها وسهولها ووديانها وخضرائها وجردائها، هم على ظهور الدواب أو راجلين، أو يمتطون العربات التي كانت تدفع باليد، أو تجرها الحيوانات أو وصف عربة السكة الحديد....

فهذا الشيخ جواد الشبيبي يصف سكة الحديد أو ما كانت تسمى (عربة الترام)- أو الترامواي) التي كانت توصل بين النجف والكوفة والتي كانت الحكومة العثمانية قد أنشأتها بينهما سنة ١٩٠٧م، وهي شركة حكومية- أهلية أو ما تسمى اليوم بالشركات (المختلطة)[3]، وهي عربات تسير على السكة الحديد وتجرها الخيول، والتي بقيت تنقل الناس بين البلدتين حتى عام ١٩٤٥م الذي ألغيت فيه بعد دخول السيارات إلى العراق، والتي لم يكن في العراق كله واسطة نقل مثلها غير سكة الحديد التي كانت تسير بين بغداد والكاظمية، والتي أنشأها الوالي مدحت باشا عندما كان والياً على العراق بين سنتي ١٨٦٩-١٨٧٢م، وقد كانت الواسطة وسيلة متطورة للنقل في وقتها أوآخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حيث كانت وسائل النقل الأساسية حينذاك هي بواسطة الحيوانات من الحمير والبغال وبعض الدواب وبعربات اليد، حيث كانت السيارات لم تدخل بعد إلى العراق... لذلك وصف الشيخ الشبيبي بانبهار شديد حين ركبها أول مرة بين النجف إلى الكوفة، في قصيدة طريفة يغلب عليها طابع التورية والصورة والخيال ومما جاء فيها:

ما بين غاية مسراها ومبدئه
إلاّ بمقدار قول السائق اندفعي
تحملت وهي حبلى في ثمانية
صجاً فقيل لها قبل الغروب ضعي[4]

لأن السفر بين الكوفة والنجف في ذلك الوقت كان يستغرق نهاراً كاملاً أو تسع ساعات على الأقل بينما المسافة بين المدينتين لا تزيد عن ثمانية كيلو مترات تقطعها السيارة الآن في ربع ساعة، أما الوصول على الأقدام فكان يستغرق حوالي يوم ونصف يوم، لذلك جاءت هذه التورية في بيتي الشبيبي.....

وتمتلئ دواوين وشعراء النجف في عصر النهضة بشعر كثير في الكوفة وذكرها لأمجادها، وما فيها من تاريخ علمي وسياسي مجيد، وبما أنجبت من علماء وأدباء ومن كبار الشعراء، وليس من جديد القول إن نذكر إن (أبا الطيب المتنبي) أكبر شعراء العربية وشاعرها الخالد هو كوفي المولد والنشأة والهوى، فدواوين الجواهري وعلي الشرقي ومحمد رضا الشبيبي وأحمد الصافي تمتلئ بذكر الكوفة وأيامها، وللشعراء النجفيين الكثيرين الذين ترجم لهم المرحوم (علي الخاقاني) في سفره الشعري الضخم الموسوم (شعراء الغري) في أجزاءه الاثني عشر....

ولكننا هنا نكتفي برائعة من روائع الشعر النجفي في للشاعر النجفي الفذ الشيخ علي الشرقي (ت ١٩٦٤م)[5] الذي كثر ذكر الكوفة في ديوانه، ولا سيما في قصيدته بعنوان (صوت الكوفة) التي نظمها سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م بمناسبة المهرجان، والقصيدة فضلا عن أحيائها لذكرى شاعر من أكبر شعراء العربية، الذي انجبته الكوفة أيام زهوها العلمي وازدهارها الأدبي في القرن الرابع الهجري، وذكرت مواقفه الشجاعة وبطولاته، وفروسيته وحكمته الخالدة فإنها تتحدث أيضاً عن مجد الكوفة في هذه الرائعة النجفية، وعن منبر الكوفة العالي في العلم والأدب، وأيام تألقها الحضاري حين كانت البلدان تنهل من مواردها وترتشف من مناهلها وعلومها... حين يقول في قسم منها:

(١) الشبيبي الكبير ٣١١-٣١٢.

(٢) ديوان محسن الخضري (ت ١٨٨٤م) ص١٧٨. المطبعة العلمية-النجف ١٩٤٧.

(٣) مدينة النجف الكبرى- د.محسن عبد الصاحب المظفر/ص٣٢، دار الرشيد للنشر-بغداد ١٩٨٢.

(٤) أعيان الشيعة-السيد محسن الأمين ٢١٣/٧ دمشق ١٩٤٥.

(٥) ينظر: ترجمة الشيخ علي الشرقي وحياته وثقافته-في: (الشيخ علي الشرقي-حياته وأدبه) عبد الحسين مهدي عواد ص٢٦-٦٠ بغداد ١٩٨١.

حولية الكوفة

دورية سنوية محكّمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة
ومسجدها المعظم - تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقه به - العدد الأول ١٤٣٢هـ/٢٠١١م

المشرف العام

السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير

د. كامل سلمان الجبوري

الهيأة الاستشارية

العلامة الأستاذ الأول المتمرس الدكتور: محمد حسين الصغير

الأستاذ الدكتور: حسن عيسى الحكيم

الأستاذ الدكتور: محمد كريم ابراهيم الشمري

الأستاذ الدكتور: علاء حسين الرهيمي

الأستاذ الدكتور: صباح نوري المرزوك

الدكتور: صالح القريشي

سماحة العلامة السيد: علاء محمد تقي الحكيم

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

قواعد النشر:

- الأبحاث والدراسات المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- الالتزام بالمنهج العلمي لجهة موضوعية البحث ودقّة الاسناد.
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ينبغي أن تكون المقالات المرسلة إلى المجلة مكتوبة بخط واضح، أو مطبوعة على الحاسوب.
- يجري تقييم الأبحاث والدراسات إستناداً إلى المباديء الأكاديمية، وهي لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- يُرسِل الكاتب الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة موجزاً بسيرته العلمية وآثاره وعنوانه، لأغراض التعريف والتوثيق.

المراسلات توجه بإسم أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقه به - الشؤون الثقافية

033 217479 - 07901808998 - 07807793515
website: www.masjed-alkufa.net
E-mail:masjid_alkufa@yahoo.com

فهرس الموضوعات

الموضوع ---------- الصفحة

- كلمة العدد ---------- المشرف العام ٥
- حولية الكوفة بين التراث والمعاصرة ---------- رئيس التحرير ٧
- الكوفة الخضراء - شعر ---------- الأستاذ السيد حسن الأمين ١٠
- يا مطلع الشمس يا كوفان - شعر ---------- الأستاذ عبد الحسين حمد ١١
- الجواهر المصفوفة في فضائل الكوفة - شعر ---------- الأستاذ الدكتور حسين علي محفوظ ١٣
- الكوفة الغراء أرض الرسالات السماوية وعاصمة الخلافة الإسلامية ---- الأستاذ الدكتور محمد حسين علي الصغير ١٥
- مدينة الكوفة - منذ تأسيسها حتى نهاية العهد الأموي ---------- الدكتور كامل سلمان الجبوري ٢٩
- الكوفة رحلة في تاريخية الإسم ---------- الأستاذ معن حمدان علي ٤٨
- منطقة الكوفة - دراسة طبوغرافية مستندة إلى المصادر الأدبية ---------- الدّكتور صالح أحمد العلي ٥٠
- مصادر دراسة تاريخ الكوفة في القرون الإسلامية الأولى ---------- الدكتور صالح أحمد العلي ٦٦
- المؤلفات التاريخية عن الكوفة (حتى أوائل القرن الخامس الهجري) ------ الأستاذ الدّكتور محمد كريم إبراهيم الشمري ٧٨
- الكوفة في المصادر الجغرافية العربية ---------- الأستاذ الدّكتور بهجت كامل عبد اللطيف ٨٥
- التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة -دراسة في جغرافية المدن التّاريخية ---------- الأستاذ الدّكتور صباح محمود محمد ٩٥
- تأثير العوامل الجغرافية في تخطيط مدينة الكوفة ---------- الأستاذ المساعد الدّكتور وهاب فهد الياسري ١٠٠
- الكوفة في مرويات مؤرخي القرنين الرابع والخامس للهجرة -------- د.صباح كريم رياح الفتلاوي -أ.إيمان نصيف جاسم ١٠٣
- الكوفة في عيون الرحالة والمستشرقين ---------- الأستاذ رسول كاظم عبد السادة ١١٧
- الكوفة في الأدب النجفي المعاصر ---------- الأستاذ الدكتور محمد حسن علي مجيد الحلي ١٣٤
- تمصير الكوفة بين الإنسان والأرض ---------- الأستاذ الدكتور حسن عيسى الحكيم ١٤٠
- القبائل العربية في الكوفة ---------- الأستاذ كاظم محمد علي شكر ١٤٦
- استقرار قبيلة همدان في الكوفة حتى نهاية العصر الأموي--- الأستاذ الدكتور محمد كريم إبراهيم الشمري ١٤٩
- مسجد الكوفة في التاريخ ---------- الأستاذ الدكتور حسين أمين ١٥٤
- دار الإمارة في الكوفة ---------- الأستاذ طالب علي الشرقي ١٥٧

الموضوع ---------- الصفحة

- تجارة الكوفة بعد الغزو المغولي للعراق حتى القرن ٨هـ/١٤م ---- الأستاذة الدكتورة صباح إبراهيم الشيخلي ١٦٤
- النظام السياسي في الكوفة في عهد الإمام علي عليه السلام ---------- الدكتور جواد كاظم شايب ١٦٨
- قضاء الإمام علي في الكوفة وأبرز معطياته ---------- الأستاذ القاضي فاضل عباس الملا ١٨٧
- الحركة الفكرية في الكوفة في العهود الإسلامية الأولى ---------- الدكتور هادي حسين حمود ١٩٢
- الجذر الحضاري لإقليم الكوفة والسؤال الفلسفي العربي الإسلامي ---- الأستاذ الدكتور علي حسين الجابري ٢٠١
- تطور الدراسات الفقهية في الكوفة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين -----الأستاذ الدكتور صاحب محمد حسين نصّار ٢١١
- أضواء على تاريخ الحوزة العلمية في الكوفة منذ نشوئها وحتى القرن الرابع الهجري -----السيد مثنى محمد رضا الشرع ٢٢٠
- نشأة علم الكلام في الكوفة ---------- الأستاذ الدكتور نعمة محمد إبراهيم ٢٢٧
- مدرسة الكوفة النحوية... الرأي الآخر ---------- الأستاذ الدكتور نعمة رحيم العزاوي ٢٣٤
- سبق الكوفة في القراءة والإقراء ولمحات عن بعض قرائها ---------- العلامة الشيخ عبد الجبار الساعدي ٢٤٦
- الدرب السلطاني طريق الحج البري العراقي القديم المسمى (درب زبيدة) ----------الأستاذ محمد عبد الغني السعيدي ٢٥٤
- جانب من النشاط العلمي في الكوفة حتى نهاية القرن الثالث الهجري ----------الأستاذ الدكتور عبد الحسين الفتلي ٢٨٦
- الكوفة وأثرها في نشأة شعر الحكمة الزهدية ---------- الدكتور داود سلوم ٢٩٢
- رسم المصحف بالخط الكوفي في المنظور الأسلوبي ----------الأستاذ الدكتور مشكور كاظم العوادي ٢٩٥
- كتاب فضل الكوفة وفضل أهلها للعلوي الكوفي ---------- العلامة الشّيخ محمّد حسن آل ياسين ٣٠٥
- المختار الثقفي و قتلة الإمام الحسين عليه السلام ---------- السيد مثنى محمد رضا الشرع ٣١١
- من أعلام الكوفة : سليمان بن مهران الأعمش ---------- الأستاذ مهدي عبد الحسين النجم ٣٢٠
- من أعلام الكوفة : الهيثم بن عدي ---------- الأستاذ جاسم مهاوي حسين ٣٢٢
- أبو مخنف - لوط بن يحيى الأزدي الكوفي ---------- الدكتور كامل سلمان الجبوري ٣٣٢
- مؤرخ الكوفة ابن النجار الكوفي ----------الأستاذة نبيلة عبد المنعم داود ٣٤١
- أطباء الكوفة دراسة في التاريخ الطبي القديم ---------- الدكتور يحيى كاظم السلطاني ٣٤٦
- نشوء مدينة الكوفة الحديثة وتطورها حتى الحرب العالمية الأولى ---- الأستاذ الدكتور طارق نافع الحمداني ٣٧١
- الكوفة في عهد الاحتلال البريطاني ---------- الأستاذ الدكتور عماد الجواهري ٣٧٦
- إغراق الباخرة البريطانية في شط الكوفة خلال الثورة العراقية الكبرى عام ١٩٢٠ --- الدكتور حسين حمد عبد الله الصولاغ ٣٨٣
- التّحليل المكاني لنمو السّكان في مركز قضاء الكوفة وتوقعاته المستقبلية ---- أ.رنا عبد الحسن جاسم/أ.كفاح داخل عبيس ٣٨٧

كلمة العدد

المشرف العام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأتم الصلاة وأشرف التسليم على خاتم الأنبياء والمرسلين حبيب اله العالمين أبي القاسم محمد وعلى اله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

إلى كل من يقع نظره على (**حولية الكوفة**) أو يتناولها بيده الكريمة أقول.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبكل فخر واعتزاز نضع بين يديك أيها القاريء الكريم العدد الأول من (**حولية الكوفة**) المجلة البحثية المحكمة التي تعنى بتاريخ مدينة الكوفة ثاني أكبر حاضرة إسلامية أسست خارج الجزيرة العربية على أنقاض مدينة الحيرة التاريخية فكانت لها مقومات الحياة منذ أن وضعت أول لبنة فيها إنها مدينة الإمام علي عليه السلام وما أضفى عليها وجوده المبارك حيث أصبحت مركز إشعاع فكري وثقافي وعلمي ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ هذا وكان مسجد الكوفة المعظم نقطة انطلاق هذه العلوم والمعارف إذ جعل منه الإمام علي عليه السلام بعد ان اتخذه مقرا له أول جامعة إسلامية كبيرة انفتحت على علوم جمة كتعليم القران والتفسير وأنواع القراءات والكتابة والخط والنحو والفلسفة والعرفان والقضاء وحقوق الإنسان وغيرها كما أرسى الإمام سلام الله عليه أسس العدالة الاجتماعية في هذا الجامع المعظم ومنه خط أول دستور للدولة الإسلامية بعهده لمالك الاشتر حين ولاه أمر مصر وان توالي الإحداث التاريخية والتقلبات السياسية التي جرت على هذه المدينة ومسجدها الأعظم لاسيما في العهدين الأموي والعباسي وما أنجبته هذه المدينة من قادة وعلماء ومفكرين وشعراء كمالك الاشتر وسليمان بن صرد الخزاعي وميثم التمار ورشيد الهجري وسعيد بن جبير وأبي حنيفة النعمان بن ثابت وسفيان بن عيينة وأبي النضر محمد بن السائب الكلبي ونصر بن مزاحم المنقري ويعقوب بن اسحاق الكندي وأبي الأسود الدؤلي وجابر بن حيان الكوفي والمتنبي وغيرهم الكثير وفي مختلف المجالات جعلت منها محط أنظار الباحثين الذين أدركوا الأثر الذي تركته مدرسة الكوفة وعلماؤها على كافة الحواضر الإسلامية التي نشأت بعد ذلك وحسب اعتقادي فإننا بحاجة ماسة إلى الغوص في أعماق التراث الذي خلفته هذه المدينة ومسجدها الأعظم لنستخلص الدرر واللآلي لغرض الاستفادة منها علما ان هناك مادة خصبة للبحث لا تنضب لو تصدينا لها ولسنين طويلة ففي كل علم أو مضمار تجد للكوفة نصيبها الأوفر وهذا ما شجعنا حقيقة لتبني هذا المشروع الثقافي الكبير والمهم وهو (**حولية الكوفة**) وان أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به وإيمانا منها بأهمية المسجد المعظم ومكانته العلمية والثقافية وما ينبغي عليها ان تعمل لخدمة هذا المكان المقدس وفي هذا الجانب بالتحديد وضعت لها ومن اليوم الأول لتسلمنا المسؤولية

برنامجا ثقافيا متكاملا تم على أساسه إنشاء مكتبة عامة في المسجد المعظم وأصدرت المنشورات الأسبوعية ومجلة السفير وفتحت مركزا لعلوم القرآن تقام فيه دورات لتحفيظ القرآن والتلاوة على مدار السنة وإلقاء المحاضرات الثقافية الأسبوعية وأقامة المهرجانات الثقافية وإصدار الكتب التي تخص الكوفة ومسجدها المعظم وحضرة السفير مسلم بن عقيل عليه السلام وهانىء بن عروة والمختار الثقفي رضوان الله عليهما وهو جزء من الوفاء لهذه المدينة التي قال فيها الإمام علي عليه السلام: (الكوفة كنز الإيمان وجمجمة الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء، والذي نفسي بيده لينصرّن الله جلّ وعزّ بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام أنه قال: (تربة تحبنا ونحبها، اللهم ارم من رماها وعاد من عاداها).

وهنا نوجه الدعوة لكل العلماء والأدباء والأساتذة والباحثين والمثقفين في كل مكان للتواصل معنا إذ نحن بانتظار بحوثهم القيمة التي ستزيح بموضوعيتها ومهنيتها ووقوفها على الحقيقة أنواع الظلم الذي ما زال يلاحق هذه المدينة بما خطته الأيادي المأجورة من أراجيف تخدم بها الطبقة الحاكمة وما ذاك إلا لتمسكها بأئمة أهل البيت عليهم السلام ووقوف أهلها بوجه السلطة الحاكمة ورفضها ومقارعتها لكل أنواع الظلم وان الاهتمام المنشود في (**حولية الكوفة**) سيضمن لهذا العمل الاستمرار فيكون حلقة وصل بين الماضي التليد والمستقبل المشرق الذي نصبو إليه.

ولا أنسى أن أتقدم بالشكر والتقدير لكل من ساهم في انجاز هذا العمل الكبير لاسيما أستاذنا الدكتور كامل سلمان الجبوري الذي اخذ على عاتقه أداء هذا العمل الرائع وإهدائه إلى أمانة المسجد خدمة منه لهذا المكان المقدس ولسفير الحسين مسلم بن عقيل عليه السلام، وفق الله الجميع لما فيه رضاه سائلين المولى أن يتقبل عملنا وان يكتب له النجاح وان نكون مصداقا لقوله تعالى ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾.

السيد موسى تقي الخلخالي

حولية الكوفة

بين التراث والمعاصرة..

رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

أكتسب الحديث عن التراث أهمية بارزة، واستغرق الكلام عنه جزءاً من الحديث عن تأريخ الأمة، وبناء حضارتها، وتكوين وجودها، لما يحمله من تقويم لهذا الموروث، وعلاقته الأصلية بمجد هذه الأمة..

وقد بدأ هذا الاهتمام في مرحلة اليقظة الفكرية التي نشرت ظلها فوق ربوع هذه الأمة، وقد وجد المهتمون خصائص هذا التراث الأصلية تشمخ من خلال الركام الثقيل الذي تراكم عليه، ولمسوا زهوه المتعالي يطلّ من بين ثنايا أكداس المصائب والرزايا التي توالت عليه، واستشفّوا لمحاته البارقة تلمع تحت تلال الظلام الذي أحاط به من كل صوب، ولم تكن هذه الخصائص إلاّ ثمرة الفكر العربي الخلاّق.

ولم تكن تلك اللمحات الوهاجة إلاّ بوارق الذهن الحاذق الذي وجد في قيمه الأصيلة دروب الحياة السمحة، وعرف في تشريعاته الإنسانية معاني الخلود والوفاء. وإذا قُدّر لهذا الموروث الخير أن يتحمل ثقل أوزار الظلام والتخلف هذه الآماد، فلا يمكن أن يظل بعد هذا حبيس الكتب والأسفار، أو تخفي معالمه وراء أسوار الضياع والتشرد، لأن الأمة الحيّة لا يمكن أن تسكت وهي ترى فكرها رهين الأمر، والأمة المتطورة والمدركة لقيمة الحياة، والمستوعبة لدورها التأريخي لا يمكن أن تقف مكتوفة الأيدي وهي ترقب جذور مجدها، وأصول حضارتها غائرة في أعماق دائرة الضغط المفروضة عليها، وحصار الثقافة الذي أوقف تطلعها، وقطع عنه صلتها بالموروث الثقافي والحضاري الممتد.

لقد أدركت فئة خيرة من أبناء هذه الأمة حقيقة الحفاظ على التراث، فانصرفت إلى إعادته صفحة مشرقة من صفحات الحضارة الإسلامية، تحاول بكل ما تستطيع أن تمنحه السبق في الإحياء، والسرعة في الإخراج، ليكون بين أيدي الأجيال، يستشفّون من حقيقة إيمانه قدرتهم على الإضافة والخلق والإبداع، ويدركون من فيضه الزاخر حركتهم التأريخية الموجهة التي نهض بها آباؤهم خير نهوض، وقدّموا لها من أرواحهم وفكرهم ما جعلها قادرة على البقاء طوال هذه القرون العديدة.. أدركت هذه الفئة ما ينطوي عليه التراث من قيم أخلاقية كريمة، تصبح دروساً لكل جيل، وقيماً إنسانية رائعة تصلح لكل مجتمع متطوّر، وقيماً وطنية وقومية أصيلة تقوّم كل عقيدة.

وأدركت هذه الفئة ما يدخره التراث من نوازع نفسية صائبة، تتحقق من خلالها جلائل الدراسات النفسية والاجتماعية، ونوزاع عقلية حكيمة تنبثق من إشعاعها عظائم الدراسات الفلسفية والفكرية، واتجاهات علمية سليمة تساهم مساهمة جادة في كثير من حقول المعرفة.

والتراث العربي الإسلامي بمختلف أشكاله وأصوله، واتجاهاته وفروعه مستودع ثرّ لفضائل علمية زاخرة لم يترك فيها مجالاً إلاّ اقتحمه، ولم يجد زاوية من زوايا الحياة إلاّ ولجها بروح علمية مجربة، وفكر إنساني مجرد، وتجربة ميدانية صائبة، وقد ظلّت أحداثه قائمة عبر هذه القرون تشهد له بالأصالة، وترفض

كل شكل من أشكال الطمس الذي تعرض لها، وترفع عنه أردية التخلف، على الرغم من سُتُرها الثقيلة التي تعاورت عليه وحاولت إخفاءه..

* * *

وفي صخب الحياة المادية المعاصرة، وعلى وقع ضجيج الآلة العنيف، وبين هدير التيارات السياسية المتصارعة، أصيبت القيم الروحية الخالدة والمثل الإنسانية السامية بحالة مريرة من العزلة والانكماش، فلم تجد بداً من التوجه إلى حاملي رسالتها ورافعي مشعلها، طالبة منهم إنقاذها من حالها الحاضرة، والانتصار لها على كل أعدائها المتربصين.

وهذه القيم والمثل التي نعنيها لا تتمثل في مسائل الأخلاق بمعناها الساذج المعروف فحسب، بل هي - في واقعها- عبارة عن منهج واسع عميق، يشمل كل مسائل المعرفة وكل فروع العلم وكل جوانب الأدب، في الطب كما في الفقه، وفي الهندسة كما في الشعر، وفي الكيمياء كما في السياسة والاقتصاد.

وبذلك لن يكون الدفاع عن هذه القيم والمثل دفاعاً عن مثالية نظرية فحسب، بل هو دفاع شريف عن كل علم وعن كل فن وعن كل باب من أبواب المعرفة، ضد النوازع المتحللة من كل قيد، والدوافع المتحررة من كل التزام، الصروح القائمة على أسس من الشهوات الفردية والأنانيات الذاتية والمصالح الآنية.

ولن يكون غريباً -بعد ذلك- أن يتنادى المفكرون المخلصون على اختلاف اختصاصهم العلمي وميدانهم العملي، إلى ضرورة التعاون والتعاضد، للقيام بعمل فكري كبير -يشمل كل مجالات المعرفة- يؤمن بالقيم، ويقر بالمثل، ويعترف بها منهجاً أو أسلوباً وعقيدة في بناء الحياة.

* * *

ولعل من أبرز ما ينوء بها واقعنا الثقافي المعاصر، ظاهرة التدفق (الصحافي) العنيف، وانتشار المطبوعات على مختلف ألوانها وموضوعاتها بسرعة غريبة فائقة، لاسيما ما يفد إلى بلادنا بشكل غزو ثقافي منتشر، يحمل بين طياته الغث والسمين، والجيد والرديء، وفيه ما يتفق ورسالتنا الثقافية الواعية، وما يختلف عنها كل الاختلاف.

وعلى الرغم من كثرة ما تتداول الأيدي، ويغمر الأرصفة من مجلات وصحف ومطبوعات، لم تزل الشكوى من تفاهة أكثر تلك الدوريات وضحالتها، بل الدسّ الموجه في بعضها، ملحة وصارخة، تستنجد الرادة والقادة من أصحاب الرأي ومفكري الأمة وحملة الأقلام، أن يوفروا للفكر زاده الصحيح وللروح غذاءه القويم.

ومن هنا ينطلق الإحساس بضخامة هذه المسؤولية التي تقع على عواتق الذين يشعرون بالواجب الأدبي والعلمي، فيبدؤون في التخطيط برسم المشاريع الثقافية النيرة، التي يمكن بواسطتها تحقيق رسالة الفكر في الحياة، وتعميق العلاقة الجدلية بين التراث والفكر المعاصر، وتعتبر إصدار دورية غنيّة تعنى بالدراسات والبحوث التراثية بمخطوطاتها ورؤاها القديمة، وتتخصص بها ضرورة لا بدّ منها، للدفاع عن شخصية المواطن الحديث، وحماية أصالته من التبعية والاهتزاز.

كما أن إحياء التراث لا يساعد على التعصب والانغلاق في وجه التيارات الحديثة، وإنما هو كما نفهمه دعوة للتآخي بين الشعوب ونوافذ مفتوحة تغري المفكرين في الشرق والغرب لارتياد آفاقنا، لتتلاقح العقول وتحتّك المشارب.. ولعله لهذا السبب يصبح دعامة من دعائم إقامة السلم إذا أُجيد عرضه، وهُذّب من شوائبه وأدرانه..

* * *

وفي كل حقبة مرّ بها الإنسان تبدو فيه للتأريخ وقفة، وللحضارة قصة، قصة المدينة التي نحن بصددها اليوم، هي سيرة الحضارة في شموخها وعظمتها، في توهجها وازدهارها، وفي معاناتها وانكسارها، وفي صمودها واستمرارها. فعلى مقربة من أكثر المراكز الحضارية عمقاً وأثراً في التأريخ نشأت مدينة الكوفة

وتمصّرت، ليس بعيداً عنها بابل حمورابي صاحب القوانين، الشرعة المعروفة باسمه، وبجنبها مملكة الحيرة العربية التي كانت قبلة الشعراء العرب قبل الإسلام.

إنها جمجمة العرب، ورمح الله، وكنز الإيمان، قبة الإسلام، والمصر الأعظم، والعراق الأول، ودار هجرة المسلمين، بلدة طيبة ما أطيبها، وأطيب تأريخها، الحافل بالمآثر والمكارم، وأرض طاهرة، ربّت أرباب العقول النيّرة، وخرّجت رجال العلم الأبطال، أحبّ الله من أحبّها، وأبغض من أبغضها، ما أتاها جبار عنيد يريد بها سوءً إلاّ وقصم الله ظهره.

عظيمة ما أعظمها، وما أجلّ تأريخها المعبّر عما أبقته لنا من آثار أدبية وعلمية، لا يمكن أن تتناسها الأذهان، أو تندرس بتعاقب الأزمان، لأنها مقر قيادة الإسلام العامة، في زمان كان يقفز بأجنحته ليحلق على العالم بهدايته، ويقضي على عناصر الكفر، ويكتسح طواغيت الشرك، وجبابرة الإلحاد، يوم كان يناطح الممالك العظيمة، فرحبّت به دون غيرها، ورغبت أن تكون محل قيادته، وموضع رسالته وانطلاقه.

ونعم تأريخها الذي كان يوحي لنا كل يوم إيحاءً فكرياً، يدعونا للعمل نحو إعادة ذلك المجد، وما أروع صفحاته التي توحي للعمل بإخلاص، لاستعادة الماضي التليد بالمستقبل الجديد، وما أسطع أسطره الذهبية التي ملؤها الجهاد للحّر، والدماء البريئة التي انسكبت على ترابها المجيد، وسالت على رحابها الطاهرة، وما أجلى مضامينه الدالّة على أهميتها وفضلها وشرفها، إذ ما تعدّ الكوفة قط إلاّ وتعدّ بجانبها مفاهيم متعددة، فكوفة الجند، وكوفة القبائل، وكوفة الآداب، وكوفة السياسة، وكوفة العلم، وكوفة الإصلاح، وكوفة الفلسفة، وكوفة الرجال،...الخ.

ولا نتناسى إذا ما ذكرت الكوفة قرنت بأدبها الزاخر، وعلومها العظيمة في كافة الميادين والمجالات، ما ذكرت الكوفة إلاّ وقرنت برجالها الأفذاذ الذي صنعوا تأريخها، ورفعوا مجدها وكيانها، وسعوا لإعادته من جديد، وإعادتها عاصمة الإسلام من شتى الجوانب... وما دامت رسالة الكوفة المقدسة والحديث عنها هنا كحاضرة تأريخية ودينية وفكرية من حواضر العالم العربي الإسلامي، لها خصوصياتها وامتيازاتها وليس كإطار جغرافي أو إقليمي، أو ارتباط قومي أو طائفي أو سياسي، في جوهرها تمثل رسالة كل حضارة حقّة.

كانت الحاجة إلى إصدار مجلة رائدة شجاعة، سنوية موسوعية وثائقية مصوّرة، تعرّف وتكشف بعض الجوانب الحضارية والفكرية والسياسية، وتسلّط الضوء على كثير من الزوايا والخزائن الثرّة من العمق التأريخي المتوارث لم تَرَ النور بعد، لهذه الحاضرة الثقافية، وما اصطنعت به للإنسانية، تستطيع التعبير بقوى متكافئة عن الكلمة والرمز والمعادلة، والشكل والمصطلح بشكل سليم وبناء، من خلال بحوث رضية، ودراسات معمقة، تراثية ومعاصرة، دبجتها ثلة خيرّة من الباحثين والدارسين المختصين.

وكلنا أمل على أن (**حولية الكوفة**) ستكون خطوة متواضعة في هذه المسيرة الشاقّة الطويلة، تحاول أن تتلمس طريقها السوي بتريث وتؤدّة، كي تستطيع النهوض بهذه الرسالة، وهي جديرة بها، وقادرة على أن توفّر أسباب الالتحام بين أمجاد الأصول وحضارة الفروع، لتقدم للباحثين والمتتبعين ما يجب أن يقدم سليماً من الشوائب، نقياً من الأدران، بعيداً عن الشبهات.

و(**حولية الكوفة**) سعيدة بتوجيه الدعوة إلى ذوي الخبرة والاختصاص من العلماء والأدباء والمحققين والفنانين، للتعاون معها على تنسيق الخطط ورسم المناهج، لتكون بحق مشاركة بارعة في مضامير المعرفة، تحقيقاً للانسجام بين موجبات الفكر وموجبات الحياة..

كما ترى من خطتها فتح آفاقها الرحيبة لكل بحث علمي سديد، وعمل أدبي جيّد، ونقد منهجي قويم، وملاحظة مخلصة نافعة.

تلك أهدافنا، وهذا طريقنا.

والله حسبنا، ومنه نستمد التوفيق، إنه نعم المولى ونعم النصير

كامل سلمان الجبوري

الكوفة الخضراء

- شـــعر -

الأستاذ السيد حسن الأمين

حـب يظـل علـى المـدى متجـددا ... وهـوى يعـود بـه الوفـاء كمـا بـدا
هـذا العـراق ومـا رأيـت كمجـده ... أبقـى علـى مـرّ الزمـان وأخلـدا
سـل فـي البيـان العبقـري أمثلـه ... مـن رتّـل الآيـات فيـه وجـوّدا؟
والكوفـة الخـضراء ألمـح وجههـا ... عبـر الزمـان نـضارة وتـوردا
فـي كـل زاويـة تريـك حـضارة ... وبكـل ركـن ثـم تبـصر معهـدا
رعـت البيـان فـضيلة ومحبـة ... وحوتـه حـين حوتـه فـي الدنيا هـدى
يـا كوفـة الجنـد اسـتطالت عـزة ... وشـأت طريفـاً فـي الحيـاة ومتلـدا
جـددت سـالفة المنـابر شـاعراً ... فـذّ القـريض ونـاثراً متفـردا
مـن قبتيـك ومـن منـارات العلـى ... شـيعت علـى الكـون الهدايـة فاهتـدى
حييـت أرضـك مهطعـاً لجلالهـا ... ولثمـت تربـك خاشـعاً متعبـدا
متخـيلاً نـور (الإمـام) ووجهـه ... جلـى بمـشرقه الـضلالة بـددا
أعلـى ميـادين الكفـاح بطولـة ... وأنـار داجيـة الظـلام تهجـدا
أرنـو إلـى الأطـلال عـلّ بهـا سـنا ... مـن نـور عزتـه وعـلّ بهـا صـدى
إنـي لأسـتوحي الطلـول فخارهـا ... شـرف الكتـاب ومجـده والـسؤددا
والألمعيـون اسـتفاض حـديثهم ... بحـراً تـدفّق بالمعـارف مزبـدا
متحلقـين علـى الحقيقـة مـا رأوا ... فـي دهـرهم إلاّ الحقيقـة مقـصدا
ذكـرى (علـي) فـي رحابـك غـضة ... وسـبيل نهجـك لا يـزال موطـدا
أبنـي أبينـا فـي الفـرات ودجلـة ... الألمعيـين الحمـاة الـذوّدا
الطـالعين علـى العـدو مهابـة ... وعلـى الـصديق محبـة وتـوددا
مـن سـفح (عامـل) مـن شـوامخ هـضبة ... مـن أرز لبنـان نمـدُّ لكـم يـدا

يا مطلع الشمس يا كوفان

- شـــعر -

الأستاذ عبد الحسين حمد

لِخَوْلَـةٍ طَلَـلٌ فـي هـضْبَةِ النَّجـفِ ... يلوحُ مثل قديمِ الخـطِّ فـي الـصُحُفِ
أهاجَ بيْ ذكرياتِ الأمسِ طـافَ بهـا ... قلبٌ إلـى الآنَ محمـولٌ علـى شَـغَفِ
لـم يَـسْلُ خولـةَ فيهـا كـلُّ جاذبـةٍ ... وفيـه منهـا غـرامٌ غيـرُ مُنـصرفِ
تقاسَـمَتْهُ بوصـلٍ لـجَّ فـي مُتَـعٍ ... آنـاً وآنـاً بـصدٍّ لـجَّ فـي صَـلَفِ
فكنتُ منها علـى حـالَيْنِ مـا اجتمعـا ... حالِ الوصالِ وحـالِ المـانعِ الجَنـفِ
مـررتُ بعـد عهـودٍ فـي مرابعهـا ... وأدمعـي بـينَ مُنْهَـلٍّ ومُنْـذَرِفِ
فـلاحَ لـي مبـسمٌ يفتَـرُّ عـن شَـنبٍ ... فيهـا، ورائـقُ قـدٍّ مـاسَ فـي هَيَـفِ
فهاهنـا للعيـونِ النُّجْـلِ سِـفْرُ هـوًى ... وللجفـونِ أحاديـثٌ عـنِ الـشَّعَفِ
وهاهنـا بُرْقـةٌ لاحـتْ بثَهْمَـدِها ... وَشْماً على الكفِّ أو نقشاً علـى الرَّخَـفِ
هـذي هنـا برقـةٌ كوفـانُ موئلُهـا ... فـيمِّمَنْ شَـطْرَها الموشـومَ بـالخُنُفِ
ونـاجِ رَملَتهـا الحمـراءَ فـي ألـقٍ ... ونـاغِ تُربتَهـا المعطـارَ بـالغَلَفِ
وَعُجْ علـى حومـلِ الـضلِّيلِ أغطَـشَهُ ... مَهيـلُ رمـلٍ تغَـشَّاهُ بِمُنعطَـفِ
عَـرِّجْ عليـه ونادمـهُ بدامعـةٍ ... وألـقِ فيـه عـصا التَّرحـالِ ثـمَّ قِـفِ
يا سـافحَ الـدَّمعِ فـي نجـدٍ وحومِلـهِ ... هذي هنا حومـلٌ فـي ربـوةِ النَّجـفِ
يا مطلعَ الشَّمسِ يا كوفانُ ما طَلَعَـتْ ... منْ أفقِ غيرِكِ شمسُ المجـدِ والـشَّرفِ
تمنَّـتِ اللامعـاتُ الغُـرُّ لـو صـعدتْ ... إلى سماكِ وعافـتْ شـاهقَ الـشَّرفِ
فأنـتِ وارثـةٌ عِـزَّ الأُلـى دلفـوا ... طوباكِ من خَلَفٍ طـرْفٍ إلـى سَـلَفِ
فكـمْ رَفعـتِ علـى الهامـاتِ شـاهقةً ... وكمْ حَملتِ صروحَ الزَّهوِ فـي كَتِـفِ
شـيدَ الخَوَرْنَـقُ تيّاهـاً علـى جُـرُفٍ ... (فالبحرُ منْ طرفٍ والبرُّ مـنْ طـرفِ)
وحَـلَّ فيـه أخـو ذبيـانَ رائعـةً ... منَ البيانِ محـلَّ الـدُّرِّ فـي الـصَّدَفِ

يشدو بأبهائه ما راقَ من نغمٍ ... كالعندليبِ لدى الأيكاتِ والسعفِ
وفي عكاظَ لهُ رأيٌ ومَشْوَرَةٌ ... إذا تبارتْ ملاحُ الخودِ بالرَّهفِ
سلْ كوفةَ المجدِ كَمْ نجمٍ بأدؤرها ... وكمْ عليمٍ سما في أفقها حَصفِ
وكم لصادقِ آل البيتِ من تُحفٍ ... لمّا تُفَقْ بصفايا الغُنْمِ والتُّحَفِ
وكم أديبٍ يودُّ النجمُ موقعَهُ ... كأنّهُ البدرُ في لجٍّ من السَّدفِ
أبا محسَّدَ هل في ذاكَ من ريبٍ ... أم أنت أغمضُ من لغزٍ لمكتشفِ؟
تنامُ عن شاراتِ الشعرِ حائمةً ... على جفونكَ آراماً على جُرُفِ
يا كوفةَ المجدِ ما شانتكِ شائبةٌ ... سوى غزاةٍ من الأجلافِ والجِيَفِ
مرّوا عليكِ ودالوا في مآثمهم ... وأنتِ أعصى على باغٍ ومعتسفِ
مرّوا عليكِ وما فيهم سوى شنفٍ ... وآلموكِ وما فيهم سوى حُيُفِ
وما عجبتُ فما في جمعهمْ أحدٌ ... يُعزى إلى نسبٍ خِلْوٍ منَ الكَلَفِ
فكانَ ما كان ممّا لستَ تجهلُهُ ... وسالَ ما سالَ من قانٍ ومنْ رشفِ
فَضُمِّخَتْ منكِ ذرّاتٌ مقدّسةٌ ... حتّى شذَتْ بنقيِّ النَّزفِ والنُّزَفِ
وخيّمت فوقكِ الأطوادُ شامخةً ... من القبابِ وأطنابٍ من القَعَفِ
منَ الطفوف إلى كوفانَ ما برحتْ ... شُمّاً شواهقُ من تبرٍ ومن خزفِ
فها هناك على أرض الطفوف سمتْ ... حيث السهى باذخاتُ العزّ والشرفِ
وهاهنا مسلمٌ مسّتْ سوامقُهُ ... هامَ النجومِ وشقّت غيهبَ الكُلَفِ
يا صاحبَ القبّةِ الزّهراءِ معذرةً ... لقد أتيتُ على مهلٍ ولم أزفِ
أردتكَ المسك في هذا الختام وما ... إلّا عليّاً لهذا القصد من هدفِ
ما كنت أنساك حتى ينتهي عمري ... قلبٌ تناساك لم يخفقْ ولم يجفِ
طلّقتَ دنياكَ لا ترجو نوافلها ... وملءُ كفّيكَ كانت روقةَ الغَطَفِ
عنّفتَ إبنَ حنيفٍ أنّ مأدبةً ... قد نال منها، فيا لله من عُنُفِ!
فما لكوفانَ لولا أن تشرّفها ... -أبا الحسين- سوى ضربٍ من الصُّفَفِ
ما كان غارُ حراءٍ -وهو من حجرٍ- ... لولا النبيُّ سوى الأحجارِ والكَنَفِ

الجواهر المصفوفة في فضائل الكوفة

- شـــعر -

الأستاذ الدكتور حسين علي محفوظ

الكوفـــة الروحـــاء مـــا أدراكـــا ... هـــا هـــي قـــد طالـــت الأفلاكـــا
الكوفـــة الـــشماء بنـــد العـــسكر ... عريسة الليـث الهـصور القـسور
وكوفـة الجنـد المـساعير الـربط ... معرس الحمـس المغـاوير الفـرط
مربـــع أهـــل البيـــت والقرابـــه ... والـــصفوة الغـــر مـــن الـــصحابه
البلـــدة المريئـــة المريعـــه ... المـــشرب البـــارد والـــشريعه
منتجـــع غـــض ومـــاء عـــذب ... مرتبـــع رطـــب وعـــيش خـــصب
كأنمـــا نـــسيمها العبيـــر ... كأنمـــا رضراضـــها الكـــافور
المـاء يـأتي الأرض عفـواً صـفوا ... ويجعـل المرعـى غثـاء أحـوى
كنـــز الإيمـــان حجـــة الإســـلام ... قلـــة كـــل بهمـــة مقـــدام
جمجمـــة العـــرب ســـيف الله ... ليس له في الطعـن مـن مـضاهي
ورمحـــه يـــضعه حيـــث يـــشا ... ويفعـــل الله العزيـــز مـــا يـــشا
وقبـــة الإســـلام دار حيـــدر ... مـــأوى ولـــي الله ســـاقي الكـــوثر
ينتـــصر الله بأهلهـــا الغـــرر ... فهـم مـوالي حيـدر خيـر البـشر
وأهلهـــا الخيـــار أهـــل الله ... بهـــم ملائـــك الـــسما تبـــاهي
إيـــوان ديـــن الله يـــسبكرّ ... وقبـــة الإيمـــان تـــشمخرّ
يحـــن كـــل مـــسلم إليهـــا ... يفـــد كـــل مـــؤمن عليهـــا
رابعـــة المـــساجد المعظمـــه ... فـــوح شـــميم مكـــة المكرمـــه
ودار هجـــرة الوصـــي حيـــدر ... وبيتـــه المنـــور المطهـــر
مثـواه بعـد يثـرب المحبوبـه ... خيـرة الـبلاد بعـد طيبـه
أحـــب بقعـــة إلـــى النبـــي ... روضـــة حيـــدر، ثـــوى علـــي
ومـسجد الكوفـة فـي المـساجد ... مـن أرفـع البيـوت والمعابـد

ما مسجد أبين فضلاً منه ... قل ما تشا فيه، وحدث عنه
في مسجد الكوفة صلى الأنبيا ... ألف نبي وكذاك الأوصيا
فيه عصا موسى وتلك آية ... وهي لعمري غاية النهاية
وعنده الشجرة اليقطين ... والحق والإيمان واليقين
وفار في الزاوية التنور ... وسجرت في أرضه البحور
يغوث فيه ويعوق هلكا ... يزاحم الفلك فيه الفلكا
وفيه بورك مصلى نوح ... مسرة النفس وروح الروح
وشيخ آل الله إبراهيمُ ... كان به مؤوباً يقيمُ
يحشر من رحبه المطهره ... سبعون ألفاً شهداء بره
ليس على المؤمن من حساب ... في لوحه المحفوظ والكتاب
وروضة وسطه وجنه ... عالية روحاء مطمئنه
وانفجرت فيه ثلاث أعين ... كالمزن في اليوم المطير تهتن
يطهر الله بها تطهيرا ... يتبر الله بها تتبيرا
محرابه يطاول الضراحا ... رحبه تروح الأرواحا
مسجده مرحب محرم ... مشهده مبجل معظم
بوركت الكوفة ست الأمكنه ... بفوح ذكرها تطيب الأزمنه
(يا حبذا مقالنا بالكوفه) ... (أرض سواء سهلة معروفه)
سلسالها عذب فرات كوثر ... ختامه مسك وند عنبر
وروضها المئناف عدن أخرى ... تأريخ طيبا وتضوع عطرا
وهذه العبقة من شميمها ... وهذه الخرزة من تطيمها
وهذه النفخة من أنفاسها ... وهذه الآسة من غراسها
والحمد لله على النعماء ... عدد ما في الأرض والسماء
سبحانه ما هبت الرياح ... وما طوى سدل الدجى

الكوفة الغراء

أرض الرسالات السماوية وعاصمة الخلافة الإسلامية

الأستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين علي

أستاذ الدراسات العليا- جامعة الكوفة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بحث أحسبه جديداً في العرض والاكتشاف والنتائج، يُعنى بتأصيل حاضرة الكوفة باعتبارها مركز الإشعاع الإنساني الأول، ويستظهر تأريخها القديم رسالياً وحضارياً وقومياً، ويستقرئ بصماتها في وضع الأركان الأساسية للتراث العالمي المجهول، نخلص من ورائه إلى قراءة معاصرة للبشرية وتتابع الأجيال، ونذهب فيه مذهب البحث الموضوعي في استكناه الحقائق، آملين التوفيق باستيحاء العظة والعبرة، اعتداداً بالماضي المجيد، وتطلعاً للمستقبل المشرق، لا نغالي في القول، ولا نبالغ في الاستذكار، بل هي الطريقة المثلى التي تقود إلى استلهام القيم والأفكار والفضائل في ظلال من القرآن الكريم، وفي استخلاص للتأريخ الشريف دون تزيد أو إضافة.

وهذا كله لا ينافي أن نأنس بأمجاد الكوفة أصلاً وعراقةً وكرامةً، فالكوفة إحدى المدن الأربع: مكة، المدينة، القدس، الكوفة. التي اختارها الله تكريماً لها دون أرضه الواسعة.

في الحديث: «أن الكوفة حرم الله وحرم رسوله ﷺ وحرم أمير المؤمنين عليه السلام».

ومسجدها الكبير قد صلى فيه ألف نبي، وألف وصي نبي كما في الأثر.

وهو أحد المساجد الأربعة: بيت الله الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، ومسجد الكوفة.

ويستفاد من بعض الروايات: فضل مسجد الكوفة على المسجد الأقصى في بيت المقدس.

وروى مشايخ الحديث عن هارون بن خارجة، قال: قال أبو عبد الله الصادق صلوات الله عليه من حديث «... ما من نبي ولا عبد صالح إلا وقد صلى في مسجد الكوفة. حتى أن رسول الله ﷺ لما أسري به إلى السماء، قال له جبرائيل: أتدري أين أنت يا محمد؟ أنت الساعة مقابل مسجد كوفان، قال: فاستأذن ربي حتى آتيه فأصلي فيه ركعتين، فنزل فصلى فيه»[1].

وفي وسط المسجد اليوم، مقام النبي محمد ﷺ ويدعى هذا المقام بدكة المعراج، ووجه تسميته بذلك -فيما يبدو- ما تقدم.

ولك أن تقول أن الكوفة ومسجدها قد اختطهما سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية لتكون معقلاً للجيش الإسلامي، فكيف اهتدى سعد لهذه البقعة؟ وهذا الإيراد صحيح لا غبار عليه، ولكننا لو دققنا النظر في ما وراء التأريخ، لرأينا أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أرسل سعداً قائداً للجيش، ومعه مستشاران:

أولهما: حذيفة بن اليمان، صاحب سرّ رسول الله ﷺ الذي أسرّ إليه بأسماء المنافقين، وشخّص له أعيانهم، وهو الوالي على المدائن فيما بعد القادسية من قبل عمر نفسه.

وثانيهما: سلمان المحمدي الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (سلمان منا أهل البيت) و(ولا تقولوا سلمان الفارسي وقولوا سلمان المحمدي) وقد روي أن النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام (قد علماه من علم الله المخزون المكنون ما لا يطيق حمله سواه)[2].

وحينما أراد سعد تعيين موضع مسجد الكوفة، أشار عليه كلّ من حذيفة وسلمان، بهذا الموقع بالذات، وقرب هذين الصحابيين الجليلين من رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين معروف، فما يدرينا أن يكون ذلك بعلمهما، وبتوجيه أو أمر منهما، ويؤيده أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام قد اختار الكوفة من بين حواضر العراق عاصمة للخلافة الإسلامية، واتخذ مسجدها قاعدة لحكمه وبالضبط في الثاني عشر من رجب سنة ست وثلاثين من الهجرة النبوية الموافق للرابع من كانون الثاني عام ٦٥٨ميلادية، وهو التأريخ الذي تبركت به جامعة الكوفة الموقرة، وبإشارة مني، فجعلته يومها المتجدد في كل عام، فكان ذلك مدعاة إعجاب وتقدير.

---

(١) ظ: الكافي والمفاتيح/ ٨٣٦ وانظر مصادره.

(٢) المفاتيح/ ٤٩٢ وانظر مصادره.

(١) الكوفة آثارياً قبل الإسلام:

تشير الروايات التأريخية المقطوع بصحة سندها ومتنها أن آدم ونوحاً عليهما السلام قد دفنا في البقعة المباركة التي دفن فيها الإمام علي عليه السلام في ظهر الكوفة، وهي النجف الأشرف[١]. ففي زيارة الإمام الأولى، وقد رواها الإثبات من العلماء منهم:

١- محمد بن محمد بن النعمان، العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) في الأمالي.

٢- رضي الدين، علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت٦٦٤هـ) في مصباح الزائر.

٣- غياث الدين، عبد الكريم بن أحمد بن طاووس (ت٦٩٣هـ) في عمدة الزائر وفرحة الغري.

٤- أبو عبد الله، محمد بن مكي الدمشقي العاملي الجزيني، المعروف بالشهيد الأول (ت٧٨٦هـ) في كتابه المزار، وسواهم لاسيما بحار الأنوار في مواضيع عديدة، وقد وردت العبارة الآتية: (السلام عليك يا مولاي وعلى ضجيعيك آدم ونوح ورحمة الله وبركاته).

وفيها: ثم عد إلى جانب رأس أمير المؤمنين لزيارة آدم ونوح عليهما السلام، وقل في زيارة آدم: (السلام عليك يا صفي الله... السلام عليك يا خليفة الله في أرضه، السلام عليك يا أبا البشر، السلام عليك وعلى روحك وبدنك). فبدنه إذن في البقعة الطاهرة من النجف، وقد خص بالسلام.

وفيها: وقل في زيارة نوح عليه السلام: (السلام عليك يا شيخ المرسلين، صلوات الله وسلامه عليك وعلى روحك وبدنك وعلى الطاهرين من ولدك ورحمة الله وبركاته).

وهناك آثار عظيمة في مسجد الكوفة وفي بعض أسطواناته بالضبط، ففي الأسطوانة السابعة المسماة بمقام آدم عليه السلام أنها مقام وفق الله تعالى فيه آدم للتوبة. وإن صح هذا فالكوفة موطن أول الخليقة البشرية، وقد يدل عليه ما رقم في الأسطوانة آثارياً من الدعاء والذي أوله: بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا إله إلا الله، محمد رسول الله، السلام على أبينا آدم، وأمنا حواء، السلام على هابيل المقتول ظلماً وعدواناً.. السلام على شيث صفوة الله المختار الأمين)[٢].

وباب الفرج يعرف بمقام نوح عليه السلام[٣].

وباب أمير المؤمنين هي مقام نوح عليه السلام[٤].

ولا مانع أن يكون لنوح عدة مقامات في الكوفة ومسجدها، ففيها صنع السفينة، ومنها فار التنور، وبها كان الطوفان العالمي.

وفي رواية أن الأسطوانة السابعة مقام إبراهيم وأن أمير المؤمنين كان يصلي إليها.

وفي رواية معتبرة أن الأسطوانة الخامسة كانت بقعة صلى فيها إبراهيم خليل الرحمن، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام لبعض أصحابه: (صل عند الأسطوانة الخامسة ركعتين فإنها مصلى إبراهيم عليه السلام)[٥].

وفي عمدة الزائر لابن طاووس بالذات:

١- عند الأسطوانة الرابعة، وهي مقام إبراهيم، تقول فيما أزاد بعضهم: سلام على نوح في العالمين.

٢- وعن مولانا أمير المؤمنين أنه قال: أدخل إلى جامع الكوفة من الباب الأعظم فإنه روضة من رياض الجنة[٦].

وقل ما ذكره ابن طاووس في مصباح الزائر:

(السلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله وآله الطاهرين، السلام على مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ورحمة الله وبركاته، وعلى مجالسه ومشاهده، ومقام حكمته، وآثار آبائه: آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل)[٧].

وهنا تصرح الزيارة بآثار آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل، وآدم أبو البشر، ونوح أبوهم الثاني، ومقره النجف وعمله في الكوفة، وإبراهيم مقامه في المسجد، وإسماعيل نجل إبراهيم، وهو رابع الأنبياء العرب.

(٢) إدريس البابلي:

وهو أول من أعطي النبوة بعد آدم عليه السلام، وكان إدريس أول من خط بالقلم، وأول من نظر في علوم النجوم والحساب، وحكماء اليونانيين يسمونه هرمس الحكيم، وهو عظيم عندهم، وقد أنزلت -فيما قيل- عليه ثلاثون صحيفة، وهو أول من جاهد في سبيل الله، وقطع الثياب وخاطها، وهو وصي أبيه، وقد توفي آدم عليه السلام في عهده، فدعا إدريس قومه ووعظهم، وأمرهم بطاعة الله تعالى ومعصية الشيطان، والابتعاد من ولد قابيل قاتل هابيل فلم يقبلوا منه[٨].

وقد رفع الله إدريس إليه كما في التوراة، وبنص من القرآن ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾[٩].

---

(١) ظ: ابن بطوطة/ رحلة ابن بطوطة ١٠٩/١ جعفر محبوبة/ ماضي النجف/ ١٣.

(٢) ظ: المفاتيح/ ٣٩٠ وانظر مصادره.

(٣) المرجع نفسه/ ٣٩٦.

(٤) ظ: الضياء/ ٥٦٢.

(٥) ظ: المفاتيح/ ٣٩٤.

(٦) ظ: الضياء/ ٥٥٧ وانظر مصادره.

(٧) ظ: ابن طاووس/ مصباح الزائر/ أعمال مسجد الكوفة.

(٨) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣٤/١.

(٩) سورة مريم/ الآية ٥٧.

وقد عد إدريس رابع الرسل السريانيين آدم وشيث ونوح كما في رواية لأبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ[1].

والمعروف أن شيث وصي آدم، وبيت إدريس أو مقامه أو كلاهما في زاوية الجنوب الغربي من مسجد سهيل اليوم وهو في الكوفة الغراء، ويقابله مقام إبراهيم عليه السلام في الشمال الغربي من المسجد، فإن لم يكن ذلك موطنه ومسكنه كما علي الاستقراء، فإنه موطن إقامته أو عبادته في الأقل كما تلقى هذا الخلف عن السلف.

ولا مانع أن يكون إدريس كوفياً وطناً وسكنى، لأدلة تأريخية ناصعة، أبرزها أن ملك بيوراسب في عهد إدريس عند المؤرخين، وقد ظهر بيوراسب في أول سنة من ملك طهمورث، فدعا الأول إلى ملة الصابئين، بينما كان طهمورث مطيعاً لله تعالى، قال أبن الكلبي: أول ملوك الأرض من بابل طهمورث، وكان لله مطيعاً، وكان ملكه أربعين سنة، وهو في عهد إدريس عليه السلام[2].

ونتيجة المقارنة بين أقوال المؤرخين يظهر بالضبط أن إدريس عليه السلام:

بابلي كوفي، وهو أول ولد بني آدم نبوة، كما عليه الإجماع وإن شيئاً كان وصياً، وأنه أول من علم الكتابة.

وأما اسم إدريس فهو اسم عربي مشتق من المدارسة، وكثرة الدرس، وهنا لنا أن نتساءل عن صيغة هذا الاسم العربية، فهل يدل هذا على أن المنطقة كانت عربية ما قبل تدوين التاريخ. الله وحده هو العالم.

يقول أحد أعلام المعاصرين: (وأعلم أنه ليس في تلك البقاع -حاضرة الكوفة- مسجد يضاهي مسجد السهلة فضلاً وشرفاً بعد مسجد الكوفة، وهو بيت إدريس عليه السلام وإبراهيم عليه السلام ومنزل الخضر عليه السلام ومسكنه)[3].

فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كما هو مرقوم في مسجد السهلة: (أنه -أي المسجد- فيه مناخ الراكب، وبيت إدريس النبي...)[4].

(٣) نوح النبي عليه السلام:

النبي نوح عليه السلام أبو البشر الثاني، فأبوه السابع آدم عليه السلام[5].

وهو أول أولي العزم، سادة الأنبياء، وأصحاب الرسالات العالمية، وقد أرسله الله إلى البشر كافة بكتاب وشريعة، فكتابه أول الكتب السماوية، وشريعته أول الشرائع الإلهية[6].

(١) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣٤/١.
(٢) ظ: المصدر نفسه ٣٥/١.
(٣) ظ: المفاتيح/ ٤٠٤ وانظر مصادره.
(٤) وسائل الشيعة ٥٣٣/٣.
(٥) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٨٧/١.
(٦) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٥١/١٠.

وتنتهي أنساب البشر إليه بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[7].

وهو أبو الأنبياء جميعاً عدا آدم وإدريس لأنهما قبله بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾[8].

وليس بالإمكان تحديد الحقبة الزمنية تأريخياً بين آدم ونوح بالضبط الصحيح، إلا أن بعض الروايات تشير إليها بحدود عشرة قرون، فقد روي عن جماعة من السلف أن بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ملة الحق، وأن الكفر بالله حدث في القرن الذي بعث فيه نوح، وهو أول نبي بعث بالإنذار والدعاء إلى التوحيد، وهو قول ابن عباس وقتادة[9].

وكان نوح عليه السلام في عهد بيوراسب، وبيوراسب في ملك طهمورث، وطهمورث ملك البابليين، وكان قومه يعبدون الأصنام، فدعاهم نوح إلى الله تسعمائة سنة وخمسين سنة، كلما قضى قرن تبعهم قرن على ملة واحدة من الكفر[10].

وللقرن دلالتان في العد الزمني، فتارة يطلق على الجيل من الناس كما عليه القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾[11].

وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾[12].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾[13].

وبعضهم يرى أن القرن مائة سنة، فإن كان المراد بالقرن الجيل من البشر، فبين آدم ونوح عشرة أجيال، وإن كان المراد مائة سنة فبينهما ألف عام.

قال ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ): (وقد اختلف العلماء في ديانة القوم الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام، فمنهم من قال أنهم كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكره الله تعالى من ركوب الفواحش، والكفر، وشرب الخمور، والاشتغال بالملاهي، عن طاعة الله.

ومنهم من قال: أنهم كانوا أهل طاعته، وبيوراسب أول من أظهر القوم بمذهب الصابئة، وتبعه على ذلك الذين أرسل إليهم نوح. والذي لا شك فيه أنهم أهل أوثان كما نطق به القرآن، وهو مذهب طائفة من الصابئين فإن أصل مذهب الصابئين عبادة الروحانيين، وهم الملائكة لتقربهم إلى الله زلفى، فإنهم اعترفوا بصانع العالم، وأنه قادر حكيم مقدس إلا أنهم قالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى معرفة جلال الله،

(٧) سورة الصافات/ الآية ٧٧.
(٨) سورة الصافات/ الآية ٧٨.
(٩) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٩٠/١.
(١٠) ظ: المصدر نفسه ٨٧/١ + ابن الأثير/ الكامل ٣٦/١.
(١١) سورة المؤمنون/ الآية ٣.
(١٢) سورة مريم/ الآية ٧٤.
(١٣) سورة الإسراء/ الآية ١٧.

وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة لديه، وهم الروحانيون، وحيث لم يعاينوا الروحانيين، (وهم الملائكة) تقربوا إليهم بالهياكل، وهي الكواكب السبعة السيارة، لأنها مدبّر العالم عندهم، ثم ذهبت طائفة منهم، وهم أصحاب الأشخاص حيث رأوا أن الهياكل تطلع وتغرب، وترى ليلاً ولا ترى نهاراً، إلى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها إلى الهياكل، والهياكل إلى الروحانيين، والروحانيين إلى صانع العالم -وهو الله تعالى- فهذا كان أصل وضع الأصنام أولاً[١].

وتواصى قوم نوح بعبادة الأصنام ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**﴾[٢].

وأسماء هذه الأصنام من الأعلام الدالة على مسمياتها في كل الأصوات، وتكتب كما هي لاتينياً في كل اللغات، لأن الأعلام لا تترجم وإنما تبقى كما هي في الغالب، والذي يجلب الانتباه حقاً أن أسماء هذه الأصنام جميعاً أسماء عربية، ولها معانيها في اللغة باعتبارها أسماء عربية، ونأتي عليها لغوياً بحسب تسلسلها في القرآن العظيم:

١- وُد، قال الراغب (ت٥٠٢هـ) في المفردات بالنص:

و(ودّ صنم سمي بذلك إما لمودتهم له، أو لاعتقادهم أن بينه وبين الباري مودّة، تعالى الله عن القبائح)[٣].

ويعني هذا: أن قوم نوح سموا هذا الصنم وداً باللغة العربية لمودتهم له، أو لعقيدتهم أن بينه وبين الباري مودة، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

فما معنى أن يسمي قوم صنماً باسم عربي، له دلالته العربية، وفيه معناه العربي، وهم لا يريدون ذلك، ولا يعرفون العربية!!

٢- سواع: اسم مصدر عربي لا شك في هذا، وقد ورد في اللغة: (وجاءنا بعد سوع وسواع، أي بعد هدوء)[٤].

ولما كان سواع اسم صنم عند قوم نوح، فما المانع أنهم كانوا يقصدونه، ويريحون إليه لحظة الهدوء ليكون اللقاء في خلوة من الصفاء الروحي فيما يزعمون.

٣- يغوث اسم مصدر على صيغة المضارع من الغوث، وقد جاء في معاجيم العربية:

(الغوث يقال في النصرة، والغيث المطر، واستغثته طلبت الغوث أو الغيث. فأغاثني من الغوث، وغاثني من الغيث)[٥].

وما المانع من قوم نوح أن يسموا بهذه الصيغة، طلباً للغوث، فهم يستجيرون به، ويستغيثون عند الشدائد، أو يطالبون به الغيث، فهو شبيه عندهم بإله المطر فيما يزعمون.

٤- يعوق، وهو اسم صنم، وتصريفه: عاق يعوق عوقاً، يقال: عاقه وعوقه وأعتاقه، ومنه عوائق الدهر، قال تعالى: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ**﴾[٦]. أي المثبطين الصارفين عن طرق الخير.

قال الراغب: ويعوق اسم صنم[٧].

فالاسم عربي في مادته واشتقاقه وتصريفه ودلالته، فلعله كان يثبط قوم نوح عن العزم في الأمور لدى الاستقسام في الأزلام، وإن لم يكن كذلك فهو في الأقل: مادة لغوية عربية الأصل.

٥- نسر اسم صنم في قوله تعالى ﴿**نَسْراً**﴾ والنسر طائر، ومصدر نسر الطائر الشيء بمنسره: أي نقره[٨].

والنسر عادة ما يشمخ بأنفه إلى السماء، وما يدرينا، فلعل لهذا المعنى علاقة بتسميته وإلا فهو اسم عربي، ولا ندري انطباق ظروف التسمية عليه.

ومهما يكن من أمر، فلا يخلو المقام بالنسبة لقوم نوح، أما أن يريدوا ذلك من هذه الأسماء في معانيها بلغتهم الأصل، فهم عرب، أو أنهم في الأقل يحسنون العربية ودلالتها وعلى الغرض الأول يتجلى أن الكوفة موطن العرب الأول بعد الخليفة بألف عام على الأكثر، إن لم يكن دون ذلك، إذ لا بد من اللغة من النشوء حتى تترقى إلى مرحلة الاستقرار والتداول. وعلى الفرض الثاني، فإن اللغة العربية قديمة جداً بحيث يحسنها البابليون والسومريون ويسمون الأعلام بمسمياتها، وهو أيضاً أمر جدير بالأهمية، وعلم ذلك كله عند الله تعالى، فإن القرآن الكريم لم يصرح بشيء من هذا، وإن صرح بالأسماء العربية للأصنام، إلا أن الاستنباط العلمي يقتضي ما قدمناه، والله العالم والعاصم.

وهنا نؤكد أمرين:

الأول: أن الإجماع قائم أن نوحاً كان مقره النجف، وعمله في الكوفة، كما عليه جملة من الروايات:

ففي الكافي بإسناده عن المفضل بن عمر، وكان له عند الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة أيام قدم على أبي العباس السفاح، وانتهى إلى الكناسة في الكوفة، وذكر صلب عمه زيد حتى انتهى إلى طاق الزياتين، فنزل الإمام الصادق، وقال للمفضل:

(١) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣٨/١ وانظر الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٩٠/١.

(٢) سورة نوح/ الآية ٢٣.

(٣) الراغب/ المفردات/ ٥١٧.

(٤) المصدر نفسه/ ٢٤٩.

(٥) المصدر نفسه/ ٣٦٧.

(٦) سورة الأحزاب/ الآية ١٨.

(٧) الراغب/ المفردات/ ٣٥٤.

(٨) المصدر نفسه/ ٤٩٠.

(انزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول الذي كان خطه آدم، وأنا أكره أن أدخله راكباً. قلت: فمن غيّره عن خطته؟

قال: أما أول ذلك فالطوفان في زمن نوح، ثم غيره كسرى والنعمان، ثم غيره بعد زياد، فقلت: وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح؟

فقال لي: نعم يا مفضل، وكان منزل نوح وقومه في قرية - على منزل من الفرات- مما يلي غرب الكوفة.

قال الإمام: وكان نوحٌ رجلاً نجاراً، فجعله الله عز وجل نبياً وانتجبه، ونوح أول من عمل سفينة تجري على ظهر الماء.. قال: ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فيهزأون به ويسخرون، فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم بما حكاه تعالى: ﴿**وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً**﴾[1].

فأوحى الله عز وجل إلى نوح أن اصنع السفينة وأوسعها وعجّل عملها، فعمل نوح سفينته في مسجد الكوفة بيده، فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها...

وأشار الإمام إلى موضع دار، فقال: يا مفضل وههنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث ويعوق ونسر...)[2].

أقول يبدو من هذه الرواية:

أ- قدم مسجد الكوفة، وأن آدم قد اختطه، وأن نوحاً قد أقام فيه، وعمل في وسطه السفينة، وإن تغيرت معالمه، وبعض أماكنه، ومما يؤيده ما رواه أبو رزين الأسدي عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يتحدث عن نوح عليه السلام وعن قومه، وعن صنعه للسفينة، وهو في الكوفة قائلاً: وكان نجره في وسط مسجدكم، ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع[3].

ب- قول الإمام الصادق عليه السلام وكان منزل نوح وقومه في قرية مما يلي غرب الكوفة، أقول أن المراد في غرب الكوفة فيما يبدو هو النجف الأشرف اليوم.

الأمر الثاني: أن أقدم نص لدينا عن الطوفان العالمي، كان في ملحمة جلجامش يقول فيه، وهو يتحدث عن الطوفان:

وأخبر أحد الآلهة جده (نوح البابلي) بذلك، وتسميه الملحمة (أبو تو نبشتم) وهو ترجمة سومرية للاسم، وطلب منه أن يعمل سفينة، وينجو بنفسه بالقول الآتي:

قوض بيتك وابن سفينة.
واترك ما تملك، وأنقذ حياتك.
وتخل عن أملاكك، وانج بحياتك.
وخذ معك إلى السفينة بذرة كل مخلوق حي.

* * *

أرسل الموكل بالزوبعة مطراً مهلكاً في السماء.
وتطلعت إلى حالة الجو.
فإذا الجو مخيف لا يمكن النظر إليه.

* * *

أتى غيم أسود من الأفق البعيد.
وأرعد (أدد) عنان السماء (أدد: إله الزوبعة والمطر عند السومريين).
وقلب النور إلى ظلمة.
وكسرت الأرض مثل إناء.
وهبت العاصفة يوماً واحداً، هبتً سريعاً.

* * *

عصفت الرياح ستة أيام وست ليال، وانحسرت الأمطار.
وثارت العاصفة، فغطى الطوفان الأرض.
ولما كان اليوم السابع، خفت شدة العاصفة والطوفان.
واستوت السفينة على جبل نصير.
ومسك جبل نصير السفينة ولم يدعها تتحرك[4].

وهنا تبدو عدة ظواهر علمية دقيقة:

١- أن ملحمة كلكامش تتحدث عن سكان العراق في فجر السلالات، وكان نهاية هذه السلالات الفتح الآكدي لسومر المؤرخ بعام (٢٨٠٠) قبل الميلاد، بينما اعتبره آخرون في عام (٢٣٥٠) قبل الميلاد وعندما وحّد سرجون الأكدي بلاد الرافدين بقسميها الشمالي والجنوبي[5].

٢- هناك عصران قد سلطا على العراق القديم: عصر ما قبل السلالات وعصر فجر السلالات، وهو المعروف بعصر فجر السلالات السومرية الذي كان بعد الطوفان، كما أن عصر ما قبل الطوفان يسمى بعصر ما قبل السلالات، فالملحمة إذن تؤرخ طوفان نوح، وبذلك تعتبر أقدم نص عن الطوفان قد يقدر بالألف الثالث قبل الميلاد لأنها حبرت وكتبت ونظمت قبل عصر المقبرة الملكية في أور، والتي يعود تاريخها إلى حوالي ٢٦٠٠سنة قبل الميلاد.

٣- إن القرآن العظيم قد أورد قصة الطوفان العالمي بما يوافق ما اشتملت عليه ملحكمة جلجامش في كثير من المقاطع، وهذا ملحظ من ملاحظ إعجاز القرآن الكريم، إذ يتحدث عن الغيب بدقة متناهية، تؤيدها آثار الحفريات السومرية.

---

(١) سورة نوح/ الآيات ٢٦-٢٧.

(٢) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٤٢/١٠.

(٣) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٤٢/١٠.

(٤) ملحمة كلكامش/ ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس (مجلة سومر/ ج٦/ عدد٢/ ١٥٤-١٦٣).

(٥) ظ: ستيون لويد/ موجز تأريخ العراق منذ أقدم العصور حتى الآن/ ٣٨ ترجمة: طه باقر وبشير فرنسيس/ لندن/ جامعة أكسفورد/ ١٩٤٣ + دليل المتحف العراقي/ ١٧/ لسنة ١٩٦٠م.

أ- في طور صنع السفينة قال تعالى:
﴿فَأَوْحَيْنا إِلَيْه أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْه الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْني في الَّذينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[١].

ب- في عوالم الطوفان بالأمطار الغزيرة، وتفجير الأرض بالعيون قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماء بِماء مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[٢].
وهنا تلمح القدرة الإلهية الجبارة في فتح أبواب السماء بالماء المنهمر الطاغي، وتفجير الأرض كل الأرض عيوناً فوارة عاتية ليلتقي ماء السماء المتوالي إلى جنب ماء الأرض المتتابع لينقلب الكون إلى محيط عات من الأمواج يصوره الله تعالى بالنسبة للسفينة ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ في مَوْجٍ كَالْجِبالِ﴾[٣].
وذلك تنفيذاً للأمر الرباني المقدر الجاري على هذا الهول المفزع.

ج- في نجاة نوح ومن معه من المؤمنين. قال تعالى:
﴿فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ في الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقينَ﴾[٤].
وقال تعالى مفصلاً للحالة ﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجيبُونَ * وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظيمِ * وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقينَ * وَتَرَكْنا عَلَيْه في الآخَرينَ * سَلامٌ عَلى نُوحٍ في الْعالَمينَ * إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرينَ﴾[٥].

د- في صدور الأمر الفوري في إنهاء عوالم المياه ومظاهر الطوفان، واستواء السفينة قال تعالى: ﴿وَقيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعي وَغيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾[٦].

٤- إن الملحمة تدور حوادثها حول حياة كلكامش، وكلكامش هذا أحد ملوك سومر الأقدمين، وقد ظهر اسمه في ثبت الملوك السومريين باعتباره الملك الرابع الذي حكم بعد طوفان نوح عليه السلام في مدينة (أورك) وأرك تقوم أطلالها حالياً في المنطقة المعروفة باسم (الوركاء) في جنوب العراق على مسافة ٣٠كيلو متراً شرقي مدينة السماوة (محافظة المثنى حالياً) وعلى بعد ١٢كيلو متراً شمال شرقي ناحية الحضر، وكانت تقع على نهر الفرات، ويرجع تأريخها إلى الألف الرابع قبل الميلاد[٧].

٥- أن هذا الطوفان قد شمل الكرة الأرضية باعتبار أن اليابسة كانت ضمن نطاق محدود يحيط بمنطقة الطوفان، وبتعبير آخر أن الحياة البشرية والأحياء البحرية والمزارع النباتية، والثروة الحيوانية كانت ضمن منطقة الطوفان في العراق، لهذا أمر نوح عليه السلام بحمل زوجية الكائنات البشرية والحيوانية والنباتية في سفينته لئلا تنقطع الحضارة على وجه الكرة الأرضية، ولتعود من جديد إلى الحياة بعد الطوفان الغامر الشامل، وهذا لا يمنع أن تكون بعض المناطق اليابسة منتشرة على سطح الكرة الأرضية، ولكنها غير مأهولة -لزوماً- بالحياة بدليل قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقينَ﴾[٨].
فلا بقاء لسواهم لفناء كل الأشياء. ومن هنا نستنتج أن انطلاق حضارة العالم كان من الكوفة الغراء وأرض الرافدين.

٦- يذهب الدكتور أحمد نسيم سوسه بأنه من المرجح أن سفينة نوح عليه السلام قد استقرت إلى جانب المرتفعات الصحراوية في جور النجف الأشرف، وهي المرتفعات المعروفة باسم (النواويس) والنواويس قد وردت في كلام سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام بقوله (كأني بأشلائي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء) وأن النص الوارد في القرآن الكريم ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وهي كلمة عربية، مما يؤيد أنها رست على مرتفع من صحراء جنوب شرقي الفرات عند حدود سلسلة مرتفعات النجف التي تعلو على سطح البحر بما يقارب (٦٥) متراً[٩].
ويؤيده ما روي عن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام في ﴿اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قال: هو فرات الكوفة[١٠].
ومعنى هذا أن البشرية قد تدفقت في الكون من منطقة الكوفة، ومما يؤيده مدفن نوح عليه السلام في النجف، وهو اليوم ضمن ضريح أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.

(٤) هود وصالح عليهما السلام:

وهود عليه السلام أول عربي أرسل إلى عاد، وذلك بعد نوح وقبل إبراهيم عليهما السلام.

(١) سورة المؤمنون/ الآية ٢٧.
(٢) سورة القمر/ الآيات ١١-١٢.
(٣) سورة هود/ الآية ٤٢.
(٤) سورة الشعراء/ الآيات ١١٩-١٢٠.
(٥) سورة الصافات/ الآيات ٧٥-٨٢.
(٦) سورة هود/ الآية ٤٤.
(٧) ظ: سعد حاتم محمد مرزة/ معجزة القرآن والطوفان/ ٩٤ وانظر مصادره.
(٨) سورة الصافات/ الآية ٧٧.
(٩) ظ: أحمد نسيم سوسه/ فيضانات بغداد، عن مقال: موطن الطوفان واستقرار فلك نوح/ ٨٥-١٩٢/ ١٩٤٦م.
(١٠) العياشي/ تفسيره للآية.

وكانت مساكن عاد ما بين السهول الشرقية لليمن وتسمى بالشحر وبين عمان وحضرموت بالأحقاف[1].

والأحقاف رمال يقال لها رمل عالج، والدهناء، ويبرين ما بين عمان وحضرموت.

وقد نص القرآن العظيم على الاسم بسورة الأحقاف التي سميت باسم ديارهم ومنازلهم، فقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[2].

ويبدو من القرآن العظيم أنهم كانوا في نعمة وخير، ولهم أعمار طويلة وأجسام عظيمة. وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها، وأبرز أصنامهم ثلاثة: ضر، ضمور، الهباء، فأرسل الله هوداً يدعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وخلع الأنداد، وترك ظلم الناس، فكذبوه وآذوه، وقالوا من أشد منا قوة؟ ولم يؤمن إلا قليل[3].

فأصيبوا بعد الإنذار بعذاب الاستئصال بالريح العقيم، سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً متوالية، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك، واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حضيرة ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ النفوس[4].

قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾[5].

قال الطبرسي: وكان هود وصالح وشعيب وإسماعيل ونبينا محمد ﷺ يتكلمون بالعربية[6].

ويستخلص مما تقدم أن النبي هود عربي بدلالة صيغة اسمه العربية، وقومه العرب، ومنطقته العربية، وأسماء الأصنام التي عبدت من دون الله عربية أيضاً.

وأن هذا الجيل القديم من العرب يسمى عاداً الأولى.

قال تعالى ﴿**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولى * وَثَمُودَ فَما أَبْقى**﴾[7].

وأما ثمود فهم الجيل الثاني من العرب بعد عاد الأولى، وكانت مساكنهم من البلاد العربية في الحجر، وهو بين الحجاز والشام، وقد كثروا بعد عاد، واستخلفوا في الأرض، وكانوا في سعة من معايشهم، فكفروا بالله وأنعمه، فبعث الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام[8].

قال تعالى: ﴿**وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ**﴾[9].

وكانت ثمود تعبد الأصنام، وتعمر طويلاً، وتتخذ من الجبال بيوتاً، كما جاء في القرآن الكريم ﴿**وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ**﴾[10].

وذكرهم القرآن بمواطنهم ومساكنهم وإرسال الرسل إليهم، وعاقبة أمرهم. قال تعالى:

﴿**وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ * وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ**﴾[11].

وكانوا عكفاً على أصنامهم، فدعاهم صالح إلى عبادة الله وحده، ونبذ الوثنية فقابلوه بما قصه الله تعالى من أمرهم:

﴿**قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ**﴾[12].

ويبدو أنهم قد طلبوا إليه المعجزة، بإخراج ناقة جوفاء عشراء من صخرة بعينها، فأتى الصخرة وصلى ودعا ربه، فإذا بها تتمخض وتخرج من وسطها الناقة وهم ينظرون، فكانت آية كما تحدث القرآن ﴿**وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ**﴾[13].

ويبدو أنهم تواصوا على عقرها، فأخذهم عذاب الاستئصال كما قال تعالى ﴿**فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي داركُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ**﴾[14].

---

(١) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٤٨/١.
(٢) سورة الأحقاف/ الآية ٢١.
(٣) ظ: ابن الأثير/ الكامل ٤٨/١.
(٤) ظ: الطبرسي/ مجمع البيان ٤٣٩/٢.
(٥) سورة الأحقاف/ الآيات ٢٤-٢٥.
(٦) الطبرسي/ مجمع البيان ٤٣٩/٢.
(٧) سورة النجم/ الآيات ٥٠-٥١.
(٨) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٥٠/١.
(٩) سورة هود/ الآية ٦١.
(١٠) سورة الشعراء/ الآية ١٤٩.
(١١) سورة الحجر/ الآيات ٨٠-٨٣.
(١٢) سورة هود/ الآية ٦٣.
(١٣) سورة هود/ الآية ٦٤.
(١٤) سورة هود/ الآيات ٦٥-٦٨.

وبعد عذاب الاستئصال نجى الله صالحاً والذين آمنوا برحمة منه.

والذي يثير الانتباه حقاً بعد استئصال عاد وثمود هو تواتر وجود ضريح هود وصالح في ظهر الكوفة بطريق الاستقراء العلمي منذ عصر الأئمة عليهم السلام وعهود الصحابة والتابعين والذين من بعدهم وحتى اليوم فقد ورد في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام قال: (وادفنوني في قبر أخي هود)[١].

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (وإذا مت فادفنوني في هذا الظهر في قبر أخوي هود وصالح)[٢]، وهما الآن في ضريح ذي قبتين تستقبلان وادي السلام، ويبتعدان عن ضريح الإمام علي عليه السلام حوالي ثلاثمائة متر فحسب، في بناء شامخ يقصد ويزار، وكان آخر تجديدهما على يد السيد بحر العلوم قدس سره (ت:١٢١٢هـ) وما يدرينا أن هوداً وصالحا، قد هجر كل بلده وموطنه الأصلي، بعد استئصال قومه، واستوطنا منطقة عربية، وهي ظهر الكوفة حتى أتاهما الأجل، ودفنا في واديها المقدس، أو لخصوصية أخرى، كون الكوفة أرض الرسالات السماوية ومهبط الوحي على من سبقهم من الرسل. والله هو العالم.

(٥) إبراهيم الخليل عليه السلام:

وهو الثاني من الأنبياء أولي العزم، وكان مولد إبراهيم عليه السلام ببابل من أرض السواد وقال بعضهم ومولده بالسواد بناحية كوثي[٣].

وكوثي أو كوثى إحدى قرى الكوفة[٤].

وكان مولده في عهد نمرود بن كوش بن كنعان وملكه في كوثي[٥].

وعن هشام بن محمد، قال: بلغنا -والله أعلم- أن إبراهيم خليل الرحمن ولد في زمان نمرود، وأنه صاحبه الذي أراد إحراقه[٦].

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: إن إبراهيم كان مولده بكوثار، وضبطها الجزري كوثى، قرية من أعمال الكوفة[٧].

وهذا أحد القولين عند أبي الفداء بن كثير[٨].

وكذلك هو عند ابن الأثير[٩].

وجاء في مراصد الاطلاع: وكوثى بالعراق في موضعين:

كوثى الطريق وكوثى ربا، وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وهما قريبان، وبينهما تلول رماد، ويقال أنها رماد النار التي أوقدها نمرود لإحراقه[١٠].

ومهما يكن من أمر فإن إبراهيم قد ولد في بابل أو الكوفة أو إحدى قرى الكوفة، والدلائل على ذلك كثيرة سيتحدث عنها البحث. وفؤجئ إبراهيم في هذه المنطقة بقومه من البابليين أن عبادتهم على نوعين من الوثنية والإشراك، فقليل من قومه يعبد الأصنام، والقليل الآخر يعبد الكواكب وقد يتداخل الأمران في عبادة التماثيل التي تحكي صورة الكواكب كالزهرة والقمر والشمس فيعبدونها، ويشركون بالله سواه.

وقد حاجج إبراهيم هؤلاء وهؤلاء مستدلاً على بطلان عبادتهم، وسخر بهما جميعاً، ودعا إلى التوحيد، وقد جاء ذكر ذلك في صور أسلوبية متعددة في القرآن العظيم، نشير إلى أبرزها.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[١١].

فهو يستنكر على آزر وقومه عبادته للأصنام، إلا أن آزر بقي مصراً على ذلك وألح عليه إبراهيم وعاود عليه القول، فأبى آزر الإيمان وبقي على إشراكه، وأوعد إبراهيم بالرجم، وطلب مهاجرته طويلاً، قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا * إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا * يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا * يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا * قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا**﴾[١٢].

فقد حاجج إبراهيم أباه هنا حجاجاً مفصلاً فيه من اللين والأدب والإنذار الشيء الكثير، فهو يوقر أباه في الخطاب، ويدعوه إلى نبذ عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه

(١) الحر العاملي/ الوسائل ٣٠٩/١٠.
(٢) الطوسي/ التهذيب ١٢/٢ + الوسائل ٣٠٨/١٠ + ابن طاووس/ فرحة الغري/ ٢٨.
(٣) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ١١٩/١.
(٤) ظ: مراصد الاطلاع/ مادة: كوثي.
(٥) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ١١٩/١.
(٦) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ١١٩/١.
(٧) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٢٩/٧.
(٨) ابن كثير/ قصص الأنبياء/ ١٨٨.
(٩) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٥٣/١.
(١٠) ظ: مراصد الاطلاع/ مادة: كوثي.
(١١) سورة الأنعام/ الآيات ٧٤-٧٥.
(١٢) سورة مريم/ الآيات ٤١-٤٧.

شيئاً وهو يخبره بأن جاءه من العلم ما لم يأته، ويطلب إليه اتباعه ويحذره عبادة الشيطان لأنه عصى الرحمن، وهو يخاف عليه من عذاب الله بموالاته للشيطان، أو يمسه هذا العذاب فيكون ولياً للشيطان فيرد عليه أبوه بزجر وتهديد ومقاطعة، فيقابل أباه بأن لا خطر عليه منه وأنه سيستغفر له الله تعالى.

وكما حاج أباه وقومه في عبادة الأصنام، فقد حاجج قومه أيضاً بعبادة الكواكب، وقد أراه الله عز وجل ملكوت السماوات والأرض، واستيقن ذلك بنفسه، وبذلك يكون قد استلهم دلالة توحيد الله تعالى بدلالة خلقه البديع في المشاهد المتعددة لهما.

وكان نظر إبراهيم عليه السلام في ملكوت السماوات والأرض نظر من يهتدي إلى التوحيد حتماً، لأن تدبره في ذلك يقضي بتوجه نفسه لله وحده لا شريك له، إذ مدبر هذا الكون باللازم لا يقبل إلا الوحدانية، فليس لغيره تعالى تدبير هذا الكون، وليس للمحدثات كالكواكب والشمس والقمر باعتبارها تتغير وتتحول وتغيب وتطلع وتأفل، وهكذا أية صفة للخلق لأنها مخلوقة حادثة يعود أمر جريانها وتدبيرها وتقديرها لله وحده.

قال الإمام الباقر عليه السلام: (كشط الله له عن الأرضين حتى رآهن وما تحتهن، وعن السماوات حتى رآهن وما فيهن من الملائكة وحملة العرش)[1].

فرؤية إبراهيم لهذا الملكوت رؤية إضافة خلقها وإبداعها وتنظيمها وإدارة شؤونها إلى الله عز وجل، وانتساب كل الأشياء في هذا المضمار إلى الله تعالى أمر كما قال الطباطبائي: (لا يقبل الشركة، ويختص به سبحانه وحده، فالربوبية التي هي الملك والتدبير لا تقبل تفويضاً ولا تمليكاً انتقالياً)[2].

لهذا فإنه أقام الدليل على بطلان عبادة الكواكب لحدوثها، والخالق لا يكون محدثاً، ولتغير أحوالها في نفي الاستقرار وعدم الثبات، وذلك من صفات المخلوقين، قال تعالى حاكياً عن الحالة لديه:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

فإبراهيم عليه السلام رأى الكوكب ورأى القمر ورأى الشمس فتأكد أنها محدثات تأفل وتتقلب فقطع بخلقها، والمخلوق لا يكون خالقاً، فتوجّه بوجهه لله رب العالمين حنيفاً مسلماً موحداً.

وكان هذا كله لأنه أري ملكوت السماوات والأرض، فتفرع على هذا الأصل نظره إلى الكوكب والقمر والشمس فرآها مخلوقة مسيرة.

ويبدو أن إبراهيم حينما تحرر من السرب فؤجئ برؤية أحد الكواكب السبعة، وهو الزهرة في روايات أهل البيت، وهو الذي يؤيده الاعتبار العلمي، لأن الزهرة يضيق مدارها فلا تبتعد عن الشمس إلا قليلاً، فهي كالتابعة لها، وسواها لا يرى إلا قليلاً أو شاذاً أو قد لا يرى كالمريخ وزحل والمشتري وعطارد، فلم يبق إلا الزهرة وهي قد تتقدم الشمس فتسمى عند الناس نجمة الصبح، وقد تتصاقب عند طلوع القمر في النصف الثاني من الشهر، وهذه الخصوصية للزهرة من بين الكواكب السبعة بحسب نظامها وسيرها، على أنه الزهرة أجمل الكواكب الدرية وأبهجها وأضوؤها وهي تجلب النظر إليها عند الظلام الحالك. والقمر والشمس مذكوران بعدها.

وعلى هذا فقد رأى الزهرة وقومه يتنسكون بواجب عبادتها من خضوع وصلاة وقربان، فلما أفلت رأى القمر بازغاً، فلما أفل بزغت الشمس فلما أفلت، تبرأ من الجميع ومما يعبد قومه.

وقول إبراهيم في الكواكب هذه (هذا ربي) ليس من القطع والبناء، وإنما هو افتراض أمر للنظر في الآثار التي تثبته وتؤيده في حالتي الترقب والانتظار، فكأنه قد عد نفسه كأحد أبناء قومه مجاراة لهم، ليبطل بذلك دعواهم ويثبت فسادها[4].

وهذا حق لأنه كان على يقين من أمره، فقد جاءه من العلم ما يؤكد توحيده الخالص بإراءة ملكوت السماوات والأرض، لذلك فقد أبطل ربوبية هذه الكواكب إما لأفولها أو لعدم حبها، أو هما معاً، لأن ربوبية الله تعالى إنما تتجلى بالحب الإلهي من قبل العباد.

وهناك مؤشر بارز في حياة إبراهيم تتجلى فيه البطولة والشهامة وتتراءى فيه القوة والشجاعة، كما يتمثل به الإيمان المطلق والتوكل على الله، ذلك هو تحطيم أصنام القوم، وهو ليس أمراً اعتيادياً، ولا حادثة هامشية، بل هو في الصميم من اعتقاد القوم، ولك أن تتصور رجلاً بمفرده لا ناصر له ولا مؤازر، يقاتل شعباً بأكمله في أعز شيء لديه، وهو العبادة أنى كان جنسها، فقد خرج قوم إبراهيم لعيد لهم خارج البلد، وتخلف إبراهيم عنهم، فراغ إليهم ضرباً باليمين فجعلها جذاذاً إلا كبيرهم، قال تعالى عن لسانه:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى

(١) الطبرسي/ مجمع البيان ٣٢٢/٣.
(٢) الطباطبائي/ الميزان ١٧١/٧.
(٣) سورة الأنعام/ الآيات ٧٦-٧٩.
(٤) ظ: الطباطبائي/ الميزان/ ١٧٣ وما بعدها باختصار وتصرف.

يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهيمُ * قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهيمُ * قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ * قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ * قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ * وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ﴾[1].

فهو قد هجم على الأصنام وجعلها جذاذاً، وهم يستنكرون ذلك، ويلقون بالتبعة على إبراهيم، هم يأتون به على أعين الناس لعلهم يشهدون، ويستفهمون عن الحدث، فيعرض لهم بأن كبيرهم فعل ذلك وطلب سؤاله واستنطاقه، واعترفوا بظلمهم ونكسوا على رؤوسهم لأن أصنامهم لا تنطق، فاحتج عليهم مستنكراً ومستهجناً عبادة ما لا ينفع ولا يضر؛ وتأفف منهم ومما يعبدون، وذهبوا لإحراقه ونصرة آلهتهم، فكانت النار برداً وسلاماً عليه، ونجاه الله ولوطاً إلى الأرض المقدسة.

وتحدثت سورة الصافات عن هذا الحدث في مشهد مقارب فيه تفصيل آخر، فقال تعالى فيما اقتص عن إبراهيم:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ * ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ * فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ * قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الأَسْفَلِينَ * وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2].

ونقف عند هذا النص القرآني وهو على ظواهر عدة:

الأولى: أن حديثه بأنه سقيم على صلة بنظره في النجوم، وربما كان ذلك من قبيل تعيين الوقت الذي يعاوده فيه مرض ما، فاعتل لذلك تعبيراً عن عدم استطاعته الخروج مع قومه إلى عيدهم، أو أنه على سبيل التعريض فإنه حينما ينظر في النجوم فإنما يتفكر في قدرة الله وبديع صنعه نظرة الموحد لا نظرة المنجمين الذين يربطون علل الأشياء ومستقبلها بالكواكب، وربما قيل إن إبراهيم قد وصف نفسه بالقسم مستقبلاً فكل امرئ يمرض والله العالم.

الثانية: إن إبراهيم قد أسرع إلى آلهتهم المزعومة، وكانوا يضعون لها طعاماً، فكلمها بأكله مع علمه بأنها جماد لا يأكل، وحجر لا ينطق، فخاطبها مخاطبة من يعقل ليؤاخذها مؤاخذة العقلاء، رداً على زعم من يرجع إليها في التدبير، وإدارة شؤون الكون.

الثالثة: أنه مال على آلهتهم بحركة سريعة، وعزم ثابت، ضرباً باليمين، سواء أكان اليمين اليد اليمنى أم كان القوة الضاربة.

الرابعة: أن قوم إبراهيم قد أسرعوا إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم مستنكرين عليه، إلا أنه بعد قبضهم عليه كان هو المستنكر عياناً، فحاججهم استفهاماً وإنكاراً أنهم يعبدون ما ينحتون، والخالق يخلق ولا يُخلق، فسفه عبادتهم الواهنة، واستعلى عليهم بأن الله قد خلقهم وما يعبدون، توبيخاً لهم على ما أحدثوه من البدع والأضاليل.

الخامسة: تصميم قومه على الانتصار لأصنامهم، والانتقام من إبراهيم، وذلك بالإحراق بالنار، فرد الله كيدهم في نحورهم وجعلهم الأسفلين، وكتب نصره لإبراهيم بجعل النار برداً وسلاماً عليه.

السادسة: ختمت الآيات بالحديث عن هجرة إبراهيم إلى الأرض المقدسة. ويبدو من القرآن العظيم أن إبراهيم حينما نجاه الله من النار، قد استدعى من قبل نمرود ليحاج إبراهيم في ربه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3].

وقد كان على الذي أعطاه الله الملك -إن كان الضمير يعود على نمرود- أن يشكر الله على مننه وفضله، لا أن يحاج إبراهيم في ربه. وكانت حجة إبراهيم أن بدهه أن ربه يحيي ويميت، ويريد بذلك أن الله تعالى قد أوجد الموت والحياة وخلقهما وأبدعهما على حد قوله تعالى:

﴿تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[4].

ولكن نمرود غالطه في خط المحاججة، فقال: أنا أحيي وأميت، فانتقل بالموت والحياة من أصلها في الإيجاد والإبداع، إلى معنى آخر لا علاقة له بالمحاججة تمويهاً على الحاضرين إذ أمر كما في الروايات أن يحضر له اثنان ممن يستحق القتل، فقتل أحدهما، وأطلق الثاني، وادعى أنه يحيي ويميت.

(١) سورة الأنبياء/ الآيات ٥٧-٧١.

(٢) سورة الصافات/ الآيات ٨٨-٩٩.

(٣) سورة البقرة/ الآية ٢٥٨.

(٤) سورة الملك/ الآيات ١-٢.

ويبدو أن المناخ الاجتماعي في مجلس الملك لم يكن ليساعد إبراهيم على الإدلاء بحجته هذه حسبما أراد، أو أنه وجد الحاضرين في المجلس قد انطلت عليهم هذه الدعوى من الملك، أو أنهم لم يكونوا بالمستوى المطلوب لحجاج عقلي منطقي يستدعي التفكير والنظر، والتفريق بينما هو حقيقي وبين ما هو مجازي، أو أنه أراد حجة لا جدال فيها ولا رد فيخصم الملك باختصار الطريق بين يديه، وكسب قصب السبق دون مراء فقال إبراهيم ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾ إذ لا يستطيع الملك ولا من بمجلسه أن يدفعوا هذه الحجة لأنها غير قابلة للنقاش، فألقم حجرا، وانتصر إبراهيم والله لا يهدي القوم الظالمين.

ويبدو من خلال هذه المحاججة أن نمرود كان يعد نفسه بمصاف الآلهة، بل هو الإله لا سواه، وأنه رب إبراهيم ورب الحاضرين، لأن إبراهيم قال ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ فقال الملك على الفور ﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ دون العطف كأن يقول (وأنا أحيي وأميت) لأن مقتضى العطف هنا أن يشارك الله في الربوبية، وهو يذهب إلى أبعد من هذا بإرادة التفرد بالربوبية كما قال فرعون بما حكاه الله تعالى ﴿**وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي**﴾[1].

وكما حكى عنه ﴿**فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلى**﴾[2].

بقي الإشارة إلى ملحظ مهم في قضية إبراهيم مع أبيه آزر في قوله تعالى ﴿**وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ..**﴾[3].

فقد اختلف المفسرون في آزر هذا، فقال قسم منهم أنه أبو الصلبي كما عن الحسن البصري والسدي والضحاك، في حين يجمع المؤرخون أن أباه تارخ. ومنهم من قال إن آزر جد إبراهيم لأمه، أو أنه عمه، لا أبوه ولا جده، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

(لم يزل ينقلني من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية)[4].

فلو كان في آبائه مشرك -والعياذ بالله- لم يوصف أحد منهم بالطهارة لأن القرآن يقول:

﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ..**﴾[5].

ويؤيده ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام متحدثاً عن مهنة آزر، قال:

(كان آزر عم إبراهيم منجماً لنمرود كان لا يصدر إلا عن رأيه)[6].

والذي يدل عليه القرآن العظيم أن (آزر) لم يكن والده الصلبي، فحينما زجر آزر إبراهيم على دعوته له لنبذ عبادة الأصنام ﴿**قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا**﴾[7].

فقد سلم عليه بما يقتضي منتهى الأدب، ووعده بالاستغفار رغبة في إيمانه ونبذه للأصنام، وتوحيده الله تعالى، وقد وفى إبراهيم بهذا الوعد، فدعا له، قال تعالى حاكياً: ﴿**وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ**﴾[8].

وكان هذا الاستغفار عن موعدة سابقة، فلما تبين لإبراهيم كفره وعداؤه لله تعالى، تبرأ منه، بما حكاه الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿**وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾[9].

وهذه الأحداث جرت لإبراهيم عليه السلام وهو في سواد بابل أو الكوفة الغراء، أيام الدعوة إلى التوحيد، وتسفيه عبادة الكواكب والأصنام، وهو بعد لم يهاجر إلى الأرض المقدسة، ثم هاجر إلى الشام ومصر، وقد رزق الذرية استجابة لدعائه ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ**﴾[10].

وسافر إلى مكة المكرمة قبل تمصيرها، وأنزل بها من ذريته بواد غير ذي زرع، وبنيت الكعبة في البيت الحرام، وتأهلت المنطقة بالسكان، وكل ذلك يستدعي الكثير من السنين وفي نهاية كل هذا المطاف العريض قال بما اقتص خبره القرآن الكريم: ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ**﴾[11].

والدعاء في الآية الأخيرة دليل قاطع على أن آزر ليس أباه الصلبي الحقيقي، لأنه تبرأ سابقاً من آزر، وتدل أن أباه الصلبي هو والده الحقيقي، وإنما أطلق على آزر لفظ الأب لاستعمال القرآن والعرب ذلك في العم والجد، قال تعالى: ﴿**أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[12].

فإبراهيم جد يعقوب وإسماعيل عم يعقوب وقد سمّى القرآن كلاً منهما أباً، وجمع إليهم أباه الحقيقي وهو إسحاق.

---

(١) سورة القصص/ الآية ٣٨.
(٢) سورة النازعات/ الآية ٢٤.
(٣) سورة الأنعام/ الآية ٧٤.
(٤) ظ: الطبرسي/ مجمع البيان ٣٢٢/٢.
(٥) سورة التوبة/ الآية ٢٨.
(٦) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٠٧/٧.
(٧) سورة مريم/ الآية ٤٧.
(٨) سورة الشعراء/ الآية ٨٦.
(٩) سورة التوبة/ الآية ١١٤.
(١٠) سورة الصافات/ الآيات ١٠٠-١٠١.
(١١) سورة إبراهيم/ الآيات ٣٩-٤١.
(١٢) سورة البقرة/ الآية ١٣٣.

إذن: آزر ليس الأب الحقيقي لإبراهيم بدليل دعائه لوالده الحقيقي في أخريات أيامه، وكان قد تبرأ من آزر، فكيف يدعو له.

وقد أجمع المؤرخون أن أباه تارخ أو تارح بالخاء المعجمة أو الحاء المهملة[١].

وهاجر إبراهيم إلى الأرض المقدسة مع من آمن معه، وفي طليعتهم زوجته ولوط عليه السلام، قال تعالى:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

وقال تعالى: **﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾**[٣].

والذي يدل عليه السياق القرآني من حياة إبراهيم في سواد الكوفة وأرض بابل: أنه عاش في بدء حياته الأولى بمناخ منعزل عن حياة قومه الاجتماعية، كأن يكون في مغارة أو سرب أو نفق، حذراً عليه من القتل من قبل نمرود، فلما فارق ذلك واصطدم بالحياة العامة، بدأ بالدعوة إلى التوحيد مبتدئاً بآزر الذي وجده يعبد الأصنام، فحاججه فيها وألزمه الحجة، ثم حاج قومه فيها، وأنكر عليهم عبادة ما لا يضر ولا ينفع، ثم كسر أصنامهم، ثم عاين استنادهم لعبادة مماثلة للكواكب، والقمر، والشمس، فافترض ربوبيتها معرّضاً من أجل تفنيد الدعوى، فأسقطها جميعاً، وتوجه بوجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً، فلا رب سواه، ولا معبود إلاه، وأمده الله تعالى بإراءته ملكوت السماوات والأرض، فعرف البدء والتكوين والمعاد، وانتقم منه قومه فأججت له النار العظيمة، فنجاه الله منها بمعجزة تثير الدهشة، وحاجه نمرود في ربه، فأفلجه إبراهيم، ولم يستجب له إلا أقل من القليل، فهاجر بهم إلى الأرض التي باركها الله للعالمين، وهكذا يتجلى لدى المقارنة في البحث أن إبراهيم وذريته كوفيون بابليون عراقيون، وأن من هاجر معه من المؤمنين برسالته السماوية كذلك، ومن قبله آدم وإدريس وذريتهما، ونوح وذريته وهم الباقون بعد الطوفان العالمين وبذلك تتلخص بعد النتائج الحتمية:

١- أن الكوفة الغراء، وبابل الفيحاء، هما الأصل الأول في تكوين البشر وانتشاره في العالم من خلال هذه البقعة المباركة.

٢- أن اللغة العربية الشريفة قد انطلقت بأصالتها الكبرى من هذه الديار الشريفة.

٣- أن الرسالات السماوية العالمية لكل من إدريس ونوح وإبراهيم كان مقرها أرض السواد من العراق، وفي الكوفة بالذات كما تضافرت الروايات بذلك.

٤- إن الحضارة العالمية قد بدأت من هنا بأبي البشر الثاني نوح عليه السلام، وقد قام المؤمنون وذريته من بعده بإرساء قواعد التحضر في مظاهر عديدة، وآثار لا تقبل الشك من هاهنا أبرزها ما أبقاه السومريون والبابليون والأكاديون والآشوريون والعرب القدامى.

٥- إن هذه البقعة فيما يروى ويؤكد بالاستقراء أرض مباركة من قبل رب العالمين، لاسيما وهي تحتضن جثمان آدم ونوح وهود وصالح وذي الكفل وأخيراً تشرفت بجثمان أمير المؤمنين، وسيد الوصيين مولانا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ثم كان وادي السلام مجتمع أرواح المؤمنين وكان الدفن بهذه البقعة منجياً من عذاب البرزخ، كما تدل على ذلك الروايات المعتبرة التي لا تحصى كثرة.

بعد هذا الجزء من النتائج تقلبت الظروف في العالم، وبدأت الحروب في أقطار الدنيا، والكوفة تضمحل وتتجدد، ونورها يخبو ويتألق، والحضارة من حولها في الحيرة، والملوك قربها في المناذرة، والخورنق والسدير في ظلالها قرب الذكوات، حتى عادت حاضرة للجيش الإسلامي سنة تمصيرها في الإسلام عام ١٧من الهجرة، فقطنها العرب، وقسمت أرضها إلى أسباع في نظام قبلي يسكنه أتباع العشائر والقبائل متقاربين متجاورين، ثم حول ذلك إلى أرباع، وكل ربع من الكوفة يضم منتجعاً من القبائل العربية في لحمتها ورشائجها إلى أن عادت أحد العراقين مع البصرة.

(٦) الكوفة عاصمة الخلافة الإسلامية:

وقد اكتسبت الكوفة الشرف الشامخ حينما اتخذها أمير المؤمنين عليه السلام عاصمة للخلافة الإسلامية في الثاني عشر من رجب سنة ستة وثلاثين من الهجرة[٤].

ويوافق ذلك الرابع من كانون الثاني عام:٦٥٨ من الميلاد. وهو التأريخ الذي تبركت به جامعة الكوفة فجعلته يومها المتجدد في كل عام فكان ذلك مدعاة تقدير، ومثار إعجاب في الدوائر العلمية.

ولاختيار أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة مقراً للخلافة والإمامة أسباب تراثية وإيمانية وعسكرية وسياسية، لعل منها ما نعتقده:

١- كون الكوفة مقراً لرسالات سماوية سابقة، ومهبطاً لجملة من الأنبياء العالميين، وأثراً من آثار توحيد الله تعالى.

٢- كانت الدولة الإسلامية مترامية الأطراف في مشرقها ومغربها، وكانت الكوفة مركزاً وسطياً لتلك الدولة دون شك، فمشرق الدولة الإسلامية يتعدى إلى حدود أفغانستان وباكستان ويتاخم الصين، ومغرب الدولة الإسلامية يشمل الشام ومصر

(١) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ١١٩/١ + الكامل في التأريخ ٥٣/١.
(٢) سورة العنكبوت/ الآية ٢٦.
(٣) سورة الأنبياء/ الآية ٧١.
(٤) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٣٧٢/٢.

وما والاهما، وجنوب الدولة يحتضن الحجاز واليمن، فلم يبق إلا الكوفة دارة تجتمع حولها هذه الأقاليم المتباعدة.

٣- كان أمير المؤمنين بعد العدة يعد معركة الجمل استعداداً لمعركة صفين، وصفين تقع فعلاً ضمن محافظة دير الزور من الأراضي السورية، فهي إذن على مقربة من أعماله وكوره في الأنبار وهيت إذاً استقرت في الكوفة، فله المدد وله العدد لاسيما أن الكوفة مربض أنصاره وأصحابه وأوليائه من العرب تمده بالرجال والسلاح والنصرة.

٤- أما كون الإمام علي عليه السلام قد أراد أن يبتعد بالمدينة المنورة عن الحروب والفتن فلا أصل له، فقبله رسول الله صلى الله عليه وآله قد قاد حوالي ثمانين معركة وغزوة وسرية من المدينة المنورة، فهلا ابتعد بها عن هذه الحروب؟

ومهما يكن من أمر فقد توسطت الكوفة الدولة الإسلامية، وانطلق منها الإشعاع الإيماني والفكري في عهد الإمام علي عليه السلام ليشمل الجزيرة العربية والحواضر الإسلامية، واحتضنت (بيت المال) للمسلمين، ليصرف في عدالة صارمة، وسواسية حقة بين الناس على سواء، وليموّن الجيش الإسلامي بما يحتاج إليه من الميرة ورباط الخيل والسلاح، وليستقطب الدولة في ظل ذلك شعاع العدالة الاجتماعية المفقودة، فلا أرستقراطية لقريش على من سواها، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

وعَمُر السواد من خلال سياسة الإمام علي عليه السلام الاقتصادية، فكان الخصب والثمر والغلال والألبان، وكانت الأنعام والأبقار والمواشي، وكان الربيع الذي انتهى بالجوع وشيعه في خلافة ما اكتملت سنواتها الخمس لما تخللها من الحروب والفتن ذلك لإرادته حمل الناس على المحجة البيضاء.

وفوق هذا كله فقد أخذ نفسه بشدة ما بعدها شدة، فلبس ما خشن وأكل ما جشب، وهو القائل: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً»[١].

وكانت همته نفسه ورياضتها بالأصعب، لتأمن يوم القيامة، قال: «وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق»[٢].

وهو عليه السلام قادر كل القدرة على تخير الأطعمة والأشربة، والتأنق بالرياش والمعاش، ولكنه يجانب هواه، ويريد مواساة الناس، بكل ما يستطيع وهو القائل «ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة - ولعل بالحجاز واليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع- أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرى أو أكون كما قال القائل:

وحسبك عاراً أن تبيت ببطنة ... وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش»[٣].

ثم يخاطب الدنيا خطاب الناقد البصير والزاهد الخبير: «إليك عني يا دنيا، فحبلك على غاربك، قد انسللتُ من مخالبك وأفلتُّ من حبائلك واجتنبت الذهاب في ملاحضك»[٤].

وهذا غيض من فيض هذا الباب المتسع حتى لا يستبد الطغاة بالغنى، ولا يزري بالفقير فقره.

بلى قد أنزلت السماء بركاتها وأخرجت الأرض ثمراتها وكان الكوفيون يرون في أمير المؤمنين بطل الاستقلال السياسي للعراق، وعملاق الفكر الإسلامي في الحياة حتى ذهب شهيد عظمته بمثل هذه الأيام، فانطوى ذلك الحلم الرائع، وأسدل الستار على ذلك الأمر المشرق، وبحق ما وصفه به ضرار بن ضمرة حينما دخل على معاوية فقال له صف لي علياً، فقال:

«كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نوحيه، يعجبه من الطعام ما خشن، ومن اللباس ما قصر وكان والله يجيبنا إذا دعوناه ويعطينا إذا سألناه، وكنا والله -على تقريبه لنا، وقربه منا- لا نكلمه هيبة له، ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا، يبسم عن ثغره كاللؤلؤ المنظوم يعظم أهل الدين، ويرحم المساكين ويطعم في المزغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكناً ذا متربة، يكسو العريان، وينصر اللهفان، ويستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل وظلمته، وكأني به وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وهو في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول:

يا دنيا غري غيري، ألي تعرضتِ أم إلي تشوقت؟

هيهات هيهات!! ألا حان حينك، قد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك عمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق»[٥].

وليكن هذا آخر حديثنا، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٢٠٥/١٦.

(٢) المصدر نفسه ٢٠٨/١٦.

(٣) المصدر نفسه ٢٨٧/١٦.

(٤) المصدر نفسه ٢٩٢/١٦.

(٥) المسعودي/ مروج الذهب ٤٢١/٢.

المصادر والمراجع

١- خير ما نبدأ به: القرآن الكريم.

٢- ابن الأثير/ أبو الحسن، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ).
الكامل في التاريخ/ تحقيق نخبة من العلماء دار الكتاب العربي/ بيروت ١٩٦٧م.

٣- أحمد نسيم سوسة (الدكتور). فيضانات بغداد/ بغداد/ ١٩٤٦م.

٤- ابن بطوطة/ أبو عبد الله/ محمد بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩).
رحلة ابن بطوطة- تحفة النظار في غرائب الأمصار
طبع المكتبة التجارية لمصطفى محمد/ القاهرة/ د. ث.

٥- جعفر باقر محبوبة. ماضي النجف وحاضرها/ الطبعة الأولى/ مطبعة العرفان/ صيدا/ ١٣٥٣هـ

٦- ابن أبي الحديد/ عز الدين/ عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت٦٥٦هـ).
شرح نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.
تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم/ ج١٦/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة/ ١٩٦٢م.

٧- دليل المتحف العراقي لسنة ١٩٦٠م. بغداد/ ١٩٦١م.

٨- الراغب الأصبهاني/ الحسين بن محمد بن المفضل (ت٥٠٢هـ).
المفردات في غريب القرآن.
تر: محمد سيد كيلاني/ مطبعة مصطفى البابي/ القاهرة ١٩٦١م.

٩- ستوين لويد. موجز تأريخ العراق منذ أقدم العصور حتى الآن.
ترجمة: طه باقر وبشير فرنسيس/ جامعة أكسفورد/ لندن/ ١٩٤٣م.

١٠- سعد حاتم مرزة (المهندس).
معجزة القرآن والطوفان/ مطبعة الحوادث/ بغداد/ ١٩٩٥م.

١١- صفي الدين بن عبد الحق (ت٧٣٩هـ).
مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع/ طبعة بولاق. القاهرة.

١٢- ابن طاووس/ رضي الدين/ علي بن موسى بن جعفر (ت٦٦٤هـ)، مصباح الزائر/ المطبعة الحيدرية/ النجف.

١٣- ابن طاووس/ غياث الدين عبد الكريم بن أحمد بن طاووس (ت٦٩٣هـ).
فرحة الغري/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٧٧هـ

١٤- الطبرسي/ أبو علي/ الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ).
مجمع البيان في تفسير القرآن/ مطبعة العرفان/ صيدا/ ١٣٣٣هـ

١٥- الطبري/ أبو جعفر/ محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ).
تأريخ الأمم والملوك.
دار القاموس الحديث/ طبعة مصورة/ بيروت/ د. ت.

١٦- الطوسي/ أبو جعفر/ محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، تهذيب الأحكام/ طبعة إيران.

١٧- عباس محمد رضا القمي النجفي (ت١٣٥٩هـ).
مفاتيح الجنان/ تعريب: محمد رضا النوري النجفي.
دار الجيل/ بيروت/ د. ت.

١٨- ابن كثير/ أبو الفداء/ إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ).
قصص الأنبياء/ منشورات مكتبة النهضة/ بغداد/ ١٩٨٣م.

١٩- الكليني/ أبو جعفر/ محمد بن يعقوب بن إسحق الرازي البغدادي (ت٣٢٩هـ).
أصول الكافي. دار الكتب الإسلامية/ طهران/ ١٣٧٨هـ

٢٠- الكليني/ أبو جعفر/ نفسه فيما سبق/.
الفروع من الكافي تحقيق الغفاري والأملي/ المطبعة الإسلامية/ طهران/ ١٣٨٨هـ

٢١- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن/ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت/ ١٩٧١م.

٢٢- محمد صالح الجوهرجي، ضياء الصالحين/ مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٣٨٥هـ

٢٣- المسعودي/ أبو الحسن/ علي بن الحسين المسعودي الحلي البغدادي (ت٣٤٦هـ).
مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الأندلس للطباعة والنشر/ بيروت ١٩٦٥م.

٢٤- ملحمة كلكامش/ حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد، نص شعري سومري/ ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس، مجلة سومر/ ٢/٦/ بغداد.

* * *

مدينة الكوفة

منذ تأسيسها حتى نهاية العهد الأموي

الدكتور كامل سلمان الجبوري

رئيس التحرير

الكوفة: هي ثاني مدينة مُصِّرت في الإسلام، ثم أصبحت من المراكز الزاهرة للعلم والحضارة الإسلامية العربية. وللكوفة تاريخٌ سياسيٌ وحضاريٌ حافل، فمنها اتخذ الإمام عليٌ عليه السلام أول عاصمة عراقية للإسلام، وفيها استشهد بعد أن زرع هو وعددٌ من قادة الفكر الإسلامي، أمثال عبد الله بن مسعود، وكميل بن زياد النخعي، وأبي الأسود الدؤلي، غرساتٍ فكرية ما لبثت أن أينعت وأتت ثمارها بعد أن أصبحت الكوفة وربيبتها البصرة أعظم مركزين للفكر العربي الإسلامي خلال العهد الأموي.

وسنأتي على ذكر بعض التفصيلات عن تأريخ هذه المدينة فنقول:

معنى كلمة الكوفة: لو بحثنا معنى كلمة الكوفة لوجدنا أن المصادر توردُ لها معانٍ عديدة، فالبلاذري يقول: «إن المواضع المستديرة من الرمل تسمى كوفاني، وبعضهم يسمي الأرض التي فيها الحصباءُ مع الطين والرمل كوفةً». وفي روايةٍ أخرى يرى البلاذري: أن اسم الكوفة مشتقٌ من التكوف الذي هو بمعنى الاجتماع[١]. ويورد ياقوت المعاني التي أوردها البلاذري لمعنى كلمة الكوفة، ويقول عند كلامه عن كلمة كوفان: إنها اسم أرض وبها سميت الكوفة، وإن كوفان والكوفة واحد. ويستشهد ياقوت بأبيات من الشعر لعلي بن محمد الكوفي المعروف بالحمّاني نوردُ منها البيت التالي:

ألا هل من سبيلٍ إلى نظرةٍ بكوفان يحيى بها الناظران[٢]

واختلف الباحثون المحدثون في أصل كلمة الكوفة، كلمة عربية هي أم أعجمية؟ وكان الأستاذ يعقوب سركيس من بين من قالوا بأنها أعجمية. واستنتج الأستاذ المذكور بعد مناقشة للمصادر المختلفة، بما فيها الكلدانية، أن الكوفة محرّفة عن كلمة «كوبا» الكلدانية[٣]. أما الأستاذ ماسنيون، فيرى أن كلمة الكوفة ترجمة لكلمة «عاقولا» بالسريانية. وتعني تلك الكلمة «دائرة أو حلقة» في اللّغة المذكورة[٤].

وقد استعرض الدكتور كاظم الجنابي طائفة كبيرة من المصادر الباحثة عن أصل كلمة الكوفة كما ناقش آراء عدد كبير من الكتّاب المحدثين، وتوصل إلى أن الكوفة «بلا شكٍ اسم عربي»[٥].

ويبدو أن الآراء التي أدلى بها الباحثون ممن ذكرنا هنا وممن لم نذكر حول عجمة اسم الكوفة أو عروبته عرضة للمناقشة، لأن اسم الكوفة -كما يظهر- مشتق من شكل أرض موقع الكوفة وسماته الطبيعية، لذا يتحقق أصله الناتج عن الوصف الطبيعي لموضعها بغض النظر عمّن أطلقه على تلك البقعة العراقية. ومن الأدلة على ذلك:

أولاً: أن البلاذري في إحدى رواياته، يقول: إن بعضهم يسمي الأرض التي فيها الحصباء مع الطين والرمل كوفةً. ولا شك أن أرض الكوفة حتى يومنا هذا تحتفظ بتلك الصفات التي ربما اتصفت بها قبل أن ينزلها السريان ومن بعدهم العرب. فاسمها والحالة هذه مشتقٌ من سماتها الطبيعية المعروفة قبل قدوم الجماعتين المذكورتين إليها.

ثانياً: إن كلمة «الكُبّ» بالضم وتشديد الباء تعني الحمض باللغة العربية[٦]. وتعني كلمة «كوبا»: كب بالسريانية، شوكة. و«كوبا دكملا» بكاف فارسية، عاقول وهو النبات الذي تأكله الإبل[٧].

وإذا كانت كلمة الكوفة محرّفة عن كلمة «كوبا» السريانية فيظهر أن الاسم السرياني المزعوم مأخوذٌ من نباتٍ ربما كان

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان (القاهرة، ١٩٣٢) ص٢٧٥.

(٢) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج٧ (القاهرة، ١٩٠٦) ص٢٩٤-٢٩٥.

(٣) مباحث عراقية، ج٢ (بغداد، ١٩٥٥)، ص٣٢٤-٣٢٥.

(٤) ماسينون، لويس، خطط الكوفة - ترجمة تقي المصعبي (صيدا، ١٩٣٩) ص٢٥.

(٥) تخطيط مدينة الكوفة (بغداد، ١٩٦٧)، ص١٣-١٤.

(٦) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، «مادة كبه»، ج١، ص١٢١.

(٧) سركيس، المصدر السابق، ج٢، ص٣٢٥.

موجوداً بموضع الكوفة قبل أن يطأه السريان ثم العرب من بعدهم، يضاف إلى ذلك أن ياقوت الحموي عند كلامه عن كوفان التي هي والكوفة عنده شيءٌ واحدٌ كما أسلفنا، يقول: «والكوفان الدغل من القصب والخشب..»[١]. ومن المعلوم أن الحمض الذي تأكله الإبل متوفرٌ حتى يومنا هذا بين النجف وكربلاء، وأن الدغل والقصب من النباتات التي تنمو عادةً على حافّات الأنهار ومن بينها موضع الكوفة.

ثالثاً: إن من معاني كلمة «عاقولا» الكلدانية: فتلةٌ، عوجه، لفته، ومن معانيها بالعربية كما هو معلوم، منعطف الوادي أو النهر[٢]. ولذا يكون من المحتمل أن السريان أو العرب بعدهم رأوا ذلك المنعطف حين يمر وادي الفرات بموضع الكوفة، وأطلقوا اسم المنعطف على الموضع الذي بُنيت فيه الكوفة فيكون اسمها والحالة هذه مأخوذاً من انعطاف الوادي المجاور لها، ولعلّه أقدم تاريخاً من وجود السريان والعرب في الموضع المذكور.

ونستنتج من كل ما سبق أن اسم الكوفة مشتقٌ من النباتات أو الرمال المخلوطة بالحصباء والطين، أو من منعطف الوادي التي أشارت المصادر إلى وجودها قبل قدوم السريان وبعدهم العرب إلى موضع الكوفة.

تمصير الكوفة:

مُصّرت الكوفة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، أسسها القائد سعد بن أبي وقاص سنة (١٧هـ-٦٣٨م). ويبدو أن تأسيسها تمّ بعد فحص وتدقيق، وبعد تجربة مواقع أخرى من أرض السواد، وعندما أمر الخليفة عمر سعداً «أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا»[٣]، وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً[٤] أخذ القائد يبحث عن الوضع المطلوب، فوقع اختياره على الأنبار، ولكنه ما لبث أن تركها لأن الذباب آذى من نزلها من العرب. ثم انتقل سعدٌ من الأنبار إلى موضع آخر فلم يتحقق صلاحه، وحينئذٍ اختار موضع الكوفة واختطّ مدينته الجديدة فيه.

ويظهر من رواية أخرى للبلاذري: أن الخليفة أكّد على جودة مناخ الموقع المقترح، فطلب من سعدٍ أن يرتاد للمسلمين «موضعاً عدناً..»[٥].

ويبدو أن الخليفة أكّد على توفر الشروط التالية في المحل المقترح:

أولاً: أن يكون الموضع صالحاً لأن يكون محلاً للاستيطان ودار هجرة للمسلمين.

ثانياً: أن تكون مستلزمات الدفاع متوفرة فيه.

ثالثاً: أن يكون مناخه جيداً.

ويظهر أن سعداً التزم بتطبيق مقترحات الخليفة ما وسعه ذلك، وحاول سعدٌ أن يستفيد من أهل الخبرة بهذا الخصوص.

روى المسعودي: أن سعداً استشار نفيلة الغساني أثناء بحثه عن موضع المدينة الجديدة، فقال نفيلة لسعد: «أدلُّك على أرضٍ ارتفعت عن البر وانحدرت عن الغلاة. فدله على موضع الكوفة اليوم»[٦].

أما ياقوت فيقول: إن سعداً استشار شخصاً يعرف بابن بقيلة، فقال له: «أدلُّك على أرضٍ انحدرت عن الفلاة، وارتفعت عن البقة، قال له: نعم، فدلّه (ابن بقيلة) على موضع الكوفة اليوم»[٧].

ويقول ياقوت أيضاً عند كلامه عن اللسان من أرض العراق: «وكان مقام سعد بالقادسية بعد الفتح بشهرين، ثم قدم زهرة بن حوية إلى العراق، واللّسان لسان البر الذي أدلعه في الريف عليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم.. قالوا: ولما أراد سعدٌ تمصير الكوفة أشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللّسان، وظهر الكوفة يقال له اللّسان.. فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط وما كان يلي البطن منه فهو النجاف».

قال عدي بن زيد أبياتاً جاء فيها ذكر اللّسان، كما فيها إشارة إلى موقع الكوفة منها:

ويح أمّ دارٍ حللنا بها ... بين الثُّويّة والمردمة[٨]

ويروي ياقوت بمعرض كلامه عن الكوفة: «المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق. ويسميها قومٌ خدّ العذراء..»[٩] وروى عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «يا حبذا مقالنا بالكوفة -أرض سواءٌ سهلةٌ معروفة- تعرفها جمالنا العلوفة»[١٠].

أما صلاح موقع الكوفة من الناحية العسكرية، فيبدو أن سعداً أعاره طرفاً من اهتمامه، ويبدو أن شروط الدفاع كانت متوفرة في المدينة الجديدة، لذا سميت كوفة الجند، روى ياقوت بيتاً لأحدهم هذا نصّه:

إن التي وضعتْ بيتاً مهاجرةً ... بكوفةِ الجُند غالتْ ودَّها غولُ

يضافُ إلى ذلك أن سعداً أخذ بنصح الخليفة فلم يترك بحراً أو نهراً بين مدينته الجديدة وبين الصحراء.

---

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج٧، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٢) سركيس، المصدر السابق، ج٢، ص٣٢٥.

(٣) القيروان - الجماعة من الخيل والقفل ومعظم الكتيبة (الفيروزآبادي، القاموس، مادة (القرن)، ج٢، ص٢٥٧). ويبدو أن المقصود الموضع الصالح من الناحية العسكرية.

(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٧٤.

(٥) أيضاً، ص٢٧٤.

(٦) مروج الذهب، ج٣، (القاهرة، لا. ت) ص٢١٢.

(٧) معجم البلدان، ج٧، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٨) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٢٨.

(٩) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٩٦.

(١٠) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٩٩.

وكان لحفظ الاتصال بالصحراء أهمية كبيرة من الناحية العسكرية، إذ يستطيع المسلمون عند ظهور ضرورات عسكرية أن ينسحبوا إلى الصحراء على خيولهم وجمالهم ذوات الحركة السريعة بسهولة ويسر. وقد ساعدهم ذلك في مناسبات عديدة خلال حروبهم مع الروم والفرس على النجاح. وقد أشار إلى ذلك فون كريمر الذي قرر أن تمتع الجيوش الإسلامية بسرعة الحركة، وأن استخدام العرب الجمل في حروب الفتح كان من العوامل المساعدة على نجاحهم بتلك الحروب، ويمكننا أن نستنتج مما أوردناه عن موقع الكوفة ما يأتي:

أولاً: صلاح الموقع من الناحية العسكرية.

ثانياً: ملاءمة المناخ للسكان الجدد الذين لم يألفوا السكنى في المستنقعات وفي الأرض المعروفة بكثرة البقّ.

ثالثاً: خصوبة المنطقة ووفرة محصولاتها ومراعيها.

ويروى أن محمد بن عمير العطار الذي قال: «إذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبّت الجنوب جاءتنا ريح السواد ووردِه وياسمينه وأترجنه، ماؤنا عذبٌ، وعيشنا خصبٌ»[1]. وقال عليّ بن محمد الكوفي يصف الكوفة:

وأنوارُها مثل برد النبيّ رُدّع بالمسكِ والزعفران[2]

وقال الطبري: أن سعداً حين نزل الكوفة كتب إلى عمر: «إني قد نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات، بريا بحرياً، ينبت الحليّ والنصيّ..»[3].

تخطيط الكوفة واستيطان المسلمين فيها:

بعد أن قرّ رأي سعد بن أبي وقاص على اختيار موضع الكوفة شرع بتخطيط المدينة الجديدة، ويبدو أن المدينة بُنيت في أول الأمر بالقصب على شكل معسكر مؤقت. ذكر الطبري: أن الخليفة عمراً سمح ببناء البصرة والكوفة بالقصب «ثم إن الحريق وقع بالكوفة والبصرة» فاستأذن سعدٌ من عمر بالبناء باللّبن فوافق الخليفة بعد أن زوّد قائد جيشه بمقترحات حول تخطيط المدينة وبنائها.

وكان من بين المقترحات ما له علاقة بأبعاد طرق المدينة. إذ أنه «أمر بالمناهج -الطرق الرئيسية- أربعين ذراعاً، وما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين عشرين، وبالأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء، وفي القطائع ستين ذراعاً..» وكان أول شيء خُطَّ بالكوفة، وبني حين عزموا على البناء المسجد وقصر الكوفة أو دار الإمارة[4].

(١) الحموي، ياقوت، المصدر السابق، ج٧، ص٢٩٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٩٤.
(٣) تأريخ الرسل والملوك، ج٣، (القاهرة ١٩٣٨)، ص١٤٧.
(٤) الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص١٤٨.

وسنرجئ الحديث عن المسجد والقصر إلى موضع آخر من هذا البحث، المناهج الرئيسة: يقصد بالمناهج الرئيسة، وكانت على رواية الطبري محيطة بالحصن (الميدان) وموزعةً حسب جهاته، كما يأتي:

أولاً: المناهج (١، ٢، ٣، ٤، ٥) في ودعة الصحن (شمالي المسجد).

ثانياً: المناهج (٦، ٧، ٨، ٩) في قبلة الصحن (جنوبي المسجد).

ثالثاً: المناهج (١٠، ١١، ١٢) في شرقي الصحن (شرقي المسجد)

رابعاً: المناهج (١٣، ١٤، ١٥) في غربي الصحن (غربي المسجد).

وكان إنزال القبائل وتوزيعها على المناهج مرتباً على الوجه التالي:

أ- في شمال المسجد، خصص الطريقان (١، ٢) لسليم وثقيف واحد لكل منهما، وخُصص الطريقان (٣، ٤) لهمدان وبجيلة واحد لكل منهما، أما الطريق الخامس فقُسّم بين تيم اللّات وتغلب.

ب- في جنوبي المسجد، خُصص الطريق (٦) لبني أسد، والطريق (٧) قُسّم بين أسد والنخع، والطريق (٨) قُسّم بين النجع وكندة، والطريق (٩) قُسّم بين كندة والأزد.

ج- في شرق المسجد، خُصّص الطريق (١٠) للأنصار ومزينة، والطريق (١١) خُصص لتميم ومحارب، والطريق (١٢) خصص لأسد وعامر.

د- في غربي المسجد، خُصص الطريق (١٣) إلى بجالة وبجلة، والطريق (١٤) خُصص إلى جدبلة وأخلاط وخُصص الطريق (١٥) إلى جهينة وأخلاط

ويقول الطبري أيضاً: أن القبائل المذكورة كانت تلي الصحن أما «سائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك»[5].

إن المعلومات المتعلقة بترتيب طرق الكوفة وفي أبعادها مسقاةٌ من الطبري، وقد وردت رواية في كتاب البلدان لليعقوبي بشأن عرض الشوارع ربما تخالف ما ذُكر. فاليعقوبي يقول: «وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد أن يجعل سكك الكوفة خمسين ذراعاً بالسواء»[6]. ونميل إلى القول بعدم وجود اختلاف بين رواية الطبري السابقة ورواية اليعقوبي، لأن السكك كانت بمثابة الشوارع الحقيقية، وهي غير الطرق التي عناها الطبري.

ويبدو من رواية البلاذري أن المصادفة لعبت دورها في تقسيم موضع الكوفة بين الجماعتين العربيتين الرئيسيتين

(٥) الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٩.
(٦) اليعقوبي، البلدان (النجف، ١٩٥٧)، ص٧١.

وهما أهل اليمن ونزار، يقول البلاذري: «وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين، على أن من خرج بسمه أولاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما، فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي، وصارت خطط نزار في الجانب الغربي»[١] وكان أهل اليمن أكثر عدداً من عرب الشمال. قال الشعبي: «كنا -يعني أهل اليمن- اثني عشر ألفاً، وكانت نزار ثمانية آلاف، ألا ترى أنّا أكثرُ أهل الكوفة، وخرج سهمنا بالناحية الشرقية، فلذلك صارت خططنا بحيث هي»[٢].

ويبدو أن الاعتبارات العملية هي التي أملتْ على سعد القرارات التي اتخذها عند تخطيطه للمدينة الجديدة، وأن عامل المصادفة الذي أشرنا إليه قبل قليل عند إيراد رواية البلاذري كان ذا أهمية ضئيلة إن لم تكن معدومة، فإنزال نزار بجانب، وأهل اليمن بجانب آخر، أمرٌ اقتضته الاعتبارات القبليةً والاختلافات بين الجماعتين العربيتين الرئيسيتين.

أما تخصيص القسم الشرقي، وهو أفضل من القسم الغربي لقربه من الفرات، لأهل اليمن فيبدو أنه كان نتيجة لكثرة عدد أهل اليمن أو لقوتهم، وربما لحسن اختيارهم لأنهم أكثر تمدّناً وأكثر إلفةً للحياة المدنية من القبائل المنتسبة لعرب الشمال.

ويبدو أن اختيار المواقع ضمن المنطقة التي خُصصت لتخطيط المدينة كان موضع اهتمام ذوي العلاقة، فيروي ياقوت: أن سعد بن أبي وقاص ولّى السائب بن الأقرع، وأبا الهياج الأسدي خطط الكوفة». وقال ابن الأقرع لدهقان الفلوجة: «اختر لي مكاناً من التربة، قال: ما بين الماء إلى دار الإمارة، فاختطّ لثقيف في ذلك الموضع»[٣].

وثقيف كما هو معلوم، كانت قبيلة متمدنة يشتغل معظم أفرادها بالتجارة، واهتمامها باختبار موقع سكناها من الكوفة يجعلنا نرجّح أن أهل اليمن -وشأن غالبيتهم في اليمن شأن ثقيف- هم الذين اختاروا الموضع الجيد من الكوفة -كما أسلفنا- ولم يُخصص لهم ذلك الموضع مصادفة.

عدد سكان الكوفة ومساحتها في حدود الثلاثين عاماً التي تلت تأسيسها:

إن المعلومات التي نوردها بصدد مساحة الكوفة وعدد سكاها في الفترة موضوع البحث عرضة للمناقشة، كما أن التقادير التي اقترحتها لعدد السكان كانت تقديرية، ولذا لا يمكن الجزم بصحتها، وبالرغم من ذلك فإن إيرادها لا يخلو من فائدة:

(١) فتوح البلدان ٤، ص٢٧٥.
(٢) أيضاً، ص٢٧٦.
(٣) المصدر السابق، ج٧، ص٢٩٧.

أولاً: إن الخليفة عمر طلب من القائد سعد أن يختطّ المسجد الجامع على عدد المقاتلة فخطّ على أربعين ألف إنسان، فلما قدم زياد بن أبيه زاد فيه عشرين ألف إنسان. وقال الشعبي -كما أسلفنا-: إن أهل اليمن اثنا عشر ألفاً، وأن نزار ثمانية آلاف[٤]. وروى البلاذري أنه: «كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شاهنشاه فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبّوا.. وأنزلهم سعد بحيث اختاروا.. وكان لهم نقيب منهم يقال له ديلم فقيل حمراء ديلم»، ثم يقول البلاذري: أن جماعة من الأساورة بعد أن فتح المسلمون قزوين، أتوا الكوفة فأقاموا بها[٥].

وفي رواية أخرى قال البلاذري: إن يوسف بن عمر، قال: «نظرت في جماعة مقاتلة البصرة أيام زياد فوجدتهم ثمانين ألفاً، ووجدت عيالهم مائة ألف وعشرين ألفً مقاتل وعشرين ألف عيل، ووجدت العرب مقاتلة الكوفة ستين ألفاً وعيالهم ثمانين ألفاً»[٦].

ويبدو من الروايات السابقة أن عدد مقاتلة الكوفة العرب، في الفترة موضوع البحث كان ستين ألفاً، وأن عيالهم ثمانون ألفاً، وأن حمراء ديلم أربعة آلاف، ويقدر عدد عيالهم قياساً على عدد عيال العرب بستة آلاف، وعلى فرض أن عدد الأساورة الذين جاءوا من قزوين ونزلوا الكوفة يقدر بألفين.

وإذا علمنا أن عدداً من السكان العرب لا يدخلون في هذا الإحصاء، لأن الديوان خاصٌ بالمقاتلة وعيالهم، أما غير الصالحين للقتال فلا ينالون عطاءً من الدولة، ولا تُدرج أسماؤهم في الديوان، يضاف إلى ذلك أن عدد السكان النصارى الذين لا يدخلون في عداد المقاتلة يمكن تقديره بعشرة آلاف، نظراً لأن معظم سكان الحيرة التي أُسست الكوفة على أنقاضها كانوا نصارى، ويترتب على ما سبق، يمكن أن يقدر مجموع سكان الكوفة في الفترة موضوع البحث في حدود المائتين ألف نسمة، وإذا أخذنا عدد دور الكوفة مقياساً لتقدير سكانها لوجدنا أن الرقم السابق يتضاعف لأن عدد دورها كان، على رواية بشر بن عبد الوهاب، ثمانين ألفاً[٧] مع الافتراض بأن كل دار كان يسكنها خمسة أشخاص، ونعتقد أن هذا العدد مبالغٌ فيه للأسباب التالية:

أ- يقصد بالمقاتلة العرب أفراد الجيش الذين أُنيطت بهم الحروب الداخلية والخارجية في المناطق التابعة للكوفة، سواء كان ذلك في حدود العراق الحالية أو في خارجها، وليس من الضروري أن يسكن جميع هؤلاء في العاصمة، وربما سكن الكثير منهم في مدنٍ ومعسكرات قريبة من الكوفة، وإن أدراجهم بديوان

(٤) ياقوت، المصدر السابق، ج٧، ص٢٩٧.
(٥) فتوح البلدان، ص٢٧٩.
(٦) أيضاً، ص٣٤٤-٣٤٥.
(٧) ياقوت الحموي، ج٧، ص٢٩٧.

مقاتلة الكوفة لا يعني حصراً أنهم سكنوا فيها.

ب- من المحتمل أن أسماء وهمية كانت تُسجل بالديوان لغرض سحب العطاء، لذا يصعب أخذ العدد المسجل بالديوان أساساً لمعرفة سكان المدينة.

ج- إن مشكلات التموين والإسكان خاصة في فترة تأسيس المدينة تجعل القيام بسدِّ الحاجات الضرورية لعدد كبير من السكان أمراً بالغ الصعوبة، لذا لا نحتمل وجود العدد المذكور في مدينة الكوفة في الفترة موضوع البحث.

أما مساحة الكوفة فتقدرها الرواية التي أوردناها عن بشر بن عبد الوهاب قبل قليل بستة عشر ميلاً وثلثي الميل[1]. ولا نستطيع أن نحدد بالضبط السنة التي جرى فيها التقدير المذكور، ولكننا مع ذلك نعلم أن بشراً هذا كان من موالي بني أمية والحالة هذه معاصرٌ لهم، ومن المعلوم أن الميل يساوي (١٠٦٩) أمتار أو (٣٠٠٠) ذراع بالمقياس القديم[2].

المسجد ودارُ الإمارة:

أولاً- المسجد:

كان المسجد أول بناء خُطط ثم شُيّد في الكوفة، ويبدو أن المسجد أُقيم في موضعٍ مرتفع من المدينة. ويحدد البلاذري موضع المسجد، بقوله:

«ثم وضع سعدٌ مسجدها ودار إمارتها في مقام العالي وما حوله». ثم يبيّن البلاذري: أن مخططي المسجد بدأوا بتعيين جدار القبلة أولاً[3]. وتعيين الجدار المذكور أمرٌ ضروري، لأن تعيين جدار القبلة من شأنه أن يُسهّل تخطيط بقية الجدران، وكان المسجدُ مربّع الشكل يساوي ضلعه رمية سهمٍ -حسب رواية البلاذري السابقة ورواية الطبري-[4].

وفي معرض الكلام عن شكل بناء المسجد يقول الطبري: «فتُرك المسجد في مربعة علوه من كل جوانبه، وبنى ظلّة في مقدمة ليست لها مجنباتٌ ولا مواخير والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا.. وكانت ظلته مائتي ذراع، على أساطين رخام كانت للأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية، وأعلَموا على الصحن بخندقٍ لئلا يقتمه أحدٌ ببنيان»[5].

ويبدو أن موقع المسجد تغيّر بعد فترة قليلة من تخطيطه لأول مرة، وذلك على أثر حصول سرقة ببيت المال الذي كان جزءً من دار الإمارة الواقعة على مقربة من المسجد، وبعد أن أُخبر الخليفة عمر بحصول السرقة كتب إلى سعد: «أن انقل المسجد حتى تضعه إلى جانب الدار، واجعل الدار قبلتَه.. فنقل المسجد وأراغ بنيانه».

ويذهب الطبري إلى أن سعداً طلب من أحد المعماريّين الفرس أن يتولى بناء دار الإمارة والمسجد، فقال المعمار لسعد: «أنا أبنيه لك وابني لك قصراً فأصلهما ويكون بنياناً واحداً. فخطَّ قصر الكوفة على ما خُطّ عليه، ثم أنشأه من نقض آجر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة على مساحته اليوم»[6].

وجاءت كلمة أراغ على صورة إفراغ طبقاً لإحدى النسخ التي اعتمدها ناشر طبعة ليدن للطبري.

ونفيد من الروايات السابقة أن المسجد الذي بناه سعدٌ يتصف بما يأتي:

أولاً- كان المسجد مربّع الشكل ذا ظلة أو جزء مسقوف لإيواء المصلّين، وليس له مجنباتٌ ولا مؤخرة، وإن قبلته منحرفةٌ قليلاً عن الاتجاه الذي يحدده علم الهيئة القديم.

ثانياً- لم يكن المسجد مسوّراً لذلك أعلموا على الصحن بخندق لئلا يقتحمه أحدٌ ببنيان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الطبري روى عن عطاء مولى إسحاق بن طلحة، أنه قال: «كنتُ أجلس في المسجد الأعظم قبل أن يبنيه زياد، وليست له مجنباتٌ ولا مواخير، فأرى منه دير هند وباب الجسر»[7].

ومن الجدير بالذكر أن الموضعين الواردين في النصّ السابق يقعان بالقرب من الفرات كما يظهر على الخريطة التي تخيّلها ماسنيون لمدينة الكوفة.

ثالثاً- يبدو أن ضعفاً ظاهراً في رواية الطبري السابقة القائلة: بأن المسجد والقصر بنيا من نقضِ آجرٍ كان مستعملاً ببناء الأكاسرة يقع في ضواحي الحيرة، ويعود ذلك الضعف للأسباب الآتية:

أ- بُعدُ المسافة بين الكوفة والحيرة، كانت المسافة بين موضع المدينة الجديدة والحيرة تبلغ ثلاثة أميال[8].

ولا شك أن كلفة نقل الأنقاض من مسافة كهذه تكون كبيرة.

ب- إن كلفة نقض الآجر من بناء قائم، ثم كلفة تنظيفه ليكون صالحاً للاستعمال مجدداً ربّما تزيد على كلفة عمل آجرٍ جديد، لا سيما إذا علمنا أن الحطب الذي يُشوى به اللّبنُ ليصبح آجراً، متوفر في الكوفة حيث أُقيم البناء الجديد.

---

(١) أيضاً، ج٧، ص٢٩٧.

(٢) الذراع الآدمي المعبَّر عنه في كتب الفقه يساوي ٤٧سنتمتراً، والذراع القديم يساوي ٦١سنتمتراً.

(٣) فتوح البلدان، ص٢٧٥.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص١٤٨.

(٥) تاريخ الرسل والملوك: ٣: ١٤٨. ويرى الجنابي (مسجد الكوفة ص٢٢). المواخير، «ج» ماخور وهو بيت الريبة والشك ويظهر -على زعمه- أن النص مصحَّف والمقصود به مؤخرة المسجد كما يدل على ذلك سياق الكلام. ومواخير «ج» مؤخرة. القاموس المحيط مادة «اخر».

(٦) أيضاً ج٣، ص١٥٠.

(٧) أيضاً ج٣، ص١٥١.

(٨) اليعقوبي، البلدان (النجف، ١٩٥٧)، ص٦٩.

ج- إن الطابوق المنقوض من بناء قديم يتعرّض للكسر في الغالب، ثم يصعب استعمال الجصّ كمادة لاصقة له بعد نقضه. يضاف إلى ذلك أن آجراً بهذه الصفة لا يصلح أن يُستعمل لإقامة بناء ذي أهمية كما هي الحال في بناء المسجد ودار الإمارة في الكوفة.

د- إن التنقيبات الأثرية التي أجرتها مديرية الآثار العراقية تؤيد ما ذهبت إليه بخصوص مواد البناء المستعملة في مسجد الكوفة ودار إمارتها.

قال الدكتور الجنابي: «أثبت البحث الأثري أن مادّة البناء المستعملة هي الآجر والجصّ، وبعد الفحص الدقيق ثبت لدينا أن الآجر المستعمل في بناء الدار جميعه من صنع محلي غير مختلفٍ ولا مهشم ولا منزوع أو منقول من محل آخر وبقياسٍ متناسبٍ.. وهذا بخلاف ما زعمه الرواة من أن سعد بن أبي وقاص قد بنى دار الإمارة في الكوفة بآجر انتزعه من بنيان للأكاسرة في الحيرة»[١].

ثانياً: دار الإمارة:

كانت دار الإمارة التي بناها سعد واقعة على مقربة من المسجد الجامع.. وكانت تلك الدار تضم بين محتوياتها بيت مال الكوفة. قال الطبري عند كلامه عن بناء مسجد الكوفة في عهد سعد: «وبنوا لسعدٍ داراً بحيالة (المسجد) بينهما طريق منقب مائتي ذراع، وجعلَ فيها بيوت الأموال وهي قصر الكوفة اليوم، بنى ذلك له روزبه من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة».

ويبدو أن المسجد والدار كانا وسط ميدان حظرت السلطات البناء فيه، ولكنها سمحت للناس أن يتخذوا مواضعهم في الميدان المذكور لغرض البيع والشراء.

ويظهر أن الأوضاع التي وصفنا استمرت طيلة خلافة عمر، قال الطبري أيضاً: فكان الصحن على حاله زمان عمر كله لا تطمع فيه القبائل، ليس فيه إلا المسجد والقصر والأسواق في غير بنيان ولا أعلام، وقال عمر: «الأسواق على سنّة المساجد من سبق إلى مقعدٍ فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه»[٢].

واستقر موضع القصر قبلة المسجد وذلك على أثر تغيير أُجري في ذلك الموضع بعد حصول سرقة في بيت المال، وعندما أُخبر الخليفة بذلك كتب إلى سعد قائلاً: «أن انقل المسجد حتى تضعه إلى جانب الدار، واجعل الدار قبلته.. فنقل المسجد»[٣].

ويظهر أن سعداً أحكم بناء القصر وحصّنه من الناحية العسكرية، ومنع الناس من الدخول إليه بمحض إرادتهم، وأغضب الناس إجراء الأمير، فرفعوا الأمر للخليفة الذي ما لبث أن أرسل رسولاً يحمل كتاباً إلى سعد، قال فيه: «بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال»[٤]، وقد أوضح سعد وجهة نظره لرسول الخليفة، ووصف الأخبار التي وصلت العاصمة بأنها مبالغ فيها.

ونختم الحديث عن دور تأسيس المسجد وقصر الإمارة بما يأتي:

أولاً: إن مواد البناء التي استعملت في بناء دار الإمارة شأنها شأن التي استعملت في بناء المسجد، كانت مستحدثة وليست منقوضةً من أبنيةٍ إيرانية قديمة، وقد فصّلنا ذلك عند كلامنا عن المسجد.

ثانياً: إن وصف الخليفة لدار الإمارة بأنها قصرٌ، وإنها حصن، يدلُّ على أن النواحي العسكرية ومقتضيات الأمن كانت موضع الاهتمام عند تخطيط تلك الدار وبنائها.

ثالثاً: إن تحويرات أُدخلت على موضع المسجد وقبلته حتى تتوفر مستلزمات الأمن لبيت مال الدولة والسلامة والراحة لمثلها في الكوفة.

أما مساحة مسجد الكوفة فليس لدينا عنها إلا روايةٌ واحدةٌ متأخرةٌ لذا لا نستطيع الجزم فيما إذا كانت تلك المساحة أُخذت للمسجد عند تأسيسه أو بعد إعادة بنائه من قِبَل زياد كما سنشير في الصفحات التالية.

قال ياقوت: أن الشعبي، قال: «مسجد الكوفة ستة أجربة وأقفزة، وقال زاد نفروخ: هو تسعة أجربة...»[٥]. والجريب والقفيز كمقياسين للطول يساويان على التوالي ٣٩١٧م٢ و٣٩١،٧م٢[٦].

ومن الجدير بالذكر أن طائفةً من الكتّاب يشكّون في صحة الاتجاه القائم لقبلة مسجد الكوفة، وقد تطرق إلى ذلك السيد البراقي في كتابه تاريخ الكوفة[٧]، ونقل رواية عن المجلسي مفادها، أن محراب مسجد الكوفة منحرف عن يمين نصف النهار نحواً من أربعين درجة، وهو قريب من قبلة أصفهان.

وعلّل المجلسي أمر الأئمة عليهم السلام لشيعتهم بالتياسر عن اتجاه القبلة المتعارف عليه في مسجد الكوفة بأنه ناتج عن أن تحديد اتجاه القبلة لم يجرِ بصورة صحيحة عند بناء عدد من المساجد القديمة في العراق بما فيها مسجد الكوفة، ونميل إلى أن انحراف القبلة في المسجد ناتجٌ عن التغييرات التي أجراها سعدٌ في بناء

(١) مسجد الكوفة، (بغداد، ١٩٦٦)، ص٧٩.
(٢) الطبري، ج٤، ص١٤٩.
(٣) أيضاً، ج٣، ص١٥٠.
(٤) أيضاً، ج٣، ص١٥١.
(٥) معجم البلدان، ج٧، ص٢٩٨.
(٦) الدباغ عبد الوهاب، النخيل والتمور في العراق، بغداد، ١٩٥٦، ص١٢٤.
(٧) طبع الكتاب المذكور في النجف، ١٩٦٠م، ص٤٢-٤٤.

المسجد ليناسب قصر الإمارة كما جاء في رواية الطبري التي أشرنا إليها في ما سبق من البحث، وتؤكد البحوث الأثرية وجود انحرافٍ في قبلة المسجد قدره سبع عشرة درجة[١].

التغييرات التي أُدخلت على مسجد الكوفة بعد تأسيسه:

لقد حصلت تغييرات عديدة في المسجد بعد تأسيسه في عهد سعد بن أبي وقاص، وتناولت تلك التغييرات مساحة المسجد، وبعض مواد البناء المستعملة فيه بما في ذلك المواد التي كانت تغطّي صحنه، وما إلى ذلك من تغييرات. قال البلاذري في معرض كلامه عن المسجد: «ثم إن المغيرة بن شعبة وسّعه وبناه زيادٌ فأحكمه.. وكان زياد يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة مائة»، ويقول أيضاً: إن المغيرة زاد في مسجد الكوفة وبناه ثم زاد فيه زياد، ثم شرح البلاذري الأسباب التي دعت زياداً إلى تبليط فناء المسجد بالحصى، كما بيّن أن زياداً: «اتخذ في مسجد الكوفة مقصورة ثم جدّدها خالد بن عبد الله القسري»[٢].

ومن أسباب بناء المقصورة خوف الأمير من الاغتيال أثناء الصلاة، أو أنها تجسيد للقوة، أما الطبري فيبيّن ما صنعه زياد حين عزم على بناء المسجد، بقوله: «ولما أراد زياد بنيانه دعا ببنّائين من بنّائي الجاهلية فوصف لهم موضع المسجد وقدره وما يشتهي من طوله في السماء، وقال: أشتهي من ذلك شيئاً لا أقع على صفته، فقال له بنّاءٌ: قد كان بناءٌ لكسرى لا يجيء هذا إلا بأساطين من جبال أهواز، تُنقر ثم تُثقب ثم تحشى بالرصاص، وبسفافيد الحديد فترفعه ثلاثين ذراعاً في السماء، ثم تسقفه وتجعل له مجنبات ومواخير فيكون أثبت له، فقال (زياد): هذه الصفة التي كانت نَفسي تنازعني إليها ولم تعبرها»[٣].

ويبدو أن تغييرات أخرى حصلت في المسجد بعد أن حكم زياد بناءه، ويقول ياقوت: «ولمّا بنى عبيد الله (بن زياد) مسجد الكوفة جمع الناس، وقال: يا أهل الكوفة، قد بنيت لكم مسجداً لم يكن على وجه الأرض مثله، وقد أنفقت على كل أسطوانة سبع عشرة مائة، ولا يهدمه إلا باغ أو جاحد، وعلى رواية ثمان عشرة مائة».

وفي رواية أخرى يقول ياقوت: «وبعد أن بناه ابن زياد سقط منه شيء فهدمه الحجّاج، وبناه ثم سقط بعد ذلك الحائط الذي يلي دار المختار، فبناه يوسف بن عمر»[٤].

(١) الجنابي، مسجد الكوفة، ص٢٩.
(٢) البلاذري، فتوح، ص٢٧٥-٢٧٦.
(٣) تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص١٥٠.
(٤) معجم البلدان، ج٧، ص٢٩٩.

ويبدو أن التغييرات التي طرأت على مسجد الكوفة في عهد يوسف بن عمر الذي تولى العراق في سنة ١٢٠هـ كانت آخر ما دخل على المسجد من تغييرٍ في عهد بني أمية، وهو العهد الذي تناولناه في هذا البحث.

يضاف إلى ذلك: أن المعلومات المتوفرة عن التغييرات التي أحدثها في المسجد ولاة بني أمية بعد زياد بن أبيه، لا تبيّن طبيعة تلك التغييرات، ونتيجة لذلك لا يستطيع الباحث أن يرسم صورة واضحة للتطورات التي حصلت في مسجد الكوفة خلال العصر الأموي الذي تلا حكم زياد. وبعد أن يستعرض الدكتور الجنابي النصوص الواردة في صدد ما حصل على المسجد من تغييرات بعد زياد يقول: «وقد لاحظنا من هذه النصوص، إنها لم تعن بالحديث المفصَّل عن المسجد من ناحية تقسيمه وموادّ بنائه وأساطينه إلى غير ذلك»[٥].

الأحوال الاقتصادية في الكوفة:

سنورد فيما يأتي من الصفحات معلوماتٍ عامةً عن الأحوال الاقتصادية في الكوفة خلال الفترة موضوعِ البحث.

أنشئت مدينة الكوفة في منطقة واقعة في أطراف السواد وعلى مقربة من الفرات. وكان لموقعها هذا أثر مهم في حياتها الاقتصادية، وذلك أنها أصبحت بفضله مركز اقتصادياً مهمّاً لمنطقة زراعية، تُنقل محصولاتها من الكوفة وإليها عن طريق الفرات بسهولة، وبأثمان مناسبة.

ويقول اليعقوبي عند كلامه عن الكوفة: «وهي على معظم الفرات، ومنه شرب أهلها، وهي من أطيب البلدان، وأفسحها وأغذاها»[٦]. وكان جانب الكوفة الممتد مع الفرات والواقع بينها وبين الحيرة يسمى الملطاط[٧] أو السبخة.

والملطاطُ حسب رواية الطبري: «ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة»، ويبدو أن الملطاط كان منطقة خصبة من السواد، وأن أحد ولاة عثمان أراد أن يحوزه لنفسه وذات مرة تمنى أحد الكوفيّين أن يكون الملطاط لسعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة فلامه من حضر في المجلس من رؤساء القبائل على ذل كالقول، لأن الملطاط جزء من السواد الذي هو في نظرهم لأهل الكوفة جميعاً وليس للأمير وحده[٨].

ويبدو أن عدداً كبيراً من عرصات دور السكن في الكوفة منحتها الدولة للقاطنين الجدد دون مقابل، ولمّا كانت أرض

(٥) مسجد الكوفة، ص٢٥.
(٦) البلدان، ص٦٩.
(٧) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٧٧.
(٨) التاريخ ٣: ٣٦١.

الكوفة مفتوحة عنوة يستطيع الخليفة أو من يمثله أن يمنحها لمن يشاء على تأويل تحقق مصلحة المسلمين في ذلك، قال البلاذري: «أن سعداً لما اختط الكوفة أقطع الناس المنازل»[١]. ويورد اليعقوبي قائمةً بأسماء من أقطعهم الخليفة ومن أقطعهم سعدُ عرصات في الكوفة، وكان عددٌ من الصحابة الذين قدموا مع الجيش الفاتح للكوفة من بين من أقطعهم مر. فأقطع الخليفة عمر جبير بن مطعم مثلاً عرصة فبنى عليها داراً، واستقطع سعدٌ لنفسه الدار التي عرفت فيما بعد بدار عمر بن سعد[٢].

وكان من بين الصحابة الذين أقطعوا دوراً بالكوفة الزبير بن العوام وطلحة، روى المسعودي: أن الزبير بنى دوراً بمصر والكوفة، وأن طلحة ابتنى داره بالكوفة المعروفة بالكناس بدار الطلحتين، وكانت غلّته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك[٣]، كما أقطع سعدٌ أبا موسى الأشعري نصف الآري، وكان فضاءً عند المسجد، وأقطع حذيفة بن اليمان مع جماعة من عبس نصيف الآري[٤]، ويبدو من النص السابق أن طلحة كان من بين الملّاكين الكبار في العراق. ومع هذا لا نستطيع أن نعلم مقدار أملاكه في الكوفة خاصة.

ويبدو أن الخلفاء الأمويين دأبوا على إقطاع العرصات للمقرّبين من رجال الدولة، ومن القطائع التي أقطعوها التي ورد اسمها بالمصادر منطقة تُعرف بدار الروميّين التي كانت مزبلةً لأهل الكوفة، وأقطعها يزيد بن عبد الملك لعنبسة بن سعيد بن العاص، فنقل ترابها بمائة وخمسين ألف درهم[٥].

أما الأسواق، فيظهر أنها كنت موضع عناية السلطات منذ تخطيط المدينة، وسبق أن أشرنا عند كلامنا عن تخطيط المسجد ودار الإمارة، إلى أن عمر أباح الجلوس للباعة في المواضع المعدَّة للبيع والشراء حسب السبق على سنّة الجلوس في المساجد. ويبدو أن الإجراء المذكور كان مؤقتاً، إذ ما لبثت السلطات أن أقامت سوقاً معيناً، قال اليعقوبي: «وجعلت السوق من القصر والمسجد إلى دار الوليد إلى القلائين إلى دور ثقيف وأشجع، وعليها ظلال يوارى إلى أيام خالد بن عبد الله، فإنه بنى الأسواق وجعل لأهل كل بياعة داراً وطاقاً، وجعل غلالها للجند..»[٦].

ونفيد من النص السابق أن خالد بن عبد الله القسري، وهو معروف بمقدرته في الاقتصاد، بجمعه أهل كل بياعة في مكان واحد، راعى النظام الذي عُرف فيما بعد بنظام الأصنّاف، وهو جمع أهل كل حرفة بمنطقة وإيجاد روابط مهنية فيما بينهم، يُضاف إلى ما سبق أن الأسواق -كما يبدو من النص- كانت غلّاتها أو إيجاراتها تعود للقطّاع العام.

ويبدو أن عدداً من الناس ملكوا ثروات كبيرة في الكوفة، وكان الزبير وطلحة كما أشرنا سابقاً من بين هؤلاء، وقد ورد بالمصادر أن عدداً من العرصات أو الفسح الكبيرة التي عرفت بالصحارى كانت تنسب إلى أشخاص معينين، ومن المحتمل أن هؤلاء كانوا في الأصل يملكون تلك القطع، وكان من بين تلك الصحارى صحراء أثير نُسبت إلى رجل من بني أسد يقال له أثير.

ومن الجدير بالذكر أن الاسم المذكور جاء مصفحاً بخريطة ماسينون النسخة العربية، فورد باسم (عثير) بدلاً من (أثير). وكان من بين تلك الصحارى صحراء بني قرار، ودار الروميّين التي كانت مزبلة قبل منحها إلى عنبسة بن سعيد كما أسلفنا. وكذلك صحراء شبث بن ربعي، وصحراء البردخت الشاعر الضبي، وكان لبني بجلة منطقة تعرف بشهارسوح وتعني المنطقة ذات الأربع جهات، وكان لعرزم جبّانة يُضرب فيها اللّبن ويبيعه للناس.

ووجد بين الكوفيين من يملك قصوراً وقرى، وكان حسان بن مالك يملك قصراً بالكوفة، وكان صلاية بن مالك يملك قرية أبي صلاية على الفرات[٧].

قنطرة الكوفة:

إن وجود جسر على الفرات بجوار الكوفة أمرٌ له أميته في الحياة الاقتصادية لسكان تلك المدينة. فالجسر يربط مدينة الكوفة براً بأرض السواد الواقعة عبر الفرات، كما أن وجوده يسهّل تصدير البضائع من الكوفة إلى الأقطار الأخرى وتوريد تلك البضائع منها للكوفة.

يضاف إلى ذلك أن وقوع الكوفة على طريق الحجّ البري يجعل القوافل القاصدة للحجاز والعائدة منه تعبر الفرات عن طريق الجسر المذكور، ويحدّثنا البلاذري عن قنطرة الكوفة، فيقول في إحدى رواياته أن عمر بن هبيرة الفزاري هو الذي أحدث قنطرة الكوفة، وكان عمر بن هبيرة هذا قد تولى الكوفة سنة ١٠٣هـ، ويورد البلاذري رواية أخرى عن القنطرة المذكورة مفادها: أن أول من بنى القنطر رجلٌ من العُبّاد في الجاهلية، ثم سقطت فاتخذ من موضعها جسراً، ثم بناها في الإسلام زياد ابن أبيه، ثم ابن هبيرة، ثم خالد بن عبد الله، ثم يزيد بن عمر، ثم أُصلحت بعد بني أمية مرات[٨].

(١) فتوح البلدان، ص٢٧٤.
(٢) البلدان، ص٧٠-٧١.
(٣) مروج الذهب، ج٢، ص٢٢٢-٢٢٣.
(٤) البلدان، ص٧٠.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨٠.
(٦) البلدان، ص٧١.
(٧) البلاذري، فتوح البلدان ص٢١٠ وما بعدها.
(٨) فتوح البلدان، ص٢٨٥.

ويبدو أن الرواية الأخيرة أقرب إلى التدقيق للسببين التاليين:

أولاً: أن الحيرة كانت قائمة مقام الكوفة بكونها أهم مدينة في المنطقة، ويعسرُ أن تزدهر الحيرة ما لم يربطها بمنطقة السواد جسرٌ على الفرات.

ثانياً: ليس من السهل أن يبقى الفرات دون قنطرة عند الكوفة طيلة ما يربو على الثمانين عاماً التي مرت على تمصيرها قبل أن يليها الفزاري.

يضاف إلى ذلك: أن الكوفة كانت طيلة المدّة المذكورة عاصمة من عواصم العراق المهمّة، وكانت الأقسام الخصبة المجاورة لها من السواد تُدار منها، فلا يمكن والحالة هذه أن يفصل العاصمة نهرٌ عن البلاد التي تحكمها دون وجود جسر يسهّل العبور منها والعودة إليها.

ثالثاً: ورد ذكر لوجود جسرٍ على الفرات عند الكوفة قبل التاريخ الذي حدده البلاذري بروايته بنحو ٣٠عاماً[١].

التجارة والنقود والصيرفة في الكوفة:

حلّت الكوفة بعد تمصيرها محلّ مدينة الحيرة التي كانت من المدن التجارية الواقعة على طرق القوافل القادمة من البادية المجاورة لها من الجنوب، ولذا أصبحت محلاً لتبادل البضائع بين أصحاب البادية وسكان السواد الذين كانوا تحت الحكم الإيراني[٢].

وربما أصبحت الكوفة أهمّ مركز للتموين في المنطقة بعد أن كانت الأنبار الواقعة بالقرب منها تقوم بتلك المهمّة في العهد الساساني.

قال البلاذري: وإنما سميت الأنبار لأن أهراء العجم كانت بها، وكان أصحاب النعمان وصنائعه يعطون أرزاقهم منها[٣]. وبعد أن أصبحت الكوفة عاصمة القسم الشرقي من العراق ومنها تموّن الجيوش الشرقية من البلاد الإسلامية، كما يدلُّ على ذلك تسميتها بكوفة الجند -كما أسلفنا- وتأسيس دار الرزق[٤] فيها، ترتب على ذلك أن تنشط فعالياتها التجارية والمالية.

ويبدو أن الكوفة في عهد الحجّاج كانت من المناطق التي تُجبى عندها الرسوم الجمركية على البضائع المنقولة في السفن، ذكر ابن سعد: أن الحجاج أرسل على شقيق بن سلمة الأسدي المعروف بأبي وائل وكان شيخاً مسناً.. وقال له: إنّا نريد أن نستعملك على بعض عملنا فقال (أبو وائل): قلت على أيّ عمل الأمير. قال السلسلة... قال: قلت إن السلسلة لا يصلحها إلا رجالٌ يقومون عليها ويعملون عليها، فإن تستعن بي تستعن بشيخ أخرق ضعيف يخاف عمال السوء[٥]. ويقصد بالسلسلة هنا السلاسل التي يُربط بها طرفا النهر لتمنع السفن من العبور حتى تؤدي ما يترتب على البضائع التي تحملها من الرسوم الجمركية وهو ما يعرف بالمآصر.

ويبدو أن وحدة النقود الشائعة في منطقة الكوفة خلال فترة تمصيرها كانت الدرهم، وكانت أوزانه مختلفة فبعض الدراهم كانت تكوّن من خمس وحدات وزنٍ وبعضها من سبع وحدات وزن، قال البلاذري: إن خالداً حين فَتح الحيرة وجد أن أهلها كانوا ستة آلاف رجل، فألزم كلّ رجل منهم أربعة عشرة درهما وزن خمسة، فبلغ ذلك أربع وثمانين ألفاً وزن خمسة تكون ستين وزن سبعة[٦]. وكان الدرهم كوحدة للنقد هو الشائع في العراق قبل الفتح الإسلامي، وبقي كذلك في العهد الأموي[٧].

ويبدو أن الدينار كوحدة للعملة كان معروفاً في العراق قبل الفتح الإسلامي إذ وجد ما يُعرف بالدينار الكسروي[٨]. كما استعمله المسلمون بمثابة وحدة للنقد بجانب الدرهم، خاصة بعد أن ضرب عبد الملك بن مروان الدرهم والدنانير كما هو معروف.

وقد وردت إشارات إلى ضرب نقود من قبل الخلفاء الراشدين والأمويين، ولكنها جاءت فيما يتعلق بمكان ضربها، مرة مقرونة بالعراق، وأخرى بالكوفة، وثالثة دون تخصيص، فالدراهم ضُربت على الطراز الساساني من قبل عمر وعثمان وعلي[٩]. ولم يخص مكان ضرب تلك النقود، على ما أعلم، سوى درهم يحمل كلمة (ولي الله) ضربه والٍ لعليّ عليه السلام في الري سنة ٣٧هـ[١٠].

ويحدّثنا الدكتور الحسيني عن ضرب النقود في الفترة الأموية، فمصعب بن الزبير ضرب الدراهم على الطراز الساساني في العراق، وفي زمن الحجاج ضرب دراهم جديدة بأمر عبد الملك، وفي سنة ٧٩هـ تم تعريب الدراهم.

ووصلتنا نماذج من الدرهم المعربة من ضرب الكوفة، وتولى بعد الحجاج إدارة ضرب الدراهم الفضية إضافة إلى غيرها من النقود عمر بن هبيرة والي العراق ليزيد الثاني

(١) الطبري، ج٥، ص٤٢.
(٢) ماسنيون، المصدر السابق، ص٦.
(٣) فتوح البلدان، ص٢٤٧.
(٤) الطبري ٢: ٦٤٦، وماسنيون، المصدر السابق، ص٢٢.
(٥) الطبقات، ج٦ (ليدن، ١٣٢٥) ص٦٦.
(٦) فتوح البلدان، ص٢٤٥.
(٧) الحسيني، محمد باقر، تطور النقود العربية، ص٦١، الإسلامية (بغداد: ١٩٦٩).
(٨) المقريزي، النقود الإسلامية (النجف، ١٩٧١) ص٤٦.
(٩) النقشبندي، ناصر الدّين الأموي والعباسي، ج١ (بغداد، ١٩٥٣) ص١٨.
(١٠) الحسني، ص٥١.

(١٠١-١٠٥هـ) وخالد بن عبد الله القسري والي هشام بن عبد الملك (١٠٦-١٢٠هـ) ويوسف بن عمر والي الوليد بن يزيد (١٢٠-١٢٦هـ). وكانت هذه الدراهم تعرف بأسمائهم، فيقال الهبيرية والخالدية واليوسفية، وهي أجود نقود بني أمية.

وضرب الخارجي الضحاك بن قيس الشيباني بالكوفة سنة ١٢٨هـ نقوداً فضية[١] ويشير البراقي إلى وجود دار لضرب النقود الإسلامية في الكوفة خلال الفترة موضوع البحث[٢].

ولمّا كانت الكوفة في الفترة التي تناولها بحثنا من أهم مدن العراق، وأنها تحتوي على دار لضرب النقود كما أشار النقشبندي وقبله البراقي، نرجّح أنّ معظم الدراهم الوارد ذكرها في أعلاه ضربت فيها[٣]. وقد وردت إشارة في البلاذري إلى وجود حوانيت للصيارفة في الكوفة[٤].

ونستنتج من كل ما سبق أن الكوفة في الفترة موضوع البحث كانت ذات مركز تجاري ومالي مهيمن لا في العراق وحسب، بل في الإمبراطورية الإسلامية عامةً.

بين أهل الكوفة ومشاهير حكّامهم:

ينحصر هدفنا فيما يأتي من البحث بإيراد طائفة من المعلومات ذات الصلة بتصرف أهل الكوفة تجاه من حكموا بلادهم، كما نورد ما لها صلة بتصرف أولئك الحاكمين تجاه رعاياهم من الكوفيين، وذلك خلال الفترة التي تناولها بحثنا.

كان سعد بن أبي وقاص -كما أسلفنا- من مشاهير ولاة الكوفة في عهد عمر بن الخطاب، وكان سعد من الولاة القديرين، قال البلاذري: أن عمر سأل عمرو بن معدي كرب عن سعدٍ وعن رضا الناس عنه؟ فقال عمرو للخليفة: «تركته يجمع لهم جمع الذرة، ويشفق عليهم شفقة الأم البرة، إعرابيٌ في غرته، تبطي في جبايته، يقسم بالسوية، ويعدل في القضية، وينفذ بالسوية»[٥]. كما أن نجاح سعدٍ في تمصير الكوفة يدلّ على جدارته، ويبدو أن معاملته لأهل الكوفة كانت جيدة، وسبق أن بيّنا أنه أقطع الناس عرصات لبناء دور عليها، وعندما أرسل الخليفة لجنة للتحقيق في شكوى طائفة من أهل الكوفة من تصرفات سعد، قدم أعضاؤها للكوفة وجعلوا: «لا يأتون مسجداً من مساجدها إلا قالوا خيراً، وأثنوا معروفاً، حتى أتوا مسجداً من مساجد بني عبس، فقال رجلٌ منهم: أما إذا سألتمونا عنه، فإنه كان لا يُقسم بالسوية، ولا يعدلُ في القضية»[٦].

(١) الطبقات، ص٤٨، ٥٠، ٦٤.
(٢) تاريخ الكوفة، ص٢٥٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢١.
(٤) فتوح البلدان، ص٢٨٤.
(٥) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٧٨.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

ومن التهم التي وجهها جماعة من الكوفيّين لسعد، «أنه لا يُحسن الصلاة»[٧]، وسبق أن بيّنا أن بعضهم اتهمه بالتكبّر وأنه بنى قصراً وصفة الخليفة بقصر الخبال، وأرسل من يحرق بابه، ويظهر أن الخليفة ما لبث أن أصغى لوشاية الكوفيّين بسعد فعزله، ويبدو أن سعداً نفسه كان غير مرتاح لتصرف أهل الكوفة تجاهه، فقال ذات مرةٍ لهم: «اللهم لا ترضي عنهم أميراً ولا تُرضهم بأمير»[٨].

كما يبدو أن معظم التهم التي وجهت إليه كانت مهلهلة خاصة تلك التي تصفه بأنه لا يُحسن الصلاة، ثم إن اتخاذ القصر ومنع الناس من دخوله عندما يرغبون كانا من مقتضيات حفظ هيبة السلطة وترسيخ النظام.

وبعد سعدٍ ولّى عمر عمار بن ياسر على الكوفة، فاجتهد في حفظ النظام ولكن أهلها شغبوا عليه: «وقالوا ضعيفاً لا علم له بالسياسة فعزله» الخليفة ثم أظهر تذمره من تصرف أهل الكوفة مع ولاتهم[٩]، وقد ولي المغيرة بن شعبة الكوفة في عهد عمر ثم في عهد معاوية ولكنه كان متهماً في خُلقه[١٠]، وغير مبتكر في سياسته[١١]، وقد تولّى الحكم في الكوفة في عهد عثمان ولاةٌ منهم: الوليد بن عقبة أخ عثمان من أمه، وسعيد بن العاص.

أما الوليد فيبدو أنه كان غير مؤهل للحكم وقد تعجّب سلفه سعد بن أبي وقاص من إسناد ولاية الكوفة للوليد، ولكن الوليد بدد عجبه حين قال قاصداً عثمان وبني أمية، أن «القوم ملكوا فاستأثروا». وقال الناس في الكوفة: «بئسما ابتدلنا به عثمان، عزل أبا إسحاق الهيّن الليّن الجسر صاحب رسول الله ﷺ وولّى أخاه الفاسق الفاجر الأحمق الماجن»[١٢]. ويُستدل من هذا القول أن حكم أهل الكوفة على سعد -والذي أشرنا إليه بل قليل- كان غير عادل، وعندما تولّى سعيدٌ بن العاص ولاية الكوفة أثار قضية منطقة الملطاط التي أثارت جماعة من أهل الكوفة كما أسلفنا، كما أنه أثار مشكلات لعثمان في الكوفة ذات أهمية بالغة، فقال سعيد يوماً: «إنما السواد بستان قريش» فقال مالك الأشتر الزعيم الكوفي المعروف: «أتجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك والله لو رامه أحد لقُرع قرعاً»[١٣].

(٧) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٧٧.
(٨) المصدر نفسه، ص٢٧٨.
(٩) المصدر نفسه، ص٢٧٨.
(١٠) المصدر نفسه، ص٢٧٨.
(١١) فلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها -ترجمة عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة، ١٩٥٨)، ص١١٠.
(١٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٢ (القدس، ١٩٣٦)، ص٢٩-٣٠.
(١٣) البلاذري، أنساب، ج٢، ص٤٠.

ويُستدل من نكران أهل الكوفة لادعاء أرستقراطية قريش بالاستحواذ على خيرات البلاد دون بقية القبائل العربية، على حيويتهم وعمق تفكيرهم، ونشأ من شدّة اهتمامهم بالقضايا العامة، بما فيها قضية ملكية السواد، أنهم كانوا في طليعة المسلمين الذين أطاحوا بحكم عثمان، وبعد أن آل الحكم في الكوفة للإمام علي عليه السلام لم تمنح غالبية أهلها ولاءها التام له، ولم يستجب لندائه من أهلها حين انتدبهم لقتال الثائرين على حكمه في البصرة إلا شطرٌ صغيرٌ من سكانها، وقد انصاع الكثيرون منهم لنداء أبي موسى الأشعري الذي دعاهم للقعود عن نصرة الخليفة الجديد.

قال المسعودي: إن علياً كتب إلى أبي موسى الأشعري، «ليستنفر الناس، فثبطهم أبو موسى، وقال: إنما هي فتنة». ويبدو أن ما قاله أبو موسى أثّر في أهل الكوفة إذ لم يواف الخليفة منهم بذي قار بعد أن تعاقبت رسله إليهم إلّا عددٌ يقع في حدود السبعة آلاف مقاتل[1] وإذا صحّ ما قلناه سابقاً وهو أن عدد مقاتلة الكوفة حينذاك يقدر بثمانين ألفاً نرى ضآلة العدد الذي التحق بالإمام عليه السلام عند محاربته لأهل البصرة، ولعلّ الخطبة التي سنوردها بعد قليل تعكس وجهة نظر الإمام علي عليه السلام حول سلوك غالبية أهل الكوفة نحوه، رغم أنه اتخذ من بلدهم عاصمةً له، وأنه اعتمد عليهم في محاربة خصومه. قال الإمام مخاطباً أهل الكوفة:

«أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ، إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ، وَإِن اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَام طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِبْتُمْ إِلَى مُشَاقَّة نَكَصْتُمْ. لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَاد عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ؟ فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي -وَلَيَأْتِيَنِّي- لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِير. لله أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا مَحْمِيّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَة وَلَا عَطَاء، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ -وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الإِسْلام، وَبَقِيَّةُ النَّاس- إِلَى الْمَعُونَة أَو طَائِفَة مِنَ الْعَطَاء، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْه، وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لاق إِلَيَّ الْمَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ الأَعْمَى يَلْحَظُ أَو النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ وَأَقْرَبُ بِقَوْم مِنَ الْجَهْل بِالله قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَة»[2].

(١) مروج الذهب، ج٢، ص٢٤٤.

(٢) نهج البلاغة، ج١ (القاهرة، لا. ت) ص٣٣٦.

ويبدو من هذه الخطبة وأمثالها كثير في كلام الإمام وخطبه[3]، أن غالبية أهل الكوفة كانوا لإمامهم غير مطيعين، ولا لأمره منفذين، وأن الإمام لم يترك وسيلة، بما في ذلك الاحتجاج بالكتاب والسنّة وتوفير العطاء، دون أن يستعملها لكسب تأييدهم التام ولكنه لم يفلح، وبلغ السأم به من مشاكستهم إيّاه وتقاعسهم عن نصرته أنّه فضّل الموت على العمل معهم.

ولو سأل سائلٌ عن الأسباب التي أدّت إلى تقاعس أهل الكوفة عن نصرة الإمام علي عليه السلام وللإجابة عن السؤال السابق نقول: يمكن تلخيص تلك الأسباب بما يأتي:

أولاً: إن الغالبية العظمى من أهل الكوفة في ذلك الحين لم تكن تعتقد بإمامة علي، ورضخت أكثريتهم لحكمه بصفته خليفة للمسلمين، ويترتب على ذلك أن أهل الكوفة رغم اعتماد الإمام علي عليهم في محاربة الثائرين عليه لم يكونوا من الشيعة، روي أن الإمام الباقر قدّر عدد الشيعة في العراق خلال خلافة الإمام علي بحدود الخمسين رجلاً، قال الباقر عليه السلام: «كان علي بن أبي طالب عليه السلام عندكم بالعراق يقاتل عدوّه ومعه أصحابه، وما كان فيهم خمسون رجلاً يعرفونه حقّ معرفته»[4].

ثانياً: كان أسلوب الإمام علي عليه السلام في العمل السياسي أقرب إلى المثاليات ومستلزمات التقوى منه إلى اعتماد الاعتبارات العملية، تلك الاعتبارات التي تعدُّ مراعاتها طبقاً لكثير من وجهات النظر من مقومات السياسة الناجحة، سواء كان ذلك في الكوفة أو في غيرها، وسواء كان ذلك في عصر الإمام علي أو في أي عصر من العصور، ويبدو أن الإمام فضّل مقتضيات التقوى والأخلاق على النجاح بالسياسة، كما يبدو أنه عليه السلام حسبما يظهر من خطبته التي سنوردها بعد قليل، كان عارفاً بمقتضيات السياسة ولكنه تجنّبها قاصداً للاعتبارات التي أشرنا إليها أعلاه، قال الإمام علي عليه السلام:

«وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ عندي لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاس، وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرَة فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَة كَفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادر لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِه يَوْمَ الْقِيَامَة. وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَة، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَة»[5].

وهناك أمثلة على مثاليات الإمام علي عليه السلام بالسياسة، منها أنه كان يشك بإخلاص الأشعث بن قيس وبأمانته، فكتب له مرّةً يقول: «وإن عملك ليس لك بطعمةٍ ولكنه في عنقك أمانةٌ..»[6].

(٣) أيضاً، ج١ ص٦٥، ٦٧، وقد ورد في الخطبة التي قال فيها: «ألا وإني قد دعوتكم إلا قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا.. إلخ..».

(٤) الكشي، محمد بن عمر، الرجال (النجف، لا. ت) ص١٢.

(٥) نهج البلاغة، ج١، ص٤١٥.

(٦) أيضاً، ج٢، ص٦.

ووصفه مرة أخرى بأنه: «حائك ابن حائك، منافق ابن كافر»[١]، وبالرغم من ذلك ترك الإمام علي الأشعث دون عقاب صارم على أمل أن يعود للحق، ولكن الأشعث لم يرتدع، وبقي عنصراً ضاراً في جيش الإمام وكان من بين الذين عملوا على إيقاف القتال في صفين بعد أن كاد النصر يلوح لأهل الكوفة وخليفتهم علي عليه السلام[٢].

ثالثاً: إن سياسة الإمام علي عليه السلام في شؤون المال بما في ذلك قسمته للمال العام بالسويّة بين المسلمين لم تلق رواجاً - كما يبدو - بين أوساط النبلاء بخاصة وعامة العرب بعامة، روى اليعقوبي: أن الإمام علياً بعد أن انتصر في حرب الجمل: «أعطى الناس بالسوية، لم يفضّل أحداً على أحد، وأعطى الموالي كما أعطى الصليبة، وقيل له في ذلك فقال: قرأت ما بين الدفتين فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً..»[٣]، ويبدو مما سبق أن جماعات من جيش الإمام علي عليه السلام بما فيهم أهل الكوفة أحفظها تقسيم عليٍّ للمال بالسوية، ونصحت الخليفة بالعدول عن ذلك ولكنه رفض.

وبعد أن آلت الخلافة إلى معاوية أوكل أمر الكوفة إلى عدد من الولاة كان من أشهرهم زياد ابن أبيه، وكان زياد من الولاة الأكفاء، وسبق أن بيّنا جهوده في إحكام بناء مسجد الكوفة وتبليط أرضه بالحصى، يضاف إلى ذلك أنه قسّم: «جند الشرطة في الكوفة أربعة أقسام، وفي كل قسم منها تتمثل القبائل المختلفة، من غير أن يكون على رأسهم رئيس القبيلة، بل رئيس تعيّنه الحكومة»[٤]، وأرسل زياد زهاء خمسين ألفاً بعيالاتهم من سكان البصرة والكوفة إلى خراسان وأسكنهم هناك[٥]. ويرى فلهاوزن أن الهدف من الإجراء السابق تخفيف حدّة التوتر السياسي في العراق[٦]، وحاول زياد أن يكسر جماح المعارضة في الكوفة، وكانت تلك المعارضة تعمل بالتدريج على تنظيم صفوفها، وتجعل معارضتها تقوم على المبادئ والقيم، وتمثلت المعارضة في تلك الفترة بشيعة عليّ بالكوفة، وبعد مقتل علي أحكمت قبضة الأمويين من الناحية الإدارية والمالية على أهل الكوفة، وحينئذ أخذت قطاعات كبيرة من أهل الكوفة تشعر بالندم على خذلان علي عليه السلام، وأصبح الإمام علي في نظرهم الإمام الحق، وأنه وآله هم رمز استقلال بلادهم المفقود.

(١) أيضاً، ج١، ص٥٦.
(٢) فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (القاهرة ١٩٥٨) ص٣ وما بعدها.
(٣) التاريخ، ج٢ (النجف، ١٣٥٨) ص١٦٠.
(٤) فلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ص١٢٠.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٠٠.
(٦) الدولة العربية، ص١٢٠.

ولجأ زياد خلال نزاعه مع المعارضة إلى إيقاع الفرقة[٧] بين أهل الكوفة، وبذلك تمكّن من كسر شوكة المعارضة، وتوج عمله هذا بإقناع الخليفة معاوية بضرورة القضاء على حجر بن عدي زعيم تلك المعارضة حينذاك، ومع ذلك فإن لمقتل حجر نتائج إيجابية في حركة التشيّع لأنه ساعد على تكتل الشيعة من جهة، وأثار السّخط على الأمويين بين أوساط كبيرة من المسلمين من جهة أخرى.

وتولّى الكوفة بعد زياد خلال خلافة معاوية عددٌ من الولاة كان من بينهم عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية، وتولّى عبد الرحمن الكوفة سنة ٥٨هـ وفي عهده عاد الخوارج إلى الظهور بزعامة حيان بن ظبيان السلمي الذي وصف الأمويين بأنهم «ظلمة» وطلب من أصحابهم جهادهم[٨].

ولم تكن هذه أول حركة للخوارج بالكوفة وسوادها بل إنهم خرجوا مرات عديدة، وكان ولاة الأمويين يستعينون أحياناً عليهم بالشيعة[٩] من أهل الكوفة، مستغلين الخلاف العقيدي بين الفريقين، وكان عبد الرحمن هذا سيئ السيرة، قال الطبري: «استعمل معوية ابن أم الحكم على الكوفة فأساء السيرة فطردوه، فلحق بمعاوية فقال له أوليك خيراً منها مصر»[١٠]، وهناك رواية أخرى حول نهاية حكم ابن أم الحكم في الكوفة، قال ابن الخشاب: «لما اشتد بلاء عبد الرحمن بن أم الحكم على أهل الكوفة، قال عبد الله بن همّام السلولي شعراً وكتبه في رقاعٍ وطرحها في مسجد الكوفة:

ألا أبلغ معاوية بن صخر ... فقد خرب السواد فلا سوادا
أرى العمال قد جاروا علينا ... بعاجل نفعهم ظلموا العبادا
فهل لك أن تدارك ما لدينا ... وتدفع عن رعيتك الفسادا

فبلغ الشعر معاوية فعزله»[١١].

وكان عبيد الله بن زياد من أشهر ولاة الكوفة الذين وُلّوا الحكم في عهد معاوية وابنه يزيدٌ من بعده، وفي عهده حصلت فاجعة كربلاء المعروفة، ويظهر أن الحالة في الكوفة ما كانت مستقرة عند وفاة معاوية، وأن جهوده وجهود ولاته الرامية لإخضاع الكوفة، ولاستتباب الأمن فيها لم توت ثمارها.

فيروى أن معاوية أوصى يزيداً بقول: «وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل

(٧) الطبري، التاريخ، ج٤، ص١٩٤.
(٨) أيضاً، ج٤، ص٢٢٩.
(٩) أيضاً، ج٤، ص١٤٤، ١٤٨.
(١٠) أيضاً، ج٤، ص٢٣١.
(١١) ابن الخشاب البغدادي، رسالة ضمن مقامات الحريري، (القاهرة ١٣٢٦)، ص١٢-١٣.

عامل أحبُّ إليّ من أن تُشهر عليك مائة ألف سيف»[1]. ولم تكن سياسة الشدّة المقرونة بالحكمة التي اتبعها معاوية بالعراق بقادرة على اجتثاث عوامل التذمر في العراق بعامة وفي الكوفة بخاصّة، وكان أهل الكوفة كما يظهر من سيرتهم مع ولاة معاوية -كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل- غير راضين عن الإدارة الأموية التي تحكم بلادهم وتخضعها للشام.

ومردُّ ذلك إلى أن العراق كان مركز المعارضة للحكم الأموي، وأخذت المعارضة في الكوفة بخاصة تتخذ بالتدريج شكل المعارضة الخطرة القائمة على الخلافات العقيدية المتمثلة بنمو التشيّع الذي اكتسب قوّة بفضل استشهاد (علي بن أبي طالب) وحجر بن عدي وصحبه.

وبالرغم من ذلك فإن غالبية أهل الكوفة في تلك الفترة من تاريخهم وحتى فترات لاحقة لم يكونوا مستعدّين لتقديم التضحيات الجسام في سبيل تلك العقيدة، فكانت قلوبهم مع الحسين إمام الشيعة في عهده وسيوفهم عليه، ويبدو أن بني أمية كانوا يعرفون ذلك عن أهل العراق، فروي أن معاوية قبيل وفاته قال لابنه يزيد بمعرض كلامه عن الحسين بن علي: «وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه»[2].

ولعل قائلاً يقول: لماذا كان موقف أهل الكوفة من الإمام الحسين عليه السلام ومن زعماء الشيعة من قبله بما فيهم الإمام علي عليه السلام لا يتصف بالجدية والإخلاص؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول:

أولاً: أسست الكوفة في بيئة ذات مدنية عريقة، فهي وريثة لبابل وللحيرة والمدائن، وسكان بيئات كهذه يوجهون تصرفاتهم حسب مصالحهم الحقيقية، ولا يتركون لعواطفهم في هذا المجال إلا دوراً ثانوياً، فلذا كان الكوفيون راغبين في الاستفادة من التشيع أثناء مقاومتهم للحكم الأموي، ولكنهم يقفون عند الحدود التي تصبح عندها مصالحهم الحقيقية مهددة بسبب الإخلاص لذلك المبدأ، يضاف إلى ذلك أن قطاعات كبيرة من سكان الكوفة الجدد، لاسيَّما من كان منهم من أصل يماني نقلوا صفاتهم المدنية إلى وطنهم الجديد، ويبدو أنّ غالبية تلك الجماعات كانت تسير بهدي مصالحها الدنيوية ولا تعير مقتضيات التقوى كبير اهتمامها، لذا حاولوا أن يستفيدوا من النزاع بين البيتين العلوي والأموي لحلّ مشكلاتهم الاقتصادية بخاصة، بما في ذلك توزيع الغنائم ودفع الضرائب، دون أن يكونوا مستعدين للتعرض لأضرار حقيقية من جراء انضمامهم للعلويين المعارضين للحكم الأموي.

ثانياً: كان العلويون الذين وقفوا ضحايا بريئة نتيجة لاستجابتهم لنداء الكوفيين وتورطهم في الحروب اعتماداً على معونتهم الموهومة، مثاليّين في سياستهم في الغالب ولم يوفقوا، كما يظهر لإدراك نوايا الكوفيين الكامنة وراء الظواهر، وانساقوا وراء الأوهام، وما لبثوا أن وجدوا أنفسهم حين جدّ الجدّ وحيدين يُصلون بنار المعركة، بينما بقي الكوفيون يتفرجون عليهم.

ثالثاً: كان خصوم العلويين في الفترة التي تناولها بحثنا، أكثر تفهماً لنفوس الكوفيين، وقد أدركوا طرفاً من خفايا نفوسهم، وعرفوا كيف يكبحون جماحهم ويفرقونهم عن ممثلي الحزب العلوي ثم يقضون على أولئك الممثلين بسهولة.

وإليك نماذج من أساليب الحُكّام الأمويّين في تعاملهم مع الكوفيين:

أ- اشتدّت شوكة معارضة الكوفيين للمغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة، فلم يستكن ويتوجه لهم بالموعظة أو يدعو الله أن يستبدله بخير منهم ويستبدلهم بشر منه كما فعل الإمام علي عليه السلام في حالة مماثلة -كما أسلفنا- بل أنه حبس أعطيات أهل الكوفة -أي رواتبهم- السنوية عنهم، روى الطبري: إن المغيرة حين اختلف مع حجر بن عدي وأصحابه حبس أعطيات المعارضين، فقال له حجر: «أيها الإنسان مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنك قد حبستها عنّا وليس ذلك لك، ولم يطمع في ذلك من كان قبلك»[3].

ب- أصبحت الكوفة مهددة من الخوارج في عهد المغيرة فانتدب لحربهم جماعة من أهل الكوفة، فقام إليه عدي بن حاتم، وقال: «كلنا لهم عدوٌ، ولرأيهم مسفهٌ، وبطاعتك مستمسكٌ، فأيَّنا شئت سار إليهم».

وقال معقل بن قيس مخاطباً المغيرة: «إنك لا تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولك من أشراف المصر إلا وجدته سامعاً مطيعاً وأرى أصلحك الله أنك لا تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشدّ عليهم منّي..» وبعد أن استوثق منه المغيرة ووبخه على مدحه لعليّ وانتقاصه لعثمان، وبيّن له أن الجهر بذلك: «لا يحتمله الخليفة لنا ولا يعذرنا فيه» أمر بإخراج الجيش معه «وهم ثلاثة آلاف، نقاوة الشيعة وفرسانهم»[4].

أخرج المغيرة الشيعة لقتال الخوارج بالشكل الذي وصفنا، ولكن حين بلغت جيوش معاوية الأنبار وهددت الكوفة في حالة مماثلة نجد علياً عليه السلام يعامل أهل الكوفة معاملةً تختلف عمّا فعله المغيرة، قال الإمام عليٌ عليه السلام في خطبة طويلة منها قوله:

«فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ قلتم هذه حمّارةُ

(١) الطبري، التاريخ، ج٤، ص٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٩.

(٣) تاريخ الطبري، ج٤، ص١٨٩.

(٤) تاريخ الطبري، ج٤، ص١٤٣-١٤٤.

القيظ. وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبّارة القر.. -وينهي خطبته بقوله-: ولكن لا رأي لمن لا يطاع»[١].

فالكوفيون عصوا الإمام علياً عليه السلام من قبل رغم أن بلادهم مهددة بجيوش العدوّ، وأطاع المغيرة الشيعة الذين عصوا إمامهم وذلك لوجود الفرق بين طريقة الإمام عليٍّ عليه السلام في الحكم وطريقة المغيرة.

ج- كان زياد بن أبيه يستخدم الحمراء في شرطته، وهم أقلية إيرانية من سكان الكوفة، قال الطبري: إن أحد أعوان حجر بن عدي اختفى عن زياد، فبعث إليه الشُرط وهم أهل الحمراء يومئذ فأخذوه[٢]. وحمراء ديلم أو الحمراء قومٌ من الإيرانيين سكنوا الكوفة بعد تمصيرها -كما أسلفنا- واستعمالهم في سلك الشرطة يجعلهم أشدّ وطأة وأمعن تدقيقاً في تتبع من يريدهم الحاكم، ويدلّ استخدامهم على بُعد نظر زياد، ثم أن زياداً كان يصلّي في مقصورة -كما أسلفنا- ليحمي نفسه من الطوارئ.. بينما نجد الإمام علياً عليه السلام يترك نفسه دون حراس فيُقتل بالمسجد كما هو معلوم، ويقول لابنه الإمام الحسن عليه السلام قبل أن يموت: «الله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم»[٣]. ونتج عن الفرق بين الطريقتين في حكم أهل الكوفة أن قال بعض المؤرخين: إن خصوم (عليّ) كانوا ناجحين في سياستهم في الكوفة، وأن أساليب (عليّ) وولديه عليهما السلام من بعده لم تُجد معهم نفعاً.

وتعاقبت الأحداث في الكوفة بعد مقتل الحسين عليه السلام. فالكوفيون الذين عادوا لتوهم من مجزرة كربلاء مثلوا أمام عبيد الله بن زياد لتهنئته بالنصر، ولكنهم بعد أن خرجوا من مجلسه سمعوا شخصاً يدعى زيد بن أرقم يوبخهم ويقول: «ملك عبدٌ عبداً فاتخذهم تلواً، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذلّ، فبعداً لمن رضي بالذل»[٤].

كما سمعوا زينب بنت علي عليها السلام تندب قتلى كربلاء وتقول: «يا محمّداه صلّى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعرى مرملٌ بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمّدا وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا»[٥].

ويبدو أن تلك الأقوال وأمثالها فضلاً عن غيرها من العوامل أخذت تفعل فعلها في الكوفة، لاسيما أن ولاء غالبية أهلها لبني أمية لم يكن مبعثه الإخلاص بل التملّق لسلطانهم ولا خوف من سوطهم. ومما يؤيد ذلك أن المختار لما زار عبد الله بن الزبير في مكّة، سأله ابن الزبير عن حال الناس بالكوفة فأجاب المختار: «هم لسلطانهم في العلانية أولياء وفي السر أعداء» فقال له ابن الزبير: «هذه صفة عبيد السوء، إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم، فإذا غابوا عنهم شتموهم ولعنوهم»[٦].

وكان موت يزيد المفاجئ من العوامل التي عجلت في تحول موقف غالبية الكوفيين من التأييد لبني أمية إلى الاهتمام بقضية العلويين، قال الطبري: إن عبيد الله بن زياد بعث بعد موت يزيد رسلاً من البصرة لأهل الكوفة يدعوهم لبيعته ريثما يجتمع الناس على رجل، فرفض الكوفيون طلبه وقال قائلهم: «أنحن نبايع لابن مرجانة لا ولا كرامة»[٧].

يضاف إلى ذلك أن طائفة كبيرة منهم انضمت إلى حركة عُرفت بحركة التّوابين، هدفها التكفير عن الذنوب التي لحقتً بأصحابها من جراء تقاعسهم عن نصرة الحسين، وذلك بأخذ الثأر من قاتليه، ويقول الطبري في حوادث سنة ٦٥هـ: «وفي هذه السنة تحركت الشيعة بالكوفة، واتعدوا الاجتماع بالنخيلة.. للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن علي، وتكاتبوا في ذلك»[٨]، وأوكل التوابون قيادة حركتهم لسليمان بن صُرد الخزاعي شيخ الشيعة[٩] وكان نصيب التّوابين الفشل في الحرب، ولكن حركتهم أصبحت فيما بعد من العوامل المساعدة على تثبيت بذور التشيّع في الكوفة. يقول فلهاوزن: «والكوفيون الذين جرّوا الحسين إلى الكارثة ثم تركوه وحده يصلاها راح ضميرهم يؤنّبهم على ما اقترفت أيديهم، فشعروا بالحاجة إلى إرضاء الربّ وبالكفارة عن إثمهم بالتضحية بأنفسهم، فسموا أنفسهم (التوابين) وبدأوا لأول مرة ينظمون أنفسهم»[١٠].

وبعد فشل حركة التوابين تسلّم المختار قيادة الشيعة بالكوفة، وعمل المختار باسم محمّد بن الحنفية أحد أبناء الإمام علي عليه السلام من غير فاطمة، ووصفه بأنّه المهديّ المنتظر، ولكنه لم يكن شديد الإخلاص لقضية العلويين بعامة وابن الحنفية بخاصة.

ويظهر أن المختار أراد بترويجه لفكرة مهدية محمد أن يستفيد من اسمه سياسياً دون أن يشركه بالسلطة الفعلّية، وعندما همّ «ابن الحنفية أن يقدم إلى الكوفة وبلغ ذلك المختار فثقل عليه قدومه، فقال: إن في المهدي علامة، يقدم بلدكم هذا

(١) نهج البلاغة، ج١، ص٦٧ وما بعدها.
(٢) التاريخ، ج٤، ص١٠٩-١١٠.
(٣) أيضاً، ج٤، ص١١٥.
(٤) الطبري، ج٤، ص٣٤٩.
(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٨.
(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٤٤.
(٧) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٠٤.
(٨) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٢٧.
(٩) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، (القدس، ١٩٣٦) ص٢٠٥.
(١٠) الخوارج والشيعة، ص١٨٩.

فيضربه رجل في السوق بالسيف لا تضره.. فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام»[١].

وقد أملت على المختار عواطفه العلوية، ومقتضيات سياسته الواقعية أن يثأر من قتلة الحسين في الكوفة بما فيهم عمر بن سعد قائد الجيش الأموي الذي صنع فاجعة كربلاء، وقد وضّح المختار منهجه بالعمل في رسالة بعث بها إلى رفاعة بن شداد حين رجوعه من معركة عين الوَردة التي هزم فيها التوابين، وجاء في الرسالة المذكورة: «أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، وإلى الطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء»[٢]، وربما قصد المختار بعبارة الضعفاء الذين يريد الدفاع عنهم، الموالي أي المسلمين من غير العرب، وفعلاً استهوى المختار الموالي لأغراض سياسية فأدخلهم في جيشه بعد أن استتب له الأمر، وساواهم بالعطاء مع العرب مما أثار حفيظة العرب من أهل الكوفة، فقالوا: «عمدت إلى موالينا وهم مما أفاء الله علينا وهذه البلاد جميعاً فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر.. فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا..»[٣]، وكان الموالي الذين أدخلهم المختار في جيشه من الغلاة الكيسانية القائلين بإمامة ابن الحنفية، ويعدّ المختار في تبنّيه فكرة عدم التمييز العنصري بين المسلمين من عرب وغيرهم من دعاة الإصلاح في الإسلام. يقول فلهاوزن: «وكان تحوّل الموالي إلى شيعة غلاة حادثاً ذا أهمية في التاريخ العالمي.. وشاء (المختار) القضاء على الفوارق بين المسلمين من الطبقة الأولى، والمسلمين من الطبقة الثانية، فمن يأخذ عليه ذلك، لا يكون له الحق في أن يأخذ على الحجاج أنه عمل العكس فأكّد هذه الفوارق بكل قوة وأعادها إلى ما كانت عليه، والحقّ أن المختار خليق بالمدح لكونه كان اسبق من غيره في إدراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هي، إذ لم يكن الإسلام بل العنصر العربي هو الذي يعطي الحقوق المدنية الكاملة في الحكومة الدينية، ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلي لكان من الممكن أن يكون منقذ الدولة العربية»[٤].

وبعد أن فشلت حركة المختار وحكم الزبيريون الكوفة لفترة قصيرة آل أمر الكوفة إلى الحجّاج والي الأمويين في العراق، وقد منحه الخليفة عبد الملك بن مروان سلطات واسعة، ذكر اليعقوبي: أن عبد الله كتب للحجاج كتاباً بخطه: «أما بعد يا حجّاج فقد ولّيتك العراقين صدقة، فإذا قدمت فطأها وطأةً يتضاءل منها أهل البصرة»[٥].

وعندما قدم الحجّاج للكوفة ذكر الخطوط العامة لسياسته في خطبة ألقاها من على منبرها، ويبدو أنه كان ينوي تفضيل سياسة الشدّة على اللين، فقال مخاطباً أهل الكوفة: «فإنكم طالما أوضعتم الفتن، وسننتم سنن الغي، أما والله لألحونكم لحو العود، ولأعصبنّكم عصب السلمة.. والله لتستقيمن في سبيل الله، أو لأدعن لكل رجلٍ منكم شغلاً في جسده..»[٦]، وفي مناسبة أخرى وصف أهل العراق بالنفاق والشقاق ومساوئ الاخلاق، وقال: «فأقسم بالله، لأوشك أن أوقع بكم وقعةً تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها»[٧].

وقد حاول الحجّاج أن يطبق سياسته التي أعلنها بخطبه المذكورة خلال حكمه للكوفة، وكان يستفز أهل الكوفة في غالب الأحيان ويثير حفيظتهم بإثارة قضايا وثيقة الصلة بحياتهم، وفضلاً عن ذلك كان يتهمهم بالجبن، وعدم الإخلاص في حرب الخوارج الذين أربكوا سياستيه في ذلك الحين، روى الطبري: أن الحجّاج كتب إلى عبد الملك بن مروان: «أما بعد فإني أخبرت أمير المؤمنين.. أن شبيباً قد شارف المدائن وإنما يريد الكوفة، وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة، في كلّها يقتل أمراءهم ويقلّ جنودهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليّ أهل الشام فيقاتلوا عدوهم ويأكلوا بلادهم فليفعل..»[٨].

ويبدو أن الحكومة المركزية كانت تشارك الحجاج رأيه في أهل الكوفة، وذات مرة قتل أحد قواد الحجاج في حربه مع الخوارج، فأخبر الخليفة عبد الملك بذلك، فما كان من الخليفة إلا أن ذمّ أهل الكوفة علناً بمنى حيث كان يؤدّي مناسك الحج هناك[٩].

إن ما قررناه يمثل رأي الأمير وخليفته في أهل الكوفة خلال حربهم مع الخوارج، مع أن الكوفيين في معركة واحدة مع شبيب الخارجي خسروا مائة وعشرين شخصاً من كنده، وألفاً من سائر الناس، هذا فضلاً عن مقتل عظيم العرفاء[١٠]، ومن الجدير بالذكر أن الكوفيين لم يكونوا مسؤولين كلية عن خسارة تلك المعركة، بل أن الحجّاج كان يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية عن الفشل فيها، وذلك أن الحجّاج كان يشك في إخلاص عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الأشعث، ويتهمه في التباطؤ في حرب الخوارج، فعزله عن قيادة الجيش الذي خسر المعركة السابقة، ثم أوكل قيادة ذلك الجيش إلى قائد

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٧٤.
(٢) الطبري، ج٤، ص٤٧١.
(٣) المصدر نفسه: ٤: ٥١٨.
(٤) الخوارج والشيعة، ص٢٥٢-٢٥٣.
(٥) التاريخ، ج٣، ص١٨.
(٦) الطبري، المصدر السابق، ج٥، ص٤١.
(٧) المصدر نفسه، ج٥، ص٤٣.
(٨) الطبري، ج٥، ص٨٥.
(٩) المصدر نفسه، ج٥، ص٤٨.
(١٠) المصدر نفسه، ج٥، ص٨٢.

جديد ذي خبرة ناقصة في الحرق، وذي غرور كبير مما أدى إلى خسران المعركة[١].

ويبدو أن الحجاج كان أنانياً يعمل على إبراز شخصه في الأحداث العامة دون الاهتمام التام بمصلحة من يحكمهم، أو من يحكم باسمهم، والأدلة على ذلك كثيرة.

أولاً: التخلص من محمد بن موسى بن طلحة رغم أن في هلاكه ضرراً للحكومة الأموية التي كان الحجاج موظفاً فيها، وكان الحجاج غير مرتاح للصلة الوثيقة الموجودة بين محمد والخليفة عبد الملك، والتي كان من نتيجتها أن يوكل الخليفة لمحمد هذا بمهمة عسكرية في سجستان دون استشارة الحجاج. ولما نزل محمد الكوفة في طريقه إلى سجستان أشار عليه الحجاج أن يحارب الخوارج بدلاً من الذهاب إلى مهمّته الأصلية، مع العلم أن قلّة خبرة محمد بحرب الخوارج، وعدم استعداده التام للقائهم يوحيان بأن فشله في حربهم يكاد أن يكون محققاً.

قال الطبري: ولّى عبد الملك محمد بن موسى، سجستان: «فمر بالكوفة وبها الحجاج ابن يوسف، فقيل للحجّاج إن صار هذا إلى سجستان مع نجدته وصهره لعبد الملك فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلب منعك منه، قال: فما الحيلة؟ قيل تأتي وتسلّم عليه وتذكر نجدته وبأسه، وأن شبيباً في طريقه، وأنه قد أعياك، وأنك ترجو أن يريح الله منه على يده فيكون له ذكرُ لك وشهرته، ففعل فعدل إليه محمدٌ.. فواقعه شبيبٌ.. فبارزه شبيبٌ فقتله»[٢].

ثانياً: كان اعتداد الحجاج برأيه وتدخله في قضايا تدخل في صميم اختصاص ذوي العلاقة من الأسباب التي ألحقت بالدولة أضراراً كبيرة، وسبق أن بيّنا أن تدخله في شؤون أحد قواده الذي أرسله لحرب الخوارج كان من بين الأسباب التي أدّت إلى هزيمة جيش الحكومة، ثم إن تدخله في شؤون قائده ابن الأشعث حمل الأخير على العصيان والقيام بثورة في الكوفة كادت تطيح بحكم الأمويين في العراق، وكان الحجاج قد أرسل ابن الأشعث لفتح بلاد رتبيل رغم مما بين الاثنين من فقدان الثقة وخلاف في الرأي[٣].

وقد تصرف ابن الأشعث في ساحة المعركة بما يمليه عليه واجبه، ورأى أن يتمهل في حربه مع العدو، وكان: «كلما حوى بلداً بعث عليه عاملاً، وبعث معه أعواناً، ووضع البرد فيما كان بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب..»[٤]، وعندما أطلع ابن الأشعث الحجاج على خططه رفضها، وعزا تمهله في فتح البلاد إلى عدم مقدرته، ثم أرسل الحجّاج كتباً متلاحقة يدعوه فيها إلى تنفيذ اقتراحاته، وإذا لم يفعل عليه أن يعتزل العمل، وعندما وصلت كتب الأمير إلى ابن الأشعث أطلع الجيش على جلية الأمر، فما كان منهم إلّا أن رفضوا خطط الحجّاج واتهموه بأنه يريد هلاكهم. قال الطبري: أن أحد أفراد جيش ابن الأشعث قال عندما سمع بما عزم عليه الأمير: «أن الحجّاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب واللصوب، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز المال.. وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء»[٥].

وكانت النتيجة أن خلع ابن الأشعث وجنده طاعة الحكومة، وحصلت بين الفريقين حرب كلّفت الدولة وأهل الكوفة أموالاً طائلة ونفوساً كثيرة.

ثالثاً: كان الحجّاج يجعل مقتضيات سياسته المحلية وخلافاته الشخصية تطفو على المصالح الأساسية للدولة، روى البلاذري: أن بني أمية استصلحوا أجزاء من البطائح في العهود السابقة لحكم الحجّاج في الكوفة، وفي عهد معاوية فقط أصلح ما غلته خمسة ملايين درهم: «فلما كان زمن الحجاج غرق ذلك لأن بثوقاً انفجرت فلم يعان الحجّاج سدّها مضارة للدهاقين، لأنه كان اتهمهم بممالئة ابن الأشعث حين خرج عليه»[٦].

رابعاً: كان الحجاج -إن صحت الروايات- يثير قضايا خطيرة وثيقة الصلة بالدين، وإن الفائدة الآنية -إن كانت لها فائدة- لا تتناسب وما تثيره تلك القضايا من مشكلات خطيرة للأمير وللخليفة معاً، روى الطبري: أن الحجّاج بعد أن انتصر على ابن الأشعث: «كان لا يبايعه أحد إلا قال له: أتشهد أنك قد كفرت؟ فإذا قال: نعم، بايعه وإلّا قتله..»[٧].

روى المسعودي خبراً رفعه إلى الربيع بن خالد قال: «سمعت الحجّاج يخطب على المنبر وهو يقول: أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته؟ فقلت: الله عليّ أن لا أصلّي خلفك أبداً، ولئن رأيت قوماً يجاهدونك لأقتلنك معهم...»[٨].

وتولى الكوفة بعد الحجّاج عددٌ من الولاة، منهم: خالد بن عبد الله القسري، وكان خالدٌ ذا قدرة كبيرة في الشؤون الاقتصادية، وقد استُصلحت على يده وبإشراف الخليفة هشام مناطق كبيرة من البطيحة، وكان حسان النبطي من الخبراء الاقتصاديين الذين استعان بهم خالد في هذا الخصوص[٩]

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص٨٠ وما بعدها.
(٢) الطبري، ج٥، ص٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص١٤٠.
(٤) المصدر نفسه، ج٥، ص١٤١.
(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص١٤٧.
(٦) فتوح البلدان، ص٢٩١.
(٧) التاريخ، ج٥، ص١٦٩.
(٨) المسعودي، المصدر السابق، ج٣، ص٨٧.
(٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٩١.

وتمكن خالد نتيجة لذلك من اقتناء عدد كبير من المقاطعات الخصبة التي كانت تدرّ عليه غلات كبيرة، وذكر الطبري: أن هشام بن عبد الملك سأل حسان النبطي عن غلة خالد فقال: ثلاثة عشر ألفَ ألفٍ[1].

ويذكر الطبري أيضاً أسماء ضياع خالد، ويبيّن أن هشاماً عزله لأنه: «اعتقد بالعراق أموالاً، وحفر آباراً حتى بلغت غلته عشرين ألف ألف، منها نهر خالد، وكان يغلّ خمسة آلاف ألف...»[2]. وكان خالد يؤخر بيع غلّته فيرتفع سعر القمح، وسبق أن بيّنا أن خالداً جدد بناء سوق الكوفة وعقد سقوفه بالآجر والجص، كما أنه ضرب نقوداً فضية ذات عيار جيد.

وبعد أن عُزل خالد تولّى يوسف بن عمر ولاية الكوفة، وفي عهده حصلت ثورة زيد ابن عليّ عليه السلام في الكوفة، وكان من بين الشعارات التي أطلقها زيد عليه السلام للدفاع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسّم هذا الفيء بين أهل السواد، وإعادة الحق إلى أهل البيت عليهم السلام.

وقد فشلت ثورة زيد عليه السلام كما هو معروف، ومع ذلك كان لمقتله أثر مهم في تكتل الشيعة وازدياد غضبهم على حكم الأمويين، قال اليعقوبي: «ولما قُتل زيد وكان من أمره ما كان، تحركت الشيعة بخراسان، وظهر أمرهم، وكثر من يأتيهم ويميل معهم، وجعلوا يذكرون للناس فعل بني أمية وما نالوا من آل رسول الله صلى الله عليه وآله حتى لا يبق بلدٌ إلا فشىٰ فيه هذا الخبر وظهرت الدعاة..»[3]، وكان لموت زيد نتيجة أخرى، وهي أن موته أزال من طريق الدعوة العباسية منافساً قوياً[4]، يضاف إلى ذلك أن حركته كانت احتجاجاً على فقدان العدل الاجتماعي.

الحركة الفكرية في الكوفة:

كانت منطقة الكوفة ملتقى لثقافات متعددة بما فيها الثقافة الإسلامية العربية الوافدة إليها بعد تمصير الكوفة، وقد نزل الكوفة بعد تمصيرها عددٌ من الصحابة الذين كان كثير منهم ذا معرفة بكتاب الله وسنّة رسوله، قال ابن سعد: «هبط الكوفة ثلثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر.. وكان عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود من بين هؤلاء، وكان ابن مسعود من مشاهير علماء عصره، وقد وصفه الخليفة عمر رضي الله عنه بسعة العلم، وقال: «آثرت أهل الكوفة بعبد الله على نفسي».

وكتب إلى أهل الكوفة يقول: «بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً.. فخذوا عنه»[5].

وقد اشتغل ابن مسعود بإقراء القرآن وتفسيره ورواية الحديث، روى الطبري: أن شخصاً اسمه مسروق، قال: «كان عبد الله (بن مسعود) يقرأ علينا السورة، ثم يحدّثنا فيها ويفسرها عامة النهار»[6]، ويظهر أن جهود ابن مسعود في التعليم والرواية أثمرت بصورة جيدة، وذات مرة قال إبراهيم التيمي: «كان فينا ستون شيخاً من أصحاب عبد الله»[7]. كما إن عبد الله بن مسعود أصبح صاحب طريقة خاصة به في قراءة القرآن، ثم كان لوجوده في الكوفة أثرٌ في شيوع طريقته تلك بالعراق، فكان العراقيون حسب رواية الطبري يقرأون بقراءة ابن مسعود، بينما أهل الشام يقرأون بقراءة أُبَيّ بن كعب»[8]. ويظهر أن آراء ابن مسعود في التفسير والإقراء كانت متقاربة مع آراء علي ابن أبي طالب، إذ: «كان أصدق الناس عند الناس على عليّ أصحاب عبد الله»[9].

وبعد أن جعل الإمام عليٌ عليه السلام الكوفة قاعدة خلافته عمل هو وعددٌ من أصحابه على نشر الثقافة الإسلامية فيها، وكان الإمام عليٌ عليه السلام على أغلب الروايات أكثر الصحابة علماً وأغزرهم معرفةً بالقرآن والسنة.

وسُمع عليٌ مرةً يقول: «لو سألتموني عن آية آية في ليل نزلت أو في نهار أُنزلت، مكيّها ومدنيّها، وسفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم..»[10].

ووصف الخليل بن أحمد الفراهيدي الإمام عليّاً بأنه: أعلم الصحابة[11]، ويقول ابن شهرآشوب: أن القراء السبعة إلى قراءة الإمام عليّ يرجعون، وأن حمزة والكسائي يعوّلان على قراءة الإمام علي وابن مسعود، وليس مصحفهما مصحف ابن مسعود، فهما إنما يرجعان إلى الإمام عليّ ويوافقان ابن مسعود فيما يجري من الإعراب، وقد قال ابن مسعود: «ما رأيت أحداً أقرأ من عليّ بن أبي طالب للقرآن». وأما عاصم فقرأ على أبي عبد الرحمن السلمي. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: «قرأت القرآن كله على عليّ بن أبي طالب، فقالوا أفصح القراءات قراءة عاصم، لأنه أتى بالأصل وذلك أنه يظهر ما أدغمه غيره ويحقق من الهمز ما ليّنه غيره، ويفتح في الألفات ما أماله غيره»[12].

---

(١) التاريخ، ج٥، ص٤٦٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٤٧٥.
(٣) التاريخ، ج٣، ص٦٦.
(٤) أمير علي، مختصر تاريخ العرب، (بيروت، ١٩٦١)، ص١٥٥.
(٥) الطبقات، ج٦، ص٤، ٧.
(٦) التفسير، ج١ (القاهرة، ١٣٧٤)، ص٨١.
(٧) ابن سعد، المصدر السابق، ج٦، ص٥.
(٨) التفسير، ج١، ص٦٠.
(٩) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٥.
(١٠) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج١ (النجف، ١٩٥٦) ص٣١٨.
(١١) أيضاً، ج٣، ص١٥.
(١٢) أيضاً، ج١، ص٣٢١.

ونال الإمام عليّ عليه السلام فضلاً عن ذلك شهرة واسعة في الفقه، وقد أورد المفيد[١] وابن شهرآشوب[٢] طائفة من قضاياه وفتاواه الفقهية، وتأثر جماعة من فقهاء الأجيال اللاحقة في الكوفة بآراء الإمام عليّ الفقهية.

قال ابن شهرآشوب: «أما أهل الكوفة وفقهاؤهم أمثال سفيان الثوري، والحسين بن صالح بن حي، وشريك بن عبد الله، وابن أبي ليلى، وهؤلاء يفرّعون المسائل ويقولون هذا قياس قول عليّ، ويترجمون الأبواب بذلك».

وابن سيرين الفقيه البصري، يفصح بأنه أخذ عن الكوفيين، وقال محمد بن الحسن الفقيه: «لولا عليّ بن أبي طالب ما علمنا حكم أهل البغي، ولمحمد بن الحسن كتابٌ يشتمل على ثلثمائة مسألة في قتال أهل البغي بناه على فعله»[٣].

وإذا علمنا أن محمد بن الحسن هذا المعروف بالشيباني، كان تلميذ أبي حنيفة، والشارح الرئيسي لآرائه الفقهية، تقدّر مدى تأثير فقه الإمام علي عليه السلام في مدرسة الكوفة الفقهية المستندة على الرأي والقياس، التي أسسها في الكوفة أبو حنيفة، الفقيه الكوفي المعروف، وقد أصبحت آراء أصحاب تلك المدرسة بمثابة الفقه الرسمي للدولة الإسلامية خلال العهد العباسي.

وذكر اليعقوبي جماعة من تلامذة الإمام علي عليه السلام الذين كانوا يحملون العلم عنه، وكان من بينهم الحارث الأعور، وأبو الطفيل عامر بن وائلة، وحبّة العرني، ورشيد الهجري، وجويرية بن مسهر، والأصبغ بن نباتة، وميثم التمار، والحسن بن علي[٤]. وكان أبو رافع من تلامذة علي أيضاً، وألّف كتاب السنين والأحكام والقضايا[٥].

وتبنّى فقه الإمام علي عليه السلام أحفاده وشيعته من بعده، ومن أشهر الفقهاء، من أحفاده الإمامان محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام اللذان كانا رغم وجودهما في الحجاز على صلة وثيقة بشيعتهما بالكوفة، وكان الإمامان المذكوران من أشهر واضعي أسس الفقه الإسلامي بعامة والجعفري بخاصة، وقد وصفهما الجاحظ بأنهما علّما الناس الفقه[٦]، أما دور الإمام الصادق في نقل العلوم الإسلامية للكوفيين فيقول عنه الوشاء: «أدركت في هذا المسجد[٧] تسعمئة شيخ، كلٌ يقول حدثني جعفر بن محمد»[٨].

ونختم كلامنا عن دور الكوفة في وضع أسس الدراسات الفقهية عند المسلمين برواية ياقوت، عن سفيان الثوري، الذي قال: «خذوا المناسك عن أهل مكة، وخذوا القراءة عن أهل المدينة، وخذوا الحلال والحرام عن أهل الكوفة»[٩].

أما النثر البليغ، فكان نصيب الكوفة منه في الفترة التي تناولناها في البحث غير قليل، وقد قضى الإمام عليٌ عليه السلام سيد خطباء العرب شطراً من حياته كما ألقى معظم خطبه في الكوفة.

قال ماسنيون: «وأما في النثر ففي الكوفة تكوّنت تلك المجموعة المعتبرة النفيسة (نهج البلاغة) الحاوية على الخطب والمواعظ التي ألقاها عليٌ هناك»[١٠].

وكانت خطب طائفة من زعماء الخوارج، وخطب زياد بن أبيه، والحجّاج، وزيد بن عليّ تصلح بمثابة نماذج جيدة للنثر في ذلك العصر.

أما الشعر العربي وما له صلةٌ به من العلوم كالعروض، فلم يكن نصيب الكوفة منه حينذاك قليل الأهمية، وقد وردت إشارة يستفاد منها أن أحد المشتغلين بالعروض قبل أن يضع الخليل قواعده ربما كان كوفياً.

قال ابن شهرآشوب: أن الخليل بن أحمد: «أخذ رسم العروض على رجل من أصحاب محمد الباقر، أو علي بن الحسين، فوضع لذلك أصولاً»[١١]، ولما كان أصحاب الإمامين المذكورين كانوا حينذاك من أهل الكوفة في الغالب الأعم، ربما أن صاحب الإمام الذي استفاد منه الخليل كان كوفياً.

ومن شعراء الكوفة في الفترة موضوع البحث حنين الحيري: «وكان شاعراً مغنياً فحلاً من فحول المغنين». وقد عاصر هشام بن عبد الملك ونال جائزته[١٢]، ومن شعرائها الحكم بن عبدل «ومنزله ومنشؤه الكوفة» وهو من شعراء الدولة الأموية[١٣]، وكان الكميت بن زيد الأسدي العالم بلغات العرب وصاحب الهاشميات من أشهر شعراء الكوفة في هذه الفترة.

وذات مرة دخل على الباقر فقال له الإمام: «والله يا كميت لو أن عندنا مالاً لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله لحسان: لا يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا»[١٤].

---

(١) الإرشاد (طهران، ١٣٧٧) ص٩٢ وما بعدها.
(٢) المناقب، ج٢، ص١٧٥ وما بعدها. وأفرد ابن شهرآشوب باباً خصّه لقضاياه بالكوفة أثناء خلافته.
(٣) ابن شهرآشوب، المصدر السابق، ج١، ص٣٢٢.
(٤) التاريخ، ج٢، ص١٩٠.
(٥) الكشي، محمد بن عمر، الرجال (النجف، ١٣٨٣) ص٧٦.
(٦) الرسائل، باعتناء السندوبي (القاهرة، ١٩٣٣)، ص١٠٨.
(٧) يعني مسجد الكوفة.
(٨) النجاشي، الرجال (طهران، لا. ت) ص٣١.
(٩) معجم البلدان، ج٧، ص٢٩٩.
(١٠) خطط الكوفة، ص١٣.
(١١) المناقب، ج١، ص٣٢٦.
(١٢) الأصفهاني، أبو الفرج الاغاني، ج٢ (بيروت، ١٩٥٦)، ص٢٣٥-٢٣٦.
(١٣) الأصفهاني الأغاني، ج٢، ص٢٨٣.
(١٤) الكشي، الرجال، ص١٨١.

ويقول الدكتور مهدي المخزومي: «ولعل السبب في عناية الكوفة بالأشعار، ورواية الأدب يرجع إلى أنها لا تزال تحتفظ بعادات العرب، وتقاليدها الأولى، وتغنيها بالبطولة، وتفاخرها بالأبطال، وذلك لأنها منازل العرب الأرستقراطية، وموطن أمراء القبائل»[1].

وكانت الكوفة فضلاً عن ذلك، منشأ الخط العربي الكوفي وموطن تطوره[2]. أما النحو فيبدو أن الكوفة في الفترة التي تناولها بحثنا، لم تسهم فيه إسهاماً مهماً.

قال المخزومي: «فالنحو إذن لم ينشأ في الكوفة، وإنما قد وفد عليها من البصرة، ونشره فيها بصريون جاءوا إلى الكوفة واستوطنوها، وكوفيون رجعوا من البصرة بعد ما تلمذوا لشيوخها، لينشروا بين الدارسين ما تعلّموه هناك» ثم يقول: «ولا نكاد نعرف في الكوفة نحوياً -بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة- قبل الكسائي..»[3]، ولما كان عصر الكسائي لا يتناوله بحثنا لم نر ضرورة للبحث عن النحو في الكوفة.

ونختم حديثنا عن الكوفة بالآراء والملاحظات التالية:

أولاً- كانت الكوفة تميل في عقيدتها السياسية للالتزام بالحق الشرعي، أي أنها تشترط توفر الشرعية في حكّامها. ونتيجة لذلك نجد أن فكرة النصّ والتعيين في الإمامة الشيعية تجسد قبولاً كبيراً في الكوفة، وكان للإمامين الباقر والصادق عليهما السلام وهما من أئمة الشيعة أسلاف الإمامية، اليد الطولى في تثبيت فكرة الإمام المنصوص عليها ونشرها بين أسلاف الإمامية بعامة، ومن بينهم أهل الكوفة بخاصة.

وكان لنجاح الإمامين عليهما السلام المذكورين في تثبيت فكرة النص على الإمام أثر كبير في نشر عقيدة الشيعة بين معتنقيها من أسلاف الإمامية؛ لأن القول بالنص بنوعيه الجلي والخفي، أسّس التشيع الإمامي وجوهره، وعرف الكتاب الشيعة أسلاف الإمامية بأنهم هم الملتزمون بالوصية والسائرون على المنهاج الأول، ويقصدون بذلك أن أولئك الشيعة يلتزمون بنصّ النبي صلى الله عليه وآله على خلافة علي عليه السلام وإمامته ونصّ عليّ على من بعده، وهكذا ينصّ المتقدم منهم على من بعده حتى تمت سلسلة الأئمة الاثني عشر المعصومين من ولد عليّ من فاطمة، التي تنتهي بالإمام الغائب عليه السلام.

ويعزى ميل الكوفة إلى الشرعية في السياسة إلى انتشار العقيدة التي اعتنقتها الشيعة أسلاف الإمامية فيها بصورة مبكّرة أولاً، وإلى ما ورثته من تقليد الساسانيّين في الحكم ثانياً، وإلى معظم سكانها العرب كانوا من اليمانيين الذين ألفوا ذلك النوع من الحكم في وطنهم الأصلي ثالثاً.

ثانياً- اتخذت الكوفة في فكرة «الاجتهاد» واستنباط الأحكام الفقهية من أدلّتها الشرعية أساساً لبناء تراثها الفكري في الحقوق، وتجلى الاتجاه المذكور ليس عند الشيعة أسلاف الإمامية فحسب، بل ظهر عند غيرهم من المسلمين الكوفيين أمثال أبي حنيفة رحمه الله.

ثالثاً- الجانب الاجتماعي في حركات الغلاة الكوفيين: كانت الكوفة المركز الرئيس لغلاة الشيعة، إن ظهور الغلو في الكوفة دليلٌ على التقدم الفكري العميق والوعي الاجتماعي عند أهل الكوفة، لأن في الغل، رغم انحراف القائلين به عن الإسلام، جانباً اجتماعياً إيجابياً؛ وذلك أن القائلين به كانوا بالنسبة لمعاصريهم أكثر شعوراً بظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

ويبدو أن أكثرية الغلاة اتخذت من الغلو وسيلة للثورة الاجتماعية على الطبقية والعشائرية اللتين تبناهما حكّام المسلمين حينذاك. ولعلّ في حركة المختار التي انضم إليها الغلاة، الذين كانت غالبيتهم من المستضعفين في الأرض، دليلاً على وجود الجانب الاجتماعي في حركات الغلو.. ثم إن الغلاة كانوا بمثابة العمود الفقري للدعوة العباسية لأن قادتها قالوا بالدعوة إلى الرضا من آل محمد ودعوا إلى تطبيق العدالة الاجتماعي بين المسلمين كافةً.

* * *

(١) مدرسة الكوفة، بغداد، ١٩٥٥، ص٥٧.
(٢) ماسنيون، المصدر السابق، ص١٣.
(٣) مدرسة الكوفة، ص٥٧-٥٨.

الكوفة
رحلة في تاريخية الإسم

الأستاذ معن حمدان علي

للعراق تاريخ قديم، ضارب الجذور في عمق الزمن، يمتد إلى آلاف من السنين، وقد مرّت به أدوار حضارية كثيرة، ولا بدّ أن تترك كل واحدة منها آثاراً، وهذا ما حصل، وكان أبرز ما تركت تلك الحضارات آثاراً شاهدة تدل عليها، فضلاً عن أسماء مدن ومناطق بقي أغلبها حياً ليومنا هذا، وقسم من تلك الأسماء ناله التحريف والتصحيف بمرور الزمن، ولو تضافرت جهود علماء الآثار واللغة لفكت الكثير من طلاسم التاريخ، مثلما غيرت المكتشفات الأثرية الكثير من الأمور التي كانت مسلّمة، لا يرقى إليها شك، ولا تحوم حولها ريبة.

فالآثار المكتشفة في العراق أثبتت أن اسم بغداد كان معروفاً منذ العصر البابلي، حيث جاء اسم (بغداد) و(بغدادو) في وثيقة قانونية تعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، في زمن الملك الشهير حمورابي، وآخر تلك المكتشفات كانت بقايا المسنَّاة الموجودة على ضفة دجلة اليمنى، والمعروفة شعبياً باسم قصر البرامكة، وهي مشيدة بطابوق عليه ختم الملك البابلي نبوخذ نصّر (٦٠٥-٥٥٨ق.م)، مما يدل على قدم هذا الموضع[١].

ولا بدّ أن تكون هذه المكتشفات قاطعة جهيزة كل «مجتهد» في تفسير معنى اسم بغداد، بعد أن ذهبوا بشأنه مذاهب شتى، ابتداءً من أنها تعني (بستاد داد) من (باغ) و(داد)، أو أن الاسم من أصل هندوأوروبي ويعني عطية، وأخيراً وليس آخراً أنها عربية الأصل مكتوبة من مقطع (بغ) وهو صوت من الهدير، و(داذ) نبات له ثمار تشبه الشعير، يخمّر ويشرب، لتكون بغداد (هدير نبيذ الداذي) أو (هدير الداذي)!!

والأمثلة كثيرة في أصول أسماء المدن العراقية، فقد ورد في تقويم سرجون الأكدي (٢٣٧٠-٢٣١٦ق.م)؛ اسم (كيرخوآنجا) المعروفة الآن باسم (كركوك)، أو (أربـاأيلو) أي مدينة الأربعة آلهة، التي عربت في العصر الإسلامي إلى أربل، واستقرت أخيراً باسم بابل.

وبما أن «الكوفة» اسم لا يمتلك عمقاً تاريخياً مثل بغداد وأربيل، فهنا يحق لي القول: إن من أخطأ فله أجر واحد! لذلك سنحاول الإلمام بتاريخ هذا الاسم والموضع.

* * *

إن أقدم اسم لموضع الكوفة ورد عند المؤرخ اليوناني في القرن الرابع ميلادي أميانوس مرشيليتوس، الذي رافق الإمبراطور جوليان المعروف تاريخياً بالجاحد أو المرتد عام (٣٦٣م) في حملته لمحاربة الفرس الساسانيين؛ هو (فولوجيسيا) أو (فولوغشيا) من أولغاشية أو فولغاشية نسبة إلى الملك الفرثي ولغاش أو (فولغاش) الأول (٥٢-٨٠م)، ويرجح أنها موضع الكوفة الحالية[٢].

والظاهر أن هذه المنطقة تطورت بعد القرن الرابع الميلادي، وقد بنيت فيها مدن وقرى ودساكر، «وكانت الحيرة عاصمة اللخميين.. ومع ذلك لم تكن سوى ثغر من ثغور البادية، ومحل لتبادل البضائع بين العمال الإيرانيين ومأموريهم من جهة، وكبار أصحاب الإبل -البدو- من الجهة الأخرى بصورة مستمرة، كما أنها كانت تجمع بين أهل المدن والقرى الآراميين الشديدي التنصر، وبين العشائر الصغيرة الأليفة من رعاة الغنم التي اعتادت التردد هناك»[٣].

ووصف الشابشتي هذه المنطقة بعد القرن الهجري الأول - القرن السابع الميلادي- قائلاً: «وهذه الديارات بالنجف بظاهر الكوفة، وهو أول الحيرة. وهي قباب وقصور تسمى ديارات

(١) راجع مجلة المورد البغدادية، العدد السابع، السنة ٢٠٠١ عن الشواهد التاريخية في مقال الأستاذ سالم الألوسي (بغداد ما قبل المنصور).

(٢) العراق في القرن الرابع للميلاد، ترجمة فؤاد جميل، الموسوعة الصغيرة، بغداد ١٩٩٨، ص٣٧، الأستاذ سالم الألوسي، موجز دليل آثار الكوفة، بغداد ١٩٦٥ ص٥.

(٣) لويس ماسنيون، خطط الكوفة، ترجمة تقي محمد المصعبي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، النجف ١٩٧٩، ص٢٨.

الأساقف، وبحضرتها نهر يعرف بالغدير، عن يمينه قصر أبي الخصيب مولى أبي جعفر (المنصور) وعن شماله (قصر) السّدير، وبين ذلك الديارات»[1].

وهذا ما يفسر أسماء المنطقة التي وردت كلها بالآرامية، فالحيرة التي تبعد أميالاً من الكوفة؛ آرامية النجار من حرتا أو حيرتو، ومعناها المعسكر أو الحصن أو الحاضر، وبحيرة النجف باسم فرثا، أي البثق، وعاقولا؛ الواقعة جنوب مدينة المسيب، ومعناها العوجة أو فتلة الطريق[2]، وإليها ينسب دير العاقول الوارد ذكره في كتب التراث، وأما اسم موضعه الآن فهو الدير، وهي المنطقة التي شهدت مقتل شاعر العرب الخالد المتنبي.

يحدثنا عبد الوهاب العزام الذي زار المنطقة سنة ١٩٢٦، قائلاً: «وقد سألت أعراباً نازلين هناك من قبيلة شمر عن أرض أخرى تسمى الدير من هذه الناحية؛ فنفوا هذا، وسألت عن أسماء العاقول وقنّى والصافية، أتعرف اليوم هي أو ما يقرب منها؟ فنفوا جازمين»[3].

وقد ورد في «تقويم قديم للكنيسة الكلدانية النسطورية»[4] أن الكوفة كان يقال لها: كوبا أو كوبة، وهي كلمة آرامية تعني الشوكة، ونبات العاقول ذلك النبات الشائك المعروف في العراق[5]. وهناك من يرى أن عاقولا كانت تطلق على منطقة تشمل حتى الكوفة[6].

ولدى علماء اللغة العرب أن معنى «الكوبة: الطبل الصغير المخصر، وهو أعجمي، وقال محمد بن كثير؛ الكوبة: النرد بلغة اليمن، وفي الحديث: إن الله يغفر لكل ذنب إلا صاحب عرطبة أو كوبة»[7]، وهذا الحديث يتعارض مع قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ**﴾[8] صدق الله العظيم، وكذب المدلسون.

وجاء أدّي شير ناقلاً ذلك بقوله: «الكوبة: الطبل الصغير المخضر [بضاد معجمة] فارسية كوبة»[9]، وهو نقل غير صحيح وغير دقيق وللأسف.

ثم جاءت المرحلة الأخيرة من تطور اسم الكوفة؛ وهي تمصير العرب لها. والآن السؤال المطروح هو كيف سميت باسم الكوفة؟

في كتاب «فضل الكوفة وفضل أهلها» لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن العلوي الحسني الكوفي، وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، ما يأتي:

«لما نزل المسلمون المدائن أجموها وكرهوها ولم توافقهم، فكتب بذلك سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: إن العرب لا تصلح إلا حيث تصلح الإبل [!!؟] فارتد إليها منزلاً. قال الهيثم: فبعث سعد برادة يرتادون فانتهوا إلى كويفة ابن عمر. قال الهيثم: فقلت لابن عياش: أين كويفة ابن عمر؟ قال: بزيقيا»[10]، علماً أن بزيقيا كلمة آرامية تعني الباشق أو الباز[11].

* أما الكوفة عند اللغويين العرب فهي تعني:

- الرملة الحمراء المجتمعة.
- أو الرملة المستديرة، وكل رملة تخالطها حصباء.
- أو ما كانت لاجتماع الناس بها، أي من فعل: تكوَّفوا.
- أو أصلها كوفان (بضم الكاف) وهو جبيل صغير فسهلوه واختطوا عليه.
- وهو الأمر المُستدبر.
- والدغل من القصب والخشب.
- أو أصلها كوفان (بفتح الكاف وتشديد الواو) وتعني العز والمنعة لأن جبل ساتيدما محيط بها.
- أو من الكيف؛ وهو القطع، لأن كسرى أبرديز أقطعها لابنه بهرام.
- أو من الكوفان أي المشقة والتعب.
- أو هي من العيب[12].

وهنا أتساءل وأقول: ما الجامع بين هذه المعاني المختلفة؟ ألا يحق لي القول: إن أصل كلمة الكوفة هي كوبة الآرامية، وقد سمعها العرب فحرفوها أو سمعوها مصحفة؟ ولاسيّما أن كل الشواهد التي ينقلها علماء اللغة العرب في المعاجم قبلت بعد تمصير الكوفة.

* * *

(١) الشابشتي الديارات، تحقيق كوركيس عواد ط٢، بغداد، ١٣٨٦-١٩٦٦، ص٢٣٦.

(٢) أوجين منا، دليل الراغبين إلى لغة الآراميين، الموصل ١٩٠٠، يوسف غنيمة، الحيرة، بغداد ١٩٣٦، ص١٠.

(٣) عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، ط١، بغداد ١٣٥٥-١٩٣٦، ص٢٦٢.

(٤) مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٩ ص١٩، عن يعقوب سركيس، مباحث عراقية، بغداد ٩٨١: ١٤٠/٣.

(٥) جبرائيل القرداحي، اللباب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٨٨٧م، ص٥٥٥، عن مباحث عراقية ١٤٠/٣.

(٦) يعقوب سركيس، مباحث عراقية ١٣٩/٣.

(٧) الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الكتب، ١٣٨٩-١٩٦٩، ص٢٨٢، ٣٤٣.

(٨) سورة النساء/ الآية ١١٦.

(٩) أدي شير، الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩.

(١٠) الشيخ محمد حسن آل يس، مجلة البلاغ البغدادية، العدد الثالث ١٣٩٩-١٩٧٩.

(١١) أوجين منا، دليل الراغبين ٦٠.

(١٢) الزبيدي، تاج العروس، تحقيق مصطفى حجازي ٣٤٠/٢٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر ٤٩٠/٤، كامل سلمان الجبوري، تاريخ الكوفة ١٦/١.

منطقة الكوفة

دراسة طبوغرافية مستندة إلى المصادر الأدبية

الدّكتور صالح أحمد العلي

رئيس المجمع العلمي العراقي سابقاً

يتناول هذا المقال بحث ما ذكرته الكتب العربية في القرون الثّلاثة الأوّلى من الأماكن في أطراف الكوفة، ومحاولة تحديد مواقعها بصورة مضبوطة أو تقريبية، ولن ندخل فيها المنطقة الواقعة بين الكوفة والقادسية الّتي وصفناها في مقال نشرناه بمجلة كلية الآداب.

ولا ريب أنّ في كتب الجغرافية والبلدان معلومات قيمة عن هذه المنطقة وأماكنها، فقد وصف بعضها أنهار وترع ومياه هذه المنطقة ككتاب عجائب الأقاليم السّبعة لسهراب، وكتابي مروج الذّهب، والتّنبيه والإشراف للمسعودي، واشتمل بعضها على معلومات قيمة عن إنتاجيتها وأقسامها الإدارية مثل كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة وكتاب الخراج لقدامة بن جعفر، وحوى بعضها كلاماً عن وصف وأهمية بعض هذه الأماكن ككتاب أحسن التّقاسيم للمقدسي، وكتابي البلدان لليعقوبي ولابن الفقيه الهمداني. غير أنّ الكتب الجغرافية العربية لا تحوي وصفاً شاملاً لكافة أماكن هذه المنطقة، وقلما تحدد مواضعها أو تذكر أبعادها، فضلاً عن عدم الدّقة فيها.

وفي كتب الفقه الأوّلى معلومات ثمينة عن فتوح هذه المنطقة وملكيات العرب فيها، وبحوث طويلة عن أحكام أراضيها، ولكنها غير شاملة وليست دقيقة دائماً في تعبيراتها عن وطبوغرافية المنطقة، إذ قلما تعين مواقع الأماكن الّتي تذكرها.

ولا بدّ أن تذكر أنّ الكوفة منذ أوّل إنشائها بعد الفتح الإسلامي، كانت لها أهمية خاصة كبرى ظلّت محتفظة بها حتّى بعد أن شيدت بغداد وصارت عاصمة الخلافة، إذ ظلت الكوفة مركزاً فكرياً عظيماً وظهر فيها عدد كبير من العلماء والمؤرخين الّذين قدموا لنا معلومات غير قليلة عن الكوفة وما حولها وما جرى فيها من حوادث.

ولا شك أنّ الحوادث الّتي جرت في الكوفة أو قربها كانت غير قليلة ولها أثر في مجرى التّاريخ الإسلامي. فعلى أهل الكوفة ألقي واجب سحق الجيوش السّاسانية وفتح العراق ومعظم هضبة إيران. ثمّ إنّ التّوتر الّذي حدث فيها في أواخر عهد الخليفة عثمان، والحوادث الّتي جرت في خلافة الإمام علي الّذي اتخذها مركزاً له، والحركات العسكرية الّتي قامت بسبب الخوارج، ومقتل الحسين وزيد بن علي، والمعارك بين الحجاج وابن الأشعث، واتخاذ العبّاسيين مقرهم فيها في أوائل تأسيس دولتهم، ثمّ ثورة أبي السّرايا: كلّ هذه أحداث خطيرة جرت في الكوفة أو بالقرب منها، وفصل أخبارها المؤرخون المسلمون، وخاصة الكوفيين، وأوردوا في ثنايا بحوثهم إشارات إلى كثير من الأماكن، ووصفاً طيباً لبعضها.

إنّ للمعلومات الّتي قدمها المؤرخون الكوفيون عن أماكن الكوفة وما حولها أهمية كبيرة، إذ إنّ هؤلاء المؤرخين كانوا يعرفون هذه الأماكن، ويستطيعون ضبط أسمائها، وإذا كان بعضهم قد تحيز في وصف الحوادث وشوه تصويرها، فإنّ التّحيز والتّشويه لن يرقى إلى الأماكن لأنّها أشياء مادية واضحة لا مجال للتّزوير فيها. فذكر المؤرخون لمكان ما خلال بحث إحدى الأحداث التّاريخية، يدل على أنّ المكان كان قائماً في زمن المؤرخ، ويرجح أنّه كان موجوداً في زمن حدوث الحادث التّاريخي، وبذلك يساعد على تحديد زمن ذلك المكان، بصورة تقريبية على الأقل.

يضاف إلى ذلك أنّ ذكرهم المحطات الّتي وقفت فيها الجيوش أو الجماعات أو الأفراد خلال تنقلها من مكان إلى آخر، يساعد على تعيين مواقع تلك المحطات وعلى معرفة طرق المواصلات، هذا إلى أنّ بعض ملاحظاتهم عن بعض الأماكن تفيد في كشف تطورها التّاريخي. لذلك فإنّ اعتمادنا الرّئيسي في هذا الوصف الطّبوغرافي قائم على معلومات المصادر التّاريخية مع عدم إهمال المصادر الأخرى بقدر الإمكان.

لقد زالت معالم كثير من هذه الأماكن، ولم نعد نعرف مواقع المواضع الّتي تردد ذكرها في أحداث العصور

الإسلامية. غير أنّ بعض الأماكن لا تزال باقية، وبعضها يحتفظ بمكانة خاصة بالنّظر لأنّها مثوى لشخصيات إسلامية عظيمة أو بارزة، كالكوفة، والنّجف، وكربلاء، والقاسم، هذا إلى استمرار بقاء بعض الأماكن كبابل وعين التّمر والحلّة.

وبالإمكان الاستفادة من هذه الأماكن الباقية وجعلها إحداثيات أساسية لتعيين بعض الأماكن المندثرة، غير أنّه لا بدّ من ملاحظة أنّ هذه الدّراسة هي أوّلية، ولن تكون كاملة دقيقة ما لم تقرن بدراسة دقيقة لأرض المنطقة، كما أننا لا نزعم استيعابنا لكل المادة الموجودة في المصادر الأدبية، ولكننا نشعر بأنّ كميتها تكفي لإلقاء ضوء يساعد الباحثين في هذا الميدان ويقدم مادة تصلح أن تكون أساساً لمن يريد الاستمرار على دراسة هذه المنطقة.

تكونت منطقة الفرات الأوسط في العصور الإسلامية الأوّلى من ثلاث أستانات هي البهقباذ الأعلى، والأوسط والأسفل، وكلمة البهقباذ بهلوية معناها (حسن قباذ)، ولا نعلم فيما إذا كانت قائمة قبل قباذ، أم أنّه هو الّذي كورها وأوجدها، إلاّ أنّ المهم هو أنّ بقاء العرب لاسمها الفارسي هو مظهر لاحتفاظهم بها. ومما يؤيد ذلك أنّ المراكز العربية الّتي أنشئت في هذه المنطقة كالكوفة وكربلاء والجامعين وحتّى الحيرة لم يطلق اسمها على أي مركز منها. ويبدو أنّ هذه التّقسيمات ظلّت حتّى القرن الرّابع على الأقل، لأنّ مؤلفات القرن الرّابع كانت تذكر هذه الأستانات. ويمكن الجزم بأنّ تقسيمات الأستانات هو لغرض الإدارة المالية وجباية الأموال، ولكننا لا نعلم ما هي الأغراض الأخرى الّتي كان يحققها هذا التّقسيم.

ينقسم كل أستان إلى طساسيج، والطّسوج إلى رساتيق، ولكلّ أستان والي، وقد ذكرت أسماء بعض ولاة الأستانات من العرب. أمّا الطّساسيج فقد ذكرت مصادر القرن الأوّل لبعضها دهاقين، أمّا الرّساتيق فلم يذكر من كان يتولاها.

ولم تذكر المصادر اسم المركز الّذي يقيم فيه الوالي أو الدّهقان، خاصة وإن هذه الأستانات لم تسم بأسماء الأماكن، أمّا الطّساسيج فقد سمي بعضها بأسماء البلدان، وبعضها بأسماء المنطقة، كالنّهرين الفلاليج، ويبدو أنّ هذا التّقسيم قائم على أساس الإدارة المالية. ففي البهقباذين الأسفل والأوسط سكت دراهم نعرف منها ما يرجع إلى سنة ٦٠ و٦١ و٩٠هـ (انظر: كتالوج النّقود الإسلامية لولكر). كما أنّ ابن خرداذبة وقدامه بن جعفر يذكران إنتاج وجباية كل من طساسيج هذه الأستانات وأرقام قائمتيها متشابهان، إلاّ القليل مما قد يرجع إلى تبدل مقدار الإنتاج أو إلى خطأ النّساخ، وليست لدينا قائمة أخرى أو معلومات أخرى نستطيع أن نركن إليها في تقرير مدى صحة أرقام هاتين القائمتين. ويلاحظ في هذه الأرقام عدم التّناسق بين عدد رساتيق وبيادر وجباية الطّساسيج وإنّ التّباين في بعضها كبير جداً، بل أن بعضها كالسّيلحين، وروذمستان وهرمزجرد لم تذكر له رسايتق. ولا نعلم فيما إذا كان هذا التّباين راجعاً إلى كون الّذين وضعوا حدود هذه التّقسيمات أخذوا بنظر الاعتبار الظّروف الخاصة الّتي كانت تحيط هذه المنطقة، أم إلى التّبدلات الّتي حدثت في هذه المنطقة فأثرت في إنتاجها، أم إلى كلا العاملين. ومن المعلوم أنّ هذه المنطقة كانت على طرف الصّحراء، فهي معرضة لهجمات القبائل وتوغلها، ومع أنّ دولة المناذرة الّتي حكمت في أطراف هذه المنطقة عملت على الحد من تقدم القبائل، إلاّ أنّ هذا لم يصل إلى حد انتفاء الحاجة لإقامة حاميات عسكرية تصد القبائل وتساعد المناذرة أو تراقبهم وقد ظلّت هذه الحاجة حتّى في العهود الإسلامية عندما أنشئت الكوفة وصارت مركزاً لحركات سياسية وعسكرية، كما سنرى عند الكلام عن عين التّمر.

أمّا التّبدلات الّتي أثرت في إنتاج المنطقة فترجع إلى استواء الأرض وما فيها من التواءات تؤدي إلى سرعة امتلاء التّرع، وكثرة تبديل الأنهر والتّرع مجاريها مما يؤدي إلى تبدل مناطق الزّراعة. وقد أهمل بعض موظفي الرّي السّاسانيين، على أثر الفتوح الإسلامية واجباتهم، فتأثرت أحوال التّرع، ولكن العرب سرعان ما عاجلوا الأمر كما قاموا بحفر عدد من التّرع وأنشأوا مشاريع ري جديدة أثرت في تبديل مراكز الإعمار والسّكن، وسندرس هذا الموضوع في مقال خاص.

إنّ هذه التّقسيمات الإدارية الّتي ظلّت حتّى القرن الرّابع الهجري لم تأخذ بنظر الاعتبار التّطورات الكبيرة الّتي حدثت بعد الفتح الإسلامي حيث أنشئت الكوفة الّتي أصبحت مصراً عظيماً استوطنته الجيوش العربية وعوائلها، ونشطت فيه الحياة الاقتصادية، هذا فضلاً عن استيطان عدد غير قليل من عرب الجزيرة في أماكن من المنطقة، وامتلاك عدد من العرب المزارع الكبيرة فيها. كلّ هذا يحملنا على أن نبدأ الوصف بذكر طساسيج الأستان الأعلى، ثمّ نذكر التّفاصيل الإضافية الّتي ترد في كتب التّاريخ، علماً بأنّ سعة التّفاصيل تتناسب طردياً مع القرب من الكوفة.

البهقباذ الأعلى:

تتفق المصادر الّتي تذكر أقسام العراق الإدارية أنّ الأستان البهقباذ الأعلى يتكون من ست طساسيج هي:

(١) بابل.

(٢) خطرنيه.

(٣) الفلوجة العليا.

(٤) الفلوجة السّفلى.

(٥) النّهرين.
(٦) عين التّمر[١].

الطّسوج	الرّساتيق	البيادر	الحنطة	الشّعير	الورق بالألوف
بابل خطرنيه	١٦	٣٧٨	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠
الفلوجة العليا	١٥	٢٤٠	٥٠٠	٥٠٠	٧٠
الفلوجة السّفلى	٦	٧٢	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠
النّهرين	٣	١٨١	٣٠٠	٤٠٠	٤٥
عين التّمر	٣	١٤	٣٠٠	٤٠٠	٤٥

ويكرر قدامة نفس الأرقام المذكورة عن الحنطة والشّعير والورق، ولا يذكر شيئاً عن الرّساتيق والبيادر.

بابل:

إن شهرة بابل في التّاريخ القديم لا تحتاج إلى تأكيد، وقد أطلق الإغريق اسمها على كلّ الإقليم غير أنّها في العصور الإسلامية لم تكن سوى بلدة صغيرة، أو قرية، بقربها جسر بابل الّذي ذكرته بعض المصادر الإسلامية[٢].

الجامعين:

وأبرز ما بقرب بابل هو الجامعين، وقد أشار سهراب إلى الجامعين العتيق والمحدث (ص ١٣٥) ولعل أقدمها هو الّذي سمى به نهر الجامع الّذي حفره خالد القسري[٣].

وفي الجامعين أنشأ سيف الدّين صدقه بن منصور الحلة «وكانت أجمة يأوي إليها السّباع.. فنزل بها باهله وعساكره وبني بها المساكن الجليلة والدّور الفاخرة، وتوق أصحابه في مثل ذلك فصارت ملجأ، وقد قصدها التّجار فصارت أفخر بلاد العراق وأحسنها مدّة حياة سيف الدّولة، فلما قتل بقيت على عمارتها فهي اليوم قصبة تلك الكورة»[٤].

(١) (ابن خرداذبة ص٨، ١٠ قدامه: كتاب الخراج ص ٢٣٦ ياقوت ١/ ٧٧٠) ويذكر ابن خراداذبة تفاصيل إنتاجيتها.
(٢) انظر مروج الذّهب ١/ ٧٨، ٢/ ١١٥، ٤/ ٢٦٦ المقدسي ص ١٢١.
(٣) (فتوح البلدان ص ٢٨٦ الطبري ٢/ ١٦٥٥ انظر أيضاً ٣/ ١٠٨٥ اليعقوبي ٢/ ٥٤٣).
(٤) (معجم البلدان ٢/ ٣٢٢ انظر أيضاً ٢/ ١٠٠وانظر عن الجامعين والحلة ما كتبه عبد الجبار ناجي في أطروحته للماجستير عن الإمارة المزيدية) والحلة مركز اللّواء المسمى باسمها.

وبالقرب من الحلة برملاحه «شرقي قرية يقال لها القسونات» بها قبر باروخ أستاذ حزقيل وقبر يوسف الرّبان وقبر يوشع وليس بيوشع بن نون، وقبر عزره، وليس عزره ناقل التّوراة الكاتب، والجميع يزوره اليهود وفيها قبر حزقيل المعروف بذي الكفل يقصده اليهود من البلاد الشّاسعة للزّيارة[٥]. ولا شك أنّ برملاحه هي الكفل الحالية.

وبقرب الحلة الصّروات[٦]. والغامرية[٧]. والمشرك[٨]. وكذلك واسط وهي قرية قرب مطير أباذ قرب حلة بني مزيد يقال لها واسط مرزابلا[٩]. وشوشة وبها قبر القاسم بن موسى الكاظم[١٠]. وهذا القبر معروف اليوم وموقعه في قرية تسمى القاسم.

خطرنية:

تذكر خطربيه مع بابل وتقرن بها في كثير من المصادر، فقد ذكر البلاذري بسطام نرسي دهقان بابل وخطرنيه[١١].

كما أنّ كلاً من ابن خردذابه وقدامه ذكرا إنتاج بابل وخطرنيه مجتمعين، كلّ هذا يدل على أنّ خطرنيه قرب بابل، أمّا سهراب فيذكر أنّ نهر سورا «يمر بالجامعين المحدث والقديم، ويمر إلى أحمد أباذ وخطرنيه، ويمر إلى قسمين» (ص١٢٥) مما يدل على أنّها جنوبي بابل والحلة.

تذكر بعض الرّوايات أنّ أبا مسلم الخراساني أصله من خطرنيه[١٢]. ويذكر البلاذري أنّ المختار الثّقفي كانت له قرية في خطرنيه[١٣]. ويسمى الطّبري هذه القرية (لقفا)[١٤].

الفلوجتان:

ورد ذكر الفلوجة أحياناً بصيغة الجمع (الفلالج)[١٥]. وأحياناً بالتّثنية (الفلوجتين)[١٦]. كما وردت بالمفرد[١٧].

يذكر ياقوت[١٨]. أنّ «الفلوجة الكبرى والفلوجة الصّغرى قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التّمر، ويقال الفلوجة العليا والفلوجة السّفلى.

(٥) (ياقوت ١/ ٥٩٤ انظر أيضاً ٣/ ٣٣٢).
(٦) (ياقوت ٣/ ٣٨٣).
(٧) (ياقوت ٣/ ٧٦٩).
(٨) (ياقوت ٤/ ٥٣٧).
(٩) (ياقوت ٤/ ٨٩١).
(١٠) (ياقوت ٣/ ٣٣٥).
(١١) (فتوح البلدان ص ٢٦٥/ ٤٥٧).
(١٢) (الطبري ٢/ ١٩٦٠).
(١٣) (أنساب الأشراف ٥/ ٢٠٨).
(١٤) (الطبري ٢/٥٢٠).
(١٥) (انظر الطبري ١/ ٢٠٥٢، ٢٠٥٧، ٢٢٠٣، ٢/ ١٠٧٢ فتوح ٢٤٥/ ٢٦٥/
(١٦)(فتوح ٢٥٤).
(١٧) (الطبري ١/ ٢٠٥٨، ٣/ ١٥١٧، ٢٢٥٦ ياقوت ٢/ ٦٠٠، ٩٠٥).
(١٨) (٣/ ٩١٦).

ويذكر الطّبري «وابن هبيرة معسكر على فم الفرات من أرض الفلوجة العليا على رأس ٢٣ فرسخاً من الكوفة[١]. فإذا قدرنا الفرسخ الإسلامي كيلو مترات، فإنّ بعدها عن الكوفة يكون حوالي ١٣٠كيلو متراً، أي المنطقة الواقعة شمالي الإسكندرية الحالية، وهي جنوبي الفلوجة الحالية.

إنّ إشارة الطّبري إلى «فم الفرات من أرض الفلوجة العليا» تدل على تفرع الفرات في الفلوجة.

والواقع أنّ الفرات يتفرع عدّة فروع في هذه المنطقة، فيذكر سهراب (١٢٣) وياقوت (٤/ ٨٤٢) إنّ نهر عيسى يأخذ من نهر الفرات عند دمما ويقول ياقوت (٢/ ٦٠٠) إنّ «دمما قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد عند الفلوجة».

غير أنّ سهراب يصف مجرى الفرات وما يتفرع منه، ويذكر أنّه بعد أن يجري الفرات أحد عشر فرسخاً يتفرع إلى فرعين، أحدهما نهر الكوفة والثّاني نهر سورا الّذي يستمر في مجراه وتتفرع منه فروع عدّة إلى قنطرة القامغان حيث يتفرع منه سورا الأسفل ثمّ يمر «بقرى وعمارات وخطرنيه والجامعين والفلوجة العليا والسّفلى».

(١٢٥) مما يدل على أنّ الفلوجيتين قرب بابل والحلة، وهي بعيدة عن دمما، أو قد تمتد إلى دمما.

يقول ياقوت أنّ الفلوجة قرب عين التّمر (٣/ ٩١٦)، ويذكر الطّبري أنّ الحجاج عند مسيره لقتال عبد الرّحمن بن الأشعث «مر يدير قرة، قال: «ما بهذا المنزل بعد من أمير المؤمنين، وإنّ الفلاليج وعين التّمر إلى جنبنا»[٢]. ويذكر عند الكلام عن حركات المسلمين الأولى في فتح العراق أنّهم كانوا «يشنون الغارات إلى عين التّمر وما والاها من الأرض من أرض الفلاليج»[٣]. ولما فرّ ظيز جشنس بمال الفلوجة تبعه ابن الحر «حتّى مرّ بعين التّمر»[٤]. وكلّ هذا يظهر أنّ الفلوجة تقع قرب عين التّمر.

والفلوجة قريبة أيضاً من كربلاء، فيذكر الطّبري أنّ خالد بن الوليد لما قدم العراق «فسلك الفلوجة حتّى نزل بكربلاء»[٥].

وفي الفلوجة تقع قرية بني جعدة[٦]. (وقرية الزّابوقة)[٧].

النّهرين:

في كتب التّاريخ عدّة نصوص تذكر النّهرين اللذين سمى الطّسوج بهما، فعند الكلام عن حركات المثنى بن حارثة يقول الطّبري «وسلك المثنى وسط السّواد فطلع على النّهرين ثمّ على الخورنق»[٨]. ولما تقدم أبو الصّبار العبدي إلى النّهرين «فقلت له إن كنت إنّما تريد النّهرين، فظننت أنّه يريد أن يتشطط الفرات.. فقال لي أنا أريد نهري كربلاء»[٩]. ولما وصل أبو السّرايا إلى عين التّمر «وأخذ على النّهرين حتّى ورد إلى نينوى فجاء إلى قبر الحسين»[١٠]. ويذكر الطّبري إنّ «ظهر الكوفة يقال له اللسان وهو فيما بين النّهرين إلى العين عين بني الجراء»[١١].

إنّ النّص المتعلق بأبي السّرايا يدل على أنّ النّهرين بين عين التّمر ونينوى، أمّا النّص عن أبي الصّبار العبدي فيدل على أنّ النّهرين هما نهرا كربلاء، وليسا فرعي الفرات.

وقد ذكرت النّصوص بعض الأماكن في النّهرين أو قربها، فيذكر الطّبري أنّه عندما كان سعد ابن أبي وقاص معسكراً بالقادسية «خرج سواد وحميضة في مائة مائة فأغاروا على النّهرين» ولما هددتهم الفرس أنجدهم بعاصم بن عمرو ومعه جابر الأسدي «فلقيهم بين النّهرين وأصطيميا»[١٢]. ولعل أصطيميا هذه هي الّتي يسميها موسى بن طلحة استينيا والّتي يروى أنّ الخليفة عثمان أقطعها عمار بن ياسر[١٣]. أو خباب بن الأرت[١٤].

ويذكر الطّبري أنّه عندما كان سعد معسكراً بالقادسية «أغار على النّهرين عمرو بن الحارث فوجدوا على باب ثوراء مواشي كثيرة فسلكوا أرض شيلي وهي اليوم نهر زياد حتّى أتوا العسكر، وقال عمرو ليس بها يومئذ إلاّ نهران»[١٥].

فأمّا نهر شيلي فإنّ البلاذري يذكر «إنّ بني شيلي بن فرخزاذان المروزي يدعون أنّ سابور حفرة لجدّهم حين ربته بتغيا من طسوج الأنبار، والّذي يقول غيرهم أنّه نسب إلى رجل يقال له شيلي كان متقبلاً لحفره، وكانت له علبة مبقلة في أيّام المنصور أمير المؤمنين، وإنّ هذا النّهر كان قديماً مندفناً، فأمر المنصور بحفره فلم يستتم حتّى توفي فاستتم في خلافة المهدي، ويقال أنّ المنصور كان أمر بإحداث فوهة له فوق فوهته القديمة فلم يتم ذلك حتّى أتمها المهدي»[١٦]. ويضيف ياقوت أنّ هذا النّهر «عرف بنهر زياد ابن أبيه لأنّه استحدث حفره»[١٧]. وقد ورد ذكر نهر شيلي في التّلمود البابلي[١٨].

(١) (الطبري ٣/ ١٣).
(٢) (الطبري ٢/ ١٠٧٢).
(٣) (الطبري ١/ ٢٢٠٣).
(٤) (الطبري ٢/ ٧٧٣).
(٥) (الطبري ١/ ٢٠٥٨).
(٦) (الطبري ٢/ ١٠٩٥).
(٧) (الطبري ٣/ ٢٢٥٦ ياقوت ٢/ ٩٠٥).
(٨) (الطبري ١/ ٢١٨٤).
(٩) (الطبري ٢/ ١٧١٠ مقاتل الطّالبيين ص١٥٣).
(١٠) (مقاتل الطّالبيين ص٢٢١٠).
(١١) (الطبري ١/ ٢٤٨٥ ياقوت ٤/ ٣٥٥).
(١٢) (الطبري ١/ ٢٢٥٨).
(١٣) (أبو يوسف: الخراج ص٦٢/ ٦٨ فتوح البلدان ص ٣٨١ بيروت)
(١٤) (أبو يوسف ص٦٨).
(١٥) (الطبري ١/ ٢٢٤٥).
(١٦) (فتوح ٢٧٤- ٥).
(١٧) (معجم البلدان ٤/ ١٨٤ انظر أيضاً ٣/ ٣٥٨).
(١٨) (انظر كتاب جغرافية التّلمود لنيوباور ص٣٦٢).

أمّا باب ثوراء فلم تذكرها المصادر الأخرى، ولكن ورد ذكر لبانبورا، فيروي الطّبري أنّ خالد بن الوليد عندما قدم العراق عين ولاة منهم «بشير بن الخصاصية على النّهرين، فنزل الكويفة ببانبورا»[١]. ويقول ياقوت إنّ كويفة ابن عمر هي «قرب بزيقيا»[٢]. أمّا بزيقيا فإنّ ياقوت يذكر أنّها «قرية قرب حلة بني مزيد»[٣]. ويذكر أيضاً أنّ «الدّير الخصيب قرب بابل عند بزيقيا وهو حصن»[٤]. غير أننا لا نستطيع تحديد مكانها بالضبط.

من أبرز الأماكن الموجودة في النّهرين هي كربلاء الّتي لا تزال قائمة ومحتفظة بمكانتها الخاصة نظراً لأنّها المكان الّذي قتل ودفن فيه الحسين الّذي لا يزال يزور مشهده سنوياً مئات الألوف من النّاس، وقد ألفت في تاريخها ومشاهدها مؤلفات أحدثها «بغية النّبلاء في تاريخ كربلاء» للسّيد عبد الحسين الكليدار آل طعمة.

وعند كربلاء تقع قري نينوى[٥]. وقد ظهر في نينوى سنة ٢٥٠هـ العلوي معلناً الثّورة ضد العبّاسيين[٦]. كما أنّ المعتضد لما وجه سنة ٢٨٧هـ مؤنس إلى الأعراب بنواحي الكوفة وعين التّمر سار «مؤنس ومن معه حتّى بلغا الموضع المعروف بنينوى»[٧]. وقد حدد الدّكتور عبد الجواد الكليدار جهة موقعها بأنّه «في شرقي الحائر إلى الجنوب الشّرقي منه»[٨].

وبالقرب من كربلاء تقع أيضاً الغاضرية، وأهلها من بني أسد، وهم الّذين دفنوا الحسين[٩]. وهي «في الشّمال الشّرقي من كربلاء.. حسب الظّاهر من البساتين الواقعة اليوم على الجهة اليمنى من نهر الحسينية في الشّمال الشّرقي من المدينة بين تل الهيالي ومقام الإمام جعفر الصّادق وأربع نهران وهي لا تزال معروفة باسم الغاضريات»[١٠].

وبالقرب من كربلاء أيضاً تقع شفيه[١١]. والعقر الّتي كانت على الفرات «وهي حصينة»[١٢]. مما يدل على أنّها كانت أكبر قرى هذه المنطقة في أوائل العهد الأموي.

(١) (الطبري ١/ ٢٠٥٢ ياقوت ١/ ٤٨٢).
(٢) (ياقوت ٤/ ٣٣١).
(٣) (١/ ٦٠٨).
(٤) (٢/ ٦٥٧).
(٥) (الطبري ٢/ ٢٨٧، ٣٠٦، ٣٠٩ ياقوت ٤/ ٨٧٠).
(٦) (الطبري ٣/ ١٦٢٠، ١٦٢٣).
(٧) (الطبري ٣/ ١٩٢٠).
(٨) (تاريخ كربلاء ص٩٩).
(٩) (الطبري ٢/ ٣٠٦).
(١٠) (تاريخ كربلاء ص٩٩).
(١١) (الطبري ٢/ ٣٠١).
(١٢) (الطبري ٢/ ٣٠٦).

ذكرت كتب التّاريخ الأماكن الواقعة على الطّريق بين كربلاء والكوفة في ثلاث مناسبات، فعندما خرج سليمان بن صرد الخزاعي مع التّوابين من الكوفة عسكر بالنّخيلة ثمّ «أمر أن يبيت النّاس بدير الأعور، ثمّ ترك إلى أقساس مالك، ثمّ أسر منه فأصبح عند قبر الحسين»[١٣]. ولما تقدمت جيوش العبّاسيين بعد وصولهم العراق، إلى الكوفة، سار قائدهم حميد بن قحطبة «حتّى نزل كربلاء ثمّ دير الأعور ثمّ العبّاسية»[١٤]. كما «ارتحل الحسن بالجنود حتّى نزل كربلاء، ثمّ ارتحل فنزل سورا، ثمّ نزل بعدها دير الأعور، ثمّ سار منها فنزل العبّاسية»[١٥].

أقساس مالك:

لقد ذكرت أقساس مالك عند الكلام عن المحطات الّتي توقف فيها سليمان بن صرد، وهي آخر محطة قبل كربلاء، أي أنّها كانت قريبة من كربلاء، ولعل قلة ورود اسمها راجع إلى قلة أهميتها أو إلى أنّ موقعها ناء عن الطّريق العام.

يذكر البلاذري أنّ أقساس مالك «نسبت إلى مالك بن قيس بن عبد هند بن لجم أحد بني حذافة بن زهر بن إياد بن نزار»[١٦]. ويذكر السّمعاني أنّها «قرية كبيرة بالكوفة نزلت في صحرائها منصرفي من الكوفة وقرأت بها جزءاً على شيخنا أبي سعد بن البغدادي[١٧] أمّا ياقوت فيقول أنّها «قرية أو كورة بالكوفة»[١٨]

دير الأعور:

ورد ذكر دير الأعور في النّصوص الثّلاثة الّتي ذكرناها أعلاه عن الطّريق بين كربلاء والكوفة، بما يوحي أنّه في منتصف الطّريق تقريباً، وهذا الدّير ينسب (لرجل من إياد من بني أمية بن حذافة كان يسمى الأعور»[١٩] فهو من أديرة إياد[٢٠]

وبالإضافة إلى النّصوص الثّلاثة المذكورة أعلاه، فقد ورد هذا الدّير في مناسبات أخرى، فلما تقدم القائد السّاساني رستم إلى القادسية خرج «من كوثى حتّى نزل ببرس، ثمّ ركب ونادى في النّاس بالرّحيل فخرج ونزل بحيال دير الأعور، ثمّ انصب إلى الملطاط فعسكر مما يلي الفرات بحيال أهل النّجف، بحيال الخورنق إلى الغريين»[٢١].

(١٣) (الطبري ٢/ ٥٤٥).
(١٤) (الطبري ٣/ ١٥).
(١٥) (الطبري ٣/ ١٧).
(١٦) (فتوح البلدان ص٢٨٣).
(١٧) (الأنساب ١/ ٣٣٠ طبعة حيدر آباد).
(١٨) (١/ ٣٣٧).
(١٩) (فتوح البلدان ص٢٨٣ البلدان لابن الفقيه ص١٨٢ معجم البلدان ٢/ ٦٤٤).
(٢٠) (ابن الفقيه ص١٣٥ عن الهيثم بن عدي، البكري ص٦٩ عن ابن شبة).
(٢١) (الطبري ١/ ٢٢٥٤- ٥). انظر أيضاً الأخبار الطّوال للدّينوري ص١١٩، (طبعة الشّيال).

كما أنّ عبيد الله بن الحر لما تقدم إلى الكوفة في زمن ابن الزّبير بعث إليه المصعب عمر بن عبيد الله بن معمر «فقاتله فخرج إلى دير الأعور»[1].

ولما ثار حميد بن عبد الحميد «توجه إليه سعيد وأبو البط من النّيل إلى الكوفة، فلما صاروا بدير الأعور أخذوا طريقاً يخرج بهم إلى عسكر هرثمة عند قرية شاهي»[2].

العبّاسية:

لقد أوردنا نص الطّبري الّذي يذكر فيه تقدم حميد والحسن بن قحطبة من كربلاء إلى الكوفة، ومرورهما بعد دير الأعور بالعبّاسية[3]، وقد ذكرت العبّاسية في نص آخر أورده الطّبري حيث قال أنّه عندما قتل زيد بن علي اقترح بعضهم دفنه[4].

وينقل المجلسي عند الكلام عن مسير سليمان بن صرد الخزاعي إلى عين الوردة أنّه خرج من الكوفة إلى النّخيلة «ولما أراد النّهوض بعسكره من النّخيلة وهي العبّاسية»[5] غير أنّ الطّبري يذكر العبّاسية والنّخيلة في زمن واحد، مما يدل على أنّهما مكانان مختلفان ولكنهما فيما يبدو متقاربان، ونظراً لأنّ النّصوص الّتي أوردت ذكر العبّاسية ترجع إلى العصر الأموي، فإنّ اسمها لا علاقة له بالعبّاسيين.

النّخيلة:

يتبين من نص مسير سليمان بن صرد والتّوابين أنّ أوّل محطة من الكوفة هي النّخيلة الّتي تردد ذكرها في حوادث عدّة، فبقربها اشتبك المسلمون مع الفرس الّذين كان يقودهم مهران[6] وكان المسلمون الّذين شاركوا في المعركة يفاخرون بأنّهم «أصحاب النّخيلة والقادسية»[7].

وقد عسكر عند النّخيلة الإمام علي عند خروجه من الكوفة إلى صفين[8] كما مرّ بها في طريق رجوعه من صفين، وكانت بيوت الكوفة ترى من بعد اجتيازها[9] وقد مرّ بها أيضاً عندما خرج لمقاتلة الخوارج[10]، ولما اقتربت القوات الّتي أرسلها معاوية للغارة على الأنباء خرج الإمام علي «حتّى أتى النّخيلة»[11].

(١) (الطبري ٢/ ٧٧٥، ابن الأثير ٤/ ٢٤١ طبعة دير نبرج).
(٢) (الطبري ٣/ ١٠٢٠).
(٣) (الطبري ٣/ ١٥، ١٨).
(٤) (الطبري ٢/ ١٧٠٩).
(٥) (بحار الأنوار ٤٥/ ٣٥٨).
(٦) (الطبري ١/ ٢٢٠٠ فتوح البلدان ص٢٤٥).
(٧) (الطبري ٢/ ٧٧٢).
(٨) (الطبري ١/ ٣٢٥٦، ٣٢٥٩).
(٩) (الطبري ١/ ٣٣٤٥).
(١٠) (الطبري ١/ ٣٣٦٩، ٣٣٨٥).
(١١) (الطبري ١/ ٣٤٤٦).

ولما قدم معاوية العراق بعد أن استتبت له الخلافة نزل النّخيلة[12] وقد صلّى فيها الجمعة قبل دخوله الكوفة[13]، ولما تحرك التّوابون في سنة ٦٥هـ للطلب بدم الحسين «اتعدوا الاجتماع بالنّخيلة للمسير إلى أهل الشّام»[14] وقد عسكر فيها سليمان بن صرد الخزاعي رئيس التّوابين[15] كما خرج إليها الحارث بن عبد الله بعد قيام المختار بحركته في الكوفة[16]، وقد نزلها عبد الملك بن مروان بعد انتصاره على المصعب في موقعة مسكن، قبيل دخوله الكوفة[17]، كما عسكر فيها أيضاً عبد الحميد بن عبد الرّحمن والي الكوفة عندما ثار عليه يزيد بن المهلب[18] كما عسكر فيها أيضاً أبو سلمة الخلال بعد أن أعلن العبّاسيون ثورتهم»[19].

يذكر المسعودي أنّ «النّخيلة بظهر الكوفة»[20] ويقول ياقوت أنّ «النّخيلة موضع قرب الكوفة على سمت الشّام»[21] والواقع أنّ النّصوص الّتي أوردناها أعلاه تؤيد أنّ النّخيلة تقع في شمالي الكوفة، غير أنّ المصادر لا تحدد بعدها عن الكوفة، ولما كانت إحدى المحطات الثّلاثة بين الكوفة وكربلاء، فيمكن القول أنّها تقع في الرّبع الأوّل من الطّريق، وأنّها بالقرب من جسر العبّاسيات الحالي.

الجوسق الخرب ودير الشّاء:

وبالقرب من النّخيلة يقع الجوسق الخرب الّذي اشتبكت عنده جيوش معاوية مع الخوارج[22] وقد ذكره أبو نواس في شعره[23].

وعلى بعد فرسخ وميل من النّخيلة يقع دير الشّاء[24] ولما كان الفرسخ يساوي ستة كيلومترات، فدير الشّاء يبعد عن النّخيلة حوالي سبعة كيلومترات ونصف، ولكننا لا نعرف في أية جهة من النّخيلة يقع.

الجسر:

لقد كان على الفرات عند الكوفة جسر ورد ذكره في عدد من الأحداث[25] ويبدو أنّه كان عليه شخص خاص موكل به،

(١٢) (الطبري ٢/ ١٠ مقاتل الطّالبيين ٦٩).
(١٣) (مقاتل ٧٠).
(١٤) (الطبري ٢/ ٤٩٧، ٥٠٣).
(١٥) (الطبري ٢/ ٥٣٨، ٥٤٣).
(١٦) (أنساب الأشراف ص١١٦ طبعة أهلورت).
(١٧) (الطبري ٨١٣/٢ أنساب الأشراف ٥/ ٣١٠، ٣٥٢، ٣٥٣).
(١٨) (الطبري ٢/ ١٣٩٨).
(١٩) (الطبري ٣/ ٢٠، ٦٠).
(٢٠) (مروج الذّهب ٥/ ٢٥٣).
(٢١) (ياقوت ٤/ ٧٧١).
(٢٢) (ياقوت ٢/ ١٥٣، ٤/ ٧٧١).
(٢٣) (ياقوت ١/ ٧٥٥، ٢/ ١٥).
(٢٤) (ياقوت ٢/ ٦٧٣).
(٢٥) (الطبري ٢/ ٧٢، ٧٣، ١٥١٩).

فيروي المسعودي أنّه عندما ضرب الحجاج البعث «فازدحموا على الجسر حتّى سقط بعض النّاس في الفرات، فأتى صاحب الجسر فقال أصلح الله الأمير قد سقط النّاس في الفرات، فقال ويحك ومم ذلك، قال أهل ازدحموا على الجسر حتّى سقط بعض النّاس، فقال انطلق فاعقد له جسرين»[١].

وكان تقع خلف الجسر دوران فيها قصر لإسماعيل أخي خالد بن عبد الله القسري[٢].

وتقع وراء الجسر أيضاً زرارة حيث يقول الطّبري أنّ حيان بن ظبيان الخارجي لما أعلن ثورته قال أحد أصحابه «انزلوا بنا إذا من وراء المصر الجسر، وهو موضع زرارة، وإنّما بنيت زرارة بعد ذلك إلاّ أبياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك»[٣] ويذكر ياقوت أنّ «زرارة محلة بالكوفة سميت بزرارة بن يزيد بن عمرو بن عدي بن البكار وكانت منزله فأخذها معاوية منه، ثمّ أصفيت حتّى أقطعها أبو جعفر محمّد بن الأشيب بن عقبة الخزاعي، وكان زرارة على شرطة سعيد بن العاص إذ كان بالكوفة، وفي الحديث نظر علي إلى زرارة فقال ما هذه القرية، قالوا قرية يلحم يباع فيها الخمر، فعبر إليها الفرات على الجسر، ثمّ قال علي بالنيران أضرموا فيها فإن الخبيثة يأكل بعض بعضاً، قال فاحترقت من غربيها حتّى بلغت بستان خواستابر حيرونا»[٤].

وقد تردد ذكر زرارة في الأخبار، فقد نزلها الخوارج عدّة مرّات[٥].

يذكر إبراهيم بن سليمان المقري «كنت واقفاً مع أبي السّرايا على القنطرة ومحمّد بن محمّد بصحراء أثير فجاءه رجل اسمه هرثمة، فقال له إنّ المسودة قد دخلت من جانب الجسر وأخذ محمّد بن محمّد، وإنّما أراد أن ينتحي أبو السّرايا عن موضعه، فلما سمع ذلك وجه فرسه نحو صحراء أثير وأقبل هرثمة حتّى دخل الكوفة إلى موضع يعرف بدار الحسين»[٦].

يتضح من هذا النّص أنّه كان في الكوفة جسر وقنطرة، وأنّ بينهما مسافة متباعدة، وقد أورد البلاذري عن أبي مسعود الكوفي أنّه «كان عمر أبي هبيرة بن معية الفزاري أيّام ولايته العراق أحدث قنطرة الكوفة، ثمّ أصلحها خالد بن عبد الله القسري واستوثق منها، وقد أصلحت بعد ذلك مرّات، قال وقال بعض أشياخنا كان أوّل من بناها رجل من العباد من جعفي في الجاهلية، ثمّ سقطت فاتخذ في موضعها جسراً، ثمّ بناها في الإسلام زياد بن أبي سفيان، ثمّ ابن هبيرة، ثمّ خالد بن عبد الله، ثمّ يزيد بن عمر بن هبيرة، ثمّ أصلحت بعد بني مروان مرّات»[٧].

وهذه القنطرة تقع بقربها زبارا[٨] وقد استقبل النّاس ابن الأشعث عند مقدمة الكوفة لدى قطعه قنطرة زبارا[٩] كما يذكر ياقوت أنّها ذكرت في قتال القرامطة أيّام المقتدر[١٠].

ويبدو أنّ هذه القناطر هي غير قناطر رأس الجالوت الّتي يرد ذكرها في الأخبار.

حمام أعين:

ومن الأماكن المشهورة في الأخبار بعد الجسر هي حمام أعين[١١] وهي على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة[١٢]، وتقع بينها وبين النّخيلة[١٣].

وقد اختلفت الرّوايات في نسبتها، فيروى أنّها نسبت إلى أعين مولى بشر بن مروان[١٤] وإلى أحد موالي بكر بن وائل[١٥]، أو إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص[١٦] ويذكر أبو مسعود الكوفي «سمعت أنّ الحمام قبله كانت لرجل من العباد يقال له جابر أخو جيان الّذي ذكره الأعشى، وهو صاحب مسناة جابر بالحيرة فابتاعه من ورثته»[١٧] وقد أقطع عثمان خالد بن عرفطة أرضاً عند حمام أعين[١٨].

وقد عسكر عند حمام أعين عدد من القواد، منهم عمر بن سعد عندما عينه عبيد الله بن زياد على الرّي[١٩] وإبراهيم بن الأشتر[٢٠] وشبيب الخارجي[٢١] وعتاب بن ورقاء قائد الحجاج[٢٢] كما عسكر فيها أبو سلمة والسّفاح في أوّل بيعة السّفاح[٢٣].

(١) (مروج الذّهب ٥/ ٣٠٠).
(٢) (الطبري ٢/ ١٨١٣ ياقوت ٢/ ٦١٥).
(٣) (الطبري ٢/ ١٨٤).
(٤) (٢/ ٩٢١).
(٥) (الطبري ٢/ ١٨٢، ٩١١، ٩٥٧، ٩٦٦).
(٦) (مقاتل الطّالبيين ص٥٥٣).
(٧) (فتوح ٢٨٦).
(٨) (أغاني ١٣/ ٤١).
(٩) (الطبري ٣/ ١٠٧١).
(١٠) (ياقوت ٢/ ٩١٢).
(١١) (الطبري ٢/ ٩٥٧).
(١٢) (الطبري ٣/ ٢١).
(١٣) (الطبري ٣/ ٢٠).
(١٤) (الطبري ٢/ ٣٠٩).
(١٥) (الطبري ٢/ ٩٦٧).
(١٦) (فتوح ٢٨١ ياقوت ٢/ ٣٢٩).
(١٧) (فتوح ٢٨١).
(١٨) (فتوح ٨٧٢).
(١٩) (الطبري ٢/ ٣٠٨).
(٢٠) (الطبري ٢/ ٦٤٩، ٧٠٢).
(٢١) (الطبري ٢/ ٩٥٠، ٩٦٣).
(٢٢) (الطبري ٢/ ٩٤٦).
(٢٣) (الطبري ٣/ ٢٠، ٢١، ٣٤، ٣٧).

دير عبد الرّحمن وقناطر رأس الجالوت ودير موسى:

ومن الأماكن الّتي تذكر في المصادر قرب النّخيلة هو دير عبد الرّحمن فيذكر أبو مخنف أنّ الحارث بن أبي ربيعة لما ثار ضد المختار الثّقفي عسكر بالنّخيلة ثمّ خرج فنزل دير عبد الرّحمن، ثمّ سار إلى سورا[1]، وقد عسكر في هذا الدّير كلّ من الجزل[2] وعبد الرّحمن بن الأشعث[3].

ورد في فهرست الطّبري اسم هذا الدّير[4] وعبد الرّحمن هذا من كبار القواد الأمويين في الشّام وقد قاد بعض الشّواتي[5] وولي دمشق عندما ذهب عبد الملك بن مروان إلى عين الوردة[6] وكان مقرباً له[7] وأورد الطّبري نصوصاً تعين على تحديد موقعه، فهو يقول إنّ المختار عندما أرسل ابن الأشتر خرج ليودعه «ومضى المختار إلى قناطر رأس الجالوت وهي إلى جنب دير عبد الرّحمن، فإذا أصحاب الكرسي قد وقفوا على قناطر رأس الجالوت يستنصرون فلما صار المختار بين قنطرة دير عبد الرّحمن وقناطر رأس الجالوت وقف»[8]، وهذا يدل على أنّ قناطر رأس الجالوت قرب دير عبد الرّحمن، ويذكر الطّبري عند الكلام عن سير الأشعث عندما أرسله الإمام علي لقتالهم «فعبر الجسر فصلى ركعتين بالقنطرة ثمّ نزل دير عبد الرّحمن ثمّ دير أبي موسى ثمّ أخذ على قرية شاهي ثمّ على دباها ثمّ على شاطئ الفرات»[9].

أمّا دير موسى المذكور في نص الطّبري، فقد ورد ذكره عند الكلام عن عدّة أحداث منها عندما ندب الإمام علي النّاس للخروج لقتال الخوارج حيث طلب من الأشعث أن يخرج إلى دير أبي موسى ليتخذه مقراً له، ثمّ تبعه النّاس «فخرجوا حتّى قطعوا الجسر ثمّ بدير أبي موسى»[10]، ولما خرج يزيد بن أنس الّذي أرسله المختار لأخذ الموصل، تحرك من الكوفة «وخرج معه المختار والنّاس يشيعونه، فلما بلغ دير أبي موسى ودعه المختار وانصرف.. فخرج يزيد بن أنس بالنّاس حتّى بات بسورا ثمّ غدا بهم سائراً حتّى بات بالمدائن»[11].

(١) (الطبري ٢/ ٧٥٩). أنساب الأشراف ص١١٦ طبعة أهلورت.
(٢) (الطبري ٢/ ٩٠٢).
(٣) (الطبري ٢/ ٩٣٠).
(٤) (دير عبد الرّحمن بن أمّ الحكم).
(٥) (الطبري ٢/ ١٥٧).
(٦) (الطبري ٢/ ٧٨٤).
(٧) (الطبري ٢/ ٧٩١).
(٨) (الطبري ٢/ ٧٠١).
(٩) (الطبري ١/ ٣٣٧٦).
(١٠) (الطبري ١/ ٣٤٢٢، ٣٤٢٤).
(١١) (الطبري ٢/ ٦٤٤).

ويتبين من هذه النّصوص أنّ دير موسى يقع شمالي دير عبد الرّحمن، بينه وبين سورا.

شاهي:

إنّ نص الطّبري[12] الّذي أوردناه عن طريق مسير الأشعث يبين أنّه تقع في شمالي دير موسى قرية شاهي الّتي يتردد ذكرها في الأخبار لأنّ فيها معبراً مهماً، فيروي الطّبري أنّ «شبيب قد مضى إلى الكوفة فأقبل حتّى انتهى إلى قرية يقال لها بيطرئي، وقد نزل شبيب حمام عمر، فخرج سبره حتّى يعبر الفرات من معبر قرية شاهي، ثمّ أخذ الظّهر حتّى قدم على الحجاج»[13]، ولما تقدم حميد بن قحطبة من كربلاء إلى العبّاسية وولى القواد الحسن بن قحطبة، وأرسلوا للحسن فلحقه الرّسول دون قرية شاهي[14]، ولما تقدم سعيد وأبو البط ضد هرثمة «من النّيل إلى الكوفة فلما صاروا بدير الأعور أخذوا طريقاً يخرج بهم إلى عسكر هرثمة عند قرية شاهي، فلما التأم إليه أصحابه خرجوا يوم الاثنين.. فلما صاروا قرب القنطرة»[15]، ولما ثار الحسين بن محمّد الطّالبي أرسل المستعين القائد مزاحم لمحاربته «فزحف مزاحم إلى الكوفة من قرية شاهي.. أن يعبروا مخاضة الفرات في قرية شاهي»[16].

وقد ذكر الطّبري شاهي عرضاً في أماكن أخرى[17] واقتصر ياقوت على القول أنّ «شاهي موضع قرب القادسية فيما أحسب»[18].

يقول ابن خرداذبة (١٢٥) وقدامة (١٩٥) إنّ شاهي تبعد عن الكوفة خمسة فراسخ أي حوالي ثلاثين كيلومتراً.

دير الجماجم:

ومن الأماكن المشهورة الواقعة في هذه المنطقة هو دير الجماجم الّذي وقعت فيه المعركة المشهورة الّتي انتصر فيها الحجاج علي عبد الرّحمن بن الأشعث، وقد وردت عدّة روايات في اشتقاق اسمه، فيروي أبو عبيدة أنّه سمي كذلك «من أقداح من خشب كانت تعمل به»[19] ويقال أنّه سمي بذلك لكثرة جماجم دفنت فيه على أثر معركة تختلف الرّوايات في الأطراف

(١٢) (١/ ٣٣٧٦).
(١٣) (الطبري ٢/ ٩٥٧).
(١٤) (الطبري ٣/ ١٥).
(١٥) (الطبري ٣/ ١٠٢).
(١٦) (الطبري ٣/ ١٦١٨).
(١٧) (٣/ ٩٨٤، ١٥١٩، ١٦١٧).
(١٨) (٣/ ٢٤٦).
(١٩) (المعارف ١٥٦ البكري: معجم ما استعجم ٥٧٤ ياقوت ٢/ ١١٢، ١٥٦ النقائض ص٤١٢ طبعة بيفان).

الّتي جرت بينهما، فيروى أنّها جرت بين إياد والفرس[١] ويروى أنّها كانت بين حيين من قضاعة[٢] وهناك رواية أخرى أنّها كانت بين إياد وبهراء[٣] ويذكر ياقوت «أنّ الجمجمة البير تحفر في سبخة فيجوز أن يكون الموضع سمي به[٤].

يقول أبو الفرج الأصبهاني أنّ دير الجماجم «هو دير بظاهر الكوفة على طريق البر الّذي يسلك إلى البصرة»[٥] ويضيف ياقوت على هذا أنّه على سبعة فراسخ من الكوفة[٦]، غير أنّ قربه من دير قرة الّذي يقع شمالي الكوفة يدل على أنّ موقعه شمالي الكوفة وليس في جنوبيها.

ويقول الهيثم بن عدي «دير الأعور هو دير الجماجم»[٧] غير أنّ تردد ذكر الدّيرين في مصادر القرنين الأوّل والثّاني يدل على أنّهما منفصلان ولكنه قد يدل على أنّ دير الجماجم قرب دير الأعور، ولكنه ناح عن الطّريق العام.

دير قرة:

لقد ذكرنا أنّ مما يؤيد وقوع دير الجماجم شمالي الكوفة، هو تأكيد المصادر الّتي بحثت موقعة دير الجماجم على أنّ هذا الدّير يقع قرب دير قرة، وهذا الدّير الأخير هو من ديارات إياد[٨] وهو منسوب إلى رجل اسمه قرة، من إياد[٩] أمّا عن موقعه فيذكر ياقوت أنّه ملاصق لطرف البر ودير الجماجم مما يلي الكوفة ويقول الطّبري إنّ الفرس لما انسحبوا من القادسية «لحقوا بدير قرة وما وراءه ونهض سعد بالمسلمين حتّى نزل بدير قر علي من هناك من الفرس، وقد قدم عليهم وهم بدير قرة عياض بن غنم في مدده من أهل الشّام.. ثمّ إنّ الفرس هربت من دير قرة إلى المدائن»[١٠] ويذكر أيضاً عند الكلام عن موقعة دير الجماجم «وأقبل الحجاج من البصرة فسار في البرية حتّى مرّ بين القادسية والعذيب، ومنعوه من نزول القادسية، وبعث إليه عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث عبد الرّحمن بن العبّاس في خيل عظيمة من خيل المصريين فمنعوه من نزول القادسية، ثمّ سايروه حتّى ارتفعوا على وادي السّباع، ثمّ تسايروا حتّى نزل الحجاج دير قرة، ونزل عبد الرّحمن بن العبّاس دير الجماجم، ثمّ جاء ابن الأشعث فنزل دير الجماجم والحجاج بدير قرة، وقد كان الحجاج أراد قبل أن ينزل دير قرة أن يرتفع إلى هيت وناحية الجزيرة إرادة أن يقترب من الشّام والجزيرة، فلما مرّ بدير قرة قال ما بهذا المنزل بعد من أمير المؤمنين، وإنّ الفلاليج وعين التّمر إلى جنبنا»[١١].

إنّ النّص الأوّل عن سير الفرس يظهر أنّ دير قرة يقع في طريق القادسية- المدائن، أي شمال الكوفة، أمّا النّص الثّاني فيظهر أنّ دير قرة قريب من الفلاليج والنّهرين، أي شمالي الكوفة، ولكن كلا النّصين لا يعيّنان موقعه بالضبط

عين التّمر:

لقد ذكرنا من قبل أن البهقباذ الأعلى من طساسيجة عين التّمر الّتي هي «بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفثا يجلب القصب والتّمر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جداً، وهي على طرف البرية، وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيّام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢هـ»[١٢].

يذكر ابن الكلبي إنّ عين التّمر من مملكة جذيمة الأبرش[١٣]، ويذكر الطّبري أنّ سابور بعد أنّ خرب الحضر وأخذ النّضيرة ابنة ملك الحضر «أعرس بها في عين التّمر»[١٤]، ولما قدم خالد بن الوليد العراق قصد عين التّمر «وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبن في جمع عظيم من العجم، وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من النّمر وتغلب وإياد ومن لافهم»[١٥]، وقد وصف سيف بن عمر استعداد مهران للدفاع عن الحصن حيث يقول «فلزم مهران العين، ونزل عقة لخالد على الطّريق.. وبين عقة وبين مهران روحة أو غدوة، ومهران في الحصن في رابطة فارس، وعقة على طريق الكرخ (؟) كالخفير»[١٦].. ويقول ابن إسحق في رواية عن صالح بن كيسان أنّ خالداً لما فتح عين التّمر «فأغار على أهلها فأصاب منهم، ورابط حصناً بها فيه مقاتلة كان كسرى وضعهم فيه حتّى استنزلهم فضرب أعناقهم وسبى من عين التّمر ومن أبناء تلك المرابطة سبايا كثيرة فبعث بها إلى أبي بكر، فكان من تلك السّبايا أبو عمره مولى شبان وهو أبو عبد الأعلى بن أبي عمره، وأبو عبيد مولى المعلى من الأنصار من بني زريق، وأبو

(١) (فتوح البلدان ٢٨٣ عن أبي الكلبي، البكري ٧٠/ ٥٧٣ عن ابن شبه، التنبيه والأشراف ١٧٥).
(٢) (الهمداني ١٨٢- ٣).
(٣) (الهمداني ١٨٢ فتوح البلدان ٢٨٣ عن الشّرقي بن قطامي).
(٤) (ياقوت ٢/ ١١٢).
(٥) (بكري ٥٧٣).
(٦) (٢/ ٦٥٢).
(٧) (الهمداني ١٣٥).
(٨) (الهمداني ص١٣٥ عن الهيثم بن عدي).
(٩) (فتوح ٢٨٣ ياقوت ٢/ ٦٨٥).
(١٠) (الطبري ١/ ٢٣٥٧- ٨).
(١١) (الطبري ٢/ ١٠٧٢).
(١٢) (ياقوت ٣/ ٧٥٩).
(١٣) (الطبري ١/ ٧٥٠ ياقوت ٢/ ٣٧٨).
(١٤) (الطبري ١/ ٢٠٥٦).
(١٥) (الطبري ١/ ٢٠٦٢).
(١٦) (الطبري ١/ ٢٠٦٣).

عبد الله مولى زهرة، وخير مولى أبي داود الأنصاري ثمّ أحد بني مازن بن النّجار، ويسار وهو جدّ محمّد بن إسحق مولى قبس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وأفلح مولى أبي أيوب الأنصاري ثمّ أحد بن مالك بن النّجار، وحمران ابن إبان مولى عثمان بن عفان»[1] ويذكر سيف بن عمر أسماء بعض أسرى عين التّمر «منهم أبو زياد مولى ثقيف، ونصير، أبو موسى بن نصير، وأبو عمره جدّ عبد الله بن عبد الأعلى الشّاعر، وسيرين أبو محمّد بن سيرين، وحريث وعلائه.. وحمران.. وعمير وأبو قيس» (الطبري ١/ ٢٠٦٣ انظر أيضاً الطبري ١/ ٣٤٧٢ فتوح البلدان ١٤٢، ٢٤٦- ٧/ ٣٥٢، ياقوت ٣/ ٧٥٩) لقد كان شبي عين التّمر «أوّل سبي قدم المدينة من العجم»[2] ويتبين من القائمة الّتي ذكرناها والّتي تحوي بعض أسماء هؤلاء الأسرى، أنّه برز من نسلهم عدد غير قليل من القواد والشّعراء والعلماء والمتنفذين.

إنّ نص الطّبري عن فتح خالد عين التّمر يظهر أنّه كان فيها حصن تقيم فيه مرابطة ساسانية، ويؤيد ذلك قول البلاذري أنّ خالداً أتى بعد الأنبار «عين التّمر فالصق بحصنها وكان فيه مسلحة للأعاجم حتّى سألوا الأمان فأبى أن يؤمنهم وافتتح الحصن عنوة وقتل وسبى، ووجد في كنيسة هناك جماعة سباهم»[3].

ولما تمت سيطرة العرب على العراق أقيمت في عين التّمر مسالح ذكرت كتب التّاريخ عدداً منها فلما أعلن الأشتر العصيان على سعيد بن العاص والي الكوفة زمن عثمان، بعث عدّة مسالح «وبعث حمزة بن سنان الأسدي في خمسمائة إلى عين التّمر ليكون مسلحة بينه وبين الشّام»[4]، وكانت للإمام علي في عين التّمر مسلحة ألف رجل عليهم مالك بن كعب عندما وجه إليهم معاوية النّعمان بن بشير في حملة أغارت عليهم «وأتاه النّعمان ولم يبق معه إلاّ مائة رجل، فكتب مالك إلى علي يخبره بأمر النّعمان ومن معه، فخطب علي النّاس وأمرهم بالخروج فتثاقلوا، وواقع مالك النّعمان، والنّعمان في ألفي رجل ومالك في مائة رجل»[5]، ويروي ابن شبويه أنّه «بعث معاوية النّعمان بن بشير في ألفين فأتوا عين التّمر فأغاروا عليها وبها عامل لعلي يقال له ابن فلان الأرحبي في ثلاثمائة، فكتب إلى علي يستمده، فأمر النّاس أن ينهضوا إليه فتثاقلوا، فصعد المنبر..»[6].

(١) (الطبري ١/ ٢١٢١).
(٢) (الطبري ١/ ٢٠٧٦).
(٣) (فتوح ٢٤٦).
(٤) (أنساب الأشراف ٥/ ٤٥).
(٥) (الطبري ١/ ٣٤٤٤ عن المدائني).
(٦) (الطبري ١/ ٣٤٤٤).

وفي زمن ابن الزّبير كان على عين التّمر بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشّيباني الّذي هاجمه ابن الحر، فقاتله «وكانت خيل بسطام خمسين ومائة فارس»[7].

وفي زمن عمر بن عبد العزيز طلب عدي بن أرطاة من الجند الّذين كانوا يقيمون بعين التّمر أن يوصلوا يزيد بن المهلب إلى الشّام[8].

إنّ إقامة الحاميات والرّوابط في عين التّمر يرجع إلى أهمية موقعها بالنّسبة للكوفة، فهي تقع على أحد مقترباتها الشّمالية، لذلك تقدم إليها خالد بن الوليد في طريقه من العراق إلى الشّام، وعندما خرجت الخوارج الّذين كان المغيرة ابن شعبة قد حبسهم، اقترح أحدهم أن يسيروا إلى حلوان أو إلى عين التّمر «.. فنقيم بها فإذا سمع بنا إخواننا أتونا من كلّ جانب وأوب»[9] كما مر بها شبيب الخارجي في طريقه إلى روذبار»[10].

ولمّا تقدم أهل الشّام لمساعدة الحجاج على أثر ثورة ابن الأشعث «بعث عبد الرّحمن بن الفرق مولى أبي عقيل إلى من أقبل إليه من أهل الشّام فأتاهم وقد نزلوا هيت بكتاب من الحجاج أمّا بعد فإذا حاذيتم هيت فدعوا طريق الفرات والأنبار وخذوا على عين التّمر حين تقدموا الكوفة إن شاء الله وخذوا حذركم وعجلوا السّير والسّلام.

فأقبل القوم سراعاً»[11].

ولمّا ذهب ابن الأشعث إلى الكوفة، تقدم الحجاج وأراد «أن يرتفع إلى هيت وناحية الجزيرة: إرادة أن يقترب من الشّام والجزيرة فيأتيه المدد من الشّام من قريب ويقترب من رفاغة سعر الجزيرة، فلمّا مر بدير قرة قال ما بهذا المنزل بعد من أمير المؤمنين، وإنّ الفلاليج وعين التّمر إلى جنبنا، فنزل فكان في عسكره مخندقاً»[12].

ولمّا ولى يزيد الثّالث الخلافة أرسل الحارث ابن العبّاس بن الوليد إلى العراق «وقيل إنّه (أي الحارث) ولمّا كان بعين التّمر كتب إلى من بالحيرة من قواد أهل الشّام يخبرهم بقتل الوليد ويأمرهم بأخذ يوسف وعماله»[13]. ثمّ إنّ يزيد بن عمر بن هبيرة تقدم من نهر سعيد «حتّى نزل غزة من عين التّمر» حيث اشتبك فيها بمعركة مع المثنى بن عمران العائذي عامل الضّحاك على الكوفة[14]، ثمّ «كتب مروان إلى يزيد بن عمر بن

(٧) (الطبري ٢/ ٧٧٣ انظر أيضاً أنساب الأشراف ٥/ ٢٩٥).
(٨) (الطبري ٢/ ١٣٥٢).
(٩) (الطبري ٢/ ١٨٣).
(١٠) (الطبري ٢/ ٩٢٢).
(١١) (الطبري ٢/ ٩٤٦).
(١٢) (الطبري ٢/ ١٠٧٢).
(١٣) (الطبري ٢/ ١٨٣٨).
(١٤) (الطبري ٢/ ١٩١٥).

هبيرة يأمره بالمسير من قرقيسيا بجميع من معه إلى عبيدة بن سوار خليفة الضّحاك بالعراق، فلقي خيوله بعين التّمر فقاتلهم فهزمهم وعليهم يومئذ المثنى بن عمران من عائذة قريش والحسن بن يزيد، ثمّ تجمعوا له بالكوفة بالنّخيلة فهزمهم ثمّ اجتمعوا بالصّراة ومعهم عبيدة فقاتلهم»[١]. ولمّا دخلت القوات العبّاسية الكوفة، أرسل أبو سلمة الخلال قواداً إلى عدّة مناطق «وبعث المهلب وشراحيل في أربعمائة إلى عين التّمر»[٢].

لقد ذكرت بضعة أماكن بالقرب من عين التّمر منها:

النّقيرة: فيروي ياقوت «في كتاب أبي حنيفة إسحق بن بشر بخطّ العبدري في مسير خالد بن الوليد من عين التّمر ووجدوا في كنيسة صبيانا يتعلمون الكتابة في قرية من قرى عين التّمر يقال لها النّقيرة، وكان فيهم حمران بن إبان[٣].

غزة: فيروي الطّبري إنّ الضّحاك الخارجي سار إلى الموصل «وانحط ابن هبيرة من نهر سعيد حتّى نزل غزة من عين التّمر وبلغ ذلك المثنى بن عمران العائذي عامل الضّحاك على الكوفة فسار إليه فيمن معه من الشّراة ومعه منصور بن جمهور وكان صار إليه حين بايع الضّحاك خلافاً على مروان فالتقوه بغزة فاقتتلوا قتالاً شديداً أيّاماً متوالية»[٤].

شفاثه: فيقول ياقوت إنّ عين التّمر «بقربها موضع يقال له شفاثاً»[٥] وهي لا تزال معروفة. غير أنّ أشهر مكان قرب عين التّمر هو قصر مقاتل.

قصر مقاتل:

قصر مقاتل من الأماكن الواقعة قرب عين التّمر ويتردد ذكره في حوادث القرون الأوّلى. ينسب قصر مقاتل إلى مقاتل ابن حسان بن ثعلبة بن امرئ القيس بن زيد مناة[٦]، وكانت فيه لكسرى مرابطة عليها النّعمان بن قبيصه الطّائي[٧]، وكان الشّاعر الحيري عدي بن زيد ينزل فيه[٨].

لقد ذكر قصر مقاتل في بعض أحداث القرن الأوّل الهجري، فقد نزل فيه الحسين بعد أن تحرك من القادسية متجهاً إلى كربلا[٩] وكان ابن الحر قد نزله بعد مقتل مسلم بن عقيل، وأشار إلى ذلك في شعره[١٠] وقد مر به شبيب عند انسحابه من الكوفة[١١] ومات فيه قيس بن الهيثم السّلمي[١٢].

يقول البلاذري أنّ «قصر بني مقاتل صار لعيسى بن علي»[١٣] ويقول ياقوت إنّ قصر مقاتل «أخربه عيسى بن علي بن عبد الله ثمّ جدد عمارته فهو له»[١٤]. غير أنّ المكان ظلّ محتفظاً باسمه الأوّل، أمّا عيسى بن علي فقد ارتبط اسمه بقصر عيسى الّذي يقع في بغداد عند مصب نهر عيسى ببغداد.

ويذكر البلاذري بعد الكلام عن هجوم خالد على عكبرا والبردان والمخرم في منطقة بغداد «ثمّ عبر المسلمون جسراً كان معقوداً عند قصر سابور الّذي يعرف اليوم بقصر عيسى بن علي، فخرج إليه خرزاد بن ماهبنداد بن ماهنبداذ وكان موكلاً به فقاتلوه وهزموه ثمّ لجوا فأتوا عين التّمر»[١٥]. ولا يوضح النّص هل إنّ قصر سابور هو أصل قصر عيسى الّذي ببغداد، أم هل هو نفس قصر مقاتل الّذي يقول البلاذري أنّه صار لعيسى بن علي، أم هل أنّه قصر ثالث غيرهما.

وجدير بنا أن نؤكد على وجوب عدم الخلط بين عيسى بن علي، وبين عيسى بن موسى الّذي كانت له دار الخلافة قرب هاشمية الكوفة. وقد ذكر الطّبري دار عيسى بن موسى حيث قال أنّ المنصور أرسل رجلاً قبض على جماعة من مؤيدي إبراهيم الحسن «فبعث برؤوسهم إلى الكوفة فنصبت ما بين دار إسحق الأزرق إلى جانب دار عيسى بن موسى إلى مدينة ابن هبيرة»[١٦].

لقد رأينا أنّ نص الطّبري عن مقام الحسين في قصر مقاتل، أنّ موقع هذا القصر بين القادسية وكربلاء، وأنّ النّصوص الأخرى تدل على قربه من الكوفة. والواقع أنّ ياقوت يذكر أنّ «قصر مقاتل كان بين عين التّمر والشّام»[١٧].

ويروي عن نصر أنّ «تبل واد على أميال يسيرة من الكوفة، وقصر بني مقاتل أسفل تبل وأعلاه متصل بسماوة كلب[١٨]. ولا يزال اسم تبل يطلق على واد ضخم يجري في بادية غربي الفرات، غير أنّ القسم الأخير منه الّذي يقع بين ٣٠/ ٤٢° وبين مصبه في هور أبي دبس، يسمى وادي الأبيض، وقد ذكر ابن خرادذبه الأبيض عند كلامه عن محطات الطّريق بين الكوفة والشّام حيث

(١) (الطبري ٢/ ١٩٤٥- ٦).
(٢) (الطبري ٣/ ٢١).
(٣) (ياقوت ٤/ ٨٠٧).
(٤) (الطبري ٢/ ١٩١٥).
(٥) (٣/ ٧٥٩).
(٦) (فتوح البلدان ٢٨٢ ياقوت ٤/ ١٢١ ابن الفقيه ١٨٢).
(٧) (الطبري ١/ ٢٣٥٠).
(٨) (أغاني ٢/ ١٥٤).
(٩) (الطبري ٢/ ٣٠٥، ٣٠٦ أنساب الأشراف ٥/ ٢٩١).
(١٠) (أنساب الأشراف ٥/ ٢٩١).
(١١) (الطبري ٢/ ٩١٦).
(١٢) (فتوح ٤٠٩).
(١٣) (أنساب الأشراف ٥/ ٢٩١).
(١٤) (٤/ ١٢١).
(١٥) (فتوح ٢٤٩).
(١٦) (الطبري ٣/ ٢٩٦).
(١٧) (٤/ ١٢١).
(١٨) (ياقوت ١/ ٨٢٤).

قال: «من الحيرة إلى القطقطانة إلى البقعة ثمّ إلى الأبيض»[1] مما يدل على أنّ الأبيض كان معروفاً باسمه في العصور الإسلامية الأولى، غير أنّ الجغرافيين الّذين وصلتنا معلوماتهم لم يذكروه، علماً بأنّه لم يصلنا عن هذه المنطقة إلاّ معلومات قليلة. ويلاحظ أنّ الأخيضر يقع على وادي الأبيض، بالقرب من مصبه في هور أبي دبس، الأمر الّذي يرجح أن يكون هو قصر مقاتل، فإن لم يكن هو، فإنّ قصر مقاتل قريب جداً منه.

سلام:

وبالقرب من قصر مقاتل يقع سلام، فينقل ياقوت عن السّكوني عند كلامه عن قصر مقاتل قوله «هو قرب القطقطانة وسلام ثمّ القريات»[2] ويقول أيضاً «سلام موضع عند قصر مقاتل بين عين التّمر والشّام عن نصر، وقال غيره السّلام منزل بعد قصر بني مقابل للمغرب الّذي يطلب السّماوة»[3].

إنّ نص السّكوني قد يوحي بأنّ قصر مقاتل بعد سلام، وإنّ سلام بين القطقطانة وقصر مقاتل، أمّا النّص الأخير من ياقوت فيدل على أنّ سلام يقع بعد قصر مقاتل وغربيه، فإذا كان نص السّكوني أصح، فيكون سلام هو الموضع الّذي لا يزال مذكوراً في الخرائط الحديثة أو قربه.

القطقطانة:

إنّ أكثر الأماكن تردداً في الذّكر بين الكوفة وقصر مقاتل هي القطقطانة وهي من عيون الطّف الّذي هو «أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين ابن علي، وهي أرض بادية قريبة من الرّيف فيها عدّة عيون ماء جارية منها الصّيد والقطقطانة والرّهيمة وعين جمل وذواتها، وهي عيون كانت للموكلين بالمسالح الّتي كانت وراء خندق سابور الّذي حفره[4].

ويقول ياقوت «القطقطانة موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطّف به كان سجن النّعمان بن المنذر»[5].

كان جذيمة الأبرش «دار مملكته الحيرة والأنبار وبقة وهيت وعين التّمر وأطراف البر إلى الغمير إلى القطقطانة وما وراء ذلك تجبي إليه»[6] ولمّا نزل المثنى بالطّف «أقام ما بين غضى إلى القطقطانة مسالحه»[7] وقد وجه معاوية الضّحاك بن قيس ليغير على الأعراب غربي الكوفة» ومر بالثّعلبية فأغار على مسالح علي وأخذ أمتعتهم ومضى حتّى انتهى إلى القطقطانة[8]، ولمّا سمع عبيد الله بن زياد بتقدم الحسين إلى الكوفة «بعث الحصين بن تميم صاحب شرطة حين نزل القادسية ونظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان، وما بين القادسية إلى القطقطانة وإلى لعلع»[9].

لدينا عدّة نصوص يمكن منها تعيين جهة موقع القطقطانة، وهذه النّصوص تدل على أنّ القطقطانة بين القادسية والكوفة، وبين عين التّمر.

فيقول السّكوني: «القطقطانة بالطّف بينها وبين الرّهيمة مغرباً نيف وعشرون ميلاً إذا خرجت من القادسية تريد الشّام، ومنه إلى قصر مقاتل ثمّ القريات ثمّ السّماوة، ومن أراد القطقطانة إلى عين التّمر ثمّ ينحط حتّى يقرب من الفيوم وهيت»[10] ويقول أيضاً إنّ قصر مقاتل هو قرب القطقطانة وسلام ثمّ القريات»[11] ويروي الطّبري عند كلامه عن حركات شبيب الخارجي في منطقة الكوفة، أنّه «رجع وقد خاف أهل البادية حتّى أخذ على القطقطانة ثمّ على قصر مقاتل ثمّ أخذ على شاطئ الفرات حتّى أخذ على الحصاصة ثمّ على الأنبار»[12]، وقد وصف ابن خرداذبه محطات الطّريق من الكوفة إلى دمشق بقوله «من الحيرة إلى القطقطانة ثمّ إلى البقعة ثمّ إلى الأبيض ثمّ الحوشي ثمّ إلى المجع»[13] وقد ذكرنا من قبل ترجيحنا أن يكون الأبيض المذكور في هذا النّص هو نفس وادي الأبيض الّذي يأخذ من تبل ويصب في هور أبي دبس، والّذي يقع عليه الأخيضر، ولا نعلم فيما إذا كان إغفال ابن خرداذبه لذكر قصر مقاتل راجع إلى نقص في المطبوع أم إلى أنّ الطّريق في زمنه قد تحول عن قصر مقاتل.

وفي الخريطة الحالية مكان اسمه الطقطقانة، موضعه في نفس المنطقة الّتي تقع فيها القطقطانة، ولعلّها هي نفس المكان ولكن الاسم تحرف على مر الزّمن.

الرّهيمة:

تقع الرّهيمة بين القطقطانة وقصر مقاتل، إذ يقول السّكوني «القطقطانة بالقاف بينها وبين الرّهيمة مغرباً نيف وعشرون ميلاً إذا خرجت من القادسية تريد الشّام ومنه إلى

(١) (المسالك ص٩٩).
(٢) (ياقوت ٤/ ١٢١).
(٣) (ياقوت ٣/ ١١٣).
(٤) (ياقوت ٣/ ٥٣٩ الهمداني ١٧٨ انظر أيضاً فتوح البلدان ص٢٩٧).
(٥) (٤/ ١٣٧).
(٦) (ياقوت ٢/ ٣٧٩).
(٧) (الطبري ١/ ٢٢٥١).
(٨) (الطبري ١/ ٣٤٤٧).
(٩) (الطبري ٢/ ٢٨٨، ٢٩٧).
(١٠) (ياقوت ٤/ ١٣٧).
(١١) (ياقوت ٤/ ١٢١).
(١٢) (الطبري ٢/ ٩١٦).
(١٣) (المسالك ص٩٩).

قصر مقاتل ثمّ القريات ثمّ السّماوة»[١]، ويقول ياقوت أيضاً أنّ الرّهيمة «عين بعد خفية إذا أردت الشّام بين الكوفة بينها وبين خفية، وبعدها القطيفة مغرباً»[٢]، والرّهيمة لا تزال موجودة، معروف موضعها على الخريطة.

أمّا خفية فإنّ ياقوت يقول إنّها «أجمة في سواد الكوفة بينها وبين الرّحبة بضعة عشر ميلاً ينسب إليها الأسود فيقال أسود خفية، وهي غربي الرّحبة ومنها إلى عين الرّهيمة مغرباً»[٣].

٢- البهقباذ الأسفل

(منطقة جنوب الكوفة)

يقع البهقباذ الأسفل في منطقة معقدة سياسياً وطبيعياً، ففي هذا الأستان كانت تقع الحيرة، وهي عاصمة مملكة المناذرة الّتي ساندها السّاسانيون لصد القبائل العربية عن العراق ولمد النّفوذ السّاساني في الجزيرة. وفي العصر الإسلامي أنشئت في هذا الأستان الكوفة الّتي كانت مصرا يقيم فيه المقاتلة للعرب، ومقراً إدارياً للعراق ومعظم أقاليم الهضبة الإيرانية، فضلاً عن أنّها صارت من أعظم مراكز الحياة الاقتصادية والفكرية في العالم الإسلامي.

ثمّ أنّ هذه المنطقة أرضها منخفضة ومستوية، ولذلك تكثر فيها الأهوار والمستنقعات، وتتعرض مجاري الأنهار إلى تبدلات سريعة ومستمرة.

والواقع أنّ كثيراً من الحركات الّتي هددت الدّولة الإسلامية ظهرت في هذه المنطقة، لا من الكوفة نفسها.

ومن المعلوم أنّ العلاقة بين قباذ والمناذرة لم تكن حسنة مما أدى إلى أنّ يهجر المنذر ابن ماء السّماء الحيرة مؤقتاً، ولا بد أنّ هذه الأوضاع السّياسية كان لها تأثير عظيم في حمل قباذ على التّدخل في تنظيم هذه المنطقة، ذلك التّدخل الّذي من أبرز مظاهره تسمية الأستانات الثّلاثة في هذه المنطقة باسمه. غير أنّ سوء العلاقة لم يدم طويلاً، فلمّا جاء أنو شروان إلى العرش عادت العلاقة الطّيبة بين المناذرة والسّاسانيين واستمر هذا الوضع إلى قبيل الفتح الإسلامي حيث قضى السّاسانيون على دولة المناذرة، وتولوا بأنفسهم أمر الدّفاع عن حدود العراق، ووضعوا حاميات فارسية في الحيرة وبعض الأماكن الأخرى، وزال كل نفوذ للمناذرة عليها.

ولمّا فتح العرب العراق أبقوا التّنظيمات الإدارية السّاسانية، بالرّغم من إنشائهم للكوفة في هذه المنطقة، إذ رغم أنّ الكوفة كانت مقر المقاتلة العرب، ومركز إدارة الأقاليم المفتوحة، إلاّ أنّها لم تتدخل في التّنظيمات الإدارية لهذه المنطقة، فظل البهقباذ الأسفل أستاناً قائماً بذاته، وكان فيه مركز لسك النّقود، ولدينا نقود سكت فيه ترجع إلى سنة ٦٠هـ وإلى سنة ٩٠هـ[٤].

يتكون البهقباذ الأسفل من خمسة طساسيج ذكر كل من ابن خرداذبه وقدامه بن جعفر إنتاج كل منهما. ويلاحظ أنّه بالإضافة إلى ما أبديناه عن عدم التّناسق في الأرقام، فإنّ الأرقام الّتي يذكرها كل منهما مختلفة، ولا نعلم فيما إذا كان الاختلاف راجعاً إلى خطأ النّساخ أم إلى تبدل الأحوال خلا الفترة الواقعة بين تدوين كتابي ابن خرداذبه وقدامه.

طساسيج البهقباذ الأسفل	الرّساتيق	البيادر	الحنطة	الشّعير	الورق بالألوف
فرات بادقلى (خ)	١٦	١٧١	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٩٩٠
فرات بادقلى (ق)	١٦	١٧١	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠
السّيلحين (خ)	-	٣٤	١٠٠٠	١٧٠٠	١٠٠
السّيلحين (ق)				١٥٠٠	١٤٠
نستر	٧	١٧٣	١٢٥٠	٢٠٠٠	٣٠٠
روذمستان هرمز جرد	-	-	٥٠٠	٥٠٠	١٠

أمّا السّيلحين فيقع عند الحيرة، وفيه الخورنق وطيزناباد وتقع قربه الصّنين[٥] «وهو بلد كان بظاهر الكوفة، كان من منازل المنذر، وبه مزارع باعه عثمان بن عفان من طلحة بن عبيد الله وكتب له كتاباً مشهوراً مذكوراً عند المحدثين وجدت نسخته سقيمة فلم أنقله»[٦].

وفي هذا الطّسوج يقع نهر السّيلحون الّذي كانت تقيم فيه إحدى مسالح كسرى[٧] وهو يجري من الفرات[٨] وهذا النّهر قريب من مجتمع الأنهر، حيث يروي الطّبري في كلامه عن تقدم لمصعب بن الزّبير إلى الكوفة، ولمّا بلغ المختار أنّهم أقبلوا إليه من البحر وعلى الظّهر سار حتّى نزل بهم السّيلحين

(١) (ياقوت ٤/ ١٣٧).
(٢) (ياقوت ٢/ ٨٨٠).
(٣) (ياقوت ٢/ ٤٥٧).
(٤) (انظر كتاب ولكر كتالوج النّقود الإسلامية).
(٥) (الطبري ١/ ٢٢٣٢).
(٦) (ياقوت ٣/ ٤١٣).
(٧) (ياقوت ٣/ ٢١٨).
(٨) (أنساب الأشراف ٥/ ٢٥٨).

ونظر إلى مجتمع الأنهار: نهر الحيرة ونهر السّيلحين ونهر القادسية ونهر برسف، فسكر الفرات على مجتمع الأنهار فذهب ماء الفرات كلّه في هذه الأنهار وبقيت سفن أهل البصرة في الطّين»[1]. انظر أيضاً أنساب الأشراف[2] ويذكر الطّبري أنّ قرية العشيرة من آخر عمل طسوج السّيلحين[3].

وفي هذا الطّسوج كانت تقع قصور الحيرة وأديرتها.

أمّا فرات بادقلي فقد أخذ اسمه من نهر يمر به، ولعلّه كان من مراكز زراعة تمر الدّقل حتّى سمي بهذا الاسم الّذي يعني بالآرامية «بيت الدّقل».

لقد مر خالد بن الوليد بفرات بادقلي إلى الحيرة رأساً عندما جاء العراق (الطبري ١/ ٢٠٣٨) وسلكه بشير عندما سار من الحيرة إلى البويب (الطبري ١/ ٢١٨٤) ولمّا توغل أبو عبيد الثّقفي «ثار جابان في فرات بادقلي وثار النّاس بعده وأزر المسلمون إلى المثنى بالحيرة»[4].

وبالقرب من فرات بادقلي تقع مقر «من ناحية البر من جهة الحيرة، كانت بها وقعة للمسلمين وأميرهم خالد بن الوليد في أيّام أبي بكر الصّديق»[5].

أمغيشيا:

إنّ أبرز ما في فرات بادقلي هي أمغيشيا «وكانت مصرا كالحيرة، وكان فرات بادقلي ينتهي إليها، وكانت اليس من مسالحها»[6] «ولمّا فرغ خالد من وقعة اليس نهض فأتى أمغيشيا وقد أعجلهم عما فيها وقد جلا أهلها وتفرقوا في السّواد ومن يومئذ صارت السّكرات في السّواد فأمر خالد بهدم أمغيشيا وكلّ شيء كان في حيزها.. لم يصب المسلمون فيما بين ذات السّلاسل وأمغيشيا مثل شيء أصابوه في أمغيشيا، بلغ سهم الفارس ألفاً وخمسمائة سوى النّفل الّذي نفله أهل البلاد»[7].

أمّا موقع أمغيشيا فيوضحه نص رواه سيف عن بعض شيوخه، فهو يقول «إنّ الازاذبه كان مرزبان الحيرة أزمان كسرى إلى ذلك اليوم، فكانوا لا يمد بعضهم بعضاً إلاّ بإذن الملك، وكان قد بلغ نصف الشّرف، وكانت قيمة قلنسوته خمسين ألفاً، فلمّا أخرب خالد أمغيشيا وعاد أهلها سكرات لدهاقين القرى، علم الازاذبه أنّه غير متروك فأخذ من أمره وتهيأ لحرب خالد وقدم ابنه ثمّ خرج في أثره حتّى عسكر من الحيرة، وأمر ابنه بسد الفرات، ولمّا استقل خالد من أمغيشيا وحمل الرّجال في السّفن مع الأنفال والأثقال لم يفجأ خالداً إلاّ والسّفن جوانح، فارتاعوا لذلك، فقال الملاحون أنّ أهل فارس فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه فلا يأتينا الماء إلاّ بسد الأنهار، فتعجل خالد في خيل الازاذبه على فم العتيق، خيل من خيله وهم أمنون لغارة خالد في تلك السّاعة، فأنامهم بالمقر ثمّ سار من فوره وسبق الأخبار إلى ابن الازاذبه حتّى يلقاه وجنده على فم فرات بادقلي، فاقتتلوا فأنامهم فجر الفرات وسد الأنهار وسلك الماء سبيله»[8].

«ويتضح من هذا النّص أنّ موضع الازاذبه كان شمالي موضع خالدن وكان مسيطراً على مصادر الأنهار ولذلك استطاع سدها مما جعل سفن خالد تجنح، وعلى هذا تكون أمغيشيا في جنوبي الحيرة، وإنّ فرات بادقلي يجري بينها وبين الحيرة، ولم تذكر المصادر مقدار بعدها عن الكوفة، وقد جهلها النّاس بعد تدميرها، حيث يذكر عبيد الله بن سعد عن عمّه، سألت عن أمغيشيا بالحيرة فقيل لي منيشيا، فقلت لسيف، فقال هذان اسمان»[9] فلا بد أن يكون موقع أمغيشيا في منطقة الغماس والشّنافية اليوم، حيث الأرض منخفضة تغمرها الأهوار والمستنقعات وتتعرض مياهها للتبدل بفعل الطّمي.

أليس ونهر الدّم:

إنّ رواية الطّبري أنّ أليس من مسالح أمغيشيا يدل على قرب موقع المكانين، ويقول سيف بن عمر «إنّ أليس قرية من قرى الأنبار»[10]، غير أننا نشك في دقة هذا التّعبير لأنّ أمغيشيا الّتي تقع أليس قربها، كانت جنوبي الحيرة يقول «قالوا: ومرّ خالد بن الوليد بزندورد من كسكر فافتتحها، وافتتح درني وذواتها بأمان بعد أن كانت من أهل زندورد مراماة للمسلمين ساعة، وأتى هرمز جرد فآمن أهلها أيضاً وفتحها، وأتى أليس فخرج إليه جابان عظيم للعجم، فقدم إليه المثنى بن حارثة فلقيه بنهر الدّم، وصالح خالد أهل أليس على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس وأدلاء وأعواناً، وأقبل خالد إلى مجتمع الأنهار فلقيه ازاذبه صاحب مسالح كسرى فيما بينه وبين العرب فقاتله المسلمون وهزموه، ثمّ نزل خالد خفان، ويقال بل سار قاصداً إلى الحيرة»[11] ويتضح من هذا النّص في سير خالد أنّ الأماكن تتتالى كما يلي: زندورد- درني- هرمز جرد- أليس- نهر الدّم- مجتمع الأنهار- خفان أو الحيرة.

(١) (الطّبري ٢/ ٧٢٥).
(٢) ٥/ ٢٥٨.
(٣) (الطبري ٣/ ٢٢٦٤).
(٤) (الطبري ١/ ٢١٦٧).
(٥) (ياقوت ٤/ ٦٠٥).
(٦) (الطبري ١/ ٢٠٣٧ ياقوت ١/ ٣٥٤).
(٧) (الطبري ١/ ٢٠٣٦- ٧).
(٨) (الطبري ١/ ٢٠٣٧- ٨).
(٩) (الطبري ١/ ٢٠٣٦).
(١٠) (الطبري ١/ ٢٢٠٢ انظر أيضاً ياقوت ١/ ٣٥٤).
(١١) (فتوح ٣٣٩).

لقد مرّ خالد بن الوليد بفرات بادقلي إلى الحيرة ويذكر الطّبري أنّ خالداً تقدّم من النّباج فعرض له جابان صاحب أليس «فبعث إليه المثنى بن حارثة فقاتله فهزمه وقتل جل أصحابه إلى جانب نهر ثمّ يدعى نهر دم لتلك الوقعة، وصالح أهل أليس وأقبل حتّى دنى من الحيرة، فخرجت إليه خيول ازاذبه صاحب خيل كسرى الّتي كانت في مسالح ما بينه وبين العرب فلقوهم بمجتمع الأنهار»[١]، وهذه الرّواية تختلف عن رواية البلاذري من حيث أنّها تذكر أنّ خالداً تقدّم من النّباج، إلاّ أنّها تتفق مع رواية البلاذري من حيث أنّ خالداً اشتبك مع الفرس عند أليس في نهر الدّم ثمّ تقدّم إلى مجتمع الأنهار فالحيرة.

ويذكر الطّبري أنّه كانت على نهر الدّم أرجاء[٢] وقد اشتبك المثنى أيضاً مع الفرس في أليس عندما تولى القيادة بعد البويب[٣].

إنّ أليس لا بد أن تكون جنوبي أمغيشيا لأنّ خالداً تقدّم إلى أمغيشيا بعد أن اجتاز أليس[٤] ولما كان قادماً من الجنوب، فلا بد أن تكون أليس جنوبي أمغيشيا.

يتردد ذكر نستر أليس في كتب الفقه الّتي تؤكد أنّ أرضها فتحت صلحاً ويختلف حكمها عن بقيّة أراضي السّواد.

نستر:

يتردد ذكر نستر في أحداث الفتوح الإسلامية، ويقول ابن الفقيه الهمداني «كان أهل الكوفة يفخرون بأنّ من فتوحهم نستر»[٥] ويروي البلاذري أنّ أبا عبيد الثّقفي عندما جاء لفتح العراق ووصل العذيب «بلغه أنّ جابان الأعجمي بنستر في جمع كثير فلقيه، فهزم جمعه وأسر منهم، ثمّ أتى درني وبها جمع للعجم فهزمهم إلى كسكر»[٦]، أي أنّ مواقع هذه الأماكن من الغرب إلى الشّرق هي: العذيب- نستر- درني- كسكر (واسط) ولا ريب أنّ نستر تقع جنوبي الكوفة، غير أننا لا نستطيع تحديد موقعها.

وفي نستر يقع عقر سويد وذلك أنّ خالد بن الوليد بعث من الحيرة عدّة مسالح ومنها «سويد ابن مقرن المزني إلى نستر فنزل العقر فهي تسمى عقر سويد إلى اليوم»[٧].

(١) (الطبري ١/ ٢٠١٩).
(٢) (الطبري ١/ ٢٠٣٥).
(٣) (الطبري ١/ ٢١٨١- ٣، ٢٢٠٢).
(٤) (الطبري ١/ ٢٠٣٦).
(٥) (البلدان ص١٦٥).
(٦) (فتوح ٣٥٠).
(٧) (الطبري ١/ ٢٠٥٢).

روذمستان:

ويذكر الطّبري أنّه في سنة ٢٨٧ «أوقع بدر غلامي الطّائي بالقرامطة على غرة منهم بنواحي روذميسان (!) وغيرها فقتل منهم فيما ذكر مقتلة عظيمة ثمّ تركهم خوفاً على السّواد أن يخرب إذ كانوا فلاحيه وعماله وطلب رؤساءهم في أماكنهم فقتل من ظفر به منهم»[٨].

وفي روذمستان يقع نهر اط فيقول الطّبري أنّ خالد بن الوليد «بعث اط بن أبي اط إلى روذمستان فنزل منزلاً على نهر سمي ذلك النّهر به ويقال له نهر اط إلى اليوم، وهو رجل من بني سعد بن زيد مناة»[٩].

يقول الصّابي أنّ «روذمستان وهرمز جرد وهما ناحيتان من السّيب الأسفل وجنبلاء»[١٠]، وهذا النّص يوحي بأنّ هذين الطّسوجين يقعان جنوب شرقي الكوفة حيث يقع السّيب وجنبلاء.

هرمز جرد:

لقد ذكرنا أنّ هرمز جرد من طساسيج البهقباذ الأسفل، ويقول ياقوت أنّها «ناحية كانت بأطراف العراق غزاها المسلمون أيّام الفتوح»[١١] ويروي البلاذري أنّ خالد بن الوليد مرّ بزندورد من كسكر «فافتتحها وافتتح درني وذواتها بأمان بعد أن كانت من أهل زندورد مراماة للمسلمين ساعة، وأتى هرمز جرد فآمن أهلها أيضاً وفتحها، وأتى أليس فخرج إليه جابان عظيم العجم»[١٢]، وهذا يبين أنّ هرمز جرد تقع بين زندورد وأليس، وأنّها شرقي أليس.

يذكر الطّبري أنّه لما تقدّم خالد في السّواد جاءه صلوباً والدّهاقين «فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمز جرد على ألفي ألف»[١٣].

ومن البهقباذ الأسفل روذبار وهي «أسفل الفرات على رأس أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة» وجرت فيها معركة بين القوات الأموية وبين شبيب الخارجي[١٤] وقد ذكرت في أحداث القرن الثّالث الهجري[١٥].

«مجلة سومر العراقية، مج٢١ ج١ و٢/ ١٩٦٥ ص٢٢٩- ٢٥٣»

* * *

(٨) (الطبري ٣/ ٢٢٠٢).
(٩) (الطبري ١/ ٢٠٥٢ انظر أيضاً ياقوت ٤/ ٨٣٤).
(١٠) (الوزراء ١٢٢).
(١١) (٤/ ٨٦٩).
(١٢) (فتوح ٣٣٩).
(١٣) (الطبري ١/ ٢٠٥١).
(١٤) (الطبري ٢/ ٩٢٢، ٩٣٥، ٩٨٢).
(١٥) (انظر الطبري ٢/ ١٦٢٧، ١٦٤٨).

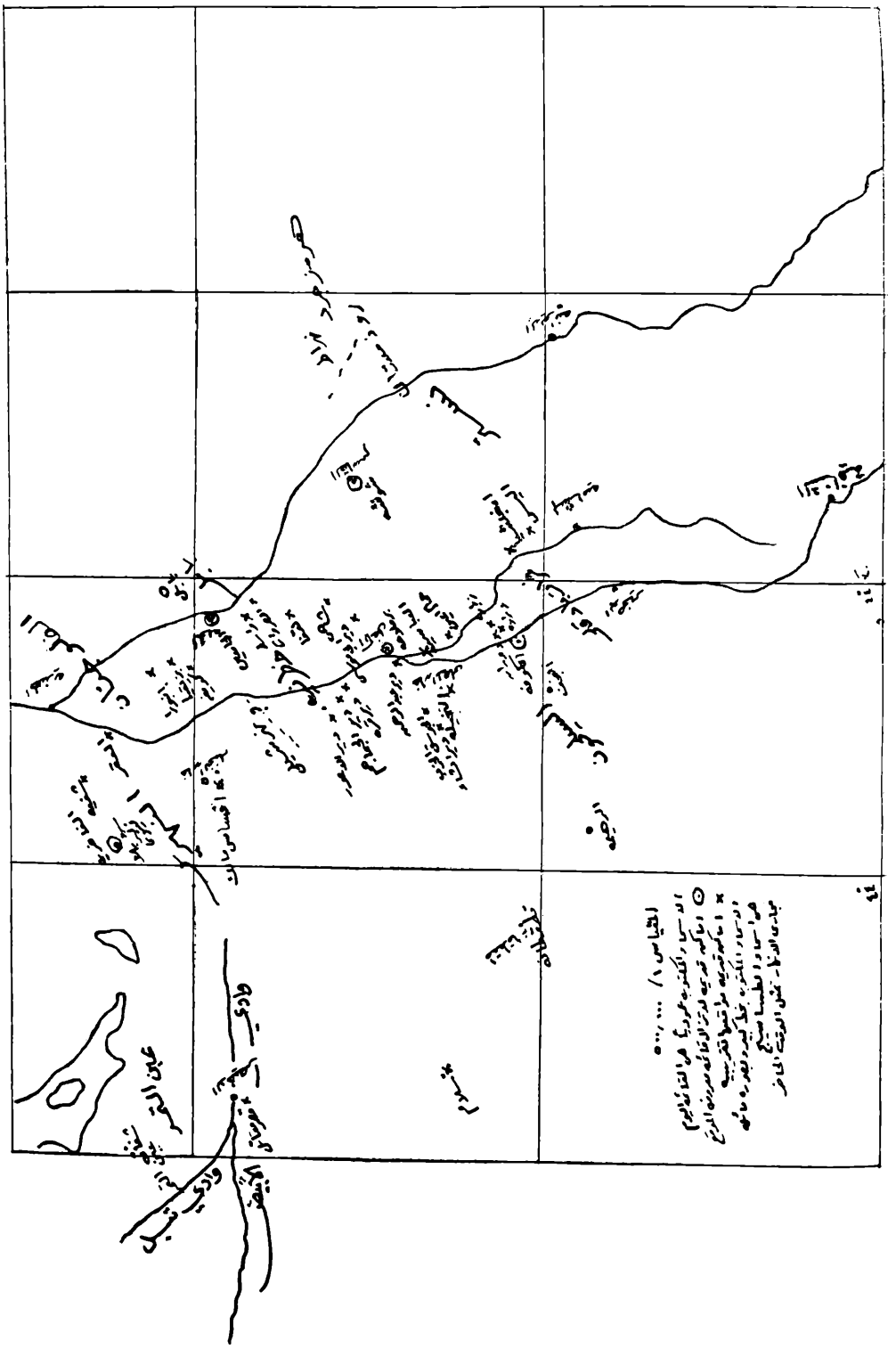

مصادر دراسة تاريخ الكوفة
في القرون الإسلامية الأولى

الدّكتور صالح أحمد العلي

المدن هي الأماكن الّتي تستقر فيها أعداد كبيرة من النّاس، وتعيش مجتمعة معاً في رقعة محدودة، ممتهنة الصّناعة والتّجارة والخدمات العامة، وهي منذ أقدم نشأتها البيئات الأساسية للنظم الاجتماعية والإدارية المعقدة ولنشاط الحياة الاقتصادية ونمو الحركة الفكرية، وهذه الأمور تكون أبرز مظاهر الحضارة وتكسب المدن سمات خاصة تميز المجتمع فيها عن المجتمعات الرّيفية والرّعوية بالرّغم من الصّلات الوثيقة بين هذه المجتمعات.

وتاريخ المدن يتناول بحث الأحوال الطّبيعية والبشرية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والفكرية، كلّها أو بعضها، في المدينة موضوع الدّراسة، وكذلك تتبع تطور هذه الأحوال في مرور الزّمن، فبحثه يتميز بالتّركيز على رقعة محدودة، الأمر الّذي يتطلب الاهتمام بتفاصيل الأحوال الجغرافية والتّعمق في تتبع تطور مظاهر الحياة والصّلات بين عناصرها المنوعة، وتوضيح أثر العوامل المحلية فيها وفي مجرى التّاريخ العام.

وقد ظهرت الدّعوى الإسلامية في بيئة حضرية، واهتم الإسلام بصورة خاصة بتنظيم الحياة الحضرية، فكانت من أبرز سماته أنّه دين حضري، والواقع أنّ الدّولة الإسلامية الّتي امتدت من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي ضمت كثيراً من المدن القديمة أو الّتي أنشئت بعد الفتح، فكانت مراكز الحضارة الإسلامية، غير أنّ المسلمين لم يهتموا كثيراً ببحث المكانة القانونية عند المسلمين، اقتصرت على مجرد البحث في تمييز البدو عن الحضر في بعض الأحكام، وعلى التّأكيد على أنّ صلاة الجمعة لا تجوز إلاّ في الأمصار، رغم اختلافاتهم الكبيرة في تعريف «المصر» وبهذا كانوا يختلفون عن الإغريق والرّومان والأوروبيين، الّذين وضعوا تشريعات وقوانين تحدد المدن وتميزها وتقرر الامتيازات القانونية والسّياسية والاقتصادية الّتي تتمتع بها.

غير أنّ المتطلبات الحضارية والإدارية كانت تقضي بتمييز بعض المراكز الحضارية لتفي بأغراض ضبط الأمن والنّظام، أو لإقامة القوات العسكرية، أو تأمين جباية الأموال، وقد ورثت الدّولة الإسلامية بعض هذه التّنظيمات وأبقت على كثير منها مع بعض التّبديلات، فكان العراق، مثلاً، مقسماً إلى استانات عدّة ينقسم كلّ منها بدوره إلى عدد من الطّساييج الّتي يتكون كلّ منها من رساتيق عدّة، وكانت هذه التّقسيمات لتيسير الجبايات المالية، فأبقاها المسلمون وساروا عليها قرون عدّة.

وقد قضت الأحوال الإدارية على العرب إنشاء تقسيمات أخرى تلائم حاجاتهم الجديدة، وإنشاء «أمصار» يقيم في كلّ منها المقاتلة المسلمون وعيالاتهم، والولاة المسؤولون عن الإدارة وحفظ الأمن فيها وفي الأقاليم الّتي فتحها المقاتلة المقيمون في ذلك المصر، وكانت هذه الأمصار تتميز بأنّ أغلب سكانها من العرب المسلمين المقاتلة الّذين يأخذون العطاء والرّزق، والواقع أنّ هذه الأمصار أصبحت المراكز الرّئيسة للحياة السّياسية والاقتصادية والفكرية والحضارية، حتّى أنّه ليس من المبالغة في القول أنّ تاريخ الشّرق الأوسط في القرن الأوّل الهجري هو في الحقيقة تاريخ هذه الأمصار وما تم فيها من أحداث وتطورات.

والكوفة هي أحد المصرين اللذين تأسسا في العراق في عهد خلافة عمر بن الخطاب، وثانيهما البصرة، وقد أنشئت الكوفة لتكون مركزاً ليقيم فيه المقاتلة العرب الّذين فتحوا العراق ودمروا جيوش كسرى، كما شاركوا في فتوح الجزيرة وأرمينية، وكانوا مسؤولين عن حفظ الأمن والنّظام في العراق وشمال الهضبة الإيرانية، وكانت الكوفة منذ بداية تأسيسها تضم عدداً كبيراً من المقاتلة العرب، وعدداً من البيوت الّتي كانت لها مكانة كبيرة في عشائرها قبل الإسلام، وقد اتخذها الخليفة الرّابع الإمام علي مقاماً له في معظم السّنوات الأربعة

من خلافته، ثمّ ساهمت في كثير من الحركات السّياسية الّتي حدثت في زمن الخلافة الأموية، وكانت معظم هذه الحركات ضد الدّولة الأموية، ثمّ أصبحت من أعظم مراكز الحركة الفكرية في الإسلام، فازدهرت فيها دراسة الفقه والنّحو واللغة والتّاريخ، وكان لعلمائها أثر كبير في تطوير وتقدّم هذه العلوم، فضلاً عن أنّ الحيرة المجاورة لها، كانت من أعظم مراكز الدّراسات الفلسفية والكلامية والطّبية في السّريانية وفي ترجمة الكتب إلى العربية، وكان لعلماء الكوفة دور كبير في تأسيس وازدهار الحركة الفكرية في بغداد بعد إنشائها.

وقد نشرت في السّنوات الأخيرة بعض الدّراسات عن الكوفة وتاريخها وفيها معلومات جيدة وبعض الملاحظات الصّائبة، غير أنّها لم تستوعب جوانب تاريخ هذه المدينة كافة، ولذلك بقي المجال مفتوحاً لدراسات أخرى، وبخاصة في هذه السّنوات الّتي ازداد فيها الاهتمام بدراسة المدن الإسلاميّة بعد أن تبين أنّ مثل هذه الدّراسات أقدر على عرض تفاعل المؤسسات وتفهم عوامل ظهورها وتطورها ودورها في الحياة العامة.

ولا ريب في أنّ أوّل ما تتطلبه الدّراسات المستوعبة هو معرفة المصادر وتقييمها، ومن المعلوم أنّ مصادر دراسة تاريخ الكوفة مشتتة في كتب كثيرة منوعة، ولم تجر لجمعها إلاّ محاولات قليلة نذكر منها ما كتبه السّخاوي في كتاب «الإعلان بالتّوبيخ لمن ذم التّاريخ» حيث أفرد ذكر أسماء الكتب المؤلفة في تاريخ الكوفة، ولكنه لم يذكر إلاّ أسماء ثلاثة مؤلفين[1] دون أن يورد أسماء كتبهم، وكذلك ما ذكره أغا بزرك في كتابه القيم «الذّريعة في تصانيف الشّيعة» تحت باب «تاريخ الكوفة»[2] و «فضل الكوفة»[3] و«الكوفة»[4]، ثمّ القائمة الّتي أعدّها الأستاذ كوركيس عواد في مقاله «ما طبع عن بلدان العراق باللغة العربية»[5] وهي تشمل بعض الكتب والمقالات القديمة والحديثة الّتي بحثت في تاريخ الكوفة ومنطقتها، وأخيراً القائمة الّتي نشرتها في كتاب «علم التّاريخ عند المسلمين»، وجمعت منها ما أورده كل من ابن النّديم والطّوسي في فهرستيهما[6].

إنّ المحاولات الّتي ذكرتها آنفاً اقتصرت على تسمية بعض الكتب والمقالات ولم تستوعب تحليلها، كما أنّها لم تشر إلى مصادر كثيرة فيها مادة قيمة عن الكوفة وأهلها وتاريخها، وهو ما تستهدفه المقالة الحالية.

(١) «الإعلان بالتّوبيخ لمن ذم التّاريخ» نشر في كتاب «علم التّاريخ عند المسلمين» ص٦٣٩.
(٢) الذريعة ٣/ ٢٨١.
(٣) المصدر نفسه ١٦/ ٢٧٢.
(٤) المصدر نفسه ١٨٣/ ١٨٤.
(٥) «ما طبع عن بلدان العراق» سومر م١٠ ج١ ص٥٢- ٥٤.
(٦) علم التّاريخ عند المسلمين ٢٩١، ٣١٥.

١- الكتب الخاصة في تاريخ الكوفة:

ذكرت المصادر أسماء عدد من المؤلفين الّذين ألفوا عن الكوفة كتباً مستقلة بعناوين مختلفة، فقد ذكر النّجاشي في سرده الكتب الّتي ألفها محمّد بن بكران الرّازي «كتاب الكوفة»[7]، غير أنّه لم يذكر شيئاً عن ترجمة المؤلف أو سنة وفاته أو محتوى الكتاب.

وذكر السّخاوي أنّ الكتب المؤلفة عن «الكوفة لابن مجالد، ولعمر بن شبة، ولأبي الحسن محمّد بن جعفر بن هارون بن فروة التّميمي الكوفي النّحوي ابن النّجار»[8]، فأمّا كتاب ابن المجالد فقد ورد ذكره باسم «تاريخ الكوفة» ضمن قائمة الكتب الّتي ذكر ابن السّاعي في بعض تآليفه أنّه قد قرأها[9]، غير أني لم أجد في أي مصدر آخر إشارة إلى هذا الكتاب، أو أية معلومات عن مؤلفه الّذي لا علاقة له بالمجالد بن سعيد بن مجالد الفقيه الكوفي المشهور الّذي كان من شيوخ أبي يوسف[10].

وأمّا ابن شبة فهو عمر بن شبة النّمري المتوفي سنة ٢٦٢هـ، وقد ذكر له ابن النّديم اثنين وعشرين كتاباً في الشّعر والنّحو والقرآن والنّسب وفي تاريخ بعض الأحداث وبعض المدن، ومنها «كتاب الكوفة» و «كتاب أمراء الكوفة»[11] وقد اعتمد الطّبري على ابن شبة في نقل معظم ما روي عن المدائني في حوادث البصرة وخراسان، كما نقل السّمهودي عنه معلومات عن خطط المدينة[12]، ولكني لم أجد من نقل عنه ما يتعلق بالكوفة.

أمّا تاريخ الكوفة لابن النّجار (٣٠٣- ٤٠٢)[13]، فهو مفقود، غير أنّه وصلتنا نصوص عن ابن النّجار نقلتها كتب عدّة، ففي

(٧) الرّجال ٣٠٧.
(٨) الإعلان بالتّوبيخ ٦٣٩.
(٩) الدّرر الكامنة ٢/ ٣٦٥ ط حيدر آباد.
(١٠) ذكر ابن النّديم «ابن مجالد» من ضمن قائمة الوراقين (الفهرست ١٠ طبعة رضا نجدد) ونقل أبو علي العلوي في كتابه فضل الكوفة أربعة نصوص عن عبد الله بن المجالد بن بشر (انظر أدناه) غير أنّه لم يذكر اسم كتاب عبد الله بن المجالد، كما أني لم أجد فيما قرأته من الكتب معلومات عن هذا الرّجل.
(١١) الفهرست ١٢٥.
(١٢) انظر في ذلك مقالي «المؤلفات العربية عن الحجاز والمدينة» ص١٣١- ١٣٤ مجلة المجمع العلمي العراقي م١١ سنة ١٩٦٤، وتوجد قطعة من كتاب ابن شبة عن المدينة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، انظر مجلة العرب م٤ ج٤ سنة ١٩٧٠ ص٣٢٧ فما بعد، وانظر عن المقتطفات من بعض كتب ابن شبة في كتاب تاريخ المؤلفات العربية لفؤاد سزكين ١/ ١٧٣ (بالألمانية).
(١٣) انظر عن ترجمة ابن النّجار: تاريخ بغداد للخطيب ٢/ ١٥٨- ١٥٩، المنتظم لابن الجوزي ٧/ ٢٦، إرشاد الاريب لياقوت ٦/ ٤٦٧، غاية النّهاية في طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ١١١، شذرات الذّهب لابن العماد ٢/ ١٦٤، علم التّاريخ عند المسلمين لروزنثال ١٩٧، تاريخ التّراث العربي لفؤاد سوزكين ١/ ٣٥٠ وسنشير إليه «سوزكين».

كتاب إرشاد الأريب لياقوت الحموي خمسة نصوص عنه (١-٤١٠، ٣-٦٩، ٤-٢٤٥، ٥-١١٣، ٦-٤٦٧) وفي لسان الميزان خمسة نصوص أيضاً (١/ ٤١٣، ٤١٤، ٤٦٨، ٣-١٤٧، ٢٠٥) وفي معجم البلدان لياقوت نصان (٤/ ١١٧، ٥٦٨) وفي مخطوطة «فضل الكوفة» أربعة نصوص منقولة عن ابن النّجار، وقد نقل ابن طاووس في «فرحة الغري» عن ابن النّجار وذكره في أحد المواضع «أبو جعفر الحسن بن محمّد بن جعفر التّميمي المعروف بابن النّجار» في كتابه «تاريخ الكوفة وهو الكتاب الموسوم المنصف»[١].

ويتبين من هذه المقتطفات إنّ ابن النّجار بحث في هذا الكتاب خطط الكوفة وتراجم رجالها، ومن المعروف أنّ العرب ألفوا كتباً كثيرة في عنوانها «تاريخ» للمدن، وأغلب هذه الكتب الّتي ألفت حتّى أواسط القرن الثّالث الهجري الّتي وصلتنا، تبحث في الخطط وفي أبرز المعالم العمرانية في المدينة موضوع الدّراسة، كما تسرد الحوادث الّتي جرت فيها أو لها صلة بها، أمّا الكتب الّتي ألفت منذ القرن الخامس الهجري فتبحث عادة في فضائل المدينة وخططها ومعالمها العمرانية، ثمّ تذكر تراجم أبرز رجالها، وبخاصة من علماء الحديث، فكتاب ابن النّجار عن تاريخ الكوفة هو من أقدم الكتب الّتي وصلتنا من هذا الطّراز.

وقد ذكرت المصادر عدداً من الكتب عنوان كلّ منها «فضل الكوفة»، وقد وصلنا منها كتاب لأبي علي محمّد بن علي بن الحسن الكوفي العلوي ت ٤٤٥هـ[٢]، وهو مخطوط في المكتبة الظّاهرية بدمشق (مجموع ٩٣ ص٢٨٢-٣٠٧)، وتاريخ نسخه سنة ٤٧٤هـ وهو مقسم إلى فصول هي: ذكر النّبي للكوفة، وشراء إبراهيم الخليل ظهر الكوفة، وشراء الإمام علي ظهر الكوفة، وأنّه يحشر فيها سبعون ألفاً بدخول الجنة، ومدح أرض الكوفة واختيار الملوك سكناها لصحة هوائها وطيب تربتها، ومدح الإمام علي عليه السلام الكوفة وأهلها، وقول عمر في تفضيل أهل الكوفة، وقول سلمان في فضل الكوفة وأهلها، وقول حذيفة بن اليمان في فضل الكوفة، وقول الحسن والحسين وعلي ابن الحسين٣ في فضل الكوفة وأهلها، وقول محمّد بن الحنفية في فضل الكوفة وأهلها.

وكتاب أبي علي العلوي يذكر مسانيد الرّوايات كافة الّتي أوردها، وهي تبلغ مائة واثنتين وخمسين رواية، منها ٢٦ عن أبي طالب محمّد بن العبّاس الحذاء، و٢٣ عن محمّد ابن عبد الله الجعفي، و١٥ عن الحسين بن أحمد بن أبي داؤود الجعفري المقرئ القطان، و٧ عن علي بن محمّد بن الفضل الدّهقان، و٦ عن الحسن بن محمّد بن الحسين البجلي، و٥ عن محمّد وزيد ابني أبي هاشم جعفر بن محمّد العلوي، و٤ عن كلّ من محمّد بن جعفر التّميمي، وعبد الله بن مجالد بن بشر والحسين بن أحمد بن داود الحضري، وثلاث روايات عن محمّد بن الحسين بن غزال، أمّا بقيّة الرّوايات فمنفردة.

ويحتوي الكتاب على نصوص في مدح الكوفة، وهي نصوص محدودة ولكنها تتكرر في مساند متعددة، ومعظمها في إطراء الكوفة صبغتها المقدسة، غير أنّ فيها نصوصاً قليلة ومهمة عن خطط الكوفة، وكثير من النّصوص الّتي أوردها في مدح الكوفة مذكورة في مصادر أقدم كالبلاذري وابن قتيبة والطّبري.

وقد ذكر الطّوسي كتابين عنوان كلّ منهما «فضل الكوفة» أحدهما لعلي بن الحسين بن فضال[٣]، والثّاني لأبي العبّاس أحمد بن محمّد بن سعيد المشهور باسم ابن عقدة[٤] فأمّا الكتاب الأوّل فقد ذكره ابن شهراشوب ضمن قائمة الكتب الّتي ألفها ابن فضال[٥] أمّا النّجاشي فقد ذكر في ترجمته لابن فضال عدداً من الكتب منها «كتاب الكوفة»[٦] ولعله كتاب «فضل الكوفة» نفسه، وقد ذكر النّجاشي ابن فضال في مواضع عدة من كتابه[٧]، غير أنّه لم يشر صراحة إلى نقله عن هذا الكتاب، وقد وصف الطّوسي ابن فضال بأنّه «فطحي المذهب، ثقة كوفي كثير العلم، واسع الرّواية والأخبار، جيد التّصانيف، غير معاند» كما ذكر له عدّة كتب أخرى، وذكر أيضاً «أخبرنا بجميع كتبه قراءة عليه أكثرها، والباقي إجازة، أحمد بن عبدون عن علي بن محمّد بن الزّبير سماعاً وإجازة منه»[٨].

أمّا ابن عقدة فهو محدث كوفي مشهور (٢٤٩-٣٣٣هـ) وقد ألف كتباً كثيرة[٩] وقد نقل أبو علي العلوي عن ابن عقدة سبع عشرة رواية منها واحدة بسند عن أبي جعفر التّميمي، والباقية بسند عن محمّد بن عبد الله الجعفي، وقد ذكر هذا الكتاب كلّ من النّجاشي وابن شهراشوب[١٠].

(١) فرحة الغري ٥٧ وانظر أيضاً ٤٩/ ١٠٦.

(٢) انظر عن ترجمته شذرات الذّهب ٣/ ٢٧٤، سوزكين ١/ ٣٥٠.

(٣) الفهرست ٩٢.

(٤) الفهرست ٢٨.

(٥) معالم الإيمان ٦٥.

(٦) الرّجال ١٩٦.

(٧) انظر مثلاً الرّجال ٢٤، ٦٣، ١٩١، ٢١١.

(٨) الفهرست ٩٢- ٩٣.

(٩) انظر عن ترجمته: النّجاشي ٧٣- ٧٤، تاريخ بغداد ٥/ ١٤- ٢٣، المنتظم ٦/ ٢٢٦- ٧، ميزان الاعتدال ١/ ٦٤، لسان الميزان ١/ ٢٦٣- ٢٦٦، تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/ ٥٥، سير أعلام النّبلاء ١/ ٨٣، أعيان الشّيعة ٩/ ٤٢٨- ٤٤٤، سزكين ١/ ١٨٢ (بالألمانية).

(١٠) الرّجال ٧٤ معالم العلماء ١٦.

وقد ذكر النّجاشي «كتاب الكوفة» لمحمّد بن علي بن الفضل بن تمام الدّهقان وقال أنّه قرأه على أبي عبد الله الحسين بن عبد الله[1] وقد نقل أبو علي العلوي عن الدّهقان سبعة نصوص دون الإشارة إلى الكتاب الّذي نقلها عنه، وقد ذكر الطّوسي محمّد بن علي الدّهقان وقال أنّه كثير الرّواية، له كتب منها كتاب الفرج في الغيبة كبير حسن، أخبرنا برواياته وكتبه كلّها الشّريف أبو محمّد المحمدي عنه، وأخبرنا أيضاً جماعة عن التّلعكبري عنه»[2]، غير أنّ الطّوسي لم يذكر صراحة كتاباً للدّهقان عن الكوفة.

وقد ذكر النّجاشي خمسة كتب عن فضل الكوفة هي:

١- «فضل الكوفة» لمحمّد بن أحمد بن خاقان النّهدي.

٢- «الكوفة وما فيها من الآثار والفضائل» لأحمد بن العبّاس النّجاشي.

٣- «المزار وفضل الكوفة ومساجدها» لجعفر بن الحسين بن علي بن شهريار القمّي.

٤- «فضل قم والكوفة» لسعد بن عبد الله القمّي.

٥- «فضل الكوفة ومن نزلها من الصّحابة» لإبراهيم بن محمّد بن سعيد الثّقفي[3].

وقد ذكر كلّ من الطّوسي[4]، وابن شهراشوب[5] كتاب سعد بن عبد الله القمّي أمّا عن مؤلفي هذه الكتب، فإنّي لم أجد معلومات عن محمّد بن أحمد بن خاقان، أمّا أحمد بن العبّاس النّجاشي فهو كتاب الرّجال، وقد توفي سنة ٤٠٥هـ وأمّا جعفر بن الحسين القمّي فهو قمّي انتقل إلى الكوفة وأقام بها وتوفي سنة ٣٠٤هـ[6].

وأمّا سعد بن عبد الله القمّي فقد ذكره ابن شهراشوب وقال أنّه «له كتاب» دون أن يذكر اسمه[7]، وذكر النّجاشي وفاته سنة ٢٢٩هـ[8].

أمّا إبراهيم بن محمّد بن سعيد الثّقفي فهو مؤرخ مشهور، ولد في الكوفة، ثمّ انتقل إلى أصفهان وتوفي سنة ٢٨٣هـ[9]، وألف كتب عدّة أشهرها كتاب الغارات الّذي نقل عنه كثيراً ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة[10]، غير أنّي لم أجد من نقل عن كتابه في فضل الكوفة لقد ذكرت أنّه لم يصلنا من الكتب الّتي عنوانها «فضل الكوفة» إلاّ كتاب أبي علي العلوي ومن المعلوم أنّ كلمة «الفضل» «الفضائل» يقصد بها المميزات الحسنة، فكتب الفضائل تؤكد على المزايا دون المعايب، وهي عادة تهتم بالمزايا الخلقية الّتي تقدرها الأوساط الدّينية، والواقع أنّ العرب ألفوا كتباً كثيرة في فضائل الأشخاص والقبائل والشّعوب والمدن، ذكر ابن النّديم عدداً غير قليل منها، ويبدو من كتاب علي الحسني، ومن النّصوص الّتي وصلتنا عن فضائل المدن الأخرى أنّ كتب «الفضائل» متأثرة بالبيئة الفكرية السّائدة في الأوساط الدّينية، فهي تهتم بذكر مساند نصوصها، كما تهتم بإيراد أقوال لبعض الصّحابة أو ذوي المكانة الدّينية، في إظهار ميزات ذات طابع ديني، كأن يكون قد زارها الأنبياء أو أنّ في تربتها الخير والبركة، أو أن تكون مقدسة، غير أنّ فيها أحياناً نصوصاً عن خططها وتاريخ بعض الأحداث فيها، ولعل كتب «فضائل الكوفة» الّتي ذكرناها أعلاه تجري كلّها على هذا النّمط مع اختلاف في التّفاصيل.

١- كتب الولاة والقضاة:

ذكر ابن النّديم اسم كتابين ألفهما الهيثم بن عدي هما «ولاة الكوفة» و«قضاة الكوفة والبصرة»[11]، والكتابان مفقودان، ومن المحتمل أنّهما كانا معتمد كلّ من خليفة ابن خياط والطّبري واليعقوبي في قائمة الولاة الّتي أوردوها في كتبهم بعد ذكر حوادث كلّ سنة أو في ترجمة الخلفاء، غير أنّ هذه المقتبسات لا تكفي للجزم بمدى نطاق بحث الهيثم بن عدي، لأنّها مقصورة على ذكر أسماء الولاة دون الإشارة إلى أعمال كلّ منهم.

وقد خصص وكيع في كتابه «أخبار القضاة» مقداراً كبيراً لقضاة الكوفة في القرون الثّلاثة الأولى، وأورد في كلامه عن كلّ قاض عدداً من القضايا الّتي نظر فيها، وتطرق إلى معلومات كثيرة عن الأحوال الإدارية والاجتماعية فيها[12]..

٢- كتب التّاريخ العام:

وفي الكتب الّتي تتحدث عن الأحداث السّياسية معلومات عن الكوفة وأهلها ورجالها، وردت ثنايا كلامهم عن تلك الأحداث، فقد ألفت كتب عدّة عن الفتوح وتاريخ الخلفاء، وكتب

(١) الرّجال ٢٩٩.

(٢) الفهرست ١٥٩.

(٣) هذه الكتب وردت بالتتابع في كتاب الرّجال ٢٦٢/ ٧٩/ ٩٥/ ١٣٤/ ١٤.

(٤) الفهرست ٧٦.

(٥) معالم العلماء ٥٤.

(٦) الرّجال ٩٥.

(٧) معالم العلماء ٥٤.

(٨) الرّجال ١٢٥.

(٩) انظر عنه الفهرست لابن النّديم ٢٢٤، الرّجال ١٤- ١٥، معالم العلماء ٣، إرشاد الأريب ٨/ ٢٩٤- ٦، لسان الميزان ٢/ ١٠٢، أعيان الشّيعة ٥/ ٣٥٠- ٣، الأعلام ١١/ ٢٦، سوزكين ١/ ٣٢١ (بالألمانية).

(١٠) انظر عن مواضع هذه المقتطفات في شرح نهج البلاغة ١/ ١٤٤- ٥، ١٥٣- ٧، ٢١١، ٢١٣، ٢٦٤/ ٣٢٨، ٣٥٢، ٣٥٣/ ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢، ٢/ ٢٢- ٣٨، ٤٧/ ٥٠ وانظر سوزكين ١/ ٣٢١ (بالألمانية).

(١١) الفهرست ١١٢.

(١٢) أخبار القضاة ٢/ ١٨٤ فما بعد ٣/ ١- ١٩٩.

عن ولاة الكوفة كزياد، ومصعب، والحجاج، وخالد بن عبد الله القسري.

كما ألف بعض المؤرخين كتباً في أحداث وثيقة الصّلة بالكوفة كوقعة الجمل وصفين والنّهروان، ومقتل كلّ من حجر بن عدي، والحسين، والمختار، وزيد بن علي، وابن الأشعث.

فقد ألف عدد من المؤرخين المسلمين الأوائل كتباً في هذه الأحداث، ذكر ابن النّديم عدداً منهم وأهمهم أبو مخنف الّذي ألف كتباً في وقعة الجمل، وصفين، ومقتل علي، ومقتل الحسين، ومقتل حجر بن عدي.

كما ألف عن سليمان بن صرد وعين الوردة، والمختار، وشبيب الخارجي، ومطرف بن المغيرة، ودير الجماجم، وباجميرا ومقتل ابن الأشعث، وعن خالد القسري.

وألف نصر بن مزاحم كتباً في وقعة الجمل، وصفين، ومقتل حجر بن عدي، ومقتل الحسين.

وألف الهيثم بن عدي عن «نزول العرب بخراسان والسّواد» وعن خالد بن عبد الله القسري، فضلاً عن كتبه عن خطط الكوفة، وعن أمراء الكوفة.

وألف الواقدي عن وقعة الجمل، وصفين، وفتوح العراق.

وألف المدائني عن الجمل، والنّهروان، وعمران بن حطان، وفتوح العراق، وفتوح الرّي، وخطب علي وكتبه إلى عماله.

وألف أبو عبيدة عن السّواد وفتحه، والجمل، والخوارج.

وألف الغلابي عن الجمل، وصفين، ومقتل علي، ومقتل الحسين.

وألف الأشناني عن فضائل أمير المؤمنين، ومقتل الحسين، ومقتل زيد بن علي.

وألف كلّ من إسحق بن بشر وأبي إسحق العطار عن الجمل، وعن صفين.

وألف كلّ من سيف بن عمر وعبد الله بن محمّد بن أبي شيبة عن الجمل.

كما ألف ابن النّطاح عن مقتل زيد بن علي وابن حماد الثّقفي عن مقتل حجر بن عدي.

وقد ذكر الطّوسي كتباً أخرى في مقتل علي ألفها كلّ من ابن أبي الدّنيا وغياث بن إبراهيم، وفي مقتل الحسين ذكر كتباً ألفها إبراهيم بن إسحق النّهاوندي ومسلمة بن الخطاب وابن أبي الدّنيا وابن بابويه[١].

ويتبين مما تقدّم أنّ أكثر المؤلفات في وقعة الجمل (١٠) ووقعة صفين (٦) وفي مناقب الإمام علي ومقتله (٦-٥) ثمّ في مقتل الحسين (٤) ومقتل حجر بن عدي (٣) ومقتل زيد بن علي (٢) وكلّ هذه الأحداث تتصل بالكوفة وتتعلق بآل علي وأنصاره.

ومن المؤرخين الّذين كتبوا فيها واحد حجازي (الواقدي) واثنان بصريان (المدائني وأبو عبيدة) أمّا الباقون فأغلبهم كوفيون، ولم يصلنا كاملاً أي من الكتب الآنفة الذّكر سوى كتاب صفين لنصر بن مزاحم، غير أنّه وصلتنا مقتطفات متباينة من المؤلفات الباقين، موجودة بصورة خاصة في تاريخ الطّبري، وأنساب الأشراف للبلاذري، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، فأمّا الكتابان الأولان فقد عينا بذكر مساند أخبارهما الّتي استقيا معظمها من أبي مخنف، والمدائني، وأبي عبيدة، والهيثم بن عدي، ولكنهما لم يذكرا اسم الكتاب الّذي نقلا عنه الأخبار، غير أنّه يمكن حدس ذلك من مادة الأخبار الّتي نقلوها، فالأخبار المتعلقة بالجمل لا بد أن تكون منقولة من كتاب الجمل، وهكذا بقيّة الأخبار، وليس هنا مكان البحث في سبب إغفال هذين المؤرخين ذكر اسم كتب مصادرهما.

ويتميز ابن أبي الحديد بالمادة التّاريخية الضّخمة الّتي أوردها في شرحه واستطراداته المفصلة في شرح نهج البلاغة، وفيها معلومات غنية عن الكوفة. وقد ذكر الكتب الّتي نقل عنها بعض معلوماته، ومنها كتاب صفين لنصر بن مزاحم الّذي أكثر من الإشارة إليه، كما ذكر كتاب صفين للواقدي[٢]، وكتاب صفين للمدائني[٣] وكتاب صفين لإبراهيم بن الحسن بن علي بن ديزيل الهمداني[٤] وذكر أيضاً كتاب وقعة الجمل لأبي مخنف[٥]، وكتاب الجمل للمدائني[٦] هذا بالإضافة إلى المعلومات الكثيرة الّتي نقلها عن شيوخ ذكرهم دون أن يسمي كتبهم.

٣- كتب وأبحاث عن الخطط:

لكتب الخطط أهمية كبيرة في دراسة الأحوال والتّطورات العمرانية والاجتماعية والاقتصادية للمدن، إذ أنّ هذه الكتب تهتم عادة بأقسام المدينة وسكانها وتوزيعهم تبعاً لسكانهم كما تذكر المعالم البارزة كالمساجد ودار الإمارة، وكذلك أهم الدّور، وتذكر أيضاً أسماء عدد من الشّخصيات البارزة في المدينة ومصادر قوتهم وثروتهم والمناصب الإدارية الّتي شغلوها. وكثيراً ما تبدأ هذه الكتب بمقدمة بمختلف طولها في تاريخ الّذين استوطنوا فيها، والأحداث البارزة الّتي حدثت فيها أو كانت لها علاقة بها.

(١) انظر عن مواضيع ذكر هذه الكتب في فهرست ابن النّديم وفهرست الطوسي القائمة التي نشرتها في كتاب «علم التّاريخ عند المسلمين» ص٢٧٣-٣١٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ١/ ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه ١/ ١٩٥، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢/ ٤٩- ٥٠.

(٤) المصدر نفسه ١/ ١٨٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٥.

(٥) المصدر نفسه ١/ ٤٩، ٣٤٠.

(٦) المصدر نفسه ٢/ ٧٧.

وقد ذكرت المصادر كتاباً واحداً عن خطط الكوفة ألفه الهيثم بن عدي[1] وهو كتاب مفقود، ولم يشر إليه الّذين بحثوا عن خطط الكوفة في مساندهم. غير أنّ علي بن محمّد العلوي أورد في «فضل الكوفة» نصوصاً عن خططها، منقولة عن الهيثم بن عدي، ولعل هذه النّصوص مأخوذة من كتاب خطط الكوفة. ومن المحتمل أنّ بعض المعلومات الّتي ذكرها البلاذري عن خطط الكوفة ولم يشر إلى مصدرها مستمدة من كتاب الهيثم أيضاً.

وقد خصصت بعض المصادر فصولاً عن خطط الكوفة، وأهم هذه المصادر هي فتوح البلدان للبلاذري، وتاريخ الطّبري وكتاب البلدان لليعقوبي.

فأمّا البلاذري فإنّه خصص عشر صفحات[2] من كتابه بحث فيها عن تمصير الكوفة وخططها وأبرز الدّور فيها، كما أورد معلومات عن بعض الأبنية والقصور والقرى المحيطة بالكوفة. وقد ذكر في معظم ما أورده أسماء الرّواة الّذين اعتمد عليهم، واكتفى في بعض النّصوص بذكر كلمة (قالوا) دون أن يخصص أسماءهم، ولم يذكر اسم أي كتاب لأي من هؤلاء الشّيوخ. والرّواة الّذين ذكر اعتماده عليهم في هذا الفصل هم أبو مسعود الكوفي (١٠) وهشام بن الكلبي (٧) ووكيع (٤) والمدائني (٢) والعبّاس بن الوليد النّرسي (٢) كما ذكر رواية واحدة عن كلّ من محمّد بن سعد، ويزيد بن هارون، والهيثم بن عدي، وإسماعيل بن مجالد، وشريك.

ويتبين من هذا السّرد أنّ أبرز مصادر البلاذري في هذا الموضوع هو أبو مسعود الكوفي، حيث نقل عنه معلومات مهمة، كما نقل عنه أيضاً في مواضع أخرى من «الفتوح» معلومات عن أحوال العراق الأوسط الّذي له صلة وثيقة بالكوفة، وقد نقل عنه في الجزء الأوّل من «أنساب الأشراف» في ستة مواضع، وفي الجزء الخامس في خمسة مواضع.

لم ترد إشارة إلى أبي مسعود الكوفي في كتب أبي يوسف، أو يحيى بن آدم، مما قد يدل على أنّه متأخر عنهما، كما أنّ ابن سعد والطّبري لم يذكراه من رواتهما، ولم يشر إليه ابن النّديم، كما لم تذكره كتب التّراجم، وقد ذكر الذّهبي في المشتبه عدداً من الأشخاص كنية كل منهم أبو مسعود، وأقربهم هو محمّد بن جعفر الفتات (المشتبه ٣/ ١١٤٩) غير أنّه لابدّ من توافر أدلة أخرى لكي نجزم بأنّه هو الّذي اعتمد عليه البلاذري. ويلاحظ أنّ البلاذري روى عن أبي مسعود القتات (فتوح ٧، أنساب ١/ ٤٣٩).

إنّ معظم روايات أبي مسعود في البلاذري خالية من السّند، غير أنّه ذكر عنه رواية في الخطط «عن بعض الكوفيين» (٢٧٩).

وذكر من شيوخه يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمي (٢٨٧)، كما ذكر في مواضع أخرى من الفتوح من شيوخه عوانة (٢٦٤، ٢٩٣، ٣٨٢) وابن مجالد (٢٤٣) والهيثم بن عدي (٦٦) والمبارك بن سعيد (٣٠٥)، ومحمّد بن مروان (٦٦).

وذكر البلاذري في أنساب الأشراف من شيوخ أبي مسعود كلاً من عوانة (١/ ٤٩٣، ٥/ ١٤٦- ٢٨١) وعلي بن هاشم (١/ ٤١٤) ومالك بن أنس (١/ ٤١٤) وابن أبي الأجلح (١/ ٤١٦) وابن الكلبي (١/ ٤٢٤) وغياث بن إبراهيم (٥- ٩٩) وابن كناسة (٥/ ١٧٣) وعلي بن مجاهد (٥/ ٢٦٣) وكلّ هؤلاء من شيوخ ابن سعد مما يدل على أنّ أبا مسعود عاش في أوائل القرن الثّالث الهجري.

وقد نقل البلاذري في فصل تمصير الكوفة سبع روايات عن هشام بن الكلبي، غير أنّه لم يذكر فيما إذا كان هذا النّقل من كتاب معين أم من السّماع، ومن المعلوم أنّ ابن الكلبي ألف كتباً كثيرة في الأنساب والبلدان وفي بعض الحوادث.

ولم أجد المعلومات الّتي نقلها البلاذري عن ابن الكلبي في مخطوطتي أنساب ابن الكلبي.

وقد نقل الهمداني في كتاب البلدان كثيراً مما أورده البلاذري عن خطط الكوفة[3] كما نقل ياقوت في معجم البلدان عن البلاذري أيضاً، ولكنهما لم يصرحا بذكر البلاذري أمّا الطّبري فقد خصص لتأسيس الكوفة أربع عشرة صفحة[4] واعتمد في كلامه بالدّرجة الأولى على سيف بن عمر الّذي اعتمد بدوره على محمّد وطلحة وعمر وسعيد والمهلب في أربع روايات، وفي رواية خامسة عن زياد بدل المهلب، ورواية سادسة لم يذكر المهلب ولا يزيد.

وقد اعتمد سيف في روايتين على ابن شبرمة الّذي اعتمد بدوره على الشّعبي وفي رواية على مخلد بن نسير عن أبيه النّسير بن ثور.

وفي رواية عن عطاء أبي محمّد مولى إسحق بن طلحة.

وفي رواية عن عمر بن عياش أخي أبي بكر بن عياش عن أبي كثير.

وقد نقل الطّبري أيضاً رواية بسند عن (محمّد بن عبد الله بن صفوان عن أمية بن خالد عن أبي عوانة عن حصين بن عبد الرّحمن)، ورواية عن الواقدي، ورواية عن عطية بن الحارث.

وقد تكلم في هذه الصّفحات عن اختيار موقعها، وتأسيس المسجد الجامع وتقسيم الخطط على العشائر، وبعض الدّور فيها. إنّ عدد هذه الصّفحات المخصصة لتأسيس الكوفة يعادل نصف عدد الصّفحات الّتي خصصها لتأسيس بغداد.

(١) الفهرست ١١٢.

(٢) فتوح البلدان ٢٧٤- ٢٨٨.

(٣) مختصر كتاب البلدان ١٨١- ١٨٤.

(٤) تاريخ الطّبري ١/ ٢٤٨٢- ٢٤٩٦.

ومن المعلوم أنّ تاريخ الطّبري يهتم بالحوادث السّياسية، وأنّه أورد أوسع التّفاصيل عن الحوادث الّتي ساهم بها أهل الكوفة وخاصة في العصر الأموي الّذي كانت فيه الكوفة المركز الرّئيسي لتلك الحوادث. وفي ثنايا الأخبار عن هذه الحوادث وردت معلومات متناثرة، ولكنها قيمة، عن تطور الكوفة وسكانها من العرب وقبائلهم وكبار رجالهم.

والمصادر الرّئيسة الّتي اعتمد عليها الطّبري في هذه الأحداث هم أبو مخنف وعلي بن محمّد المدائني[١].

٤- الخصائص والمفاخرات وأهميتها في دراسة تاريخ الكوفة:

لفتت أنظار العرب خصائص المدن والأقاليم، سواء في الأحوال المناخية، أو الأخلاقية أو المادية، وهذه الخصائص تكشف التّنوع والإقليمية في الأجزاء المكونة للدّولة الإسلامية. وقد وصلتنا نصوص متعددة عن خصائص بعض المدن والأقاليم الّتي يشملها العالم الإسلامي، وهي تصف هذا التّنوع في العصر السّاساني وفي العصر الإسلامي.

نقلت المصادر العربية نصوصاً منسوبة إلى كعب الأحبار وصف فيها خصائص الأقاليم للخليفة عمر بن الخطاب وإلى ابن القربة ذكرها للحجاج، ثمّ إلى الجاحظ الّذي اهتم بذكر خصائص منتوجات الأقاليم. وقد وردت المصادر ذكر نصوص عن خصائص المدن والأقاليم دون ذكر مصادرها.

وقد ترددت هذه النّصوص في الكتب وخاصة في عيون الأخبار لابن قتيبة[٢] ونهاية الإرب للنّويري[٣]، غير أنّ أوسع من نقل نصوصاً في ذلك هو كتاب لطائف المعارف للثّعالبي[٤]، وكتاب البلدان لابن الفقيه[٥].

أمّا المفاخرات فهي تذكر بعض الخصائص الّتي تميز المدينة، وهي تختلف عن الفضائل من حيث أنّها لا تقتصر على إبراز الجانب الدّيني والخلقي، بل تشمل عادة جوانب الحياة المادية والدّنيوية وما يتصل بها من الأحوال السّياسية، والاقتصادية والاجتماعية وهي تبرز بعض الجوانب الممدوحة، وكثيراً ما تذكر عيوب المنافسين لها.

والمفاخرات معروفة عند العرب منذ العصر الجاهلي، وقد أشار القرآن الكريم بمعرض الذّم إلى تفاخر الجاهليين بالآباء (سورة الحديد ٢٠) وقد تابع العرب مفاخراتهم بعد الإسلام، وأبرز مظاهرها النّقائض الّتي كانت تقوم بين الشّعراء وأشهرها نقائض جرير والفرزدق، ونقائض جرير والأخطل.

قد ألف العرب كتباً في المفاخرات ذكر منها ابن النّديم «مفاخرة العرب والعجم»[٦] ومفاخرة العرب ومفاخرة القبائل في النّسب لعمر بن المطرف[٧] ومفاخرة الورد والنّرجس لأحمد بن أبي طاهر[٨].

وقد ذكر ابن النّديم كتاب «مفاخرة أهل البصرة وأهل الكوفة» للهيثم بن عدي[٩]، وهو كتاب مفقود، ولم تشر إليه المصادر الّتي نقلت المفاخرات.

غير أنّ اهتمام الهيثم بن عدي بالتّاريخ دون الأدب، يحملنا على الاعتقاد بأنّه نقل فيه أخبار المفاخرات، ولعله ذكر أيضاً معلومات تؤيد مفاخر كل من ومفاخرات الكوفة الّتي وصلتنا جرت كلّها مع البصرة، وقد روى بعضها في المدينتين.

عيون الأخبار لابن قتيبة، وكتاب البلدان لابن الفقيه، ومعجم البلدان لياقوت وقد حدثت بداياتها في عهد مصعب بن الزّبير، ثمّ حدثت أيضاً في عهد عبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وهشام بن عبد الملك، وأبي العبّاس السّفاح، والمأمون.

إنّ هذه المفاخرات تعبر عن الرّوح المحلية، وتظهر تمكن رابطة المدينة، وتلقي ضوءً مهماً على خصائص الكوفة ومميزاتها والطّابع العام لها.

٥- كتب الجغرافية:

نقصد بكتب الجغرافية الكتب الّتي تعني بوصف البلدان والمواصلات بينها ومنتوجاتها وهي أمّا كتب وصف أو كتب رحلات، فهي تختلف عن الكتب المفردة لبلد واحد من حيث أنّها تصف عدّة مدن وأقاليم، ولا تقتصر على واحد منها، كما أنّها تهتم بوصف الأحوال القائمة في زمن تأليفها بالدّرجة الأولى، علماً بأنّ بعضها يتطرق إلى ذكر أحوالها السّابقة.

لقد ألف العرب عدداً من الكتب في البلدان وما يتصل بها، ذكر منها ابن النّديم للأصمعي وابن الكلبي والحسن بن محبوب السّراج وابنه أحمد والكندي وأبي حنيفة الدّينوري وأبي الوزير عمر بن المطرف وابن أبي عون وكتباً في المسالك والممالك لأحمد ابن الحارث الخراز والجيهاني والسّرخسي والمروزي والبرقي[١٠] غير أنّ هذه الكتب كافة مفقودة.

(١) انظر بحث الدّكتور جواد علي «موارد تاريخ الطّبري».
(٢) عيون الأخبار ١/ ٢١٣- ٢٢٢.
(٣) نهاية الأرب ١/ ٣٦٢ ويلاحظ أنّ كثيراً من نصوصه منقولة عن لطائف المعارف.
(٤) لطائف المعارف ٢٣٥- ٨.
(٥) مختصر كتاب البلدان ٩٢/ ١١٤، ١٨٦- ٧/ ٢٠٩- ٢١٢.
(٦) الفهرست ١٦٧.
(٧) المصدر نفسه ١٤١.
(٨) المصدر نفسه ١٦٣.
(٩) المصدر نفسه ٣١٧.
(١٠) انظر عن أسماء هذه الكتب والصّفحات الّتي ذكرت في كتاب الفهرست: علم التّاريخ عند المسلمين ص ٢٨٨ فما بعد.

ومن أهم وأقدم ما وصلنا هو كتاب فتوح البلدان للبلاذري، وهو كتاب «تاريخ» من حيث أنّه يتكلم عن الفتوح والأحداث الّتي مرّت بالعالم الإسلامي ولكنه مرتب على المدن والبلاد، وفيه معلومات قيمة عن الخطط والسّكان والإدارة، وقد تحدثنا عن الفصل الّذي كتبه عن الكوفة، وقد نقل عن الفتوح كثيراً كلّ من قدامة بن جعفر في كتاب الخراج، وياقوت في معجم البلدان.

وقد وصلنا من كتب الرّحلات الّتي بحثت الكوفة رحلات ناصري خسرو وابن جبير، وابن بطوطة.

أمّا كتب وصف البلدان فمن أقدمها وأهمها كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، الّذي اهتم بالمواصلات والجبايات والأقسام الإدارية، واعتمد فيما يظهر على سجلات الدّواوين من المعلومات «الرّسمية»، فمعلوماته مفيدة في ذكر أحوال منطقة الكوفة، أمّا الكوفة ذاتها فلم يتطرق إليها.

ومن هذا النّمط المنزلة السّابقة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، ويبدو أنّ قدامة نقل المعلومات الّتيس أوردها في هذه المنزلة عن ابن خرداذبة، فهين متطابقة في نطاقها ومتشابهة في مادتها.

ومن الكتب الجغرافية العربية كتاب المسالك والممالك للاصطخري، الّذي أخذه ابن حوقل حرفياً، مع إضافات قليلة في الكلام عن بعض الأقاليم، وقد اتهمت مصادر عدّة الاصطخري بأخذه مادة كتاب أبي زيد البلخي المفقود، وأياً كان مؤلف الكتاب، فإنّه يقدّم معلومات واسعة مستجدة من الدّواوين عن فارس والمشرق، أمّا عن العراق فإنّ معلومات وصفية، وفيه ملاحظات قيمة عن الأحوال في القرن الثّالث الّذي ألف فيه الكتاب.

أمّا المقدسي فإنّ معظم المعلومات الّتي أوردها في كتابه «أحسن التّقاسيم» عن العراق عامة، والكوفة خاصة تعتمد على ملاحظاته الشّخصية الّتي اكتسبها من رحلاته، وفي كلامه القصير عن الكوفة معلومات قيمة عن خططها وأحوالها في أواخر القرن الرّابع الهجري.

وفي كتاب البلدان للجاحظ ملاحظات قيمة عن الانحطاط الّذي أصابها في أواسط القرن الثّالث الهجري.

وللبعقوبي أهمية خاصة في دراسة البلدان، إذ إنّه يظهر في كتابه الجغرافي اهتماماً خاصاً بالأحوال البشرية والاقتصادية، وقد خصّ الكوفة بتفصيل ذكر فيه خططها والبيوت والقصور الرّئيسة فيها في العهود الأولى، ومعلومات أوسع من الّتي أوردها الطّبري في تاريخه.

أمّا ابن الفقيه فقد جمع في كتابه «البلدان» مادة واسعة عن الكوفة، شملت مقداراً كبيراً نقله عن البلاذري، ومناظرات بين الكوفة والبصرة لم يذكر مصدره الّذي نقلها عنه، وفي مخطوطة مشهد من الكتاب معلومات إضافية وأسلوب في العرض يختلف عما في النّسخة المطبوعة.

٦- كتب النّسب:

وفي بعض كتب النّسب مادة قيمة تفيد في معرفة تاريخ الكوفة.

لقد ألف العرب منذ أوائل القرن الثّاني كتباً عديدة في أنساب القبائل عموماً، أو في نسب قبيلة، وفي المثالب والمآثر والمفاخر والغارات والبيوتات، وقد فقدت معظمها[1]. ومن أقدم ما وصلنا كتاب النّسب لهشام بن محمّد بن السّائب الكلبي، وهو لمّا يزل مخطوطاً ومنه نسختان إحداهما في الاسكوريال، والثّانية في المتحف البريطاني بلندن، كما وصلنا ملخص للكتاب عمله ياقوت الحموي.

فأمّا نسخة الاسكوريال فتشمل نسب قبائل ربيعة، وهي بكر وعشائرها، وتغلب، وكندة وعشائرها، وطي، ومذحج، والنّخع، وجعفي، وجنب، ومراد، والأشاعرة، وقسر، وخثعم، والأزد. أمّا نسخة لندن فهي أشمل فيما تذكره من قبائل، ولكنها مقتضبة وفيها إضافات من محمّد بن حبيب.

يذكر ابن الكلبي القبائل والعشائر والبطون، ويورد أسماءهم مسلسلة، وأسماء أمّهات أصحاب البطون وعدداً محدوداً من رجال كلّ منهم، وبعض الحوادث البارزة الّتي أسهموا فيها والمناصب الّتي أشغلوها في الإسلام. ويشير إلى تداخل بعض العشائر والبطون، وتتناول بعض معلوماته الحوادث في الجاهلية وقبيل الإسلام. إلاّ أنّ أغلبها عن الحوادث بعد الإسلام، وبخاصة القادسية وصفين، وهو يشير إلى من كان شريفاً أو من كانً فقيهاً.

ويذكر ابن الكلبي مواطن بعض المجموعات الّتي ذكرها، وخاصة في الكوفة ويشير إلى مواطن بعضها في البصرة والجزيرة وبلاد الشّام وفلسطين، ثمّ مصر. غير إنّ أوسع إشاراته إلى الكوفة حيث يذكر خطط بعض عشائرها ودور بعض رجالها ومساجد بعض بطونها وهذه المعلومات الّتي ذكرها عن الكوفة، أوسع بكثير مما ذكره عن المناطق الأخرى، مما يدل على علاقته الوثقى بالكوفة.

ويبدو من المعلومات الّتي وردت في كتاب النّسب أنّ ابن الكلبي يهتم بالعلاقات الاجتماعية وبعض الأحوال السّياسية والإدارية، وأنّه لم يهتم بالأحوال الاقتصادية أو العقائدية حيث لم يشر إليها: كما أنّه اهتم «بالشّعب» فلم يشر إلى الخلفاء

(١) انظر في ذلك علم التّاريخ عند المسلمين ٢٩٧ فما بعد وانظر المقدمة الّتي كتبها زترستن لكتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب.

وكبار الإداريين وأعمالهم، ومن الطّبيعي أنّه اختار طبقة خاصة من النّاس، هي الّتي كان لها دور في الحياة العامّة، ولم يدخل الموالي. بل حتّى فيما يتعلق بالكوفة لم يقدم صورة كاملة لعشائرها ومواقع خططها، فضلاً عن مكانتها وعلاقتها ببعضها.

وقد ألفت أيضاً كتب بحثت في النّسب، ورتبت مادتها تبعاً لحروف المعجم، واهتمت بالدّرجة الأوّلى بضبط الأسماء المتشابهة أو المتقاربة في رسمها، وغرضها الرّئيسي فيما يظهر مساعدة الباحثين في علوم الحديث خاصة على ضبط أسماء رواة الحديث ورجاله وأصولهم[١] وأقدم نموذج لهذه الكتب هو كتاب المؤتلف والمختلف لمحمّد بن حبيب وهو كتاب صغير فيه ذكر لأسماء عدد كبير من القبائل، ومعلوماته مقتضبة، وبحثه استمرار لبحوث النّسابين[٢].

ومن أقدم الكتب وأوسعها في هذا الميدان كتاب ابن ماكولا (ت ٥٦٢هـ) وقد طبعت منه ستة أجزاء، رتب فيه مادته من حيث العموم على حروف المعجم، وفيه معلومات وافية عن كثير من القبائل وأبرز رجالها الّذين يحملون أسماءها، وقد نقل فيما يتعلق بقبائل الكوفة نصوصاً كثيرة من ابن الكلبي، ومحمّد بن حبيب، وشبل، ويمكن أن نستنبط منه بعض العشائر الّتي استوطنت الكوفة من ذكره الصّريح لذلك في بعض المواضع، أو من كثرة الكوفيين الّذين يشير إلى أنّهم منسوبون إلى عشيرة معينة.

ومن الكتب المهمة المكتوبة على هذا الطّراز هو كتاب الأنساب للسّمعاني (ت ٥٦٢) الّذي رتب مادته على حروف الهجاء، وشمل بحثه النّسبة إلى الأماكن والحروف والعشائر، وقد اعتمد في تعريف العشائر على ابن الكلبي وابن حبيب وذكر أبرز الرّجال كلّ عشيرة وخاصة في علوم الحديث لا ريب في أنّ المعلومات الّتي أوردها في المنتسبين إلى الحرف ذات أهمية في معرفة العلاقة بين رجال العلم والحياة الاقتصادية.

وقد لخص ابن الأثير كتاب الأنساب واستدرك عليه بإضافات وتصليحات قيمة ولكنها لا تفيد في بحث الكوفة. كما لخص السّيوطي كتاب ابن الأثير وسماه (لب اللّباب)، وهذان الكتابان مطبوعان.

وقد ألفت في القرون المتأخرة كتب عدّة في المشتبه، ولكن معلوماتها عن الكوفة مقتضبة.

(١) ينظر في هذه الكتب «بحوث في تاريخ السّنة المشرفة» لأكرم العمري ص ١٧ فما بعد وينظر أيضاً «معرفة علوم الحديث» للحاكم النيسابوري ص ١٦١ فما بعد.

(٢) ينظر عن هذه الكتب المقدمة الّتي كتبها الدّكتور مصطفى جواد لكتاب «تكملة إكمال الإكمال» لابن الصّابوني.

٧- كتب الرّجال والتّراجم:

نقصد بكتب الرّجال الكتب الّتي تختص بإيراد المعلومات عن الرّجال ومكانتهم وأعمالهم، وهي تختلف عن كتب النّسب من حيث أنّ هذه تهتم بالعشائر، وترتب الرّجال الّذين تذكرهم تبعاً لعشائرهم، فهي تفيد بالدّرجة الأوّلى في معرفة الجماعات الّتي استوطنت الكوفة، أو غيرها من المدن، وبذلك تورد المعلومات عن الرّجال بصورة عريضة. أمّا كتب الرّجال فتهتم بالدّرجة الأوّلى بذكر الأشخاص وتقدم المعلومات عن أحوالهم ومكانتهم، وقد تذكر نسبتهم، ولكن الكلام عن النّسبة في هذه الكتب عرضي.

وقد ألفت في التّراجم والرّجال كتب كثيرة تختلف في سعتها وعدد أو صنف الرّجال الّذين تذكرهم، أو في ترتيب عرض الرّجال الّذين تذكرهم، وقد عني علماء الحديث بصورة خاصة بالتّأليف في كتب الرّجال لأنّ السّند القائم على الرّجال من رواة الحديث، كان من أهم مصادر توثيق الحديث عندهم.

ولمّا كانت الكوفة من أهم مراكز علم الحديث. وقد ساهم كثير من رجالها فيه، لذلك حوت كتب علم الرّجال على معلومات عن عدد كبير من رجال أهل الكوفة، ومعلومات عن عشائرهم وأعمالهم ومدى توثيقهم[٣].

وتختلف كتب الرّجال في تصنيف مادتها، فبعضها مرتب على الأنساب، وبعضها على الألفباء، وبعضها على المدن، أو على الطّبقات أي تبعاً لزمن ظهور هؤلاء الرّجال. وقد تجمع بعض الكتب أكثر من أساس واحد للترتيب، ومن أقدم ما وصلتنا من كتب الرّجال «كتب الطّبقات» لخليفة بن خياط الّذي ذكر فيه عدداً كبيراً من محدثي الكوفة في القرن الأوّل والثّاني الهجري[٤]، ويتلو هذا الكتاب في الزّمن كتاب الطّبقات الكبير لابن سعد.

٨- كتاب الطّبقات لابن سعد:

إنّ كتاب الطّبقات الكبير لمحمّد بن سعد هو من أقدم وأوسع الكتب المؤلفة في التّراجم، وهو يتكون من تسعة أجزاء مرتبة تبعاً للأماكن والأزمنة، وقد بحث في الجزئين الأوّل والثّاني عن سيرة الرّسول، وخصص الجزء الثّالث والرّابع والخامس لأهل المدينة، والجزء السّادس للكوفيين، أمّا الجزء السّابع فمعظمه لأهل البصرة، وقليل منه لأهل الشّام وبغداد وخراسان، والجزء الثّامن للنساء.

(٣) انظر المقدمة الّتي كتبها أكرم العمري لكتاب «الطّبقات» لخليفة بن خياط، انظر أيضاً «علم التّاريخ عند المسلمين» لروزنثال ١٤١- ١٤٨.

(٤) «كتاب الطّبقات» لخليفة بن خياط ص ١٢٦- ١٧٣ طبعة أكرم العمري.

وقد رتبت تراجم كلّ مصر طبقات حسب الزّمن، فهو يبدأ بالصّحابة ممن صاحبوا الرّسول أو لقوه أو عاشوا في عصره، ثمّ التّابعين من الجيل الثّاني، ثمّ تابعي التّابعين، ويدل هذا التّرتيب على استقرار مبدأ تفضيل الأقدمين على المتأخرين وكان هذا المبدأ هو الأساس الّذي اتخذه الخليفة عمر بن الخطاب في تنظيم مقدار العطاء، مدفوعاً إلى ذلك بظروف خاصة تقضي بتفضيل الّذين حاربوا مع الإسلام في السّنوات الأولى الّتي لم يكن النّصر قد اتضح واستقر، ولا بد أنّ أعمالهم من أجل الإسلام وتفضيلهم في العطاء قد أكسبهم مكانة «رسمية» عالية في المجتمع، ثمّ أصبح النّاس تدريجياً يرونهم من الأشراف ثمّ أسبغت الأوساط الدّينية عليهم صفة دينية، فاعتبرتهم، -أو أكثرهم- صحابة، وأوردت أخباراً صحيحة أو مختلفة عن صلاتهم الشّخصية بالرّسول، وبذلك كونوا الطّبقة الأولى، لا لأنّها أسبق في الزّمن فحسب، بل لأنّ لها المكانة الأولى في نظر هذه الأوساط الّتي ينتمي إليها ابن سعد.

وتتميز الكوفة بالعدد الكبير الّذي جاءها وسكنها ممن صاحبوا الرّسول وشاركوا في غزواته ولما كان معظم هؤلاء من أهل المدينة، فقد حدث في كتاب ابن سعد تداخل في تراجم أهل المدينة الّذين استقروا في الكوفة، وقد ترجم لكثير منهم في مكانين، أي في الأجزاء الخاصة بأهل المدينة وفي الجزء الخاص بالكوفيين، ومن الطّبيعي أن أوفى التّرجمتين هي في الأجزاء المتعلقة بأهل المدينة.

وتختلف تراجم الجزء السّادس في مقدار ما خصص لكلّ منها من صفحات، فبعض الأشخاص خصص لها حوالي عشر صفحات، ولكن الأغلبية المطلقة من تراجمه الّتي تبلغ (١٠٢٩) ترجمة في هذا الجزء، لا تتجاوز نصف صفحة، وبعضهم لم يخصهم بأكثر من سطر أو سطرين.

وقد ذكر ابن سعد اسم عشائر كثير من الّذين ترجم لهم، كما أورد شجرات نسب بعضهم وأشار في تراجم بعضهم إلى الخطط الّتي كانوا يسكنونها، والعلوم الّتي ساهموا فيها، وبعض أحوالهم الشّخصية كألبستهم ومأكولاتهم واستعمالهم للخضاب والأصباغ، وأكثر الّذين ذكر عشائرهم أو أنسابهم من أهل الطّبقة الأولى والثّانية، أمّا أهل الطّبقات التّالية فنادراً ما يذكر عشائرهم، ولم يشر إلى الموالي منهم، حتّى أنّه يصعب معرفة العربي من المولى فيهم.

ويمكن إرجاع الإكثار من ذكر عشائر الطّبقات الأولى وإهمال ذكرها في المتأخرين إلى أنّ النّظام القبلي في الكوفة كان في العهود الأولى متمكن الجذور، قوي الأثر، فكان لذكر العشيرة أهمية وضرورة، غير أنّ مكانته وأثره ضعفاً في العهود المتأخرة، فلم تعد له أهمية، وخاصة في الأوساط الدّينية الّتي ينتمي إليها ابن سعد، فلم تبق حاجة إلى ذكرها، ثمّ أنّ الموالي كان عددهم كبيراً، وامتزجوا في الأوساط الدّينية، الّتي لم تكن تهتم بتمييزهم لدرجة لم تعد حاجة لذكرهم الّذي قد يستغله البعض لإهانتهم.

واهتمام ابن سعد بتراجم الأفراد يظهر تحرر الفرد من هيمنة العشيرة، في الأوساط الدّينية على الأقل، غير أنّ تنظيم الطّبقات يدل على أنّ ابن سعد كان يدرك أنّ الفرد كان لا يزال يعيش ضمن جماعة، هي الطّبقة الّتي أخذت تحل محل القبيلة في هذا العصر.

ومن الطّبيعي أنّه توجد تكتلات أخرى من الممكن أن ينضوي إليها الأفراد ومنها التّكتلات السّياسية، كالأحزاب والفرق، والتّكتلات الاقتصادية والاجتماعية القائمة على الحرف، غير أنّ ابن سعد لم يهتم بها، فهو نادراً ما يذكر الاتجاه السّياسي لمترجميه أو حرفهم، كما أنّه لم يهتم بمن ساهم في السّياسة والإدارة فلم يترجم إلاّ لمن كان مرضياً في الأوساط الدّينية منهم، كالخلفاء الرّاشدين، وعمر بن عبد العزيز وعبد الملك بن مروان، والقواد والولاة الأولين، أمّا الخلفاء الأمويون وقوادهم وولاتهم فلم يذكرهم، كما أنّه لم يذكر البارزين في أية حرفة ودورهم فيها، ولعل ذلك راجع إلى أنّ الكوفة لم تعد تساهم في الأحداث السّياسية ولم يكن لها دور كبير في الحياة الاقتصادية في القرن الثّالث الهجري الّذي ألف فيه ابن سعد كتابه، بل أصبحت مركزاً فكرياً بالدّرجة الأولى، ويؤيد هذا أنّ الكوفة لم تساهم في أحداث كبيرة في القرن الثّالث الهجري.

اهتم ابن سعد بعلم الحديث والقرآن فخص علماءهما بتراجم مفصلة نسبياً، وقد ذكر أسماء الرّواة الّذين نقل عنهم، كما ذكر مساند كثير من هؤلاء الرّواة، ويبلغ عدد شيوخه الّذين روى عن كلّ منهم نصين فأكثر مائة وعشرين شيخاً، الأمر الّذي يمكن اعتبارهم كوفيين، وبالإضافة إلى ذلك فقد روى عن خمسين آخرين رواية واحدة، ولعل هؤلاء أيضاً كوفيون، وبهذا يكون ابن سعد قد نقل عن حوالي مائة راو كوفي، أي أنّه قدّم أوسع مجموعة من رواة أهل الكوفة، وبهذا يتميز ابن سعد على الكتب الكثيرة عن رجال الحديث الّتي تتسم بالاقتضاب وبالاهتمام بتقييم هؤلاء الرّجال في الرّواية، وبأنّها فيما تورده من أسماء بتتبع التّرتيب الأبجدي، وكثيراً ما لا تذكر المدن الّتي ينتسب إليها الرّواة، الأمر الّذي يولد صعوبة كبيرة في حصر الرّواة الكوفيين.

إنّ ترتيب ابن سعد يشبه التّرتيب الّذي اتبعته بعض الكتب مثل «مشاهير علماء الأمصار» للبستي الّذي تراجمه تبعاً لمدنهم، ولكن يلاحظ أنّ معلومات البستي مقتضبة، وهي تركز على مكانة المترجم لهم في علم الحديث أو الفقه.

إنّ العدد الكبير من الرّواة الكوفيين عند ابن سعد، يظهر مدى ازدهار علم الحديث في الكوفة، وإنّ هؤلاء الرّواة معتمدون عند علماء الحديث من أهل السّنة، مما يدل على أنّ العلم في الكوفة كان يتسم بسمة خاصة مميزة، وستكون هذه السّمات موضوع بحث مستقل نرجو أن ننشره في القريب.

لم تذكر المصادر من ألف من رواة ابن سعد كتاباً سوى هشام ابن الكلبي ويحيى ابن آدم، الأمر الّذي يظهر أنّ الحركة الفكرية فيها كانت قائمة على الرّواية والسّماع دون التّدوين والكتابة.

وأكثر من نقل عنه ابن سعد هو الفضل بن دكين (ت ٢١٩)، فقد نقل عنه حوالي ٢٨٠ نصاً عن مختلف رجال أهل الكوفة، وهذا العدد الكبير من النّصوص يكون بمجموعه كتاباً غير أنّه لم يذكر أحد من المصادر إنّ الفضل ما ألف كتاباً عن الكوفة سوى مؤلف واحد من رجال القرن الحادي عشر الهجري.

وقد اعتمد الفضل بن دكين بدوره على عدد من الشّيوخ أهمهم سفيان (بن سعيد الثوري؟ ت١٦٣) (٥٢)، وشريك بن عبد الله النّخعي (ت١٧٨) (٣٧) وأبو إسرائيل (١٧) وحنش بن الحارث (١٣) والحسن بن صالح الهمداني (ت١٦٩) (١٠) وقيس بن الرّبيع الأسدي (ت ١٦٨) (١٠) كما نقل عن فطر بن خليفة (ت١٥٣) (٩) ومالك بن مغول البجلي (ت١٥٨) (٨) ويونس بن (أبي) إسحق الهمداني (ت١٥٩) (٧) وحفص بن غياث النّخعي (ت١٩٤) (٧) فضلاً عن روايات مفردة لعدد غير قليل من الرّواة، والواقع أنّ الفضل بن دكين هو الرّاوية الرّئيس لهؤلاء الشّيوخ.

ونقل ابن سعد عن عفان بن مسلم (ت ٢٢٠) حوالي مئة نص، وأكثر من نقل عنهم عفان في هذا الجزء هم شعبة ابن الحجاج مولى الأشاقر (ت١٦٠) (٢٤) وحماد بن سلمة مولى تميم (ت ١٦٧) (١٣) وحماد بن زيد مولى الأزد (ت١٧٩) (١٢) وأبو عوانة الواسطي (ت١٧٦) (١٣) وعبد الواحد بن زياد مولى عبد القيس (ت١٧٧) (٩) وكل هؤلاء يعتبرون في عداد البصريين.

ونقل ابن سعد عن محمّد بن عبد الله الأسدي (ت٢٠٣)، وقد نقل الأسدي بدوره عن شيوخ كثيرين، ولاسيّما سفيان بن منصور (١٥) والأعمش، وهو سليمان بن مهران مولى بني أسد (ت١٤٨) (٨) وأبيه.

ويتلو هؤلاء في عدد النّصوص الّتي نقلها عنهم ابن سعد في الجزء السّادس هو قبيصة بن عقبة السّوائي (ت٢٠٣)، وقد نقل ابن سعد عنه ثلاثة وسبعين نصاً كلّها تقريباً عن سفيان.

ونقل ابن سعد في الجزء السّادس عن أحمد بن عبد الله بن يونس مولى بني يربوع (ت٢٢٧) اثنين وسبعين نصاً، وأكثر ما نقل عن زهير بن معاوية الجعفي (ت١٧١) (٢٥) وأبي بكر بن عياش مولى بني أسد (ت١٩٣) (٢٤) وأبي شهاب (١٤) وإسرائيل بن يونس بن أبي إسحق الهمداني (ت١٦٢) (٦) ومندل بن علي العنزي (ت١٦٨) (٦) وأبي الأحوص عوف بن مالك (٤).

ونقل أيضاً عن وكيع بن الجراح الرّواسي (ت١٩٧) واحداً وسبعين نصاً معظمها ١٦٤.

عن سفيان (ت١٦٢) والأعمش (ت١٤٨) ومسعر بن كدام الهلالي (ت١٥٣) وإسماعيل بن أبي خالد مولى بجيلة (ت١٤٥).

ونقل ابن سعد عن عبيد الله بن موسى مولى بن ي عبس (ت٢١٣) تسعة وستين نصاً معظمها عن إسرائيل بن يونس الهمداني (ت٢٦٢)، والبقيّة عن عدّة رواة.

ونقل عن عارم بن الفضل مولى بني سدوس (ت٢٢٤) واحداً وأربعين نصاً كلّها تقريباً عن حماد بن زيد.

ونقل بن يزيد بن هارون مولى بني سليم (ت٢٠٦) ثلاثة وثلاثين نصاً منقولة بدورها عن طلق بن غنام(٢٣) وشعبة (٧) وسفيان (٦).

ونقل ابن سعد عن كلّ من هشام بن عباد (٢٠) ومحمّد بن غزوان بن الفضيل (٢٠) وعبد الله بن نمير الهمداني (ت١٩٨) (١٧) وهشام بن عبد الملك الطّيالسي (١٩) ويعلي بن عبيد الطّنافسي (ت٢٠٩) (١٦) ويحيى بن عباد (١٥) ووهب بن جرير (ت٢٠٧) (١٥) وعمر وبن الهيثم (١٤) وعبد الله بن إدريس الأودي (ت١٩٢) (١٣) وعبد الوهاب بن عطاء توفي بعد المائتين (١١) وعلي بن عبد الله بن جعفر (١٠).

وتبلغ عدد النّصوص الّتي نقلها عن كلّ من يحيى بن آدم مولى آل أبي معيط (ت ٢٠٣) (٩) وعبد الرّحمن بن محمّد المحاربي (ت١٩٥) (٩) وعبد الحميد بن عبد الرّحمن الحماني (٩)، وعبد الرّحمن بن مهدي (ت١٩٨) (٨).

ونقل سبع روايات عن كلّ من عبد الملك بن عمرو العقدي (ت٢٠٥) وإسحق بن منصور وست روايات عن كلّ من عبد الله بن جعفر الرّقي، ومحمّد بن الصّلت وعبد الله بن الزّبير الحميدي وخمس روايات عن كلّ من حفص بن غياث النّخعي (ت١٩٤)، ومحمّد بن عبد الله بن نمير، وعمر بن سعد الحضري، وعمرو بن عاصم الكلابين وأبي خيثمة وهو زهير بن حرب (ت٢٣٤).

وثلاث روايات عن كثير بن هشام (ت٢٢٨)، ويحيى بن أبي بكر، وعمرو بن عبد الله المنقري.

وبالإضافة إلى ماذكرنا، فقد نقل ابن سعد في الجزء السّادس عن رواة اعتمد عليهم في الأجزاء الأخرى أيضاً، ونذكر فيما يلي هؤلاء الرّواة ومقدار النّصوص الّتي نقلها عن كلّ منهم في الجزء السّادس فقط:

سليمان أبو داود الطّيالسي مولى بني أسد (ت٢٠٤) (٢٧) ومالك بن إسماعيل النّهدي (ت٢١٨) (٢٥) والحسن بن موسى

الأشيب (ت٢٠٩) (٢٥) ومحمّد بن عبيد الطّنافسي (ت٢٠٥) (٢٤) وسفيان بن عيينة (٢٢) وإسماعيل بن إبراهيم الأسدي (ت١٩٤) (٢٠) ومحمّد بن غزوان بن الفضيل (٢٠) وأبو معاوية الضّرير (١٩) ومحمّد بن عبيد الله الانصاري (ت٢١٥) (١٨) ويزيد بن هارون (١٧) وسعيد بن منصور (١٢) وروح بن عبادة (ت٢٠٥) (١٢) والنّضر بن إسماعيل (١٢) وإسحق بن يوسف الأزرق (ت١٩٥) (١٢) ويحيى بن عباد بن عبد الله بن الزّبير (١١) والحجاج بن محمّد الأعور (ت٢٠٦) (١١) وموسى بن مسعود النّهدي (ت٢٢٠) (١٠) ومؤمل (٨) وهشام بن محمّد الكلبي (٦)، ونقل خمس روايات عن كلّ من جرير بن عبد الحميد الضّبّي (ت١٨٨) وخلاد ابن يحيى، وأربع روايات عن كلّ من يحيى بن سعيد القطان (ت١٩٨)، ومحمّد بن ربيعة الكلابي والمعلى بن أسد القمّي (ت٢١٩)، وخلف بن تميم بن مالك، كما نقل ثلاث روايات عن حفص بن عمرو مولى بني عدي (ت٢١٥)، ويحيى ابن عيسى الرّملي، ومحمّد بن أبي بكر وعبد الله بن محمّد بن أبي شيبة، والحجاج بن نصر البصري، ومعن بن عيسى مولى أشجع (ت١٧٨) ويحيى بن سعيد بن إبان، وبالإضافة إلى ذلك فقد نقل روايتين عن كلّ من ثمانية شيوخ ورواية واحدة عن كلّ من ثمانية وعشرين شيخاً.

إنّ الرّواة الّذين نقل عنهم ابن سعد في الجزء السّادس اعتمد كلّ منهم على شيوخ يزيد عددهم على ٢٠٠ وأكثر هؤلاء الشّيوخ نقل عنهم أكثر من واحد، وأكثر من نقل الرّواة عنهم هم سفيان وشعبة، وإسرائيل، والأعمش، وزهير بن معاوية.

فأمّا سفيان فقد ورد عنه ١٩٠ نصاً أكثرها عن طريق قبيصة ويزيد بن عقبة(٧٤) والفضل بن دكين(٥٢) ووكيع بن الجراح(١٢) ومؤمل(٧) ويزيد بن هارون(٦).

وأمّا شعبة(١٠٢) فأكثر رواته عفان بن مسلم(٢٨) ثمّ سليمان الطّيالسي(١٠) وهشام بن عبد الملك الطّيالسي(١٠) ويزيد بن هارون(٨) وعمر بن الهيثم(٧) وروح بن عبادة(٨) والحجاج بن محمّد الأعور(٦).

وأمّا إسرائيل(٨٢) فأكثر رواته عبيد الله بن موسى(٤٤) ثمّ الفضل بن دكين(١٦) ووكيع بن الجراح(٩) ومالك بن إسماعيل النّهدي(٧).

أمّا الأعمش(٦٤) فرواته موزعون منهم وكيع بن الجراح(٩) والنّضر بن إسماعيل(٩) وعبد الله بن نمير(٧) وموسى بن مسعود(٥).

وأمّا زهير بن معاوية(٤١) فرواته الحسين بن موسى الأشيب(٢٠) وأحمد بن عبد الله بن يونس(١١) والفضل بن دكين(٥) وإسحق بن منصور(٥).

ومن الشّيوخ الّذين نقل عنهم رواة ابن سعد أبو عوانة(٣٢) وأكثر من نقل عنه عفان بن مسلم(١٣) وشريك(٢٧) وأكثر من نقل عنه الفضل بن دكين(٢٧) وحماد ابن زيد(٢٢) وأكثر من نقل عنه عفان بن مسلم(١٢).

ومالك بن مغول(٢٢) وأكثر من نقل عنه الفضل بن دكين(٨).

وابن عون(٢٢) وأكثر من نقل عنه محمّد ابن عبد الله الأنصاري(١٠) وروح بن عبادة(٥) ويونس بن أبي إسحق(١٨) وأكثر من نقل عنه الفضل بن دكين(٨) ومالك بن عبد الله(٦).

وحماد بن سلمة(١٧) وأكثر من نقل عنه عفان بن مسلم.

وإسماعيل بن أبي خالد(١٥) وأكثر من نقل عنه وكيع بن الجراح (٥) ومحمّد بن عبيد الطّنافسي(٥).

إنّ بعض شيوخ ابن سعد من الفقهاء الّذين نقلت عنهم بعض الكتب الفقهية نصوصاً فقد نقل أبو عبيد في كتاب الأموال عن كلّ من الفضل بن دكين (١٠ نصوص) وقبيصة بن عقبة (٩ نصوص) ومحمّد بن عبيد الطّنافسي (٥ نصوص) وإسماعيل بن إبراهيم الأسدي (٤٠ نصاً) وسفيان بن عيينة (٣٥ نصاً) وعبد الوهاب بن عطاء (٧ نصوص) وإسحق بن يوسف الأزرق (٥ نصوص) والحجاج بن محمّد الأعور (١٠٤ نصوص) وحفص بن غياث (٨ نصوص) وجرير بن عبد الحميد الضّبّي (١٩ نصاً) وكثير ابن هشام (١٣ نصاً) وأبو بكر بن عياش (١٣ نصاً) وسعيد بن محمّد الثّقفي (١٠) والوليد بن مسلم (١) كما نقل يحيى بن آدم عن وكيع بن الجراح (١٠ نصوص) وعن سفيان بن عيينة (١٨ نصاً) وعن حفص بن غياث (٢٠ نصاً) وعن جرير بن عبد الحميد الضّبّي (١١ نصاً) وعن أبي بكر بن عياش (٣٤).

* * *

المؤلفات التاريخية عن الكوفة

(حتى أوائل القرن الخامس الهجري)

الأستاذ الدكتور محمد كريم إبراهيم الشمري

عميد كلية الآداب / جامعة المقادسية

الخلاصة:

أوضح البحث أهمية المتميزة لمدينة الكوفة منذ تأسيسها في أوائل القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وذلك من خلال المؤلفات العديدة ذات الصبغة التاريخية، التي توزعت على مؤلفات تتعلق بتاريخها والأحداث البارزة فيه، فضلاً عن كتب فتوح العراق والتي تعني: جبهة الكوفة.

انقسم المؤلفون الذي ألفوا تلك المؤلفات المتنوعة عن مدينة الكوفة إلى قسمين: الأول من أهل الكوفة أومن استقر فيها وصار كوفياً، والثاني من غير أهل الكوفة. ومن المؤسف حقاً أن معظم ما صُنف من مؤلفات عن مدينة الكوفة تعرّض للفقدان وامتدت إليه أيدي الضياع، ولم يبق منها إلا جزء يسير جداً، فضلاً عن الإشارات الدالة على تأليفها والاقتباسات القليلة جداً عنها في المصادر، في حين حظيت المدن الأخرى العربية والإسلامية بمؤلفات عديدة عنيت بتاريخها ومآثرها وتراجم رجالها، مثل مدن واسط وبغداد والموصل والقاهرة ودمشق.

وعلى الرغم من قلة المصادر الباقية من تاريخ وتراث مدينة الكوفة، إلا أن تلك المؤلفات التي لم يصلنا أغلبها، تدل دلالات واضحة على أهمية الكوفة، فهي ثاني مِصر أُسسَ خارج شبه الجزيرة العربية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب﵁ تم اتخاذه معسكراً للمقاتلين العرب، وأسهم إسهاماً فعالاً في حروب في القرن الأول الهجري/ السابع ميلادي، هو تأريخ البصرة والكوفة (العراقيين)، بسبب أدوارهما السياسية والعسكرية المهمة، فضلاً عن اقتسامهما الحركة الفكرية العربية.

المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى دراسة المؤلفات التاريخية العربية الإسلامية عن مدينة الكوفة التي ألفها العرب والمسلمون بصورة خاصة، على شكل رسائل وكُتيبات مستقلة عنها، وذلك من خلال ذكرها في المصادر العربية، وسنخصص بحثنا لدراسة المؤلفات التاريخية عن الكوفة التي تضمنت معلومات مهمة عن التاريخ الحضاري للكوفة، عنيت بالخطط والأمراء والولاة والقضاة وعمال الشرط، فضلاً عن كتب الفتوح، أما المؤلفات الخاصة بالفضائل والمحاسن والمفاخرات، خصوصاً بين البصرة والكوفة، فقد أفردنا لها دراسة خاصة.

سيكون منهجنا في هذا البحث دراسة المؤلفات العربية الإسلامية ذات الصبغة التاريخية عن الكوفة، من خلال دراسة مؤلفيها حسب التسلسل التاريخي، بإيضاح نشأتهم وحياتهم وظروف تأليفهم وخصائص كتابتهم التاريخية بشكل موجز ومركز، كما نشير إلى مصادر مؤلفاتهم، فضلاً عن المصادر التي اقتبست منها أو ذكرتها، وسنجد بين هؤلاء المؤلفين من هم من أهل الكوفة نفسها أو من استقر فيها فأصبح كوفياً، كما وُجد من بينهم من ألف عن الكوفة وهو من أهل الأمصار العربية والإسلامية الأخرى.

ومن المؤسف حقاً أن معظم المؤلفات العربية والإسلامية عن الكوفة مفقودة في الوقت الحاضر، وأن اليسير جداً منها مايزال مخطوطاً وغير منشور، وبذلك لم يبق لنا من تلك المؤلفات سوى عنواناتها وبعض الروايات المقتضبة جداً عنها، وهي روايات متناثرة في المصادر والمؤلفات التاريخية لاتُكوّن لنا صورة واضحة عنها، لأن كثيراً من تلك المؤلفات الخاصة عن مدينة الكوفة تعرضت للتلف والضياع.

١- الهيثم بن عدي:

هو الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن بن زيد بن سيد بن ابر بن عدي بن خالد... بن ثعل بن عمرو بن الغوث، أبو عبد

الرحمن الثعلي[1]، وقيل: الطائي[2]، وقيل: الطائي الكوفي[3]، كان يُطعن في نسبه[4]، أبوه من واسط وأمه من سبي منبج[5]، والهيثم من أهل الكوفة بها وُلد ونشأ، كانت ولادته بالكوفة قبل عام ١٣٠هـ[6]، ثم انتقل إلى بغداد فسكنها وحدّث بها، وكان عالماً بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب[7]، وُصف بأنه: (إخبارياً علاّمة راوية، نقل من أخبار العرب وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً)، وكان يُطعن عليه في الحديث، ووصف بأنه: (ليس بثقة وكان يكذب)[8].

توفي الهيثم بـ فم الصلح[9] عام ٢٠٦هـ والمرجح وفاته بـ فم الصلح في أول محرم عام ٢٠٧هـ[10]. وقائمة كتبه طويلة جداً تقرب من الخمسين ولعل بعضها رسائل صغيرة لكنها كثيرة التنوع، يهمنا منها مؤلفاته في تواريخ الأقاليم ومنها التي تتعلق بمدينة الكوفة، وهي:

كتاب خطط الكوفة.

كتاب ولاة الكوفة.

كتاب قضاة الكوفة والبصرة.[11]

أضاف ابن النديم[12] لمؤلفات الهيثم، كتاب: عمال الشرط لأمراء العراق[13]، ونرجح أنه احتوى معلومات عن عمال الشرط بمدينة الكوفة، فضلاً عن البصرة في الأعم الأغلب، وهذه المؤلفات ت دخل ضمن كتب التاريخ الحضاري الخاص بمدينة الكوفة.

ذكر الدكتور شاكر مصطفى[14] أنه لم يبق من هذه القائمة الطويلة إلى الآن، سوى بعض المقتبسات التي نجدها لدى ابن قتيبة في كتاب المعارف والبلاذري في أنساب الأشراف ولدى الطبري وفي مروج الذهب للمسعودي، وعلى الرغم من اتهام الهيثم بن عدي بقلة التدقيق وتساهله في الإسناد، لكن هذا لم يمنع كثيراً من المؤرخين من أن يأخذوا عنه كثيراً، فقد اعتمده الطبري خاصة فيما يتعلق بالأنبياء وبسيرة الرسول ﷺ والراشدين والأمويين وبعض أخبار الخلفاء العباسيين مثل المنصور والمهدي.

أشار الدكتور مصطفى إلى أن الهيثم تميز بمواصفات خاصة في فكره ومنهجه التاريخي، منها: أنه أول من كتب في الشؤون الحضارية والأثرية والنظم السياسية والقضائية في كتبه عن خطط الكوفة والبصرة وعن الولاة والقضاة والشرطة، وبذلك جمع معلومات طوبوغرافية وجغرافية وسكانية وإدارية وقضائية عن بعض الأمصار، تكشف عن مفهوم تاريخي متطور جداً وجدير بالتوقف عنده.

أفاد بعض المؤلفين من المؤرخين والجغرافيين من مؤلفات الهيثم بن عدي، مثل الطبري الذي استخرج من كتاب (ولاة الكوفة) بعض الحوادث كحادثة زيد بن علي، وأفاد ابن سعد من كتاب (قضاة الكوفة والبصرة) في تأليف كتابه: الطبقات، وتجدر الإشارة إلى أن ابن سعد نقل معلومات عن الكوفة عن شخص يدعى: الفضل بن دكين بن حماد أبو نعيم الملائي التيمي الكوفي الأحول (١٣٠-٢١٩هـ)، له كتاب: المناسبك وكتاب: المسائل في الفقه[15]، كما اقتبس البلاذري من مؤلفات الهيثم في كتابه: فتوح البلدان، خصوصاً في موضوع تمصير الكوفة، واعتمد البلاذري في نقل معلوماته عن الكوفة على شخص يُدعى: أبو مسعود القتات، وتجدر الإشارة إلى إفادة ياقوت الحموي من الهيثم بن عدي في معجمه (معجم البلدان) الذي جاء متأخراً، والذي وُصف بأنه ثمين

(١) ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالوراق. كتاب الفهرست للنديم، تحقيق: رضا تجدد، (طهران، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص١١٢، الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي. تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج١٤، عني بتصحيحه السيد محمد صادق المعرفي، (بيروت، د.ت)، ص٥٠، مصطفى، د.شاكر. التاريخ العربي والمؤرخون، ج١، منشورات دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٧٨م)، ص١٨٢.

(٢) الخطيب. تاريخ بغداد، ج١٤، ص٥٠، ٥٤.

(٣) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء، المسمى: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ج١٩، دار المستشرق (بيروت، د.ت)، ص٣٠٤.

(٤) ابن النديم. الفهرست، ص١١٢.

(٥) الخطيب، تاريخ بغداد ٥١/١٤، وذكر الحموي أن أصله من منبج وأمه من سبي منبج، معجم الأدباء ٣٠٤/١٩.

(٦) الحموي. معجم ا لأدباء ٣٠٤/١٩، وروى الخطيب عن يحيى بن معين أن الهيثم بن عدي كوفي. تاريخ بغداد ٥٢/١٤.

(٧) ابن النديم. الفهرست ص١١٢، الخطيب. تاريخ بغداد ٥٣/١٤.

(٨) الخطيب. تاريخ بغداد ٥٢/١٤، الحموي. معجم الأدباء ٣٠٤/١٩.

(٩) فم الصلح: نهر كبير فوق واسط بينها وبينه جبل عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، وفيه بنى المأمون ببوران. الحموي، ياقوت بن عبد الله. معجم البلدان، مجلد ٤، دار صادر، (بيروت، ١٩٩٥م)، ص٢٧٦.

(١٠) عن الهيثم وحياته، راجع: ابن النديم. الفهرست ص١١٢، الخطيب. تاريخ بغداد ج١٤/ ٥٢-٥٤، الحموي. معجم الأدباء ج١٩/ ٣٠٤-٣٠٩، وذكر أنه بلغ ثلاث وتسعين عاماً، وهذا خطأ ووهم إذا رجعنا إلى تاريخ ولادته عام ١٣٠هـ والصواب أنه بلغ ثمان وسبعين عاماً في الأعم الأرجح.

(١١) عن تفاصيل مؤلفات الهيثم وأنواعها، راجع: ابن النديم. الفهرست ص١١٢، الحموي. معجم الأدباء ج١٩/ ٣١٠، روزنثال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين ترجمة: الدكتور صالح أحمد العلي، (بغداد ١٩٦٣م)، ص٢٩١.

(١٢) الفهرست ص١١٢.

(١٣) سماه حاجي خليفة: تاريخ عمال الشرط لأمراء العراق. مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مجلد١، طبعة أوفسيت، منشورات مكتبة المثنى، (بغداد، د.ت)، ص٢٩٨. وذكر تواريه مدن العراق ومنها: الكوفة والبصرة والانبار وتكريت وبغداد وسامراء وغيرها دون تسمية مؤلفيها.

(١٤) التاريخ العربي والمؤرخون ج١ ص١٨٥.

(١٥) العبيدي، محمود عبد الله إبراهيم. عمر بن شبة ومكانته في كتابة التاريخ العربي الإسلامي، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص٢١٣-٢١٤.

جداً، والمرجح أن ياقوت أخذ باختصار معلومات من كتاب الهيثم: (خطط الكوفة)، هذا كله فضلاً عن الصحائف الثلاث لليعقوبي التي تتعلق باختطاط الكوفة، وهي قائمة تخص تخطيط منازل الصحابة وكثير من القبائل مع أسماء المقابر، وكل هذه الاقتباسات تدلل على أهمية الهيثم بن عدي ومؤلفاته عن الكوفة[١]، والمرجح أنها مؤلفات مفقودة في الوقت الحاضر مع الأسف.

٢- الواقدي:

أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، مولى الأسلميين من سهم بن أسلم، كان من أهل المدينة انتقل إلى بغداد وتولى القضاء بها للخليفة هارون الرشيد، وُصف بأنه: عالم بالمغازي والسّير والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار، والطريف أنه كان مُعاصراً للهيثم بن عدي مشابهاً له في مولده ووفاته، فقد ذكر محمد بن سعد كاتبه -نقلاً عنه- أنه ولد عام ١٣٠هـ وتوفي عشية يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ذي الحجة عام ٢٠٧هـ عن عمر يناهز ثمان وسبعين عاماً، ودفن في مقابر الخيزران ببغداد، وصلّى عليه محمد بن سماعة. وصنّف كتباً، منها: كتاب التاريخ والمغازي والبعث، وكتاب أخبار مكة، وكتاب الطبقات، وكتاب فتوح الشام وكتاب فتوح العراق.[٢]

ويهمنا من مؤلفات الواقدي كتابه الأخير، أي: كتاب فتوح العراق، والذي نميل إلى أنه احتوى حتماً على معلومات مهمة حول دور جبهتي البصرة والكوفة في فتوح المشرق، إذ أن كتاب فتوح العراق يعني عناية خاصة بالجبهة العسكرية التي كانت خاضعة للكوفة[٣]، وإبراز دورها في حركات التحرير العربية بصورة خاصة، وكتب الواقدي المتخصصة في فتوح الشام والعراق تشابه كتب المدائني -كما سنوضح- في عناوينها.

ذكر ابن النديم[٤] والحموي[٥] من مؤلفات الواقدي كتاب: الاختلاف بين أهل المدينة والكوفة ونرجح أنه كتاب يوضح الاختلاف بينهما في عدة جوانب، لعل أبرزها: المعاملات الفقهية والشرعية حول المعاملات والمسائل ذات المساس بالحياة الاقتصادية بشكل خاص، ومنها: معاملات البيع والشراء والأوزان والمقاييس. ولاشك أن هذا الكتاب يوضح بجلاء اتجاه مدينة الكوفة في المسائل الدينية والفقهية من خلال آراء واجتهادات الفقهاء والعلماء ونظرتهم إلى شؤون الحياة المختلفة فيها، والتي تمثل جزءاً مهماً من تطورها التاريخي. وذكر ابن النديم أيضاً أن محمد بن سعد (كاتب الواقدي) ألف: طبقات أهل الكوفة، وهو على الأرجح جزء من كتابه الشهير المعروف بـ: طبقات ابن سعد، أو: الطبقات الكبرى، الذي خصص جزء منه لطبقات أهل الكوفة، فضلاً عن أقاليم الدولة العربية الإسلامية الأخرى.

٣- المدائني:

أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني، مولده عام ١٣٥هـ وهو بصري، مولده ونشأته في البصرة، ثم انتقل إلى المدائن وتحول إلى بغداد، ولم يزل بها حتى وفاته. كان على اتصال مع إسحاق بن إبراهيم الموصلي منقطعاً إليه لا يفارق منزله، وفي منزله كانت وفاته عام ٢١٥هـ وقيل توفي عام ٢٢٥هـ وله ثلاث وتسعون عاماً، وكان ثقة إذا حدّثَ عن الثقات[٦]. ولا يمكننا قبول تقدير عمره عند وفاته بثلاث وتسعين عاماً مطلقاً إذا رجعنا إلى تاريخ ولادته، إذ يكون تقدير عمره عند وفاته عام ٢١٥هـ بحدود ثمانين عاماً، وتقديره عند وفاته عام ٢٢٥هـ بحدود تسعين عاماً.

وقائمة كتبه طويلة جداً توزعت على أقسام عديدة، أما بخصوص كتبه في الفتوح، فأبرزها: كتاب فتوح العراق -وهو مشابه تماماً لكتاب الواقدي -سالف الذكر- من حيث التسمية، ويعني الجبهة العسكرية التي كانت خاضعة للكوفة، ومن كتبه الكثيرة عن الفتوح: كتاب خبر البصرة وفتوحها، كتاب فتوح الحيرة، فضلاً عن كتب أخرى كثيرة في الفتوح، وتتصف كتبه في هذا المحور بالشمولية، فلم تتحدد كتاباته التاريخية على منطقة جغرافية دون أخرى.[٧]

وتجدر الإشارة إلى أن المدائني ألف عدداً من الكتب عن القضاة، منها: كتاب أهل المدينة، كتاب قضاة أهل البصرة[٨]، في حين لم نجد -مع الأسف- كتاباً له مستقلاً عن قضاة أهل الكوفة، ولا نعلم ما هو تبرير عدم تأليفه هذا الكتاب أسوة بالبصرة ضمن العراق، اللهم إلاّ إذا كان الأمر يرتبط بتبعية الكوفة إدارياً ودمجها مع البصرة ضمن مؤسساتها ومنها القضاء، وبذلك ضم كتاب قضاة أهل البصرة معلومات عن قضاة أهل الكوفة أي دمجهما معاً، وقد أشرنا عند دراستنا مؤلفات الهيثم بن عدي إلى كتاب قضاة الكوفة والبصرة، أي أن كتابه تضمّن معلومات حول قضاة

(١) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٣٦-١٣٧ وهوامشهما.
(٢) ابن النديم. الفهرست ص١١١، الحموي. معجم الأدباء ج١٨/ ٢٨١-٢٨٢.
(٣) ناجي، د. عبد الجبار. إسهامات مؤرخي البصرة في الكتابة التاريخية، منشورات دار الشؤون الثقافية، (بغداد، ١٩٩٠م)، ص١١١.
(٤) الفهرست ص١١١.
(٥) معجم الأدباء ج١٨/ ٢٨١-٢٨٢.
(٦) ابن النديم. الفهرست ص١١٣، الحموي. معجم الأدباء ج١٤/ ١٢٤-١٢٦.
(٧) راجع: ابن النديم. الفهرست ص١١٣-١١٧، الحموي. معجم الأدباء ج١٤/١٢٩-١٣٩، مصطفى. التاريخ العربي ج١/ ١٨٥-١٨٨، ناجي. إسهامات ص ٨٣-٨٥، ١١٠- ١١٤.
(٨) ابن النديم، الفهرست ص١١٧، الحموي. معجم الأدباء ج١٤/١٣٨، مصطفى. التاريخ العربي ج١/ ١٨٧-١٨٨.

المدينتين معاً. فلا نستبعد أن المدائني ضمّن كتابهُ عن قضاة أهل البصرة معلومات عن قضاة الكوفة.

٤- أبو بكار الضبي:

أبو الوليد العباس بن بَكّار الضبي، وهو بصري المولد والإقامة والوفاة. وُلد عام ١٢٩هـ وتوفي عام ٢٢٢هـ كانت له مشاركة في العمل الإخباري الذي بقي لنا منه، والمعنون بـ (أخبار الوافدين من أهل الكوفة والبصرة على معاوية بن أبي سفيان وأخبار الوافدات أيضاً)، وهما رسالتان مخطوطتان الآن في الاسكوريال بإسبانيا (رقم: ٥/٤٦٧، و: ٦/٤٦٧)، في ١٢ ورقة[١].

٥- ابن شبة النميري:

أبو زيد عمر بن شبة (اسمه زيد وشبة لقبه) بن عبيد بن زيد بن ربطة (وقيل رابطة) النميري البصري، مولى قبيلة بني نمير بن عامر بن صعصعة، ولد عمر في البصرة عام ١٧٣هـ وانتقل عنها وتوفي بسامراء عام ٢٦٢هـ كان صاحب أخبار ونوادر ورواية واطلاع كبير، راوية للأخبار عالماً بالآثار أديباً فقيهاً صدوقاً، وُصف بصدق اللهجة، وكان صاحب تصانيف عديدة تزيد على ٢٢، معظمها تاريخي.

ألف ابن شبة عدة تصانيف يغلب على أكثرها -كما ذكرنا- طابع الكتابة التاريخية عن المدن والأمصار، منها: كتاب الكوفة[٢]، كتاب البصرة، كتاب المدينة، كتاب مكة[٣]، ونرجح أنها كتب كبيرة عن تلك المدن الأربع المعروفة، وهي مخصصة للكتابة عن تواريخها بشكل مفصل، وتناولت طوبرافيتها ومعلومات تاريخية مهمة عنها.

ويهمنا من مصنفات ابن شبة هذه كتاب الكوفة الذي يمكننا أن نسميه: تاريخ الكوفة، بدليل ما ذكره السخاوي[٤] عندما وصف ابن شبّة بأنه أحد الحُفّاظ الإخباريين وصاحب التصانيف، له تاريخ للبصرة[٥] وآخر للكوفة وآخر لمكة وآخر للمدينة، ولم يكتف مترجموه[٦] بذكر كتبه الأربعة هذه عن المدن المذكورة آنفاً، بل ذكروا له كتباً أخرى حولها، مخصصة لأمرائها، وهي: كتاب أمراء الكوفة[٧]، كتاب أمراء البصرة، كتاب أمراء المدينة (لهله ما نعرفه بـ تاريخ المدينة)، كتاب أمراء مكة.

والكتب الأربعة الأخيرة مخصصة لأمراء الكوفة والبصرة والمدينة ومكة، وهي تتناول جزءاً من تاريخها الحضاري المخصص لأمرائها، أي عن التاريخ السياسي والإداري لتلك المدن الأربع المشهورة والمهمة في الدولة العربية الإسلامية، وليست لدينا معلومات عن أمراء الكوفة الوارد ذكرهم في كتاب ابن شبة عنها.

ونعود إلى ذكر الكتب الأربعة الأولى، وهي تواريخ البصرة والكوفة والمدينة ومكة، إذ يشير ابن حوقل[٨] إلى أن كتاب البصرة هو أقدم مؤلفات ابن شبة، بقوله: (وللبصرة كتاب يُعرف بكتاب البصرة ألفه عمر بن شبة قبل كتاب الكوفة ومكة، يُغني عن ذكر شيء من أوصافها، وهذه الكتب موجودة في جميع الأماكن).

أوضح ابن حوقل في هذا النص عدة أمور، أبرزها: أن كتاب البصرة ألفه عمر بن شبة قبل كتاب الكوفة ومكة، ولعل سبب ذلك يرجع إلى عاملين، أولهما: قِدَم البصرة على الكوفة من حيث التأسيس والتمصير، وثانيهما: لأن ابن شبة بصري الأصل، ولد في البصرة، فألف كتاب البصرة أولاً اعتزازاً بمدينته وتقديراً لمكانتها، ونلاحظ أن نص ابن حوقل أسقط ذكر كتاب المدينة، في

(١) مصطفى. التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢٠٥/١.
اطلعت أخيراً على بحث منشور في مجلة (سبأ) العدد (١٠-١١) ٢٠٠٢م، ص٦٧، وفي قائمة مصادره كتاب:
(أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان)، تحقيق: سكينة الشهابي، منشورات مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٩٨٣م).

(٢) راجع عن كتاب الكوفة: العبيدي. عمر بن شبة ص٢٤-٢٥.

(٣) ابن النديم. الفهرست ص١٢٥، الخطيب. تاريخ بغداد ج٢٠٨/١١-٢١١، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥ قسم٢، الطبعة الأولى، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد الركن، ١٣٥٧هـ)، ص٤١، الحموي. معجم الأدباء ج٦٠/١٦-٦١، معجم البلدان مج ٤٤٠/١، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم. الكامل في التاريخ، مجلد ٧، دار صادر ودار بيروت، (بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، ص٣٠٦، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مجلد٣، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، (بيروت، د.ت)، ص٤٤٠، ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٢، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت)، ص١٦٤، مصطفى. التاريخ العربي ج١٨٩/١، شلتوت، فهيم محمد، تاريخ المدينة المنورة لعمر بن شبة. دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول (مصادر تاريخ الجزيرة العربية)، ج٢، مطبوعات جامعة الرياض، (الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ص٤-٥، ناجي. إسهامات ص٩٠-٩١، ٢٧٧-٢٧٨، العبيدي. عمر بن شبة ص١٨-٢٣.

(٤) محمد بن عبد الرحمن. الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، نشره: فرانز روزنثال، (مطبوع بعد كتاب: علم التاريخ عند المسلمين)، (بغداد، ١٩٦٣)، ص٦٩٢. وورد (ص٦٣٩): تاريخ الكوفة لعمر بن شبة.

(٥) ذكر ابن خلكان أنه صنف تاريخ البصرة، ولم يذكر بقية مؤلفاته. وفيات الأعيان مج ٤٤٠/٣، وقيل أنه صنف كتاباً عن فضائل البصرة في عدة مجلدات. الحموي. معجم البلدان ٤٤٠/١، حاجي خليفة. كشف الظنون مجلد ١٢٧٤/٢، ناجي. إسهامات ص٢٧٩، راجع عن كتاب البصرة لابن شبة: السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ص٦٢١.

(٦) ابن النديم. الفهرست ص١٢٥، الحموي. معجم الأدباء ج١٦/ ٦١، مصطفى. التاريخ العربي ١٨٩/١، شلتوت. تاريخ المدينة المنورة ص٥، العبيدي. عمر بن شبة ص٢٤ فما بعد، ناجي. إسهامات ص٢٧٨.

(٧) راجع عن كتاب أمراء الكوفة: العبيدي. عمر بن شبة ص٢٥-٢٦.

(٨) أبو القاسم محمد بن علي النصيبيني. صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت، د.ت)، ص٢١٤، راجع أيضاً: ناجي. إسهامات ص٢٧٨-٢٧٩.

حين كانت إشارته واضحة جداً حول وجود تلك الكتب في جميع الأماكن في عصره، أي أنها معروفة ومتداولة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ونرجح أن كتاب المدينة سقط ذكره سهواً من النص، ومن المؤسف جداً أن كتب ابن شبة المشار إليها في نص ابن حوقل أعلاه مفقودة الآن وغير معروفة امتدت إليها أيدي الضياع، وبذلك افتقدنا الكثير من المعلومات التاريخية المهمة التي احتوتها حول مدن البصرة والكوفة ومكة، باستثناء كتاب أخبار المدينة المنورة وهو عن (تاريخ المدينة المنورة) الذي حقق ونشر وخرج إلى النور[١]، على الرغم من سقوط ذكره في نص ابن حوقل أعلاه.

٦- ابن النجار التميمي الكوفي:

أبو الحسن محمد بن جعفر بن محمد بن هارون بن فروة بن ناجية بن مالك التميمي النحوي المعروف بـ ابن النجار، من أهل الكوفة، وُلد في الكوفة عام ٣٠٣هـ وحدد الخطيب البغدادي[٢] ولادته لست عشرة ليلة مضت من المحرم عام ٣٠٣هـ قَدِم ابن النجار إلى بغداد وحدّث بها عن جماعة من المُحدّثين القدماء، ووصف بأنه كان ثقة. توفي بالكوفة في شهر جمادى الأولى عام ٤٠٢هـ[٣].

ألف ابن النجار عدة كتب، منها كتاب القراءات، فعُرف بـ المقرئ[٤]، ومن مؤلفاته المتعلقة بمدينة الكوفة، كتاب تاريخ الكوفة[٥]، ويسمى أيضاً: كتاب الكوفة.[٦] ألفه خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، في الأعم الأرجح، وهو من كتب التواريخ المحلية الخاصة عن مدينة الكوفة، ولعل تسميته على غرار كتاب عمر بن شبة المسمى: كتاب الكوفة.

ويشكو البروفسور روزنثال[٧] من النقص الشديد في المعلومات عن التواريخ المحلية القديمة حتى نهاية القرن الرابع الهجري، وهذا الأمر ينطبق على عدة كتب، منها: كتاب محمد بن جعفر التميمي عن الكوفة، ولعله يقصد كتاب: تاريخ الكوفة للتميمي، وكان سبب عدم معرفة هذا الكتاب في نهاية ذلك القرن - كما ذكر روزنثال- يعود إلى أن ابن النجار توفي عام ٤٠٢هـ أي في مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لذلك فإن كتابهُ لايمكن أن ينتشر ويكون معروفاً تُدوّن عنه المعلومات إلاّ بعد وفاته بمدة مناسبة، وهذا ما يجعلنا نرجح أن كتابه كان معروفاً في القرن الخامس الهجري. بدليل ما دوّنه عنه الوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي المتوفى عام ٤١٨هـ أي بُعيد وفاة ابن النجار الكوفي، في أحد مؤلفاته الوزير المغربي التي نقل عنها الحموي[٨]، إذ يقول ما نصه: (ونقلتُ من زيادات الوزير المغربي في فهرست ابن النديم... وكنا سمعنا منه: كتاب القراءات وكتاب مختصر في النحو، وكتاب المُلح والنوادر، وكتاب التُحف والطُرَف، وكتاب المُلح والمسار، وكتاب روضة الأخبار ونزهة الأبصار، وكتاب تاريخ الكوفة رأيتُه).

يتضح لنا من هذا النص المهم أن الوزير المغربي سمع من ابن النجار التميمي الكوفي عدة كتب ألفها، وذكر الوزير أسماء تلك المؤلفات في كتابه (زيادات فهرست ابن النديم)، ونقل الحموي نص الوزير المغربي هذا، والمهم جداً فيه أن الوزير المغربي رأى كتابه تاريخ الكوفة لابن النجار، وذكر الحموي هذا النص نقلاً عن تاريخ ابن الجوزي، والمرجح أنه كتاب المنتظم، وهذا الأخير نقله بدوره عن كتاب تاريخ بغداد الخطيب البغدادي، وهذا بدوره نقله عن كتاب زيادات فهرست ابن النديم للوزير المغربي، ونستدل مما ذكره الوزير المغربي حول كتاب تراريخ الكوفة لابن النجار التميمي الكوفي ورؤيته له، مايؤكد أن هذا الكتاب كان معروفاً ومتداولاً في الربع الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لأن الوزير المغربي توفي عام ٤١٨هـ وكان معاصراً لابن النجار الكوفي التميمي.

واقتبس الحموي[٩] أيضاً نصاً آخر عن كتاب الكوفة (كما ورد أصلاً وليس: تاريخ الكوفة) لابن النجار التميمي الكوفي، إذ

---

(١) كتاب ابن شبة عن تاريخ المدينة المنورة عنوانه: (أخبار المدينة المنورة)، طبع على نفقة السيد حبيب محمود أحمد، حققه الأستاذ فهيم محمد شلتوت، في أربعة أجزاء، منشورات دار الأصفهاني للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، (جدة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، في (١٣١٥) صفحة ما عدا الفهارس.
حُقّق الكتاب مرة ثانية تحت عنوان: كتاب تاريخ المدينة المنورة (أخبار المدينة النبوية)، ج١-٢، علق عليه وخرّج أحاديث: علي محمد دندل وياسين سعد الدين بنيان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

(٢) تاريخ بغداد ج٢/ ١٥٩، وذكر ابن العماد ولادته في المحرم عام ٣٠٣هـ شذرات الذهب ١٦٤/٣.
وروى الحموي أنه ولد عام ٣٣١هـ معجم الأدباء ج١٠٤/١٨، ونعتقد أن ذلك خطأ، وربما تصحيف إذ لم يرد في مصدر آخر.

(٣) عن ترجمة ابن النجار، راجع: الخطيب. تاريخ بغداد ج١٥٩/٢، ابن الجوزي. المنتظم ج٧/ ٢٦٠، الحموي. معجم الأدباء ١٨/ ١٠٣-١٠٤، ابن العماد. شذرات الذهب ١٦٤/٣، حاجي خليفة، كشف الظنون مج ٣٠٢/١، مصطفى. التاريخ العربي ١٨/٢.

(٤) الخطيب. تاريخ بغداد ج٢/ ١٥٩، ابن العماد، شذرات الذهب ١٦٤/٣.

(٥) الحموي. معجم الأدباء ج١٨/ ١٠٤، الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات، ج٦، باعتناء: س. ديدرينغ، الطبعة الثانية، دار النشر فرانز شتاينر، (فيسبادان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص٣٠٩، السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ص٦٣٩، حاجي خليفة، كشف الظنون مج ٣٠٢/١، مصطفى التاريخ العربي ١٨/٢.

(٦) الحموي. معجم البلدان مج ٥/ ١٩٢، روزنثال، علم التاريخ ص٢٣١.

(٧) علم التاريخ ص٢٣٠-٢٣١.

(٨) معجم الأدباء ج١٨/ ١٠٣-١٠٤، راجع أيضاً: روزنثال. الإعلان بالتوبيخ للسخاوي ص٦٣٩ هامش.

(٩) معجم البلدان مج ١٩٢/٥، مادة: (ملطاط)، وأنشد شعراً لعدي بن زيد:
هيج الداء في فؤادك حُورٌ ناعمات بجانب الملطاط

يقول: (وقال ابن النجار في كتاب الكوفة: وكان يقال لظهر الكوفة اللسان وما ولي الفرات منه الملطاط). وهذا النص يورد تسمية أخرى مغايرة لكتاب ابن النجار الذي سمي أولاً: تاريخ الكوفة، وهنا سمي: كتاب الكوفة، والمرجح أن الكتاب واحد اختلفت تسميته، ويوضح لنا النص الوارد فيه إشارة إلى جزء مهم من خطط مدينة الكوفة وجغرافيتها، مما يعطينا تصوراً عن بعض محتويات هذا الكتاب الذي أشار إلى خطط الكوفة ومعالمها الجغرافية وأبرز أقسامها، ومنها: اللسان والملطاط

وممن اقتبس من كتاب تاريخ الكوفة لابن النجار التميمي الكوفي، المؤرخ الصفدي[1]، في ترجمة أحمد بن الحسن بن إسماعيل أبو عبدالله السكوني الكندي النسّابة، الذي كان على علاقة مع الخليفة العباسي المكتفي ثم مع المقتدر، إذ يقول عنه: (ذكره أبو الحسن محمد بن جعفر ابن النجار الكوفي في تاريخ الكوفة).

وهكذا يتضح لنا أن كلاً من ياقوت الحموي والصلاح الصفدي اقتبسا من كتاب تاريخ الكوفة أو: كتاب الكوفة لابن النجار التميمي الكوفي[2]، ونستنتج مما اقتبساه أن كتاب تاريخ الكوفة كان معروفاً ومتداولاً خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، كما كان معروفاً -كما ذكرنا- في الربع الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بدليل ماذكر الوزير المغربي عنه في كتابه (زيادات فهرست ابن النديم) أنه رآه، ونقل عنه هذا النص كلاً من الخطيب البغدادي وابن الجوزي في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وبمعنى أخر أن كتاب تاريخ الكوفة أو كتاب الكوفة لابن النجار التميمي الكوفي، كان معروفاً ومتداولاً نقل عنه المؤرخون خلال مدة طويلة امتدت بين القرنين الخامس والثامن الهجريين، ومن المؤسف جداً أن هذا الكتاب مفقود -حسب علمنا- في الوقت الحاضر، وليس لدينا ما يشير إلى وجوده مخطوطاً في إحدى المكتبات المنتشرة في العالم والمهتمة بحفظ التراث العربي الإسلامي.

نستنتج من خلال الاقتباسات التي نقلناها عن الحموي والصفدي أن تاريخ الكوفة لابن النجار التميمي هو أحد التواريخ المحلية لمدينة الكوفة، احتوى معلومات مهمة تتوزع على خطط المدينة ومحلاتها وأعمالها، وهي معلومات ذات صفة طوبوغرافية وجغرافية ذكرت اللسان والملطاط فضلاً عن معلومات تتعلق بتراجم عن أهلها ومن وردها من العلماء والأدباء والمؤرخين والنسّابة وغيرهم.

(١) الوافي بالوفيات ج٦/ ٣٠٩، ويبدو أن عبارة (في تاريخ الكوفة) قد أضفت والإضافة من معجم الذي نرجح أنه معجم الأدباء للحموي. راجع: المصدر نفسه ج٦/ ٣٠٩ هامش.

(٢) أشار الدكتور شاكر مصطفى إلى اقتباس الحموي والصفدي من كتاب تاريخ الكوفة لابن لنجار. التاريخ العربي ٢/ ١٨.

ويبدو أن لانتقال ابن النجار إلى بغداد أثره الواضح في نقل الخطيب البغدادي معلومات عنه حول معظم القضاة في كتابه: تاريخ بغداد، وتجدر الإشارة إلى بيان الوَهم والخلط الذي وقع فيه الدكتور شاكر مصطفى[3] بين ابن النجار التميمي الكوفي المتوفى عام ٤٠٢هـ الذي اقتبس الحموي من كتابه تاريخ الكوفة، أو: (كتاب الكوفة - كما ذكرنا)، وبين ابن النجار الحافظ محب الدين محمد بن محمود بن محاسن البغدادي، المتوفى عام ٦٤٣هـ إذ نسب إلى الأخير تأليفه كتاب: تاريخ الكوفة، الذي ذكره الحموي، وأنه ضاع ضمن تراث ابن النجار الضائع، وكان من المؤلفات الضخمة، لكننا لم نجد في الكتب والمؤلفات المخصصة للفهارس والدراسات المتعلقة بالمؤلفات والمؤلفين -قدر اطلاعنا- ذكراً لكتاب تاريخ الكوفة من تأليف ابن النجار الحافظ البغدادي، كما لم نجد ذلك في موارد ترجمته[4]، مما استوجب التنبيه على هذا الخلط والوَهَم، وندعم رأينا للرد على ما ذكره الدكتور مصطفى عن عدم دقة اقتباس ياقوت الحموي عن ابن النجار الحافظ البغدادي، أن ياقوت توفي عام ٦٢٦هـ في حين أن ابن النجار البغدادي توفي عام ٦٤٣هـ والمفروض أن الأخير ينقل عن الحموي الذي تقدم عليه وسبقه في وفاته وليس العكس، في الأعم الأرجح.

لقد ذكرنا أن ياقوت الحموي اقتبس في كتابيه: معجم الأدباء ومعجم البلدان من ابن النجار في كتابيه: تاريخ الكوفة وكتاب الكوفة، ولعل الإشارة إلى الكتاب الأخير لابن النجار أوحت إلى الدكتور مصطفى أنه من تأليف ابن النجار البغدادي المؤرخ المشهور صاحب كتاب: (التاريخ المجدد لمدينة السلام وأخبار فضلائها من الأعلام ومن وردها من علماء الأنام)، وله أيضاً كتاب: (الدرة الثمينة في تاريخ المدينة)، وغيرهما من المؤلفات المعروفة، لكننا لم نجد ضمن تراثه التاريخي كتاباً له عن تاريخ الكوفة، كما أن الدكتور مصطفى لم يحدد لنا المواضع في كتابي الحموي التي نقل منهما عن كتاب تاريخ الكوفة المزعوم لابن النجار الحافظ البغدادي المتوفى عام ٦٤٣هـ لكي نرجع إليها في مؤلفات ياقوت الحموي ونحدد في ضوئها نسبة كتاب الكوفة ومؤلفه الصحيح.

(٣) التاريخ العربي ج٢/ ١٨، ١١٧.

(٤) راجع مثلاً: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، ج٣، حققه وضبطه: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت)، ص ٢٤٨- ٢٤٩، السخاوي. الإعلان بالتوبيخ ص٦٢٢، ابن العماد. شذرات الذهب ج٥/ ٢٢٦- ٢٢٧، كما لم يشر روزنثال في كتابه: (علم التاريخ عند المسلمين) إلى تأليف ابن النجار الحافظ البغدادي كتاب تاريخ الكوفة، راجع أيضاً: محمد مولود خلف (الحقق). المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار الحافظ البغدادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٢١- ٢٥ (المقدمة عن مؤلفاته وعددها: ٢٩، وليس فيها تاريخ الكوفة).

٧- ابن مجالد:

وهو مؤلف مجهول لا يُفصح المؤلفون[١] عن شخصيته، فلم يذكروا لنا اسمه ولا نسبه ولا تاريخي ولادته ووفاته، بل ذكروه بهذا الاسم المجرد فقط (ابن مجالد)، وقرنوه بكتاب له بعنوان: تاريخ الكوفة.

ولا ندري فيما إذا كان لهذا الرجل علاقة بالمُحدّث أبي عمير مُجالد بن سعيد بن عُمير الهمداني الكوفي، روى عنه الهيثم بن عدي كثيراً[٢]، ومُجالد هذا راوية للأخبار، سمع الحديث، وُصف بأنه: كان ضعيفاً عند المُحدّثين، توفي عام ١٤٤هـ[٣]. وربما كان المؤلف ابن مجالد من أسرة أبي عمير مجالد الكوفي، وهو مجرد رأي مُحتمل فقط أما كتابه: (تاريخ الكوفة)، فليست لدينا عنه معلومات سوى عنوانه، والمرجح أنه مفقود في الوقت الحاضر، إذ لم نجد إشارة عنه حول اقتباس المصادر منه، وليست هنالك إشارة أيضاً أو معلومات عنه في المؤلفات الخاصة بالمخطوطات المنتشرة في العالم، إن كان هذا الكتاب مخطوطاً ضمن تراث مدينة الكوفة العربي الإسلامي.

المؤلفون ومؤلفاتهم التاريخية عن الكوفة

ت	اسم المؤلف	تاريخ وفاته	اسم مؤلفه أو: مؤلفاته
١	الهيثم بن عدي الطائي الكوفي	٢٠٦هـ وقيل: ٢٠٧هـ	١- كتاب خطط الكوفة. ٢- كتاب ولاة الكوفة. ٣- كتاب خطط الكوفة والبصرة. ٤- كتاب عمال الشرط لأمراء العراق. ويسمى: تاريخ عمال الشرط لأمراء العراق.
٢	الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر. (من أهل المدينة)	٢٠٧هـ	١- كتاب فتوح العراق، أي: جبهة الكوفة. ٢- كتاب الاختلاف بين أهل المدينة والكوفة.
٣	المدائني، أبو الحسن علي محمد. (بصري)	٢١٥هـ	كتاب فتوح العراق، أي: جبهة الكوفة.
٤	ابن بكّار الضَبي، أبو الوليد العباس (البصري).	٢٢٢هـ	أخبار الوافدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة على معاوية بن أبي سفيان، وأخبار الوافدات أيضاً.
٥	محمد بن سعد بن منيع/ كاتب الواقدي (بصري).	٢٣٠هـ	طبقات أهل الكوفة.
٦	عمر بن شبة النميري (بصري).	٢٦٢هـ	١- تاريخ الكوفة، ويسمى: كتاب الكوفة. ٢- كتاب أمراء الكوفة.
٨	ابن مجالد؟ (كوفي).	؟	تاريخ الكوفة.

* * *

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، باعتناء: هلموت ريتر، ص٤٧، السخاوي. الإعلان بالتوبيخ ص٦٣٩، حاجي خليفة. كشف الظنون مج ١/ ٣٠٢، مصطفى. التاريخ العربي ج٢/ ١٧.

(٢) ابن النديم. الفهرست ص١٠٣، الخطيب. تاريخ بغداد ج١٤/ ٥٠، الحموي، معجم الأدباء ج١٩/ ٣٠٤.

(٣) ابن النديم. الفهرست ص١٠٣، الذهبي. العبر ج١/ ص١٥٢، ابن العماد، شذرات الذهب ج١/ ٢١٦.

الكوفة
في المصادر الجغرافية العربية

الأستاذ الدّكتور بهجت كامل عبد اللطيف

كلية الآداب- جامعة بغداد

حظيت مدينة الكوفة بتقدير واهتمام العديد من المؤرخين والفقهاء واللغويين وغيرهم وتناولوها بالبحث والاستقصاء لما لها من أهمية سياسية باعتبارها عاصمة المسلمين الثّانية بعد مدينة الرّسول ﷺ وموطن كبار الصّحابة ومركز حركة المعارضة للخلافتين الأموية والعبّاسية، وعسكرية تتمثل في كونها معسكراً متقدماً للقوات الإسلامية المتجمعة نحو الشّرق في حركة الفتح والتّحرير، ولعبت الكوفة دورها الرّيادي في تحقيق الكثير من الانتصارات في جبهات القتال المتعددة وفي مراحل مختلفة من الزّمن، فضلاً عن أهميتها الثّقافية والفكرية فقد برز من بين الكوفة العديد من الفقهاء والعلماء واللغويين والنّحويين والمؤرخين وغيرهم، وأسهمت مدينة الكوفة إسهاماً واضحاً في تطور وانتشار العلوم والآداب والفنون الإسلامية ووضعت في أروقة مساجدها الأسس الصّحيحة لكثير من العلوم الفقهية واللغوية.

تناولت العديد من الدّراسات الحديثة مدينة الكوفة وأولتها الاهتمام الكبير، وكان أوّل من اهتم بها حسين بن السّيد أحمد البراقي في كتابه (تاريخ الكوفة)[1] والّذي استعرض فيه جوانب مهمة من تاريخ هذه المدينة وأشهر الأحداث الّتي مرّت بها.. وقدّم المستشرق لويس ماسنيون دراسته الّتي تدور حول خطط المدينة وخريطتها[2]، والدّكتور كاظم إبراهيم الجنابي اهتم بدراسة تخطيط المدينة ومقارنتها مع الأمصار الإسلامية الأخرى[3]، بينما تناول الدّكتور يوسف خليف حياة الشّعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثّاني الهجري[4]، وتطرق الدّكتور محمّد حسين الزّبيدي للحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدينة[5] والدكتور كامل سلمان الجبوري تطرق لدراسة مساجد الكوفة[6]، أمّا الجانب العسكري ودور الكوفة في حرب التّحرير والفتوح فقد حظي باهتمام السّيد هشام جيخور الرّبيعي[7] والدّراسة الشّاملة والدّقيقة الّتي أنجزها الدّكتور هشام جيعط وتطرق فيها إلى مختلف جوانب الحياة في هذه الحاضرة الإسلامية[8].

فضلاً عن كلّ هذا فقد تناولت العديد من الدّراسات الحديثة جانباً أو أكثر من جوانب الحياة في هذه المدينة ضمن دراسة عامة وشاملة للمدن العراقية والمدن والأمصار الإسلامية ومنها دراسة السّيد عبد الرّزاق حسن في كتابة نشأة المدن العراقية وتطورها[9]، ومصطفى عبّاس الموسوي في مؤلفه (العوامل التّاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية)[10] وقدّم الدّكتور عبد الجبار ناجي مؤلفه القيم الّذي يعد من أحدث وأشمل الدّراسات عن تاريخ المدن الإسلامية، استعرض فيه مدينة الكوفة من جوانب متعددة مؤكداً على تخطيط المدينة وتطورها[11]، أمّا الدّكتور شاكر مصطفى فقد تعرض لدراسة

(١) حسين بن علي البراقي: ت ١٣٢٢هـ تاريخ الكوفة، المطبعة الحيدرية النّجف ط١ ١٣٧٩/ ١٩٦٠.

(٢) لويس ماسنيون: خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة محمّد المصعبي، تحقيق كامل سلمان الجبوري النّجف ١٣٩٩/ ١٩٧٩.

(٣) كاظم إبراهيم الجنابي: تخطيط مدينة الكوفة، دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٧.

(٤) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثّاني الهجري، دار الكتاب للطباعة والنّشر، القاهرة ١٣٨٨/ ١٩٦٨.

(٥) محمّد حسين الزّبيدي: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، القاهرة ١٩٧٠.

(٦) كامل سلمان الجبوري: مساجد الكوفة، مطبعة النّعمان، النّجف ١٣٩٧/ ١٩٧٧.

(٧) هاشم جبخور ميري الرّبيعي: جبهة الكوفة (دراسة في أحوالها العسكرية خلال العصر الرّاشدي)، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة كلية الآداب/ جامعة البصرة ١٤٠٩/ ١٩٨٩.

(٨) هشام جيعط: الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ط١، بيروت دار الطّليعة ١٩٩٣.

(٩) عبد الرّزاق عبّاس حسين: نشأة مدن العراق وتطورها، مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٧٧.

(١٠) مصطفى عبّاس الموسوي: العوامل التّاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية دار الرّشيد، بغداد، ١٩٨٢.

(١١) الدّكتور عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، جامعة البصرة ١٩٨٩.

المدينة من خلال كتابه الموسوم (المدن في الإسلام حتّى العصر العثماني)[١].

شكلت المعلومات الّتي دونها الجغرافيون العرب مصدراً أساسياً لمعظم هذه الدّراسات وبالرّغم من هذا فإننا لم نجد دراسة متخصصة تناولت بالعرض والتّحليل مادة الجغرافيين، لذا تحاول هذه الورقة أن تسلط الضّوء على نواحي مهمة في تاريخ هذه المدينة الإسلامية من خلال معلومات الجغرافيين العرب المسلمين ويمكن تصنيف مادتهم حسب المحاور الآتية:

أوّلاً: المحور الجغرافي والبيئي:

الموقع:

إنّ موقع الكوفة كما ذكر ابن الفقيه الهمداني كان يسمى سورستان[٢]، ويذكر ياقوت الحموي أنّها تقع في الإقليم الثّالث على نهر الفرات[٣]، وهي أوّل مدينة اختطها المسلمون بالعراق في سنة أربع عشرة للهجرة[٤]، ويرى أبو الفدا أنّ الكوفة تقع على ذراع من نهر الفرات خارج في جنوبي الفرات وغربيها[٥]، وفي رواية أخرى يشير إلى أنّها تقع على شعبة من الفرات[٦].

(١) الدّكتور شاكر مصطفى: المدن في الإسلام حتّى العصر العثماني، ذات السّلاسل الكويت ١٩٨٦. إضافة إلى العديد من البحوث الأكاديمية حول جوانب مهمة من حياة المدينة وتاريخها منها على سبيل المثال.
ك. ق. زنرشتيك: الكوفة دائرة المعارف الإسلامية لندن ١٩٢٧ «باللغة الإنكليزية».
الدّكتور صالح أحمد العلي: منطقة الكوفة دراسة طبوغرافية مستندة إلى المصادر الأدبية، مجلة سومر مجلد ٢١ العدد ٢ سنة ١٩٦٥.
الدّكتور طاهر مظفر العميد: تأسيس مدينة الكوفة مجلة المؤرخ العربي العدد ٦ سنة ١٩٧٨.
الدّكتور محمّد حسين الزّبيدي: هجرة القبائل العربية إلى الكوفة في القرن الأوّل الهجري.. مجلة المؤرخ العربي العدد ٩ سنة ١٩٧٨.
(٢) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص١٦٣.
(٣) ياقوت الحموي: شهاب الدّين أبو عبد الله ت ١٣٨٦/ ١٩٥٧ معجم البلدان، دار صادر بيروت، ١٣٧٦/٤ص، ٤٩٠ن قارن سهراب عجائب الأقاليم السّبعة، تحقيق هانس فون فريك فينا ١٣٤٧/ ١٩٢٩ ص٢٨ حيث وضعها ضمن الإقليم الرّابع.
(٤) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكتاب اليعقوبي ت ٢٨٤/ ٨٩٧ كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النّفسية لابن رسته/ ليدن ١٨٩١، ص٣٠٨، قارن البلاذري أحمد بن يحيى ت ٢٧٩/ ٨٩٢م، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمّد رضوان دار الكتاب العلمية، بيروت- لبنان ١٣٩٨/ ١٩٧٨ ص١٢٧٤.
(٥) أبو الفدا: عماد الدّين إسماعيل بن محمّد بن عمر ت ٧٣٢هـ تقويم البلدان، ليدن ١٨٤٠، ص٣٠١.
(٦) الاصطخري: إبراهيم بن محمّد الفارسي أبو إسحاق ت ٣٤٦/ ٩٥٧م المسالك والممالك تحقيق الدّكتور محمّد جابر عبد العالي وزارة الثّقافة والإرشاد القومي القاهرة ١٣٨١/ ١٩٦١ ص٥٨.
ابن حوقل: أبو القاسم محمّد بن علي النّصيبي ت ٣٦٧/ ٩٨٧م، صورة الأرض منشورات مكتبة الحياة بيروت- لبنان (د. ت) ص٢١٥.

المساحة والسّكان:

ذكر الاصطخري إنّ مساحة الكوفة قريبة من البصرة في الكبر[٧]، ويرى ياقوت الحموي أنّ مساحة الكوفة قدرت فكانت ستة عشر ميلاً وثلثي الميل وطولها تسع وستون درجة وعرضها إحدى وثلاثة درجة وثلثان[٨].

ويشير أبو الفدا إلى أنّ الكوفة في القدر كنصف بغداد[٩]، نزلت الكوفة القبائل العربية الّتي خرجت من الجزيرة العربية وحققت الانتصار الكبير على القوات الفارسية في معركة القادسية، إضافة إلى توافد القبائل العربية على هذا المصر بعد التأسيس[١٠] كما انتقل إليها أهل الحيرة وبهذا الصّدد يذكر الاصطخري (إنّ الحيرة خلت من الأهل بعد أن عمرت الكوفة)[١١].

ومن بين القبائل العربية الّتي نزلت الكوفة قوم من الأزد وجدوا (نزهة) على حد قول اليعقوبي فيما بين بجيله وكندة وكذلك نزلت همدان في مناطق من الكوفة، أمّا الأطراف فقد نزلتها قبائل تميم وبكر وأسد[١٢] بلغ عدد سكان الكوفة ثمانون ألفاً ومقاتلتهم أربعون ألفاً[١٣].

وذكر أنّ فيها خمسين ألف دار للعرب من ربيعة ومضر وأربعة وعشرين ألف دار لسائر العرب وستة آلاف دار لليمن[١٤]. ونزل الكوفة جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ مع علي بن أبي طالب وابنه الحسين رضي الله عنهما وأهلها من صرح العرب[١٥].

المناخ:

وصف اليعقوبي الكوفة عامّة مشيراً إلى مناخها قائلاً: (الكوفة من أطيب البلدان وأفسحها وأعدلها وأوسطها)[١٦]. أمّا الاصطخري فيقول: (هواؤها أصح وماؤها أعذب من ماء البصرة)[١٧]، ووافقه في هذا الرّأي ابن حوقل[١٨]. وذهب ابن

(٧) ياقوت الحموي: نفسه ج٤ ص٤٩٢.
(٨) أبو الفدا: نفسه ص٢٩٢.
(٩) ياقوت الحموي: نفسه.
(١٠) الاصطخري: نفسه.
(١١) اليعقوبي: كتاب البلدان ص٣١١.
(١٢) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص١٦٥.
(١٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص ٤٩٢.
(١٤) محمّد بن عبد المنعم الصّنهاجي الحميري: الرّوض المعطار تحقيق د. إحسان عبّاس بيروت ١٩٨٤، ط٢ ص١٠٥.
(١٥) اليعقوبي: نفسه ص٣٠٩.
(١٦) الاصطخري: المسالك والممالك ص٥٨.
(١٧) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٥.
(١٨) ابن الفقيه: نفسه ص٩٣، انظر كذلك هامش رقم ٧٤.

الفقيه أبعد من ذلك في بيان مناخ الكوفة فقال: (سفلت عن برد الشّام وارتفعت عن حر اليمن فطاب ليلها وكثر خيرها)[1] ويضيف ياقوت الحموي إلى هذا قائلاً: (سفلت عن الشّام ووبائها وارتفعت عن البصرة وحرها فهي (برية) مريئة مريعة إذا أتتنا الشّمال ذهبت شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا أصبت الجنوب جاءتنا ريح السّواد وورده وياسمينه واترنجه ماؤنا عذب وعشبنا خصب[2].

أسباب اختيار الموقع:

من البديهي أنّ الأسباب الرّئيسية الّتي حملت المسلمين على تمصير الكوفة تكمن في أهمية الموقع العسكري شأنها في ذلك شأن الأمصار الإسلامية الأخرى (البصرة- الفسطاط- القيروان) فحاجة الجيش العربي الإسلامي المندفع من الجزيرة حاملاً لواء الإسلام إلى مقرات متقدمة لتجمعه وحمايته وانطلاقه في تنفيذ رسالته السّماوية المتمثلة بالمبادئ والقيم الّتي نادى بها الإسلام، حتمت على قادة هذه الجيوش بناء الأمصار الإسلامية. وكان للخليفة الرّاشدي الثّاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدّور البارز في اختيار مواقع الأمصار.

فقد ذكر أنّ للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصدر أمره إلى سعد بن أبي وقاص قائد القادسية أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً[3]، تتوفر فيه الشّروط والمستلزمات الّتي شدد عليها القادة العرب آنذاك وهي أن تكون على اتصال سهل ووثيق بمركز الخلافة في المدينة المنورة لكي تصبح عملية وصول الإمدادات ونقل الأخبار بينها وبين المركز سهلة ميسورة وكذلك لكي تطابق الإستراتيجية العربية في مسألة الانسحاب عندما يواجه العرب المقاتلون مصاعب عسكرية إلى الصّحراء[4].

وهناك أكثر من رواية ترد في مصادرنا الجغرافية تدور حول الكيفية الّتي توصل بها العرب إلى اختيار موقع الكوفة. فالمسعودي ت ٣٤٥/ ٩٥٦ حدد العامل الجغرافي وعدّه هو الأساس في اختيار الموقع (مصرّ سعد الكوفة في سنة خمسة عشرة ودلهم على موضعها (ابن) نفيلة الغساني (الّذي) قال لسعد: أدلك على أرض ارتفعت عن البر وانحدرت عن الفلاة، فدله على موضع الكوفة اليوم...)[5] ولم تبتعد الرّواية الثّانية عن العامل الجغرافي ولكنها توسعت وضمت العوامل التّاريخية والدّينية جنباً إلى جنب مع العامل الجغرافي. فقد أكدت هذه الرّواية على أنّ سعد بن أبي وقاص بعث اثنين من قادته لاختيار موقع لجنده حتّى أتيا الأنبار فسار أحدهما في غرب الفرات لا يرض شيئاً حتّى وصل الكوفة، وسار الآخر في جانب الشّرقي حتّى وصل الكوفة فأكبا عليها وفيها ديارات ثلاث[6]. فأعجبتهما البقعة فنزلا وصليا ودعا كل واحد منهما: «اللّهم رب السّماوات وما أظلت، ورب الأرضيين وما أقلت، ورب الرّياح وما أذرت، والنّجوم وما هوت، والبحار وما حوت بارك لنا في هذه الكوفة واجعله منزل ثبات»[7]. ويؤكد أبو عبيد البكري ت ٤٨٧/ ١٠٩٤ على العامل الدّيني في اختياره الكوفة فقد قيل أنّ الموقع كان منزل نوح عليه السلام[8].

ثانياً: المحور اللّغوي والأدبي:

أصل التّسمية:

قدمت مصادرنا الجغرافية روايات متنوعة ومتعددة المصادر عن أصل تسمية الكوفة. فذكر ابن الفقيه الهمداني عن قطرب ت ٢٠٦هـ/ ٨٢١م أنّها سميت الكوفة من قولهم (تكّوف الرّمل أي ركب بعضه بعضاً) وينقل أيضاً عن أبي حاتم السّجستاني ت ٢٤٨هـ/ ٨٦٢ قوله: (الكوفة رملة مستديرة يقال كأنّهم في كوفان والكوفان تعني الاستدارة)[9]. وقد أخذ بهذا الرّأي أبو الفداء وأضاف أيضاً أنّها سميت كوفة من اجتماع النّاس أخذاً من قولهم تكوّف الرّمل إذا ركب بعضه بعضاً)[10] أمّا ابن عبد الحق البغدادي ت ٧٣٩/ ١٣٣٩م فيرى أنّها سميت كوفة بموضعها من الأرض وذلك أنّ كلّ رملة يخالطها حصى سمي الكوفة[11].

ويقدم ياقوت الحموي عرضاً تفصلياً شاملاً لأصل التّسمية معتمداً على آراء اللّغويين والرّوايات التّاريخية فالكوفة

(١) ياقوت الحموي: نفسه ج٤ ص٤٩٢.

(٢) البلاذري/ فتوح البلدان ص٨٣.

(٣) البلاذري: نفسه، عبد الجبار ناجي دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ص٨٣.

(٤) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذّهب ومعادن الجوهر، تحقيق محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة التّجارية الكبرى مصر ١٣٨٤/ ١٩٦٤ ط٤ ج٢ ص٣٢٩.

(٥) الحميري: الرّوض المعطار ص١٠٥.

(٦) المصدر نفسه ص٥٠٢.

(٧) البلاذري: نفسه ص٢٧٥، الحميري نفسه، ص٥٠٢.

(٨) أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السّقا، لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر القاهرة ١٣٧١/ ١٩٥١ ج٤ ص١١٤١.

(٩) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص١٦٢.

(١٠) أبو الفدا: تقويم البلدان ص٣٠١.

(١١) ابن عبد الحقّ البغدادي حقي الدّين عبد المؤمن ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع تحقيق علي محمّد البجاوي- بيروت- لبنان ١٣٧٤/ ١٩٥٥ ط٣ ج٣ ص١١٨٧، انظر كذلك، المقدسي: شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أحمد المقدسي البشاري ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٦م أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٩، ص١١٦.

كما ذكر تعني الاستدارة وذلك من قول العرب: رأيت كوفاناً وكوفاناً بضم الكاف وفتحها للرّميلة المستديرة ومنه قولهم: كأنّهم يدورون في كوفان بضم الكاف وبفتحها وقد تشدد الواو أي في شيء مستدير.

والكوفة تعني التّجمع وذلك لاجتماع النّاس بها من قولهم تكوّف الرّمل يتكوّف تكوّفاً إذا ركب بعضه بعضاً.

وتعني أيضاً القطعة: قيل سميت كوفة لأنّها قطعة من البلاد، من قول العرب أعطيت فلاناً كيفة أي قطعة ويقال أيضاً كفت أكيف كيفاً إذا قطعت، فالكوفة قطعة من هذا انقلبت الياء فيها واواً لسكونها وانضمام ما قبلها وكوفان اسم أرض وبها سميت الكوفة وكوفان والكوفة واحد:

وقيل أنّ الاسم اشتق من الجبل الموجود في المنطقة وهو جبل ساتيدما الّذي يحيط بها كالكفاف عليها وهؤلاء يؤكدون قول ابن الكلبي ت ١٤٦هـ/ ٧٦٣م إنّها «سميت كوفة بجبل صغير في وسطها كان يقال له كوفان عليه اختطت مهرة موضعها وكان هذا الجبل مرتفعاً فسميت به» وأطلق عليها أيضاً كوفة الجند من قول الشّاعر[١]:

إنّ الّتي وضعت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند غالت ودّها غولُ

ما قيل في مدح الكوفة وأهلها-

روى عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال:

«الكوفة كنز الإيمان وجمجمة الإسلام وسيف الله يضعه حيث يشاء والّذي نفسي بيده لينصرن الله جلّ وعزّ بأهلها من شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز وكان رضي الله عنه يقول: (حبذا الكوفة أرض سهلة معروفة تعرفها جمالنا المعلوفة) وروى عن مالك بن دينار ت ١٣١هـ/ ٧٤٨م أنّه قال (كان علي بن أبي طالب إذا أشرف على الكوفة قال):

يا حبذا مقالنا بالكوفة
أرض سواء سهلة معروفة
تعرفها جمالنا العلوفة

وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ليأتين على الكوفة زمان وما من مؤمن ولا مؤمنة إلاّ بها أو قلبه يحن إليها وقال كرّم الله وجهه مخاطباً الكوفة والبصرة «ويحك يا كوفة وأختك البصرة كأنّي بكما تمدّان مد الأديم وتعركان عرك المكاصي إلاّ أنّي أعلم فيما أعلمني الله عزّ وجلّ أنّه ما أراد بكما جبارٌ سوءاً إلاّ ابتلاه الله بشاغل»[٢].

وكان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى سيد الأمصار وجمجمة العرب يعني الكوفة. يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار.

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٤٩٠- ٤٩٣.
(٢) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان ١٦٤- ١٧٣.

وكتب إليهم قائلاً: (إنّي اختبرتكم فأحببت النّزول بين أظهركم لما أعرف من حُكم الله ولرسوله وقد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود مؤذناً ووزيراً وهما من النّجباء من أهل بدر فخذوا عنهما واقتدوا بهما وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود عن نفسي)[٣]. وكتب أيضاً إلى أهل الكوفة رأس العرب وكذلك رأس الإسلام.

وقال الخليفة أبو العبّاس السّفاح (١٣٢- ١٣٦/ ٧٤٩- ٧٥٣) في جلسة افتخار بين الكوفيين والبصريين الكوفة بلاد الأدب ووجه العراق ومبزغ أهله وعليها الجحاش وهي غاية الطّالب ومنزل خيار الصّحابة وأهل الشّرف[٤]، وقال ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى ﴿**وأسقيناكم ماء فراتاً**﴾[٥] هي أربعة أنهار سيحان وجيحان والفرات والنّيل الّذي بمصر فأمّا سيحان فدجلة وأمّا جيحان فنهر بلخ وأمّا الفرات فبالكوفة وقال المختار (حبّ أهل الكوفة شرف بغضهم تلف).

وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب ت ٧٣هـ/ ٦٩٢م يقول: (يا أهل الكوفة أنتم أسعد النّاس بالمهدي). وكان زياد ابن أبيه ت ٥٣هـ/ ٦٧٣ يقول (الكوفة جارية حسناء تصنع لزوجها فكلّما رآها يسر بها) وتذاكروا عنده في البصرة والكوفة فقال زياد: (لو خلت البصرة لجعلت الكوفة لمن يدلني عليها) وقال الحجاج بن يوسف الثّقفي ت ٩٥هـ/ ٧١٤م لزادان فروخ أخبرني عن العرب والأمصار.. قال أخبرني عن أهل الكوفة قال: (نزلوا بحضرة أهل السّواد فأخذوا من ضيافتهم وسماحتهم) ووفد الحجاج على عبد الملك بن مروان ت ٨٦هـ/ ٧٠٥م ومعه أشراف العراق فلمّا دخلوا عليه تذاكروا أمر الكوفة والبصرة فقال محمّد بن عمير العطاردي نحو ت ٨٥هـ/ نحو ٧٠٥م (إنّ أرض الكوفة أرض سفلت عن الشّام وعملها ووبائها وارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها وهي مدينة مريحة) وقالوا (الكوفة سفلت عن برد الشّام وارتفعت عن حر اليمن فطاب ليلها وكثر خيرها)[٦] وذكر أنّ الكوفة مدينة العراق الكبرى والمصر الأعظم وقبة الإسلام ودار هجرة المسلمين، وقيل (أهل الكوفة أهل الله وهي قبة الإسلام يحن إليه كلّ مسلم) وقالوا من نزل الكوفة فلم يقر لهم بفضل ثلاث فليست له بدار (بفضل ماء الفرات ورُطَب المُشَان وفضل أمير المؤمنين علي عليه السلام وقالوا جميعاً (إذا كان علم الرّجل حجازياً وطاعته شامياً وسخاؤه كوفياً فقد كمل)[٧].

(٣) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان ١٦٤- ١٧٣.
(٤) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان ١٦٤- ١٧٣.
(٥) المرسلات (آية٧٧).
(٦) ابن الفقيه: ص٩٣، ٩٥، ١١٤، ١٦٣، ١٦٥.
(٧) اليعقوبي: كتاب البلدان ص٣٠٩.

قول أهل الكوفة في مدينتهم وأنفسهم:

عن علي بن محمّد المدائني ت ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م أنّه قال (وفد خالد بن صفوان ت ١٣٣هـ/ ٧٥٠م على عبد الملك بن مروان فوافق عنده وفد جمع الأمصار وقد اتخذ مسلمة مصانع له فسأل عبد الملك أن يأذن لهم بالخروج من تلك المصانع فأذن لهم...

ثمّ أقبل على وفد الكوفة فقال هل فيكم مثلها؟ فقال لا إلاّ أنّ فينا تلاوة القرآن) وقالوا عن مساهمتهم في حرب التّحرير الإسلامية أنّ لهم فتوحاً وأيّاماً فمن فتوحهم الحيرة وبانقيا والفلوجتين وتستر وبغداد وعين التّمر ودومة الأنبار، وفتحوا مع خالد بن الوليد في مسيرة نحو الشّام المضيح وحصير وبشر وقراقر وسوى وأراك وتدمر. ثمّ شاركوا أهل الشّام في بصرى ودمشق وهذا كلّه في خلافة أبي بكر الصّدّيق ﷺ ومن أثارهم في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ يوم جسر أبي عبيد، ويوم مهران ويوم القادسية ويوم المدائن وجلولاء وحلوان وهذا كلّه قبل أن ينزلوا الكوفة، وبعد أن نزلوا الكوفة حرروا الموصل وفتحوا أذربيجان وتستر وماسيدان ورامهرمز ورجرجان والدّينور وساهموا مع أهل البصرة في الفتوحات على الجبهة الشّرقية في نهاوند وبعض الرّي وبعض أصبهان ولهم طمس وناحية من طبرستان.

وروى أنّه (اجتمع أهل العراق عند يزيد بن هبيرة١٣٢هـ/ ٧٥٠م فقال يزيد بن هبيرة أي البلدين أطيب ثمرة الكوفة أم البصرة؟ فقال خالد بن صفوان ثمرتنا أطيب أيّها الأمير منها كذا ومنها كذا فقال عبد الرّحمن بشير العجلي لست أشك أيّها الأمير ألا وأنّكم قد اخترتم للخليفة ما تبعثون به إليه فقال أجل فقال قد رضينا بأن تحكم لنا وعلينا.

فأي الرّطب تحملون إليه قال المُشَان قال فليس بالبصرة منه واحدة، فأي الثمر تحملون إليه قال (النّرسيّان) قال وهذا فليس بالبصرة منه واحدة، قال والهُيْرنُ والأَزاذ قال وهذا فليس بالبصرة منهما واحدة. ثمّ قال فأي القسب تحملون قسب العنبر قال وهذا فليس بالبصرة منه واحدة قال أفلست تعلم أنّها أفضل من البصرة)[١].

ثالثاً: المحور التّنظيمي الإنشائي:

يفهم من رواية اليعقوبي أنّ البناء في الكوفة تم بموجب خطة محكمة وبتوجيه مباشر من مركز الخلافة الإسلامية ومن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بالذّات. فقد ذكر أنّه كتب إلى سعد (أن يجعل شكل الكوفة خمسين ذراعاً بالسّوداء)[٢] وتناولت مصادرنا كيفية التّخطيط والتّقسيم ويشير إلى ذلك البلاذري قائلاً (لمّا انتهى سعد إلى موضع مسجدها أمر رجلاً فعلى بسهم قبل مهب القبلة فأعلم على موقفه ثمّ علا بسهم آخر قبل مهب الشّمال وأعلم على موقفه ثمّ علا بسهم قبل مهب الجنوب وأعلم على موقفه ثمّ علا بسهم قبل مهب الصّبا فأعلم على موقفه، ثمّ وضع مسجدها ودار إمارتها في مقام العالي وما حوله)[٣] ثمّ أسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنّه من خرج بسهمه أولاً فله الجانب الشّرقي وهو خيرها فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشّرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الإمارة[٤].

وكانت منازل أهل الكوفة قبل أن تبنى إخضاضاً من قصب إذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها فإذا عادوا بنوها فكانوا يغزون ونساؤهم معهم وفي أيّام المغيرة بن شعبة ت ٥٠هـ/ ٦٧٠م بنت القبائل باللّبن من غير ارتفاع ولم يكن لهم غرف وفي إمارة زياد بنوا أبواب الآجر فلم يكن في الكوفة أكثر أبواب الآجر من مراد والخزرج[٥].

وفي ميدان البناء والتّشييد فقد سار وفق الخطة الّتي أقطع بها عمر بن الخطاب رسول الله وكانت كالآتي حسب رواية اليعقوبي[٦].

قبيلة عبس وأقطعها إلى جانب المسجد ثمّ تحول قوم منهم إلى أقصى الكوفة.

وأقطع جماعة من قيس وسلمان بن ربيعة الباهلي والمسيب بن نجية الفزاري حيال دار ابن مسعود.

واختط بأمر من الخليفة عبد الله بن مسعود وطلحة بن عبيد الله وعمر بن حريت دورهم حول المسجد.

وأقطع سعد بن قيس عند دار سلمان بن ربيعة يفصل بينهما الطّريق.

أمّا جبير بن مطعم فبنى داراً ثمّ باعها من موسى.

وأقطع خالد بن عرفطة وخباب بن الأرت وعمرو بن الحارث بن أبي ضرار وعمارة بن زوبيبة التّميمي.

وأقطع أبا مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري.

وكانت قطائع بني شمخ بن فزارة مما يلي جبيتة.

أمّا هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فقد أقطعة في شهارسوج حنيسس.

وأقطع لشريح بن الحارث الطّائي.

وأسامة بن زيد دار ما بين المسجد إلى دار عمرو بن الحارث بن أبي ضرار.

---

(١) ابن الفقيه: ص١٦٣، ١٦٥، ١٦٧، ١٧٥، ١٧٦.

(٢) اليعقوبي: كتاب البلدان ص٣١١، قارن الطّبري محمّد بن جرير ت ٣١٠هـ/ ٩١٢م، تاريخ الرّسل والملوك، ليدن ١٩٦٤، ج٥ ص٢٤٨٨.

(٣) البلاذري ص٢٧٥.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤: ٤٩١- ٤٩٢.

(٥) المصدر نفسه: ج٤: ٤٩١- ٤٩٢.

(٦) المصدر نفسه: ص٣١٠.

ولأبي موسى الأشعري نصف الأرى وكان فضاء عند المسجد.

والنّصف الآخر لحذيفة بن اليمان مع جماعة من عبس وهو فضاء كانت فيه خيل من المسلمين.

أمّا الرّحبة الّتي تعرف بعلي بن أبي طالب عليه السلام فقد كانت من نصيب عمرو بن ميمون الأودي.

وأقطع أبا جبيرة الأنصاري وكان على ديوان الجند.

وناحية جبانة بشر أصبحت من نصيب عدي بن حاتم وسائر طي.

وأقطع الزّبير بن العوام.

ولجرير بن عبد الله البجلي وسائر بجيله قطيعه واسعة كبيرة.

وكانت قطائع الأشعث بن قيس الكندي وسائر كندة من ناحية جهينة إلى بني أود.

وأخيراً أقطع أبا عبد الله الجذلي في بجيله.

واستقطع سعد بن أبي وقاص لنفسه الدّار الّتي تعرف بدار عمر بن سعد.

وتنتشر في الكوفة العديد من المواقع والمحال والمقابر ذات الأهمية التّاريخية والدّينية وقدم لنا جغرافيونا قائمة مفصلة بهذه المواقع نوردها حسب تسلسلها في المصادر:

قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ويقال أنّه بموضع يلي زاوية جامعها وأخفي من أجل ألا يعثروا عليه بنو أمية، ويزعم أكثر ولده أنّ قبره بالمكان الّذي ظهر فيه قبر على بعد فرسخين من الكوفة[١].

دكان علاف: وهو يقع في موضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

الغريان: بناهما المنذر بن امرئ القيس بن ماء السّماء وكان سبب ذلك أنّه كان له نديمان من بني أسد خالد بن نظله وعمرو بن مسعود وأنّهما ثملا من النّبيذ ليلة فرادا الملك بعض الكلام فأمر مخضر لها صغيرتان بجانب البئر بظهر الكوفة فدفنا فيه حيين وفيهما يقول الشّاعر[٢]:

ألا بكر النّاعي بخيري بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسّيّد الضّمد

الحيرة البيضاء: وهي الكوفة وكانت الملوك تنزلها قبل أن تبنى الكوفة لطيب هوائها وفضلها على سائر المواضع[٣]، وقيل فيها أنّ يوماً وليلة بالحيرة خير من دواء سنة، وفي هذا الصّدد يقول الشّاعر:

فإن بها لو تعلمين أصائلاً وليلاً رقيقاً مثل حاشية البرد

شهار سوج: ومعناه شهار طاق بجبلة بالكوفة نسب إلى قبيلة بجيلة وهم ولد مالك بن ثعلبة.

زرارة: نسب إلى زراره بن يزيد بن عمرو بن عنس من بني اليكار وكانت منزله فأخذها معاوية بن أبي سفيان.

دار حكيم: وهو بالكوفة في أصحاب الأنماط نسبت إلى حكيم بن سعد بن ثور البكائي.

السّوارية: محلة بالكوفة نسبت إلى سوار بن زيد العبادي الشّاعر.

قرية أبي صلابه: وهي على الفرات نسبت إلى صلابة بن مالك بن طارق العبدي.

اقتباس مالك: تنسب إلى مالك بن قيس.

دار قمام: نسبت إلى قمام بنت الحارث بن هاني الكندي وهو عند دار الأشعث بن قيس.

بيعة عدي: نسبت إلى بني عدي بن الدّبيل من لخم.

طير ناباذ: تدعى أيضاً ضير ناباذ منسوبة إلى ضيزن بن معاوية بن العبيد السّليحي.

محلة بني شيطان: منسوبة إلى شيطان بن زهير بن زيد مناة من تميم.

رحا عمارة: محلة نسبت إلى عمارة بن عقبة بن أبي مقيط

سكة البريد: وكانت بيعة لأمّ خالد بن عبد الله القسري.

المدينة الهاشمية: وهي الّتي بناها أبو العبّاس بحيال الكوفة وكان قد نزلها ثمّ اختار نزول الأنبار فبنى فيها مدينتها المعروفة به، فلما استخلف المنصور نزل المدينة الهاشمية بالكوفة واستتم بناؤها وزاد فيها ثمّ تحول إلى بغداد.

الرّصافة: وبالكوفة الرّصافة وهي الّتي أمر ببنائها الخليفة المنصور[٤].

شوميا: وهو موضع بالكوفة نزله جيش مهران لمحاربة المثنى والمسلمين[٥].

الكناسة: وهي محلة بالكوفة عندها واقع يوسف بن عمر الثّقفي زيد بن علي بن أبي طالب[٦].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٥، الاصطخري: المسالك والممالك ص٥٨.

(٢) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص١٧٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص١٩٦.

(٣) ابن الفقيه: نفسه ص١٨١، ياقوت الحموي نفسه ج٤ ص٣٢٨، قارن المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١١٦.

(٤) ابن الفقيه المصدر نفسه وأمر الخليفة مولاه أبه الخصيب فبنى له القصر المعروف بأبي الخصيب على أساس قديم له ويقال بل بناه لنفسه.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص٣٧٤، قارن لويس ماسنيون خطط الكوفة ص٨٨، يطلق عليها الجرفين ولم نجد ذكراً لهذا الموضع في معجم البلدان.

(٦) المصدر نفسه: ج٤ ص٤٨١، لويس ماسنيون ص ٧٨- ٤، ويصفها المقدسي قائلاً (محلة من قبل البادية وهو بلد مختل قد خرب أطرافه) أحسن التّقاسيم ص١١٧.

رابعاً: المحور العمراني:

يتناول هذا المحور الجوانب العمرانية المتميزة الّتي أثارت انتباه الجغرافيين العرب فأولوها اهتمامهم وقدموا مادة أساسية ساعدت على رسم الصّورة الّتي كانت عليها المدينة في مراحل نموها وازدهار الحياة فيها، وتبين أيضاً مدى اهتمام العرب المسلمين بالجوانب العمرانية خاصة بناية المساجد والقصور والأسواق الّتي تعين القارئ على فهم الحياة الثّقافية والاجتماعية والاقتصادية للمدينة الإسلامية.

المساجد:

انتشرت في مدينة الكوفة العديد من المساجد، وإذا علمنا إنّ محور الحياة العامة للمسلمين تدور حول المسجد أدركنا الدّور الكبير الّذي لعبته مساجد الكوفة في ازدهار الحركة الفكرية والعلمية والسّياسية وحتّى العسكرية، ومن بين المساجد الّتي ذكرها الجغرافيون هي:

مسجد الكوفة: وهو الجامع العتيق وقد اختلف في مساحة المسجد فمن قائل أنّه تسعة أجربة وقيل ستة أجربة وأقفزه[1]. وقال عنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (هو أحد المساجد الأربعة الّتي تعظم ولأن أصلّي ركعتين أحب إليّ من أن أصلّي عشرة في غيره إلاّ في المسجد الحرام ومسجد الرّسول صلى الله عليه وآله، ومن الرّوايات في تعظيم هذا المسجد أنّه قيل (إنّ المكتوبة في مسجد الكوفة تعدل حجة والتّطوع يعدل عمرة)[2] ومن فضائله ما روي أنّه بينما كان الإمام علي عليه السلام جالساً يوماً أتاه رجل فقال: (يا أمير المؤمنين هذه راحلتي وزادي أريد هذا البيت بيت المقدس، فقال عليه السّلام كُلْ زادك وريح راحلتك وعليك بهذا المسجد يعني مسجد الكوفة فإنّه أحد المساجد الأربعة)[3] ركعتان فيه تعادلان عشراً في سواه من المساجد والبركة منه إلى اثني عشر ميلاً من حيث ما أتيته وهي نازلة من كذا إلى ذراع وفي زاويته فار التّنور وعند الاسطوانة الخامسة صلّى إبراهيم عليه السلام وفيه صلّى ألف نبي وألف وصي وفيه عصا موسى والشّجرة اليقطين وفيه هلك يغوث ويعوق وهو الفاروق، وفيه مسير لجبل الأهواز، وفيه مصلى نوح عليه السلام ويحشر منه يوم القيامة سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ووسطه روضة من رياض الجنة وفيه ثلاثة أعين من الجنة تذهب الرّجس وتطهر المؤمنين ولو علم النّاس ما فيه من الفضل لأتوه حبواً)[4] وقال السّيد إسماعيل بن محمّد الحميري ت ١٧٣/ ٧٨٩م يذكر مسجد الكوفة[5]:

لعمرك ما من مسجد بعد مسجد ... بمكة ظهراً أو مصلى بيثرب
بشرق ولا غرب علمنا مكانه ... من الأرض معموراً وال متجنب
بابين فضلاً من مصلى مبارك ... بكوفان رحب ذي أواسي ومخصب
مصلى به نوح تاتل وابتلى ... به ذات جزوم وصدر محتسب
وفار به التّنور ماء وعنده ... له قيل يا نوح في الفلك فاركب
وباب أمير المؤمنين الّذي به ... ممر أمير المؤمنين المهذب

مسجد السّهلة: أو مسجد عبد القيس أو مسجد القرى أو مسجد بني الظّفر ويسمى أيضاً المسجد البري[6].

مسجد سماك: وهو مسجد منسوب إلى سماك بن مخرمة بن حسن الأسدي[7].

مسجد بني عنتر: وينسب إلى عنتر بن وائل بن قاسط ويقع في الجنوب الغربي من مسجد الكوفة[8].

مسجد بني جذيمة: وينسب إلى جذيمة بن مالك بن نصر ويقع جنوب غربي مسجد الكوفة[9].

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال بالكوفة أربع بقاع قدس مقدسة فيها أربع مساجد قيل سمها يا أمير المؤمنين فسمى هذه المساجد على النّحو التّالي:

- **مسجد ظفر** وهو مسجد السّهلة إنّ أطنابها لعلى ياقوتة خضراء ما بعث الله نبياً إلاّ صورة وجهه فيها[10].

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٤٩٢، تفاصيل عن المسجد انظر كامل سلمان الجبوري مساجد الكوفة ص٢٦- ٤٥.

(٢) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص١٧٣، كامل سلمان الجبوري نفسه ص٢٩.

(٣) يقصد بالمساجد الأربعة (المسجد الحرام، ومسجد الرّسول صلى الله عليه وآله في المدينة والمسجد الأقصى في فلسطين ومسجد الكوفة، وعن سعة مسجد الكوفة ذكر أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر سعداً أن يختط موضع المسجد الجامع على عدّة مقاتلته فخطّ على أربعين ألف إنسان، فلما قدم زياد زاد فيه عشرين ألف إنسان وجاء بالأجر، وجاء بأساطينه من الأهواز، ياقوت الحموي نفسه ج٤ ص٤٩١، كامل سلمان الجبوري نفسه ص٦٢.

(٤) ياقوت الحموي: نفسه ج٤ ص٤٩٢، قارن ابن بطوطة محمّد بن عبد الله بن محمّد بن إبراهيم اللواتي الطّنجي ت ٧٧٩/ ١٣٧٧ رحلة ابن بطوطة المكتبة التّجارية الكبرى مصر ١٣٧٧/ ١٩٥٨ ج١ ص١٣٧.

(٥) ياقوت الحموي: نفسه ج٤ ص٤٩٣.

(٦) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص١٧٤، لويس ماسنيون نفسه ص١١٤ هامش ٦، ص١١٩، كامل سلمان الجبوري نفسه ص١٣٧- ١٣٨.
انظر مكانة هذا المسجد الدّينية ياقوت معجم البلدان ج٣ ص٢٩٠.

(٧) البلاذري: ص٢٨٣، ابن الفقيه ص١٨٣ وفي سماك هذا وفي جامعة يقول الأخطل:

إن سماكا بني مسجداً لأسرته ... حتّى الممات وفعل الخير يتدر
قد كنت أحسبه قيناً وأخيره ... فاليوم طير على أثوابه الشّرر

(٨) ابن الفقيه: نفسه ص١٨٣، ويقع في حي أسد، روي أنّ الإمام علي كرم الله وجهه صلّى فيه ثمّ توجّه لزيارة يونس بن متي، البراقي تاريخ الكوفة ص٩٩، الجبوري مساجد الكوفة، ص١٨٨.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٣ن ابن الفقيه نفسه ص١٨٣، البراقي نفسه ص٩٩، الجبوري نفسه ص١٨٦.

(١٠) ابن الفقيه: نفسه ص١٧٤، الجبوري نفسه ص١٣٨.

- **مسجد جعضي** لا تذهب الأيّام والليالي حتّى تنبع منه عين.
- **مسجد غنى** لا تذهب الأيّام والليالي حتّى تنبع منه عين وله جنينة[١].
- **مسجد الحمراء** وهو موضع بستان لا تذهب الليالي والأيّام حتّى تنبع عين تنظف ما حواليه وفيه قبر أخي يونس بن متي.

القصور:

وفي الكوفة إضافة إلى قصر الإمارة عدد من القصور الّتي ذكرها الجغرافيون وهي:

قصر العدسيين[٢]: يقع في طرف الحيرة، وهو لبني عمار بن عبد المسيح بن قيس بن حرملة بن علقمة بن عشير بن الرّماح بن عامر المذمم بن عوف بن بكر، نسبوا إلى جدّتهم عدسة بنت مالك بن عوف الكلبي[٣].

قصر يزيد بن عمر بن هبيرة: ويقع بالقرب من جسر شورا.

قصر أبي الخصيب: بني من قبل أبو الخصيب مرزوق مولى الخليفة أبو جعفر المنصور.

قصر مقاتل: نسب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة.

قصر الكوفة: ينسب إليه عبد الخالق بن محمّد بن المبارك الهاشمي[٤].

الأسواق:

كانت أسواق الكوفة تمتد من القصر والمسجد إلى دار الوليد بن عقبة من جهة إلى القلايين ودور ثقيف واشجع من الجهة الأخرى، وكانت سقوقها من الحصر والبواري إلى زمن الوالي خالد بن عبد الله القسري[٥] ومن أشهر هذه الأسواق:

سوق أسد: ينسب إلى أسد بن عبد الله القسري.

سوق يوسف: نسب إلى يوسف بن عمر بن محمّد بن الحكم بن عتبة الثّقفي، ابن عم الحجاج[٦].

سوق حكمة: وهو موضع بنواحي الكوفة[٧].

(١) قارن لويس ماسنيون خطط الكوفة ص١١١- ١٩٣، ويذكره الجبوري ضمن المسّاجد المباركة ص١٨٦.
(٢) ابن الفقيه: المصدر نفسه ص١٨٤، الشّابشتي أبو الحسن علي بن محمّد ت ٣٨٨/ ٩٩٨ الدّيارات تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف بغداد ١٣٧٦/ ١٩٦٦ ط٢ ص٢٣٨، ياقوت الحموي نفسه ج٤ ص٣٦٠.
(٣) ياقوت الحموي نفسه ج٤ ص٣٦١.
(٤) ابن الفقيه نفسه ص١٨٤، ياقوت الحموي نفسه ج٤ ص٣٥٤.
(٥) اليعقوبي: كتاب البلدان ص٣١١.
(٦) ابن الفقيه: نفسه ص١٨٢، قارن ياقوت الحموي نفسه ج٤ ص٣٦٤.
(٧) ياقوت الحموي المصدر نفسه ج٤ ص٣٦٣.

الحمامات:

تنتشر في أرض الكوفة عدد من الحمامات ومنها:

حمام أعين: نسب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص[٨].

حمام عمر: نسب إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص.

حمام سعد: وهو بطريق الحاج بالكوفة[٩].

المقابر (الجبانات):

توجد في الكوفة العديد من المقابر وهي في الأصل الصّحراء[١٠] وأهل الكوفة يسمون المقابر جبانة كما يسميها أهل البصرة مقبرة[١١]، ويذكر لنا الجغرافيون عدداً من هذه المقابر وهي:

جبانة كندة: وهي مشهورة وهي لكندة وربيعة[١٢].

جبانة السّبيع: وكان بها قوم لمختار بن عبيد[١٣].

جبانة ميمون: تنسب إلى أبي بشير ميمون مولى محمّد بن علي بن عبد الله بن عبّاس صاحب الطّاقات[١٤] وتقع بالقرب من باب الشّام[١٥].

جبانة عرزوم: تنسب إلى رجل كان يصنع اللبن ويجففه وكانت لبني عبس[١٦].

جبانة سالم: تنسب إلى سالم بن عرار بن بكر[١٧].

جبانة بشر: «الخثعمي» بطن من طي: وتقع ناحية قطيعة عدي بن حاتم وسائر طي[١٨].

الأديرة:

الدّير هو البيت الّذي يتعبد فيه الرّهبان ولا يكاد يكون في المدن، إنّما يكون في الصّحارى ورؤوس الجبال، فإن كان في المدن والأمصار كان كنيسة أو بيعة[١٩]، وتضم أرض الكوفة كثيراً من الأديرة وهي:

(٨) اليعقوبي: كتاب البلدان ص٧١١، لويس ماسنيون خطط الكوفة ص٩٤- ٩٥.
(٩) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٠، ياقوت الحموي نفسه ج٢ ص٢١٩.
(١٠) ياقوت الحموي: المصدر نفسه ج٢ ص٢٩٩.
(١١) عن دورها في الحياة السّياسية، الدّكتور محمّد حسين الزّبيدي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ص٣٤.
(١٢) ياقوت الحموي: المصدر نفسه ج٢ ص٩٩.
(١٣) اليعقوبي: كتاب البلدان ص٣١١، لويس ماسنيون نفسه ص٧٣.
(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٨٠، ياقوت الحموي نفسه ج٢ ص٩٩، لويس ماسنيون نفسه ص٧٤، كاظم إبراهيم الجنابي تخطيط الكوفة ص٩٤.
(١٥) ابن الفقيه: نفسه ص١٨٤، البلاذري نفسه ص٢٨٦، لويس ماسنيون نفسه ص٧٥، كاظم الجنابي نفسه ص٩٤.
(١٦) لويس ماسنيون: نفسه ص٧٥.
(١٧) اليعقوبي: كتاب البلدان ص٣١١، ابن الفقيه نفسه ص١٨٢.
(١٨) البلاذري: نفسه ص٢٨٣، ابن الفقيه نفسه ص١٨٣.
(١٩) اليعقوبي: نفسه ص٣١٠.

ديارات الأساقف: وهي بظاهر الكوفة وفي أوّل الحيرة وهي قباب وقصور تسمى ديارات الأساقف وبحضرتها نهر يعرف بالغدير عن يمينه قصر أبي الخصيب وعن شماله السّدير[١].

دير سرجس: وهذا الدّير كان بطيزناباذ ويقع بين القادسية والكوفة على حافة الطّريق وبينه وبين القادسية ميل، وربما هو دير الزّرنوق الّذي أشار إليه ياقوت الحموي[٢].

دير هند: نسبة إلى هند بنت النّعمان بن المنذر[٣].

وفيه يقول الشّاعر:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... لدى دير هند والحبيب قريب

دير الأعور: وهذا الدّير بظاهر الكوفة بناه رجل من إياد يقال له الأعور من بني حذافة بن زهر بن إياد[٤].

دير الجماجم: دير لإياد وكان بين حيين فيهم قتال فلما انتهى القتال دفنوا قتلاهم عند الدّير فكان بعد ذلك إذا حفروا فيه لبعض أمورهم وجدوا جماجم فيخرجونها فسمي دير الجماجم[٥].

دير قرة: بإزاء الحمام وهو منسوب إلى قرة رجل من بني حذافة من إياد[٦].

دير حنة: وهو دير قديم بظاهر الكوفة والحيرة وفيه يقول الشّاعر[٧]:

يا دير حنه عند القائم السّاقي ... إلى الخورنق من دير ابن براق

دير الشّاء: وهذا الدّير يقع بأرض الكوفة على بعد فرسخ وميل من النّخيلة[٨].

دير السّوا: وهو بظاهر الكوفة ومعناه دير العدل وكان النّاس يتحالفون عنده فيتناصفون، وقال الكلبي: هو منسوب إلى رجل من إياد، وقيل: هو منسوب إلى بني حذافة وقيل السّوا امرأة من بني حذافة: وقيل السّوا أرض نسب الدّير إليها، وقيل فيه[٩]:

بل تامل وأنت أبصر مني ... قصد دير السّوا بعين جليه

لمن الطّعن بالضّحى واردات ... جدول الماء ثمّ رحن عشيه

الصّحارى:

وهي عبارة عن أقنية واسعة تنتشر في منطقة الكوفة[١٠] ومنها:

صحراء البردخت: نسبت إلى البردخت الشّاعر الظّبي[١١].

صحراء أمّ سلمة: نسبت إلى أمّ سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله امرأة الخليفة أبي العبّاس السّفاح.

صحراء بني أثير: نسبت إلى رجل من بني أسد يقال له أثير بالكوفة.

صحراء بني عامر.

خامساً: المحور الاقتصادي:

سلطت المصادر الجغرافية الأضواء على العديد من القضايا الّتي يمكن من خلالها أن ندرك المستوى العالي للحياة الاقتصادية الّتي كان يحياها أهل الكوفة، وتمثل ذلك في الجوانب الزّراعية والصّناعية والتّجارية، فمثلاً وصف الاصطخري الأراضي الواقعة بني بغداد في الشّمال والكوفة في الجنوب، ودجلة في الشّرق والفرات في الغرب (إنّها كانت كثيفة الزّرع لدرجة يصعب معها التّمييز بني المزارع المختلفة)[١٢] وقيل إنّ أهل الكوفة نزلوا بين الجنان الملقفة والمياه الغزيرة والأنهار المطرذه تأتيهم ثمارهم غصة لم تخضد ولم تفسد[١٣] وقال الكوفيون (نزلنا أرضاً هشاشة في طرف فلاة وطرف ملخ أجاج في سبخة نشاشة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها يأتينا ما يأتينا في مثل مرئ النّعامة[١٤]، وقد خص الله جلّ وعلا به أهل الكوفة خاصة من عمل الوشي والخز وغير ذلك ومن أنواع الفواكه والتّمور والقسوب ما قد عدم مثله بالبصرة والأهواز وبغداد والحجاز مثل الهيرون والمشان وقسب العنبر والنّرسيان ولهم الأدهان الطّيّبة الكثيرة[١٥]، كما اشتهرت بأجود

(١) ياقوت الحموي: نفسه ج٢ ص٤٩٥، قارن مارسنيون نفسه ص٧٥- ٧٦.

(٢) ياقوت الحموي: نفسه ج٢ ص٤٩٨ن الشّابشتي الدّيارات ص٢٣٦.

(٣) ياقوت الحموي: نفسه ج٢ ص١٥٤، الشّابشتي الدّيارات ص٢٣٣ ويطلق عليه أيضاً دير سرجس ويُكّنى وهو منسوب إلى راهبين بنجران، وكان محفوظاً بالكروم والأشجار والحانات وقد ضرب ولم يبق منه إلاّ خرابات على ظهر الطّريق يسميها النّاس قباب أبي نواسن وفيه يقول الشّاعر:

عودا لعادتنا صبيحة أمسنا ... فالعود أحسن مفتدى ومراحا

هل تعذران بدير سرجين صاحبا ... بالصّحو أو تريان ذاك جناحا

(٤) البكري: معجم ما استعجم ج٤ ص٦٠٤- ٦٠٥، ياقوت الحموي نفسه ج٢ ص٥٤١- ٥٤٢.

(٥) ابن الفقيه: المصدر نفسه ص١٨٢، ياقوت الحموي نفسه ج٢ ص٤٩٩، قارن البلاذري نفسه ص٢٨٢.

(٦) ابن الفقيه: المصدر نفسه ص١٨٣، البكري نفسه، ج٤ ص٥٧٣.

(٧) ابن الفقيه: المصدر نفسه ص١٨٢، ياقوت الحموي نفسه ج٢ ص٥٢٦.

(٨) ياقوت الحموي: المصدر نفسه ج٢ ص٥٠٧.

(٩) ياقوت الحموي المصدر نفسه ج٢ ص٥١٨.

(١٠) ويذكر البكري في معجمه دير اللج الّذي يقول فيه الشّاعر:

سقى الله دير اللج غيثاً فإنّه ... على بعده دير إلى حبيب

قريب إلى قلبي بعيد محله ... وكم من بعيد الدّار وهو قريب

نفسه ج٢ ص٥٧٣، ٥٩٢، ٥٩٤.

(١١) ياقوت الحموي: نفسه ج٣ ص٣٩٤، لويس ماسنيون نفسه ص٧٥.

(١٢) ابن الفقيه: نفسه ص١٨٤، ياقوت الحموي نفسه ج٣ ص٣٩٤.

(١٣) الاصطخري: المسالك والممالك ص٥٩، كاظم الجنابي، ص٤٨.

(١٤) ابن الفقيه: نفسه ص١٦١.

(١٥) ابن الفقيه: المصدر نفسه: ص١٦١.

أنواع العنب المسمى الزّراوي[١] فضلاً عن انتشار زراعة الحنطة والشّعير وقصب السّكر والقطن[٢]، وينبت في أرض الكوفة من الورد والأزهار الخزامي والأقحوان والشّيح والقيصوم والشّقائق[٣]، وقد ساعد على نمو الزّراعة واتساعها كثرة الأنهار والجداول والعيون العذبة والآبار الّتي يزرع حولها بساتين النّخيل والأعشاب ومن أشهر أنهار الكوفة، نهر الجامع[٤]، ونهر نرسي، ونهر سوارا[٥] ونهر الغدير[٦] الّتي ساهمت كثيراً في انتشار الزّراعة وتنوع المحاصيل الزّراعية.

وتلقى منسوجات الكوفة خاصة المناديل والثّياب الحريرية والوشي والخز رواجاً كبيراً وواسعاً في البلاد الإسلامية، إضافة إلى براعتهم في صناعة المنسوجات فقد عزموا باستخراج العطور من الأزهار كالبنفسج[٧]، واشتهروا بصناعة الخزف والدّهان إلى درجة أنّ اليعقوبي أشار إلى استعانة الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٣هـ/ ٨٣٣- ٨٣٨) بصناع الخزف والدّهان من أهل الكوفة في بناء عاصمته الجديدة سامراء[٨]، وقد ضم إلى الكوفة عدد من الطّساسيج منها الجبة والبداة وفرات باقلا والسّالحين ونهر يوسف[٩]، ودخل خراج الكوفة في طساسيج خراج السّواد، علماً أنّ خراد الكوفة يختلف عن خراج البصرة لأنّ ضياع الكوفة قديمة أزلية وضياع البصرة أحياء موات[١٠].

ونتيجة لازدهار الصّناعة ووفرة المحاصيل الزّراعية فقد نشطت الحركة التّجارية بين الكوفة ومدن السّواد الأخرى وبين الكوفة وبقيّة أقاليم الخلافة الإسلامية ومما ساعد نمو التّجارة أيضاً وقوع الكوفة على ملتقى الطّرق القادمة من بغداد والذّاهبة إلى الحجاز والشّام ومصر وغيرها من الأقاليم الإسلامية، وساعد أيضاً وقوع الكوفة على حافات الصّحراء من جهة ومجاورتها لنهر الفرات من جهة ثانية على نمو حجم التّبادل التّجاري، ومن المعلوم أنّ الطّرق المتعددة الّتي تربط الكوفة بغيرها من المدن والأقاليم الإسلامية جميعها في مركز المدينة وتتفرع منها إلى مناطق مختلفة، وقد قدّم لنا الجغرافيون قائمة بأسماء هذه الطّرق منها:

(١) المصدر نفسه ص٢٥٢.
(٢) المصدر نفسه ص١٢٥.
(٣) البلاذري المصدر نفسه ص٢٥٢.
(٤) المصدر نفسه ص٢٧٤، ابن الفقيه نفسه ص٣٠ن ١٧٦، ١٧٧، عبد الجبار ناجي دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ص١٦٠، محمّد حسين الزّبيدي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ص٢٢.
(٥) ابن الفقيه: المصدر نفسه ص١٨٣.
(٦) أبو الفدا: تقويم البلدان ص١٩٢، البراقي المراجع نفسه ص١٨٩- ١٩٧.
(٧) ياقوت الحموي: نفسه ج٥ ص٣٢١.
(٨) المصدر نفسه ص٢٥٢، ٢٧٦.
(٩) اليعقوبي: المصدر نفسه ص٢٦٤.
(١٠) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٥.

طريق الحج إلى المدينة ومكة وفيه منازل عامرة ومناهل قائمة فيها قصور لخلفاء بني هاشم[١١].

طريق الحج إلى مكة مباشرة[١٢].

طريق الكوفة- دمشق- مصر الأندلس[١٣].

طريق الكوفة- اليمامة واسمه مثقب[١٤].

وهناك طرق تقع ضمن السّواد تربط الكوفة بالمدن العراقية الأخرى وتخرج إمّا من الكوفة أو من هذه المدن إلى خارج العراق متجهة شرقاً وغرباً ومنها:

طريق الكوفة- بغداد وهو بطول ثلاثين فرسخاً، وقسم إلى ثلاثة مراحل يسلكه الحجاج والتّجار[١٥].

طريق الكوفة- واسط[١٦].

طريق الكوفة-البصرة ويسمى العذار وهو الطريق البري[١٧].

طريق الكوفة-كربلاء من ناحية الشّمال النّخيلة، كربلاء[١٨].

وأخيراً فقد تحدثت المصادر الجغرافية عن مشاهير أهل الكوفة في السّخاء والحكم والشّجاعة وعن أشهر حفاظها[١٩]،

ولبيان أهميتها الدّينية أشارت كذلك إلى أشهر من نزل هذه المدينة من الخلفاء والأئمة[٢٠]، وعن أهميتها الإدارية ذكرت المصادر إنّ عمال العراق اتخذوها قصراً وكانت الدّعوة لهم في العطاء قبل أهل البصرة[٢١].

وهكذا لمسنا من خلال هذه الورقة الّتي تجولت في الميادين الجغرافية واللغة والمناخ والإدارة والتّجارة والصّناعة والزّراعة والإعمار الدّور الكبير الّذي لعبته الكوفة في الحياة الإسلامية آنذاك.

* * *

(١١) اليعقوبي: المصدر نفسه ص٣٠٩.
(١٢) المصدر نفسه: ص٣١١، كاظم الجنابي، نفسه ص٤٨.
(١٣) وهو أقصر من الطّريق الأوّل بنحو ثلاث مراحل، ياقوت الحموي نفسه ج٤ ص٤٩٣.
(١٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٩٩ وهذا الطّريق يسلكه التّجار الرّوس القادمين من الأندلس أو من الفرنجة، نفسه ص١٥٤- ١٥٥.
(١٥) اليعقوبي: المصدر نفسه ص٣٠٨ ابن خرداذبة نفسه ص١٢٥.
(١٦) اليعقوبي: المصدر نفسه ص٣٠٩.
(١٧) الاصطخري: المسالك والممالك ص٥٥، كاظم الجنابي المرجع نفسه ص٤٨.
(١٨) البكري: معجم ما استعجم ج٤ ص٩٢٦، ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر ت ٢٩٠هـ الأعلاق النّفسية ليدن ١٨٩١ ص١٨٠.
(١٩) كاظم الجنابي: المرجع نفسه ص٤٨ نقلاً عن أبي يوسف كتاب الخراج ص٥٣.
(٢٠) ابن الفقيه: المصدر نفسه ص١٦٧
(أ) من أسخياء الكوفة هلال بن عتاب وأسماء بن خارجة، وعكرمة بن ربعي الفياض.
(ب) من فتيانها خالد بن عتاب، أبو سفيان بن المغيرة بن شفيه وعمرو بن محمّد بن حمزة.
(٢١) نزل من الخلفاء والأئمة علي والحسن رضا الله عنهما ومن الخلفاء والملوك معاوية وعبد الملك وأبو العبّاس وأبو جعفر المنصور وهارون الرّشيد ابن الفقيه المصدر نفسه ص١٦٥.

التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة
دراسة في جغرافية المدن التّاريخية

الأستاذ الدّكتور صباح محمود محمد
عميد كلية التّربية- الجامعة المستنصرية

مقدمة:

تهدف الدّراسة إلى تحليل استعمالات الأرض landuse في مدينة الكوفة خلال فترة ازدهارها في التّاريخ العربي الإسلامي وبيان الشّكل الّذي اتخذه تركيبها الدّاخلي في ضوء العوامل المؤثرة في تحديد ذلك التّركيب.

لقد اختار سعد بن أبي وقاص موقعها عام ١٧هـ (٦٣٨م) كي تكون قاعدة عسكرية ينطلق منها لتحرير العراق ونشر الدّين الإسلامي. ولا تشير المصادر إلى وجود استقرار بشري أو قرية أو مدينة في مكانها. وقد نشأت المدينة في أرض سهلية على الجانب الغربي من نهر الفرات شمال شرق مدينة الحيرة المعروفة.

وعلى الرّغم من اختلاف المؤرخين والجغرافيين واللّغويين في معنى الكوفة إلاّ أننا نرجح أنّها سميت بذلك لاستدارتها[١].

وخلال الفترات اللاحقة لنشأتها، تطورت المدينة بشكل كبير بحيث لم تعد كونها قاعدة عسكرية للمجاهدين العرب المسلمين فحسب، بل أصبحت مركزاً تجارياً مهماً في المنطقة وسوقاً لتبادل المنتجات والسّلع الآتية من البادية ومن السّهل الرّسوبي، وقد وصلت أوج عظمتها في العصر الأموي فبلغت مساحتها ١٥كم طولاً و٩كم عرضاً[٢].

وقد ميز الدّكتور شاكر مصطفى مراحل تطور المدينة كما يلي[٣]:

الأوّلى: خلافة عمر بن الخطاب (١٧- ٢٣/ ٦٣٨- ٨٣٤).

الثّانية: ولاية زيادة بن أبيه. (٥٠- ٥٣/ ٦٧٠- ٦٧٢).

الثّالثة: ولاية خالد القسري أيّام هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٠/ ٧٢٣- ٧٣٧).

(١) د. كاظم الجنابي: تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التّاريخية والأثرية (خاصة في العصر الأموي)، بغداد ١٩٦٧، ص١١- ١٦.

(٢) شريف يوسف: تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، بغداد ١٩٨٢، ص٢٣٥.

(٣) د. شاكر مصطفى: المدن في الإسلام حتّى العصر العثماني، الكويت ١٩٨٨، ص٣٥٣.

إلاّ أنّ دورها وأهميتها قد اضمحل بعد أن بنى الحجاج بن يوسف الثّقفي مدينة واسط وظهور بغداد كعاصمة للدّولة الإسلامية بعدئذ، وعندما زارها الرّحالة العربي ابن جبير عام ٨٥٠هـ/ ١١٨٤م قال عنها: معظمها خراب[٤]. ومما لا شك فيه، فإنّ لتغير مجرى نهر الفرات والأحداث الّتي شهدتها الدّول العربية الإسلامية والصّراع على الخلافة، أثره الكبير في ازدهار وتدهور مدينة الكوفة، وعلى الرّغم من ذلك بقيت المدينة مصراً مهماً من أمصار العالم العربي الإسلامي.

العوامل المؤثرة في التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة:

يتشكل التّركيب الدّاخلي لأي مدينة، بتأثير مجموعة من العوامل الطّبيعية، البشرية والاقتصادية والاجتماعية[٥]، ولا شك أنّ المدن العربية الّتي أنشأها المجاهدون المسلمون، تشترك في مجموعة من العوامل الّتي أثرت على مورفولوجيتها[٦]، مع أنّ لبعض المدن خصوصياتها في العوامل المؤثرة وفي شكلها أيضاً. ومن هذا المنطلق نجد أنّ التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة يشترك مع المدن الإسلامية في بعض تلك العوامل المؤثرة وينفرد في أخرى، وتلك العوامل هي:

أولاً: العوامل الطّبيعية:

تشير المصادر التّاريخية إلى أنّ الأرض الّتي أقيمت عليها مدينة الكوفة كانت جزءً سهلياً من الضّفة اليمنى للفرات تتكون تربته من الرّمال مخلوطة بالحصباء[٧]، وكلّما اقتربت الأرض من نهر

(٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير، القاهرة ١٩٥٥، ص١٩٨.

(٥) د. حسن الخياط: التّركيب الدّاخلي للمدن: دراسة في بعض الأسس الجغرافية لتخطيط المدن، مجلة الأستاذ، المجلد الثّاني، ١٩٦٣- ١٩٦٤، بغداد.

(٦) مصطفى الموسوي: العوامل التّاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية بغداد ١٩٨٢ ود. أحمد علي إسماعيل: المدن العربية والإسلامية، الكويت ١٩٨٧، ص١٠- ١٢.

(٧) الجنابي: تخطيط الكوفة، ص١٣- ١٤ ويشير إلى أنّ ارتفاعها عن سطح البحر ٢٢ متراً.

الفرات أصبحت رسوبية خصبة بسبب ترسبات النّهر أثناء الفيضانات. وتشير مصادر أخرى إلى أنّها: «سميت بكوفان وهو جبيل صغير فسهّلوه واختطوا عليه»[١] ويمكن أن يكون ذلك صحيحاً إذا علمنا أنّ المنطقة الّتي أنشأت فيها الكوفة، منطقة كثبان رملية، ومن المحتمل جداً أن سويت إحدى الكثبان الرّملية القريبة من نهر الفرات وخططت عليها مدينة الكوفة.

يتميز مناخ الكوفة بالصفاء والعذوبة، قال عنها ابن حوقل: مدينة الكوفة قريبة من مدينة البصرة في الكبر هواؤها أصح وماؤها أعذب[٢]، وقال محمّد بن عمير بن عطارد، «ولا كوفة سفلاً من الشّام ووبائها وارتفعت عن البصرة وعمقها، فهي مريئة مريعة، برية بحرية إذا أتتنا الشّمال هبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السّواد وياسمينه وخيريه وأترجه ماؤنا عذب، ومحتشنا خصب)[٣] وقال عنها اليعقوبي، وهي من أطيب البلدان وأفسحها وأغذاها وأوسعها»[٤].

الموارد المائية: تتوفر لمنطقة الكوفة موارد مائية تكفي لأعداد كبيرة من السّكان عن طريق جلب المياه من نهر الفرات بواسطة القنوات والجداول أو حفر الآبار، سواء لأغراض الشّرب أو الزّراعة وقد أشار إلى ذلك المقدسي بقوله: «والنّهر على طرفها من قبل بغداد ولهم آبار عذيبية حولها نخيل بساتين»[٥] ويشير البلاذري إلى نهر الجامع وبئر المعارك[٦].

وتحدث الشّابشتي في الدّيارات في وصفه لدير في الكوفة والبساتين الّتي تحي ببيوت الرّهبان في قوله: «وكانت الأنهار تجري في هذه البساتين»[٧] وأشار حمد الله المستوفي القزويني في نزهة القلوب إلى موارد المياه في الكوفة بقوله: «وماؤها من نهر النّاجية خارج من الفرات»[٨] كما تطرقت بعض المصادر التّاريخية والجغرافية إلى ذكر بعض الأنهار والعيون في منطقة الكوفة وهي[٩]:

نهر الكوفة بالجانب الغربي منها.

نهر أبا بين الكوفة وقصر ابن هبيرة.

نهر البردان كان منزل وبرة بن رومانس.

نهر البويب كان مجراه إلى موضع دار صالح بن علي بالكوفة ومصبه بالجوف العتيق وموقعه في الجنوب الشّرقي من الكوفة[١٠].

نهر الغدير عند ديارات الأساقف المحيطة بالكوفة.

نهر شبلي في ناحية من نواحي الكوفة.

نهر الصّنين بظاهر الكوفة وعليه مزارع.

نهر نرس مأخذه من الفرات عليه قرى عدّة في نواحي الكوفة.

نهر نشاسج.

نهر الفوار.

عين جمل.

عين صيد.

عين النّسوخ.

عين الرّهمية.

بئر علي[١١].

ثانياً: العوامل الدّينية:

تقف العوامل الدّينية في مقدمة العوامل المؤثرة في تركيب المدينة العربية، حيث اعتاد المجاهدون العرب عند إنشاء المدن في المناطق الّتي يتم تحريرها أن يباشروا ببناء الجامع أو المسجد أوّلاً في وسط المدينة[١٢] لأنّ المسجد هو مركز ترابط المجاهدين يتلاقون فيه للصلاة، وتبادل الرّأي ويقصدونه للوقوف على أخبار جماعتهم ويلتقون فيه مع رؤسائهم[١٣]، إضافة إلى اتخاذهم المساجد مقراً للتقاضي ومكاناً للتعليم والدّراسة، والتّجمع من أجل الانطلاق للقيام بعمليات التّحرر العسكرية[١٤].

وقد أمر الخليفة عمر ﷺ أن يكون المسجد الجامع في قلب المدينة وتكون دار الإمارة قريبة منه، ولهذا فقد اتخذ المسجد مكاناً مركزياً من المدينة تتفرع منه الشّوارع والطّرق نحو الأطراف[١٥] وفضلاً عن إنشاء المسجد الجامع فقد أنشأت كلّ قبيلة مسجداً لها في المنطقة الّتي تسكنها وكذلك المقابر الخاصة بها.

ثالثاً: العوامل العسكرية:

لقد لعبت العوامل العسكري دوراً أساسياً في اختيار موضع مدينة الكوفة كي يستقر بها المجاهدون العرب المسلمون بعد الانتصارات الّتي حققوها في حربهم ضد الفرس في جبهة المدائن، حيث كان هذا الاختيار يتفق مع توجيهات الخليفة الفاروق ﷺ للقائد سعد: «لا تجعل بيني وبينهم.. أي العرب- بحراً»، وقد أثرت هذه العوامل بدورها في التّركيب الدّاخلي للمدينة، بحيث تم تخطيطها وتوزيع القبائل فيها لاعتبارات عسكرية أيضاً، إضافة إلى حفر الخندق حول المسجد والصّحن عند تأسيسها، ثمّ حفر الخندق وبناء السّور حول المدينة في فترة الخليفة العبّاسي المنصور[١٦].

(١) حسين أحمد البراقي: تاريخ الكوفة، النّجف ١٩٧٠، ص١١٠.

(٢) المصدر السّابق، ص١١٤.

(٣) ابن الفقيه الهمداني: مختصر البلدان، ليدن ١٣٠٣هـ ص١٦٤.

(٤) اليعقوبي: البلدان، ليدن، ص٣٩.

(٥) المقدسي: أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦، أوفسيت المثنى، ص١١٧.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، مصر ١٩٥٩، ص٢٨٤.

(٧) الشّابشتي: الدّيارات، بغداد ١٩٥١، ص١٧١.

(٨) البراقي: مصدر سبق ذكره، ص١٢٦.

(٩) المصدر السّابق، ص١٩٠- ١٩١.

(١٠) ل. ماسينيون: خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة ت. المصعبي، صيدا ١٩٣٩، ص١٨.

(١١) يشير ماسينيون إلى أنّه لم تكن في الكوفة آبار صالحة للشرب طيلة الأعوام المائة الأولى بل كانوا ينقلون الماء من شريعة الفرات، وبعد زمن حفروا بئراً فوجدوا ماءها صالحاً للشرب بـ (بئر علي) خطط الكوفة، المصدر السّابق، ص١٨.

(١٢) د. عبد الرّزاق عبّاس: نشأة مدن العراق وتطورها، بغداد ١٩٧٧، ص٤١.

(١٣) د. حسين مؤنس: المساجد، الكويت ١٩٨١، ص٣٤.

(١٤) المصدر السّابق، ص٣٥- ٣٧ ود. عبد الإله أبو عباش: المدينة العربية، الكويت ١٩٨٠، ص٣٢- ٣٣.

(١٥) د. عيسى سلمان وآخرون: العمارة العربية الإسلامية في العراق ج١، بغداد ١٩٨٢، ص٥٧.

(١٦) د. عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، البصرة ١٩٨٦، ص١٦٠- ١٧١.

رابعاً: العوامل الاجتماعية:

إنّ العوامل الاجتماعية الّتي تؤثر في تركيب المدينة الدّاخلي كثيرة ومتشابكة[1]، إلاّ أنّ أبرز العوامل المؤثرة في مورفولوجية مدينة الكوفة، هي عامل التّكتل القبلي، حيث انقسمت الكوفة وقت إنشائها إلى سبعة أقسام قبلية، كلّ قبيلة نزلت في موقع خاص أو خطة خاصة ثمّ غيرها الخليفة علي، وأجرى بعض التنقلات بين القبائل، أمّا في إمارة زياد فصار تكتل الأقسام السّبعة أرباعاً[2].

خامساً: العوامل الاقتصادية:

ويظهر تأثير تلك العوامل في دور الكوفة التّجاري، حيث شكلت مركزاً تجارياً لتبادل البضائع والسّلع بين السّهل الرّسوبي والبادية، ولهذا فقد انتشرت فيها الأسواق الّتي تركزت أوّل الأمر شمال المسجد وفي شرقيه، وبنيت بشكل دكاكين منظمة في ولاية خالد القسري[3]، كما لا بد من الإشارة إلى وجود بعض الصّناعات الّتي تركزت في الكوفة كصناعة الوشي والخز وبشكل خاص العمائم والمناديل الكوفية المشهورة إضافة إلى شهرتها في صناعة السّيوف الحيرية الشّهيرة وأنصال الرّماح الّتي نشطت فيها كون المدينة أنشأت كقاعدة عسكرية أساساً للمجاهدين العرب المسلمين[4].

التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة:

لقد تبلورت في جغرافية المدن مجموعة من النّظريات الّتي تفسر التّركيب الدّاخلي للمدن وتوزيع استعمالات الأرض داخل المدينة[5]، إلاّ أنّ جميع تلك النّظريات استنبطت من دراسات لمدن في أوروبا وأميركا، الّتي قد تتطابق بعض تفاصيلها ومفرداتها على المدن العربية والإسلامية، ومن غير المنطقي والعلمي أن تستعير تلك النّظريات والأفكار لتفسير واقع مختلف، له عناصره ومؤثراته وتركيبه، ألا وهو البيئة العربية الإسلامية، من هذا المنطلق سنشير إلى التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة مع مقارنتها بتلك النّظريات في المواقع الأوروبية والأمريكية لغرض التّوضيح والتّبسيط

ومن أجل رسم صورة التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة، كان لا بد من الرّجوع إلى المصادر القديمة الّتي كتبت عن الكوفة والّتي يبدو أنّها مفقودة وهي[6]:

كتاب لابن فضال (.. نحو ٢٩٠هـ)[7].

كتاب لابن مجالد (أواخر القرن الثّالث).

كتاب لابن النّجار التّميمي (٣٠٣- ٤٠٢هـ)[8].

كتباً للعلوي الحسيني (توفي سنة ٤٤٥هـ).

كتاب لابن النّجار البغدادي (توفي سنة ٦٤٣هـ).

كتاب للنّجاشي «كتاب الكوفة» وما فيها من الآثار والفضل.

كتاب لجعفر بن الحسن بن شهريار المتوفى سنة ٣٤٠هـ «كتاب في المزار وفضل الكوفة ومساجدها».

ولهذا فقد استعنا بالمصادر الجغرافية والتّاريخية ككتب البلدان والممالك والمعاجم والخطط لجمع ما ذكر عن الكوفة والّذي يبدو أنّ لويس ماسينيون قد استعان بها في كتاب خطط الكوفة الّذي اعتمدت عليه الكتب الّتي تم تأليفها فيما بعد عن مدينة الكوفة كما يعد كتاب تاريخ الكوفة للمؤرخ حسين بن أحمد البراقي النّجفي المتوفى سنة ١٣٢٢هـ[9] من الكتب الحديثة الّتي جمعت كلّ شيء عن الكوفة من المصادر القديمة أو الّتي عاصرت المؤلف واضعيها، إلاّ أنّه لا بد من الإشارة إلى أننا اتخذنا من خارطة الكوفة الّتي أعدها ماسنيون أساساً لرسم خارطة التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة مع إضافات لنا من خلال تدقيقنا في المصادر والمعاجم.

إنّ صورة التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة تظهر على الشّكل التّالي (انظر الخارطة):

منطقة الأعمال المركزية CBD: تتوزع استعمالات الأرض في مركز مدينة الكوفة كما يأتي:

أوّلاً: استعمالات الأرض الدّينية: والّتي تتمثل بوجود المسجد الجامع، الّذي كان إنشاؤه توجيهاً وأمراً من الخليفة الفاروق، حيث تتجمع القبائل لصلاة الجمعة والأعياد والتّوجه للجهاد[10]، إنّ القضايا المتعلقة بالمسجد هي[11]:

المسجد مربع الشّكل: كان يتسع لأربعين ألف مقاتل ثمّ وسعه المغيرة وزياد بن أبيه ليتسع إلى ٦٠ ألف مقاتل[12].

كانت ظلة المسجد (بيت الصّلاة) مائتي ذراع (١٠٠م) أقيمت على أعمدة من الرّخام.

تم حفر خندق حول الصّحن.

أضاف إليه زياد مقصورة جددها خالد القسري.

بني المسجد أوّلاً من اللبن والقصب وأشار البلاذري إلاّ أنّ المسجد قد بني من بعض أنقاض وحجارة المناذرة في الحيرة[13].

كسى زياد ابن أبيه أرض المسجد بالحصى كما سقفه وجعل له مجنبات ومؤخرة.

---

(١) H. Carter: the study of urban Geography Lindo ١٩٧٦ ١٧١- ٢٩٣ pp.

(٢) د. الجنابي تخطيط مدينة الكوفة، ص٥٩، ماسينيون، خطط الكوفة، ص١٠.

(٣) الطّبري ج٥، ص٢٥٨ واليعقوبي، البلدان، ص٣١١.

(٤) د. محمّد حسن الزّبيدي: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأوّل الهجري، القاهرة ١٩٧٠، ص١٩١- ١٩٨.

(٥) انظر تفصيل ذلك في:

L. S. Bourne: Interbal structure of the city, N. Y. ١٩٧١.

J. R. Short: An Introduction to urban Geography. London, ١٩٨٤. Pp. ٩٥ - ١٩٧.

(٦) د. شاكر مصطفى، المصدر نفسه ج١، ص٤٠، البراقي، تاريخ الكوفة ص١٢.

(٧) الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٧٩.

(٨) المصدر نفسه، ج٦، ص٢٩٨.

(٩) حسن بن أحمد البراقي: تاريخ الكوفة، حرره السّيد محمّد بحر العلوم، ط٢، ١٩٦٠، المطبعة الحيدرية في النّجف وله كتاب آخر سماه البقعة البهية، مختصر في تاريخ الكوفة الزّكية.

(١٠) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص٩٤.

(١١) انظر: د. عيسى سلمان وآخرون، ص٥٨- ٦٣، ياقوت الحموي ج٤، ص٤٩١، د. عبد الجبار ناجي، ص١٦١.

(١٢) يقول ياقوت: قيل كان مسجد الكوفة هو تسعة أجربة تخطيط الكوفة، ص١١٣.

(١٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٤.

هدّه الحجاج بن يوسف الثّقفي وأعاد بناءه مجدداً.

ثانياً: استعمالات الأرض الإدارية: الّتي تتمثل بدار الإمام المجاور للمسجد الجامع في الجهة الجنوبية منه مع انحراف قليل نحو الشّرق، تم بناء دار الإمارة من الآجر المجلوب من الحيرة[١] ويقال إنّ قياسات الطّابوق موحدة وغير منقولة من أبنية سابقة[٢].

كان دار الإمارة مربع الشّكل، تغور قواعد الجدران ٩٠سم في الأرض ودعمت الجدران بأبراج عددها (٢٠) برجاً.

لقد كان دار الإمارة مقراً للقائد المجاهد سعد ومن بعده للخلفاء والأمراء والولاة.

ثالثاً: استعمالات الأرض المالية: وتتمثل ببيت المال الّذي كان يفصله عن المسجد ودار الإمارة طريق طوله (١٠٠) ذراع، وبعد أن سرق أشار الخليفة عمر على سعد بأن ينقله إلى جوار الدّار وفي قول آخر داخله[٣]، وفضلاً عن وجود بيت المال في المنطقة المركزية من المدينة فإنّ هناك مجالات للصيرفة يسير ماسينيون إلى موقعها بالقرب من المسجد الجامع في جهة القبلة (الجنوب)[٤].

رابعاً: استعمالات الأرض التّجارية: وهي الأراضي الّتي تحتلها الأسواق وتمتد من مركز المدينة حيث المسجد الجامع باتجاه الشّمال الشّرقي وباتجاه الجنوب الغربي، ولم تكن للأرض الّتي تحتلها الأسواق أسواراً أو حدوداً معينة وإنّما كانت أرضاً مفتوحة، ثمّ وضعت لها سقوفاً من الحصر، ثمّ بنيت أيّام خالد القسري الّذي صنف الأسواق حسب نوع السّلعة[٥]، وقد اصطلح على الأسواق الّتي تمثل جزءً من مركز المدينة تسمية «السّوق الجامعة» حيث تعرض أفضل أنواع السّلع والبضائع[٦].

خامساً: استعمالات الأرض السّكنية: اختلف المؤرخون في عدد سكان الكوفة وقت إنشائها فهناك من يقدرهم بمائة ألف وهناك من يقدرهم بعشرين ألف، وقد بنى السّكان دورهم خلال السّنوات الخمس الأولى من القصب والخيام ثمّ شيدت بعدئذ من الآجر[٧].

لقد توزع السّكان حسب القبائل إلى سبع مناطق عسكرية سميت الأسباع، ولما لم يكن للمدينة سور فقد ترك للسكان أن ينزحوا في المناطق الخالية إلى أن أحيطت في عهد المنصور بسور وخندق.

وتشير المصادر إلى أنّ عدد المساكن في الكوفة في العصر الأموي قد بلغ (٥٠) ألف مسكن للعرب من ربيعة ومصر و(٢٤) ألف مسكن لسائر العرب و(٦) آلاف مسكن لأهل اليمن[٨].

هذا ولا بد من الإشارة إلى أنّ منازل الصّحابة والأمراء والقواد كانت تتركز حول المسجد، ودار الإمارة وهي قطائع خاصة أقطعها الخليفة عمر ﷺ لأصحاب رسول الله ﷺ وبعض الأمراء وقادة الجند.

سادساً: استعمالات الأرض الدّينية: وتتمثل بالأراضي الّتي شيدت عليها المساجد والمقابر (الجبانات) في المناطق الّتي سكنتها القبائل حيث خصص لكلّ قبيلة مسجد وجبانة[٩] وقد ذكرت المصادر التّاريخية حوالي (٢٧) مسجداً[١٠] بينما ذكر ماسينيون (١٠) جبانات إضافة إلى الأراضي الواسعة الّتي كانت تدعى «الصّحارى» الّتي شكل قسم منها جبانات للقبائل أيضاً[١١]، كما لا بد من الإشارة إلى وجود بيع وأديرة لأهل الذّمة[١٢].

سابعاً: استعمالات الأرض الصّناعية: لقد ذكرت المصادر التّاريخية صناعات كثيرة اشتهرت بها مدينة الكوفة وهي: النّسيج، الحدادة، الأسلحة، النّجارة، الخزف، الدّهون، الصّياغة، الصّابون، والنّبيذ، إلاّ أننا لم نجد إلاّ إشارات نادرة عن مواقعها في المدينة وهي:

محلات الصّياغة بالقرب من المسجد الجامع في جهة الجامع.

أصحاب الخز والقصارون في أطراف دار الوليد قرب المسجد الجامع.

سوق الحدادين في غربي المدينة.

ثامناً: استعمالات الأرض لأغراض النّقل: تشير المصادر لهذه الأراضي على الشّكل التّالي:

المناهج: وهي الخطوط الفاصلة بين صفوف خيام القبائل وتقسم إلى:

مناهج رئيسية: وهي بمثابة طرق رئيسية بين صفوف خيام القبائل وكل واحد منها بـ (٤٠) ذراعاً، وقد تم تخطيط (١٥) منهجاً عند إنشار المدينة.

مناهج فرعية: وهي دون الأولى ولكنها تلاقيها من أطراف مختلفة وكل واحد منها بـ (٢٠) ذراعاً[١٣].

السكك: وهي الطّرق الّتي تم تخطيطها بعرض (٥٠) ذراعاً للسكة الواحدة[١٤]، وكانت تتخللها بعض الأزقة والدّروب ويشير الطّبري إلى أنّ بعض هذه الطّرق تنار في الليل بالمشاعل.

تاسعاً: استعمالات أخرى: تكشف المصادر عن استعمالات أخرى وهي:

الحمامات والسّقايات كانت بالقرب من الجوف العتيق قرب المسجد الجامع[١٥].

---

(١) Creswell; Early Muslim Architecture, London, ١٩٣٢. Vol. p. ١٦.

(٢) د. عيسى سلمان، مصدر سبق ذكره، ص٥٦.

(٣) ماسينيون، ص٢٨.

(٤) ماسينيون، ص٢٦.

(٥) اليعقوبي: البلدان، ص٧١.

(٦) د. حمدان الكبيسي: أصالة أنظمة الأسواق في المدينة كتاب أنظمة المدينة العربية، مركز إحياء التّراث العلمي ١٩٩١، ص٧٥- ٨٨.

(٧) ماسينيون، ص٩.

(٨) الجنابي، تخطيط الكوفة، ص٨٤.

(٩) اليعقوبي، البلدان، ص٣١١.

(١٠) المصدر نفسه، ص٨٧- ٨٨.

(١١) ماسينيون، ص١٩، د. الزّبيدي الحياة الاجتماعية.

(١٢) د. صالح أحمد العلي: منطقة الكوفة دراسة طبوغرافية المصادر الأدبية، مجلة سومر، المجلد ٢١، ١٩٦٥، ٢٤٢.

(١٣) ماسينيون، ص١٧، الجنابي، ص٧٥- ٨٠.

(١٤) اليعقوبي، البلدان، ص١٧.

(١٥) ماسينيون، ص١٨، البلاذري، فتوح البلدان ص

أراضي خالية تسمى الصّحارى بين الأحياء السّكنية تستخدم لأغراض مختلفة، كعقد الاجتماعات وتجمع المجاهدين وانعقاد بعض الأسواق[١].

أراضي اتخذت كمناطق لرمي القمامة[٢] وكانت تسمى الكناسة عند المدخل الغربي لمدينة الكوفة ثمّ صارت محلة أو سوقاً أو محطة تجارية[٣].

مراكز ترفيهية ممثلة ببعض الدّور كدار ابن أمين الّذي يشير إليه الأصفهاني في أغانيه من أنّ له منزلاً في الكوفة وله جوار ومغنيات أشهرهن سلامة الزّرقاء وكان يغشاها الفتيان بكثرة للسماع والشّرب[٤].

حلبات الخيل: تشير المصادر إلى أنّ ابن سبيرة أقام حلبة لسباق الخيل في الكوفة وقد شغف أهل الكوفة بالمراهنة عليها[٥].

المتنزهات: يشير ماسينيون إلى أنّ حدائق أديرة الكوفة الواسعة أصبحت متنزهات لأهل الكوفة[٦].

السّجون: يشير ماسينيون إلى وجود سجنين في الكوفة أحدهما قرب الكناسة في المدخل الغربي للمدينة[٧].

الخلاصة:

من دراسة التّركيب الدّاخلي لمدينة الكوفة تبرز لنا مجموعة من الحقائق المهمة يمكن تأشيرها كما يأتي:

استند العرب في إنشائهم للمدن إلى أسس تخطيطية كانت وما زالت تشكل مبادئ وأسس أساسية في تخطيط المدن، وفي مقدمتها مراعاة الظّروف الجغرافية الطّبيعية (الموضع والموقع) ومدى مستلزمات وإمكانيات إقامة المستوطنات البشرية.

كانت للعوامل العسكرية، في التّواصل مع مركز الدّولة في المدينة للحصول على الإمدادات وعدم جعل المواقع الطّبيعية كالبحار والأنهار وغيرها في ظهرهم لتمنعهم من الاتصال مع مركز الدّولة أو التّراجع لتنظيم الصّفوف مرّة ثانية والاحتشاد في الاستيطان لمواجهة الظّروف الطّارئة والدّفاع بكفاءة عالية، لقد كانت تلك العوامل تلعب دوراً أساسياً في تخطيط المدن وإنشائها.

لقد عمل العرب على أن تكون خطط المدن الّتي أنشأها دائرية الشّكل منطلقين من أن الاحتشاد والالتفاف حول مركز القيادة يعطيهم كفاءة عالية في الدّفاع.

اتخذ التّركيب الدّاخلي للمدن العربية شكلاً هو أقرب إلى نظرية الدّوائر المشتركة- المركز حيث يشكل المسجد الجامع وقصر الإمارة وبيت المال والسّوق الجامع الدّائرة الأولى، ثمّ تتوزع استعمالات الأرض منطلقة منها نحو الأطراف مشكلة الدّائرة الثّانية.

* * *

(١) البراقي، تاريخ الكوفة، ص١٤٤.

(٢) البراقي، ص١١٨.

(٣) الزّبيدي: الحياة الاجتماعية ص٣٢.

(٤) الأصفهاني: الأغاني ج١٣، ص١٢٧.

(٥) الزّبيدي: الحياة الاجتماعية، ص١٣٨.

(٦) ماسينيون، ص٢٦.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٨.

تأثير العوامل الجغرافية في تخطيط مدينة الكوفة

الأستاذ المساعد الدّكتور وهاب فهد الياسري

كلية الآداب- جامعة الكوفة

المقدمة:

تعد الكوفة من المدن الإسلامية المهمة الّتي أدت دوراً سياسياً واقتصادياً، إذ تم بنائها وإنشائها عام (١٧هـ)[١] بعد اتخاذ القرار العسكري بتخطيطها وبنائها وفق مخطط أساسي تم اختياره ضمن معايير تخطيطية تعكس الوعي التّخطيطي عند العرب المسلمين آنذاك، إذ كان موضعها يمتلك جميع الخصائص الجغرافية الطّبيعية منها والبشرية والّتي ساهمت مساهمة فاعلة في تمصيرها ورفد كيانها بأهمية وعمق استراتيجي للدولة الإسلامية، فقد كانت عاصمة العالم الإسلامي، فهي مركز إشعاع المعرفة تستمد مدن العالم آنذاك من مدارسها العلم ومختلف المعارف الأخرى، فازدهرت الكوفة بمدرستها اللغوية تخرج منها أصحاب الفكر والفقه والمنطق والشعر.

ولم يكن اختيار العرب المسلمين لموضع المدينة أمراً غير مدروس بل تم اختياره وفق معايير تخطيطية مهمة كان قد أدركها العرب عند اختيارهم لموضعها، وكان وراء ذلك عوامل وعناصر جغرافية لها دورها في تمصير وتخطيط مدينة الكوفة متفاعلة فيما بينها ومكملة بعضها البعض، ونستطيع أن نقسم العوامل الجغرافية هذه إلى:

- العوامل الطّبيعية.
- العوامل البشرية.

١- العوامل الطّبيعية:

يظهر تأثير العوامل الطّبيعية بما تتضمنه من العناصر الآتية:

أ- طبيعة الأرض: لطبيعة الأرض تأثير في اختيار موضع الكوفة، وكان عامل مهم في تمصيرها، فقد تميزت أرضها بوقوعها في مكان مرتفع، فتشير المصادر إنّ «ابن بقيلة قال لسعد بن أبي وقاص- أدلك على أرض ارتفعت عن البق وانحدرت عن الفلاة-»[٢].

وهذا الارتفاع أعطى للمدينة ميزة جغرافية ساعدتها على حمايتها من أخطار الفيضانات ويمنع تجمع المياه الآسنة[٣] الّتي تكون سبباً رئيساً لجلب وانتشار البعوض والحشرات وتحتوي على تربة صالحة للزراعة إذ أنّها تقع ضمن المنطقة السّهلية من العراق، وهذا يعني أنّ أراضيها تتصف بالانبساط وهي سهلية تساعد المزارعين فيها على سقي محاصيلهم باستخدام الرّي السّيحي ولا يحتاج إلى واسطة آنذاك «كالنّواعير مثلاً» إلاّ في أحيان قليلة وفي أجزاء صغيرة من المنطقة.

ب- المناخ: إنّ الاعتدال وملائمة الظّروف المناخية تأثير على اختيار موضع المدينة، فالظّروف المناخية عامل آخر يساهم في استقرار السّكان فاعتدال درجات الحرارة مثلاً ساعد سكان الكوفة على استمرار العيش والاستقرار وعدم التّضجر من السّكن فيها وهذا عامل مناخي -صحي- فتشير المصادر التّاريخية والجغرافية على أنّ العرب المسلمين كانوا يحرصون على أن يكون موضع المدينة صحياً خالياً من الحشرات نقي الهواء وفيه مناظر ترتاح له النّفس[٤] ويدخل البهجة فيها، وساعد اعتدال الظّروف المناخية في الكوفة على زراعة كثيرة من المحاصيل الزّراعية.

وساهمت الأمطار هي الأخرى في ري كثير من المزروعات كمصدر مائي آخر يضاف إلى نهر الفرات الّتي تقع عليه المدينة.

(١) البلاذري/ أبو الحسن أحمد بن جابر- فتوح البلدان طبع القاهرة، ١٩٣٢ ص٣٣٨.

(٢) الطّبري/ محمّد بن جرير/ تاريخ الأمم والملوك ص٥٩٨.

(٣) البلاذري/ أبو الحسن أحمد بن جابر/ مصدر سابق ص٢٧٦.

(٤) قدامه بن جعفر/ كتاب الخراج طبع بريل ١٣٠٦هـ

ت- الموارد المائية: امتلكت الكوفة نتيجة موضعها الّذي أشرف على نهر الفرات وبالتّحديد في الضّفة اليمنى لها أو ما يسمى بنهر العلقمي مورداً مائياً ساهم هو الآخر في إعطاء موضعها أهمية اقتصادية واجتماعية، فلا يغفل تأثير الماء ودوره في الحياة ومجالاتها المختلفة وقد ذكر الماء وتأثيره على الإنسان في القرآن الكريم ﴿**وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[1].

وعدّ توفر الماء قوة جذب لبناء المدينة وإنشائها لأنّه ساعد السّاكنين على ممارسة الزّراعة واستصلاح كثير من الأراضي وزراعتها بمختلف المحاصيل الزّراعية الّتي ساهمت في توفير فرص عمل من جانب وساعدتهم أيضاً على سد رمق عيشهم من جانب آخر.

العوامل البشرية:

وتتمثل هذه العوامل بالآتي:

أ- العامل السّياسي والاستراتيجي:

ولهما دورهما الفاعل في اتخاذ القرار بتمصير الكوفة، وكان تأثيرهما في سرعة بناء وإنشاء المدينة، فلم يكن الخليفة عمر بن الخطاب﵁ يأمن من جانب الفرس من سكنى المدن الأخرى كمدينة المدائن[2] مثلاً إذا ما أرادوا أن يتجمعوا وينقضوا على الجند العرب المسلمين وبهذا تكون بعيدة عن مخاطر الفرس.

وهنا تكمن الأهمية الإستراتيجية والجيوبولوثيكية الّتي تتمثل في إعطاء العرب المسلمين المرونة والمناورة العسكرية للسيطرة على جيوش الفرس إذا ما أرادوا الهجوم عليها، وهذا عامل عسكري مهم جداً وضع العرب المسلمين على اختيار موضع الكوفة، الأمر الّذي يساعد في تحقيق هدف القوات الإسلامية الموجودة في هذه المنطقة لكي تتجمع فصائلها في مكان أشبه بمعسكر ترحيل تجعل من نفسها قوة ضاربة تنطلق من المركز لتقاتل الأعداء ثمّ تعود إليه عند تحقيق هدفها العسكري.

وهذا جانب استراتيجي مهم وفرة موضع المدينة تمثل في الحماية العسكرية الكافية لأنّها تقع على طرف الصّحراء العربية وعلى ضفاف أحد فروع نهر الفرات الأمر الّذي يشبع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب﵁ في أن لا يفصل بين المدن المقامة وبين مركز الدّولة الإسلامية في المدينة المنورة حاجز طبيعي[3].

ب- يتمتع موضع الكوفة بتوفر الموارد الاقتصادية تلك الثّروة الاقتصادية الّتي ساهمت هي الأخرى في اختيار موضعها وتمصيرها واتخاذها كمدينة مهمة للعرب المسلمين.

وقد توضح العامل الاقتصادي في وفرة المياه الجارية فهي تقع على الضّفة اليمنى من نهر الفرات الأمر الّذي ساهم في صلاحية الأرض للزراعة وهذا أعطى للعرب المسلمين استغلال الأراضي المحيطة بهم، كذلك موضعها الّذي اتسمت أرضه بأنّها سهلية وعادة المناطق السّهلية توفر للساكنين سهولة استغلالها وزراعتها والسّهولة في ري المحاصيل المزروعة عكس الأراضي غير السّهلية وهذا أعطى لموضعها أن يوفر للعرب المسلمين ممارسة الزّراعة وتوفير الغذاء لعوائلهم، وبالتّأكيد فتأثير العامل الاقتصادي على الاستقرار البشري في الكوفة كان له دوره الواضح فلو لم يكن هناك مورداً اقتصادياً يعتمد عليه العرب المسلمين في المدينة لاضمحلت المدينة وهاجر سكانها حتّى لو اختيرت لفترة وجيزة مثلاً إلاّ أنّ اختيار موضعها جاء نتيجة عوامل كما مرّ كان العامل الاقتصادي قد شكّل ضمن تلك العوامل دوراً رئيساً عمل على جذب السّكان إليه وساعد على نمو وانتعاش المدينة واستمرارها لحد الآن وهذه خاصيّة تميز بها موضع الكوفة أدركها المخططون العرب المسلمون عند البدء في اختيارها.

الاستنتاجات:

ويمكننا أن نلمس بعض الاستنتاجات الّتي ظهرت من خلال البحث وكالآتي:

١- إنّ اختيار العرب المسلمين لموضع الكوفة يدلل على مدى وعيهم التّخطيطي ومدى إدراكهم للخصائص الموضعية الّتي من شأنها وعلى ضوئها يتم بناء وإنشاء مدينة ما إذا ما أريد إنشاؤها.

٢- يتضح مما مرّ أنّ قدرة العرب المسلمين على فهم واستيعاب الجانب العسكري في اتخاذهم لمدينة الكوفة كمدينة عسكرية تحقق لهم المناورة العسكرية إذا ما تعرضوا إلى هجوم فارسي من جهة الشّرق الأمر الّذي يساعدهم على تحقيق النّصر وحسم نتائج المعركة لصالحهم.

٣- أدرك العرب المسلمون أهمية الجانب الاقتصادي فهم لم يختاروا موضعاً فقيراً بالموارد الاقتصادية فموضع الكوفة يتمتع بأرض سهلية ومورد مائي هو نهر الفرات الّذي من شأنه ري أراضي المزارعين واستزراع محاصيل زراعية مختلفة يمكن الاعتماد عليها في توفير مستلزماتهم الغذائية.

---

(١) القرآن الكريم/ سورة الأنبياء آية (٣٠).

(٢) ابن الفقيه/ أبو بكر أحمد بن محمّد الهمداني/ مختصر كتاب البلدان/ مطبعة بريل سنة ١٣٠٢هـ ص١٦٤.

(٣) الجنابي/ د. كاظم/ تخطيط مدينة الكوفة ص٣٢.

المصادر:

١- البلاذري/ أبو الحسن أحمد بن جابر/ فتوح البلدان طبع القاهرة ١٩٣٢ ص٣٣٨.
٢- الطّبري/ محمّد بن جرير/ تاريخ الأمم والملوك طبع بريل ص٥٩٨.
٣- البلاذري/ أبو الحسن أحمد بن جابر/ مصدر سابق ص٢٧٦.
٤- قدامه بن جعفر/ كتاب الخراج طبع بريل ١٣٠٦هـ ص٢٣٤.
٥- القرآن الكريم/ سورة الأنبياء آية (٣٠).
٦- ابن الفقيه/ أبو بكر أحمد بن محمّد الهمداني/ مختصر كتاب البلدان مطبعة بريل سنة ١٣٠٢هـ ص١٦٤.
٧- العميد/ د. طاهر مظفر/ تخطيط المدن العربية الإسلامية/ مطبعة جامعة بغداد/ ١٩٨٦ ص٢٣٢.
٨- الجنابي/ د. كاظم/ تخطيط مدينة الكوفة، بغداد ١٩٦٧ ص٣٢.

* * *

الكوفة في مرويات مؤرخي القرنين الرابع والخامس للهجرة

الطبري (ت ٣١٠هـ) والبكري (ت٤٧٨هـ) أنموذجاً

الدكتور صباح كريم رياح الفتلاوي - الأستاذة إيمان نصيف جاسم

مركز دراسات الكوفة - جامعة الكوفة

المقدمة

تعتبر الكوفة من أهم المدن التي لعبت دوراً بارزاً في التاريخ العربي الإسلامي، فهي المدينة العربية الإسلامية الثانية التي أسست في العراق بعد البصرة، إذ خطت المدينة في العام (١٧) للهجرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن خطت البصرة في العام (١٥) للهجرة.

وكان ترك العرب المسلمين لمدينة المدائن عاصمة الساسانيين، وكذلك طبيعة الجو الصحراوي الذي يتوافق مع طبيعة المقاتلين في الكوفة من الأسباب الموجبة لإنشاء هذه المدينة، بعد أن وجد الخليفة عمر ضرورة قيام قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق لتكون بديلاً للمدائن، فتوافد نتيجة لذلك بعد العرب الذين سكنوها في البداية، الكثير من الفرس والسريان واليهود والنصارى، وكثر فيها العمران لتأخذ دورها الكبير في الحياة العربية الإسلامية.

إن اختيار الإمام علي عليه السلام للكوفة عاصمة للدولة العربية وانتقاله إليها من المدينة المنورة سنة (٣٥هـ) قد أعطى للكوفة أهمية أكبر نتيجة الأحداث التي حصلت في فترة خلافة الإمام علي عليه السلام يخرد لمحاربتهم فكانت الكوفة، هي العاصمة وهي القاعدة العسكرية للدولة العربية الإسلامية.

ومع الأهمية الكبيرة لهذه المدينة إلا أننا نجد عدداً قليلاً من المؤرخين قد تطرق إلى خطط الكوفة وكيفية بنائها وتمصيرها، من خلال كتبهم التي تناولوا فيها البلدان بصورة عامة أمثال (الطبري) (ت ٣١٠هـ) في كتابه (تاريخ الأمم والملوك)، و(اليعقوبي) (ت ٢٨٤هـ) في كتابه (البلدان)، و(البلاذري) (ت٢٨٤هـ) في كتابه (فتوح البلدان) و(أبي عبد الله البكري) (ت ٤٨٧هـ) في كتابه (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع) وغيرهم.

وفي هذا البحث وقع اختياري على الطبري (من مؤرخي القرن الرابع الهجري) والبكري (من مؤرخي القرن الخامس الهجري) لغرض دراسة وتناول خطط الكوفة من خلال مروياتهما المذكورة كمصادر أساسية في البحث بالإضافة إلى العديد من المراجع التي أفردت لها قائمة مستقلة في نهاية البحث ومن أهمها، كتاب (العوامل التاريخية لنشأة وتطوير المدن العربية الإسلامية) لـ(مصطفى عباس الموسوي)، وكتاب (خطط الكوفة وشرح خريطتها) لـ(الماسينون)، وكذلك كتاب (تخطيط مدينة الكوفة) (للدكتور كاظم الجنابي)، إضافة إلى بعض الكتب الأدبية ومنها كتاب (الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة) لـ(يوسف خليف).

وقد وزعت مفردات البحث إلى مقدمة وفصلين، كان الأول منهما بثلاثة مباحث، اشتمل المبحث الأول على تاريخ موجز لحياة الطبري (ت ٣١٠هـ) ومنهجه التاريخي، وتحدث المبحث الثاني عن تاريخ الكوفة وتسميتها وتمصيرها، بينما كان المبحث الثالث عن تخطيط الكوفة وتقسيماتها وأول ما اختط فيها من المسجد الجامع إلى الجبانات حسب ما جاء في مرويات الطبري.

أما الفصل الثاني فكان بمبحثين تناول الأول منهما مدينة الكوفة وتمصيرها وخططها بصورة عامة، بينما اشتمل المبحث الثاني على كل ما ورد في مرويات البكري (ت ٤٧٨هـ) في كتابه (معجم ما استعجم..) بعد جرد الكتاب وتثبيت ما ورد فيه بدون إضافة أو حذف، ثم عرجت على وختاماً أتمنى أن أكون قد وفقت في ما أبتغيه، وهذه أقصى غاياتي، وإن تخلل البحث بعض الثغرات فأنا أتحمل تبعاتها ما دام هدفنا جميعاً خدمة الحقيقة والعلم.

ومن الله سبحانه وتعالى التوفيق وبه نستعين

* * *

الفصل الأول

المبحث الأول

الطبري

حياته:

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري[١]، ولد سنة ٢٢٤هـ بأمل بطبرستان، توفي سنة ٣١٠هـ في بغداد[٢]. جمع الطبري من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً للقرآن وعارفاً به، بصيراً بالمعاني، فقيهاً بأحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها، عارفاً بأقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك[٣].

كتاب الطبري في التاريخ هو أحد الكتب الضخمة والمشهورة في التراث العربي الإسلامي، ويقسم الكتاب من حيث التاريخ إلى قسمين[٤]، الأول كان فيه ما قبل الإسلام، فقد بحث في بداية الخليفة منذ هبوط نبينا آدم عليه السلام، ومن ثم عرضه للأنبياء، وبعدهم الأمم ومن ثم الملوك منذ المسيحية في بلاد الروم، وتاريخ بلاد اليمن، وبعض مشاهير العرب، وبعدها بدأ يمهد إلى عهد الرسالة النبوية، التي كانت في الخصوص في القسم الثاني، وهو بداية التاريخ الإسلامي منذ عهد الرسول ﷺ سنة ٣٠٢هـ وقد فرغ من التأليف في كتابه سنة٣٠٣هـ[٥].

استخدم الطبري في كتابه المنهج الحولي في القسم الثاني، وخاصة كان يستخدم المنهج الموضوعي في القسم الأول من تاريخه. وذلك لبعد الفترة الزمنية التي عايشها، ولكون هذه الحقب الزمنية غامضة فلم يكن اتباع التسلسل الزمني الحولي[٦]، الذي استخدمه في الترتيب على السنين وخاصة في كتابه التاريخ العربي الإسلامي، فكانت الحوادث تجمع في كل سنة وتربط فيما بينها، وإذا انتهت السنة الواحدة انتقل المؤرخ إلى أحداث السنة التالية مستخدماً جملة (ثم دخلت سنة كذا....)[٧].

أما روايات الطبري، فإنه لا يقف عند حد رواية واحدة لحادثة معينة، وإنما يورد مختلف الروايات التي يطمأن إلى صحتها، وصدق أصحابها، ولذا فهو يزود الباحث بمادة متعددة المصادر يستطيع تقويم الروايات المتعددة والمتباينة، وكان يدلي برأيه، ويرجح رواية على أخرى، ونجد في تاريخه عبارات تدلل على موضوع التوجه النقدي فيقول «فيزعمون والله أعلم»، «وزعم بعض العجم»، «وأما النصارى فإنها تزعم»، «هذا القول عندي أولى بالصواب»[٨].

ضم كتاب الطبري بين أوراقه وقائع تاريخية نادرة، ومعلومات قيمة ونصوص وخطب ومعاهدات، وكان من ضمنها في الأحداث التي وردت في عام١٧هـ وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب هي خطط الكوفة[٩]، وهذا ما تناولته في بحثي المتواضع هذا.

المبحث الثاني

الكوفة

١-تأريخها وتسميتها:

إن الكوفة لم تكن معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها، ولم يسكنها العرب ولا غيرهم، ولم تدل الآثار التاريخية على وجود مستوطن من المستوطنات القديمة، وإنما كان موضعها جزءاً سهلياً من الضفة اليمنى للفرات الأوسط إلى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة ويدعى (سورستان) من الاسم الفارسي سورستان[١٠]، التي تعني الصحراء، ويدعى كذلك بـ«خد العذراء».

وحينما مصرها العرب، عرفت بالكوفة، فتكوف بها، والتكوف يعني التجمع[١١]، وقيل المواضع المستديرة من الرمل تسمى «كوفاني وبعضهم يسمى الأرض التي فيها الحصباء مع الطين والرمل كوفه»، وعرفت أيضاً بالكوفان وهو أيضاً ما بين الدغل والقصب والخشب[١٢].

ويذكر ياقوت الحموي في معجمه إن عبده بن الطيب وهو من الشعراء القدماء سماها «كوفة نجد»[١٣]. أما صاحب المحيط

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت ٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩، ص١.

(٢) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، دار النشر زاتر شنايز، ط٢، الجزء٢، ريشبادن، ١٩٦٧، ص٢٨٤.

(٣) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد،(٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، الجزء٢، ص٣٦٨.

(٤) المسعودي، أبي الحسن بن الحسين بن علي(ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء، ص٩.

(٥) العزاوي، عبد الرحمن حسين، الطبري، السيرة والتاريخ، دار الشؤون الثقافية، ط١، بغداد، ١٩٨٩، ص١٨٣.

(٦) حسان، حلاق، مقدمة في مناهج البحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٩٣.

(٧) الطبري، المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٩.

(٨) العزاوي، المصدر السابق، ص١٩٥.

(٩) الطبري، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٤٥.

(١٠) المسعودي، المصدر السابق، ص١٧٦.

(١١) البلاذري، أحمد بن يحيى(ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٧، ص٢٧٧.

(١٢) ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل(ت ٧١١هـ)، لسان العرب، الجزء١١، القاهرة، بلا، ص ٢٢٢.

(١٣) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ج١، بيروت، ١٩٧٩، ص٢٩٥.

فيقول: «إن الكوفة بالضم تعني (الرملة الحمراء المستديرة أو كل رملة حمراء تخالطها حصباء»[١]. والواقع أن هذا التعريف ينطبق على أرض الكوفة حين تقدم عليها لا تجد في طريق الكوفة غير الرمال الحمر التي تخالطها الحصباء فيحتمل العرب عندما نزلوا فيها فسموها باسمها.

كانت هناك وجهات نظر مختلفة في تسمية الكوفة وقد أجملها ياقوت فيما يلي:

(١) سميت الكوفة لاستدارتها، وذلك من قول العرب، رأيت كوفان، وكوفان بضم الكاف وفتحها، تعني الرملة المستديرة.

(٢) سميت الكوفة لاجتماع الناس فيها من قولهم تكوف الرمل.... يتكوف تكوفاً إذا ركب بعضه بعضاً.

(٣) يقال أخذت الكوفة من الكوفان. وقيل سميت كوفة لأنها قطعة من البلاد في قول العرب[٢].

ويقول لويس ماسينيون إن اسم الكوفة (سرياني) لأنها عرفت عند طائفة السريان تنزل الديارات في أطراف الكوفة عن النجف والحيرة باسم (عاقولا) أو (ياكيولا) وكلمة (عاقولا) تعني بالسريانية حلقة أو دائرة[٣].

وما يفنده الطبري في كتابه بأن كلمة كوفة لم تصل الحد اليقيني كلمة (عاقولا) فيما يبدو منطقة كانت خارج موضع الكوفة من قول الطبري: «كان لعمر أربعة آلاف فرس عدة لسكون إذا كان يشتيها في قبلة قصر الكوفة وميسرته، ومن أجل ذلك يسمى ذلك المكان آلاري اليوم ويربعها فيما بين الفرات والأبيات من الكوفة مما يلي (العاقول) فسمته الأعاجم (آخر الشاهجان) يعنون معلف الأمراء، وكان قيمه عليها سلمان بن ربيعة الباهلي في نفر من أهل الكوفة يضع سوابقها ويجريها في كل عام»[٤]. ومما تقدم يتبين إن كل ما اختلف الرأي في الأصل التاريخي لكلمة كوفة، فإنه اسم عربي وإن موضع العاقول كان خارج منطقة الكوفة طبقاً لنص الطبري السابق.

(٢) تمصير الكوفة:

بعد الفتوحات العربية الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، أحس المسلمون بحاجتهم إلى الاستقرار، وبعد المعارك مع الفرس، وضعوا رأيهم بالاستقرار في المدائن عاصمة الدولة الساسانية، ولكن سرعان ما كرهوا الإقامة فيها لعدة أمور:

* **الأمر الأول**: لأن العرب قد فطروا على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع والهواء النقي.

* **الأمر الثاني**: كان موضع المدائن وإحاطته بالمياه والمستنقعات جعلها عرضة لانتشار البعوض وأخطار الفيضانات.

* **الأمر الثالث**: وهو سياسي وعسكري يكون قرب المدائن من الحدود مع الدولة الفارسية وبعدها عن مركز الخلافة الإسلامية، مما يجعلهم بالقرب من الفرس.

* **الأمر الرابع**: إن هدف الفتوحات العربية الإسلامية في بادئ الأمر كان السيطرة على الموضع الغربي للفرات الأوسط بالأخص منطقة الحيرة، فيقول الطبري «كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد إذ أمره على حرب العراق أن يدخلها من أسفلها، وإلى عياض، إذا أمره على حرب العراق أن يدخلها من أعلاها، ثم يستبقا إلى الحيرة فأيهما أسبق إلى الحيرة فهو أسيد على صاحبه»[٥].

بعد أن سكنوا في المدائن فترة قصيرة، قد بان على وجوه المقاتلين، وأثرت على صحتهم، ولاحظ الخليفة عمر بن الخطاب هذا في أوجه كل من كان يرد عليه من الوفود، فكتب إلى قائده سعد بن أبي وقاص يسأله عن الأسباب فيقول الطبري:

«قال عمر والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن، وإنهم لكما أبدأوا ولقد انتكيتم فما غيركم، قالوا وخومة البلاد، فنظر في حوائجهم وعجل سراحهم، وكان في وفود عبد الله بن المعتم، عتبة بن الوعل، وذو القرط وابن ذي السنينة، وابن الحجير، وبشر، فعاقدوا عمر على بني تغلب، فعقد لهم على من أسلم منهم فله ما للمسلمين وعليه وما عليهم، ومن أبي فعليه الجزاء، وإنما الأحبار من العرب على من كان في الجزيرة.... فهاجر هؤلاء التغلبيون ومن أطاعهم إلى سعد في المدائن، وخطوا معه بعد الكوفة وأقام من قام في بلاده على ما أخذوا لهم على عمر مسلمهم وذميهم»[٦].

ورواية أخرى يقول فيها:

«كتب عمر إلى سعد، أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم، فكتب إليه أن العرب خدرهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة، فكتب إليه أن العرب لا يوافقها إلا ما وافق أبلها من البلدان فابعث سلمان رائداً، وحذيفة، وكانا رائدي في الجيش فيرتادا منزلاً برياً وبحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، ولم يكفي عن أمر الجيش شيء، إلا وقد أسنده إلى رجل فبعث سعد، حذيفة وسلمان فخرج سلمان حتى يأتي الأنبار فسار غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة وخرج حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى حتى الكوفة، والكوفة

(١) الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر(ت٨١٧هـ)، قاموس المحيط، الجزء٣، القاهرة، ١٣٤٤هـ ص١٩٣.

(٢) الحموي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٩٥.

(٣) ماسينيون، لويس، خطط الكوفة، ترجمة تقي المصعبي، صيدا، بيروت، ١٩٣٩، ص٢٥.

(٤) الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص١٤٥.

(٥) الطبري، المصدر السابق، حوادث سنة١٢هـ

(٦) الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص١٤٥.

على حصباء وكل رملة حمراء يقال لها سهلة وكل حصباء ورمل هكذا مختلطين فهو كوفة، فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاثة «دير حرقة»، و«دير أم عمرو»، و«دير سلسلة» وخصاه خلال ذلك، فأعجبتهما البقعة فنزلا فصليا وقال كل واحد منهم اللهم رب السماء وما أظلت، ورب الأرض وما أقلت، والريح وما ذرت، والنجوم وما هوت، والبحار وما جرت، والشياطين وما أضلت، والخصاص وما أجنت، بارك لنا في هذه الكوفة واجعله منزل ثبات وكتب إلى سعد بالخبر»[١].

وفي رواية أخرى يقول: «لما اجتوى المسلمون المدائن بعدما أنزلها وآذاهم الغبار والذباب وكتب إلى

سعد في بعثه رودا يرتادون منزلاً بريا وبحرياً فإن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح البعير والشاة، سأل من قبله عن هذه الصفة فيما بينهم فأشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب، باللسان، وظهر الكوفة يقال له اللسان وهو فيما بين النهرين إلى العين عين بني الحذاء وكانت العرب تقول ادلع البر لسانه في الريف، فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط وما كان يلي الطي منه فهو البخاف فكتب إلى سعد يأمره به»[٢]فكتب الخليفة إلى سعد بالتحول من المدائن، اختار سعد الأنبار لينزلها، ولأسباب صحية وعسكرية وإدارية ترك الأنبار، ولم ينزل الحيرة لغلبة النصرانية على أهلها من جهة ولقربها من منطقة الأهوار والمستنقعات النسبية بالفيضانات من نهر الفرات وبحر النجف من جهة أخرى[٣]، فابتعد بضعة أميال واختط الكوفة وكتب إلى عمر يقول الطبري: «إني نزلت الكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات بريا وبحرياً ينبت الحلى والنصيى وخيرت المسلمين بالمدائن فمن أعجب المقام تركته فيها كالمسلحة فبقي أقوام من الأقناء وأكثرهم بنو عبس»[٤].

فأقر الخليفة عمر بن الخطاب الاختيار، وبدأ الجيش العربي الإسلامي يقيم أول معسكراته في محرم سنة ١٧هـ[٥]. أما سبب تمصير الكوفة على حدود الصحراء بالذات، هو أن تكون في موقع وسط هام يؤمن السيطرة الكاملة على المنطقة في غرب وشرق الفرات، ويقول الطبري: «سبب تمصيرها أن تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق ودار هجرة للقسم الأوسط وعاصمة بالمسلمين بدل المدائن»[٦].

ويرى (برناد لويس) إن العرب اختطوا مدنهم في أطراف الصحراء لأن هذه المدن أشبه بلواء من ألوية الجيش وإنها المنافذ والثغور في الصحراء[٧].

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٦.
(٣) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٦.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب(ت٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، الجزء٢، النجف، ١٣٥٨، ص١٢٧.
(٦) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٦.

المبحث الثالث

تخطيط الكوفة

إن تخطيط مدينة الكوفة الفعلي بدأ سنة ١٧هـ أي بعد انتقال سعد بن أبي وقاص من المدائن عاصمة الدولة الساسانية إلى موقع تخطيط مدينة الكوفة[٨]، وذكر الطبري أن سعداً انتقل إليها ليتخذها دار جهاد وهجرة للمسلمين[٩]، ومعنى هذا أن الدافع الحربي لم يكن قد خمد في النفس العربي بل أنهم ظلوا على استعداد لمواصلة الجهاد لنشر الدعوة في بقية الأمصار الفارسية القديمة التي لم تكن قد وصلت إليها الدعوة.

عندما اتجه سعد إلى موضع المدينة لتخطيطها، اتجه أولاً إلى اختيار موضع للمسجد الجامع بها ودار للإمارة متصلة به وبيت للمال، وجميعها تؤلف قسماً من أقسام هذه المدينة له كيانه الخاص المستقل به، ثم حدد المخططون بعد ذلك الطرق والمناهج والسكك، والدور والمحلات والأسواق والمساجد ومسجد السهلة والجبانات ومقبرة جماعية لأهل الكوفة سميت (ثوية الكوفة)[١٠]، ومن الذين أشرفوا على التخطيط بإذن الخليفة عمر بن الخطاب فيقول الطبري: «كتب عمر على تنزيل أهل الكوفة، أبو الهياج بن مالك وعلى تنزيل أهل البصرة، عاصم بن الدلف أبو الحرباء»[١١].

ويقول الطبري عن بداية التخطيط في الكوفة، كان من القصب كما يبين أن اعتماد التخطيط يشابه تخطيط مدينة الكوفة وفيه الاتفاق أكثر من الاختلاف وكانت البصرة قد مصرت قبل عامين، أي يعني كلاهما في زمن وعصر واحد، فيقول الطبري في روايته: «قالوا لما نزل سعد الكوفة، واستقروا أهل الكوفة واستقرت بأهل البصرة الدار عرف أنفسهم وثاب إليهم ما كانوا فقدوا، ثم إن أهل الكوفة استأذنوا في بنيان القصب، واستأذن فيه أهل البصرة، فقال عمر: العسكر أجد لحربكم وأذكى لكم وما أحب أن أخالفكم وما القصب قالوا (العكرش) إذا روى قصب فصار قصباً قال: فشأنكم فابتنى أهل المصرين بالقصب، ثم إن الحريق وقع بالكوفة والبصرة، وكان أشدهما حريقاً الكوفة، فاحترق ثمانون

(٧) الجنابي، د. كاظم، تخطيط مدينة الكوفة، مطابع دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٧، ص٢٧.
(٨) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٧٤.
(٩) الطبري، حوادث سنة١٤هـ
(١٠) الحكيم، د. حسن عيسى، محاضرات في مادة تخطيط مدن إسلامية، ألقيت على طلبة الدراسات العليا-ماجستير، كلية الآداب، ٢٠٠١/٣/١٩.
(١١) الطبري، حوادث سنة١٧هـ

عريشاً ولم يبقى فيها قصبة في شوال، فما زال الناس يذكرون ذلك فبعث سعد منهم تقرأ إلى عمر يستأذنون في البناء باللبن فقدموا عليه بالخبر عن الحريق وما بلغ منهم وكانوا لا يدعمون شيئاً ولا يأتونه إلا وأو امروه فيه فقال: افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطالوا البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة، فرجع القوم إلى الكوفة... وعهد عمر إلى الوفد ومقدم إلى الناس أن لا يرفعوا فوق القدر قالوا وما القدر قال مالا يقربكم من السرف ولا يخرجكم من القصد»[١].

(١) المسجد:

ولما انتهى الأمر كله أنشأ المخططون يقطعون القطائع والدور للصحابة والجند ويقول اليعقوبي «إن كل قبيلة اختطت المكان الذي خصص لها»[٢]. ونجد أن أول شيء اختط في الكوفة هو المسجد الجامع وكان اختياره واختطاطه في موضع وسط من المدينة، وكان لا يبعد عن الفرات إلا بمقدار كيلومتر ونصف، ومما يؤسف له أن لم يعرض لتخطيط مسجد الكوفة من المؤرخين سوى البلاذري[٣] رواية عن تخطيطه، وكشف لنا الطبري عن الطريقة التي تم بها بناء هذا المسجد، وهذا ما أتطرق إليه.

فيقول الطبري عن الطريقة التي تم بها بناء مسجد الكوفة فيقول: «أول شيء خط بالكوفة وبني حين عزموا على البناء، المسجد ثم قام رجل في وسطه رام شديد النزع، فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع ذلك السهم، ورمى من بين يديه ومن خلفه وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهمين، فترك المسجد في مربعة، علوه من كل جوانبه، وبنى ظلة في مقدمه، ليست لها مجنبات ولا مؤخرة والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا وكذلك كانت المساجد ماخلا المسجد الحرام فكانوا لا يشبهون به المساجد تعظيماً لحرمته وكانت ظلته مائتي ذراع على أساطين رخام.... وعلموا على الصحن بخندق لئلا يقتحمه أحد ببنيان...)[٤].

ويدل من النص على أن المسجد حين خط لم يكن له سور يحميه حتى أن المجالس فيه كان يرى من يمر بجواره، وإن المجالس في مسجد الكوفة يرى دير الهند على الخندق وهذا ما يؤكد أنه غير مسورة[٥]. أما المساحة التي كان يشغلها مسجد الكوفة عند تخطيطه الأول فإن الطبري لم يذكر شيئاً عنه.

(٢) دار الإمارة:

أما دار الإمارة فإنها خطت في موضع الفضاء والمتصل بالمسجد من جهة القبلة ويقول الطبري: «وبنى سعد في الذي خطوا للقصر قصراً بحيال المحراب مسجد الكوفة فشيده وجعل فيه بيت المال وسكن ناحيته»[٦]، وكتب سعد بذلك إلى الخليفة عمر ووصف له موضع الدار وبيوت المال من الصحن مما يلي ودعة الدار، فكتب إليه عمر «إن أنقل المسجد حتى تضعه إلى جنب الدار واجعل الدار قبلته فإن للمسجد أهلا بالنهار وبالليل وفيهم حصن لمالهم» «فنقل المسجد وأراغ بنيانه، فقال دهقان من أهل همذان يقال له (روزبه بن بزرجمهر): أنا أبنيه لك وأبني لك قصراً فأصلهما ويكون بنياناً واحداً، فخط قصر الكوفة على ما خط عليه»[٧].

لا شك أنه لم يكن غريباً أن تختفي معالم دار الإمارة وتندثر كغيرها من المباني القديمة في الكوفة، وكان اختفاؤها أما بفعل عوادي الزمن أو بما درج عليه الناس في هدم المباني المهجورة واستعمال آجرها اقتصاداً أو لمجرد الرغبة في تحطيمها، وقد شاهد الرحالة ابن بطوطة الذي زار الكوفة سنة ٧٢٦هـ خرائب دار الإمارة ويقول: «أما دار الإمارة الذي بناه سعد بن أبي وقاص فلم يبقى منه إلا أساسه»[٨].

بعد أن بدأ العمران في الكوفة، حتى توافد عليها الناس من كل صوب، وكان أو الوافدين إليها بعد العرب، الفرس وكان عددهم أربعة آلاف فارسي كانوا يعملون بالجيش الفارسي، وبعدهم نزلوا الكوفة «السريان» وهم الذين كانوا يسكنون الديارات في أطراف الحيرة والنجف، فيقول ماسينيون «وكان في الكوفة اسقفان أحدهما نسطوري والآخر يعقوبي، والنساطرة هم الحضر واليعاقبة هم البدو»[٩].

وأما بعد السريان نزلوا على الكوفة من نجران اليمن منهم اليهود والنصارى وكان أغلبهم صيارفة قاموا بالكوفة في محلة عرفت (النجرانية)[١٠].

(٣) المناهج:

أ- المناهج الرئيسية

أما مناهج الكوفة فإن الطبري يحدثنا أن الخليفة عمر بن الخطاب أرسل إلى سعد بن أبي وقاص بياناً كافياً عما تنبغي أن تكون سكك الكوفة وطرقها وأزقتها حينما شرع في تخطيط المدينة، فأمر أن يكون «المنهج»[١١] الواحد أربعين ذراعاً وما

(١) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٨.
(٢) اليعقوبي، المصدر السابق، ص٩٦.
(٣) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٧٥.
(٤) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٨.
(٥) الحكيم، المصدر السابق.
(٦) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٩.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) ابن بطوطة، شرف الدين أبو عبد الله(٧١٧هـ)، تحفة النظار في غرائب الأمصار، الجزء١، القاهرة ١٩٣٨، ص١٣٨.
(٩) ماسينيون، المصدر السابق، ص٢٥.
(١٠) البلاذري، المصدر السابق، ص٦٦.
(١١) المناهج: جمع منهج، ويعني الحد الفاصل بين صفوف الخيام الواقعة في خطط القبائل.

بين ذلك عشرين ذراعاً، وقد التزم المشرفون على التخطيط هذا البيان الذي بعث به عمر، ثم نزلت كل قبيلة في الموضع الذي خصص لها، فنزل أهل اليمن في الجانب الشرقي من المسجد، ونزلت نزار في الجانب الغربي منه، وإن الجانب الشرقي خير مواضع الكوفة لأنه يقع بين الفرات والمسجد، فكان اختيار أهل اليمن في الجانب الشرقي لأنهم الأكثر عدد من نزار[١].

أما عدد المناهج فكانت خمسة عشر منهجاً وأما توزيعاً كما يروي الطبري كما يلي:

* **أولاً**: في ودعة الصحن (شمال المسجد) خمسة مناهج (١، ٢، ٣، ٤، ٥).
* **ثانياً**: في قبلة الصحن (جنوب المسجد) أربعة مناهج (٦، ٧، ٨، ٩).
* **ثالثاً**: في شرقي الصحن (شرق المسجد) ثلاثة مناهج (١٠، ١١، ١٢).
* **رابعاً**: في غربي الصحن (غرب المسجد) ثلاثة مناهج (١٣، ١٤، ١٥)[٢].
* **أولاً**: في شمال المسجد خصص المنهج (١، ٢) لقبيلتي (سليم وثقيف)، والمنهج (٣) (لهمذان)، والمنهج (٤) لـ(بجيلة)، والمنهج (٥) لـ(تميم اللات وتغلب).
* **ثانياً**: جنوب المسجد، خصص المنهج (٦) لـ(بني أسد)، والمنهج (٧) قسم بين (أسد والنخع)، والمنهج (٨) (للنخع وكنده)، والمنهج (٩) بين (كنده والأزد).
* **ثالثاً**: في شرق المسجد، خصص المنهج (١٠) (الانصار ومزينة)، والمنهج (١١) لـ(تميم ومحارب)، والمنهج (١٢) لـ(أسد وعامر).
* **رابعاً**: في غرب المسجد، خصص المنهج (١٣) لـ(بجالة وبجيلة)، والمنهج (١٤) لـ(جديلة واللفيف). والمنهج (١٥) لـ(جهينة واللفيف)[٣].

ب- المناهج الفرعية

وقد خصص المشرفون على التخطيط مناهج فرعية دون الأولى في الذرع ولكنها تلاقيها في أطراف مختلفة، وقد خطت وراء الصحن للمسجد نزول المحاربين والقواد حين عودتهم من الفتوح فيقول الطبري: «وحمى لأهل الثغور والموصل أماكن يوافون إليها... فلما دلفتهم الروادف وكثروا عليهم، ضيق الناس المحال، فمن كان رادمته كثيرة شخص إليهم وترك محلته، ومن كان رادمته قليلة أنزلوهم منازل من شخص إلى رادفته لقلته إذا كانوا جبرانهم وإلا وسعوا على روادفهم وضيقوا على أنفسهم»[٤].

وفي نص آخر يذكر الطبري أن هذه المناهج قد أصابها التعديل إذ يقول: «ولما رجع الأعشار كتب سعد إلى عمر في تعديلهم وتقسيمهم وتوزيعهم، فكتب عمر: «أن عدلهم» فأرسل سعد إلى قوم من نساب العرب وذوي رأيهم وعقلائهم، منهم سعيد بن نمران ومثلبة بن نعيم فعدلوهم على الأسباع فجعلوها أسباعاً»[٥].

وكان ترتيبها بعد التعديل على النحو الآتي:

١- صارت كنانة وحلفائها من الأجايش سبعاً.
٢- قضاعة وعسان وبجيلة وخثعم وكنده وحضرموت والأزد سبعاً.
٣- ومذحج وحمير وهمدان سبعاً.
٤- وتميم وسائر الرباب وهوزان سبعاً.
٥- وصارت أياد وعك وعبد القيس وأهل الهجر والحمراء سبعاً.
٦- وأسد وغطفان ومحارب سبعاً[٦].

ويبدو أن هذه التقسيمات لم يطرأ عليها تغيراً، ولكن حينما قدم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الكوفة بعد يوم الجمل سنة٣٦هـ غير نظام الأسباع وعقد الرايات وعبأها على الترتيب التالي:

١- عقد لحمير وهمدان راية، وولى عليهم سعيد بن قيس الهمداني.
٢- عقد لمذحج والأشعريين راية، وولى عليهم زياد بن النظر الحارثي.
٣- عقد لقيس وعبس وذبيان راية، وولى عليهم سعد بن مسعود ابن عمر الثقفي عم المختار بن أبي عبد الله.
٤- عقد لكندة وحضرموت وقضاعة ومهرة راية، وولى عليهم حجر بن عدي الكندي.
٥- عقد لبكر وتغلب وبقية بطون ربيعة راية، وولى عليهم مجدوح الذهلي.
٦- عقد للازد وبجيلة وخثعم وخزاعة راية، وولى عليهم مخنف ابن سليم الأزدي.
٧- عقد لسائر قريش والأنصار وغيرهم من أهل الحجاز وولى عليهم عبد الله عباس[٧].

وأما في العصر الأموي وفي إمارة سنة ٥٠هـ فقد صارت الأسباع في الكوفة أربعة وعلى النحو الآتي:

(١) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٩.
(٢) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٩.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٩.
(٧) الطبري، حوادث سنة٣٦هـ ص٥٣٤.

١- أهل المدينة، وكان عليهم عمرو بن حريث.
٢- تميم وهمدان وعليهم خالد بن عرفطة.
٣- كندة وربيعة، وعليهم قيس بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة[١].
٤- مذحج وأسد وعليهم أبو بردة بن أبي موسى. وظل هذا النظام حتى آخر أيام الكوفة.

(٤) السكك:

أما السكك فقد روعي في تخطيطها وتنظيمها، بحيث جعل المشرفون على التخطيط عرض السكة الواحدة خمسين ذراعاً من أذرع اليد، وكانت تتخللها بعض الأزقة والدروب، وتتردد بعض أسماء هذه السكك في بعض النصوص التاريخية، منها سكة «شبث» وكانت في منازل تميم، وسكة «الملاء بن محرز» وكانت في منازل قريش، وسكة «دار الروميين» وكانت هذه السكة بالقرب من قصر الإمارة، وسكة «التويني»، وسكة «عميرة» في منازل كندة، وسكة «لحام بن جرير» وسكة «بن جذيمة بن مالك» من أسد[٢].

أما في العصر الأموي فقد اشتهرت الكوفة بأسماء بعض السكك منها سكة البريد وكانت هذه السكة ما بين الجسر عند منازل بني سليم ولكناسه[٣]، وكانت بعض هذه السكك تنار أثناء الليل بالمشاعل، أما الدروب التي عرفت في الكوفة أيضاً فهي (دروب الروميين) و(زقاق البصريين) وكان هذا الزقاق بالقرب من سكة بني جذيمة، ويبدو أنه كان يطلق على بعض السكك أحياناً أسماء بعض التجار مثل (عنترة الحجام)[٤]. ولما دخل أهل خراسان الكوفة في سنة١٣٢، أصبحت تطلق بصورة مستعجمة، وعرفت أسماء بعض مفارق الطرق الفارسية وكذلك الساحات. كانت تسمى بالصحراء[٥].

(٥) الدور والمحلات:

أما الدور فقد خطت حول المسجد وكانت على ما يبدو مساكن للصحابة والوجوه. «فقد اختطوا الدور حول المسجد كما اختط سلمان بن ربيعة الباهلي والمسبب بن نجبه الفزاري وناس من قيس حيال دار بن مسعود»[٦].

أما أهم الدور التي أنشأت في الكوفة بعد دار الإمارة فكانت «دار الرزق»[٧] وكذلك من أهم الدور «دار الروميين»، كانت هذه الدار مزبلة لأهل الكوفة تطرح فيها القمامات والكسامات[٨] «ودار حكيم» نسبت إلى حكيم بن سعد بن ثور البكاي، ودار «قماقم بنت الحارث بن هاني الكندي»، «دار الأشعث بن قيس»، «دار حجير» نسبت إلى حجير بن الجعد الجمحي، و«دار المقطع» نسبت إلى المقطع بن سنين الكلبي و«دار أسامة»، و«دار جرير»، و«دار الحارث بن أبي ربيعة»، و«دار خالد بن عرفطة»، و«دار سعيد بن جبير»[٩]، و«دار سعيد بن قيس»[١٠] و«دار السقايا»[١١]، و«دار مسلم بن المسير»[١٢]، و«دار أبي موسى»[١٣]، و«دار ابن هبار»[١٤]، و«دار الوليد بن عقبة بن معيط»[١٥].

أما المحلات التي عرفت في الكوفة فهي محلة بني شيطان بن زهير بن شهاب بن تميم، ومحلة (الكناسة)، وكانت في أول أمرها لرمي الأنقاض، وكان موضعها عند مخرج الكوفة من ناحية الغرب، وبعد إعمارها أصبحت مركزاً تجارياً مهماً وقد سكنت الكناسة عدة قبائل، هي: عبس وتميم، وكان فيها بعض المساجد، ولما انحطت الكوفة انحطت الكناسة أيضاً وأصبحت منعزلة[١٦].

(٦) الأسواق:

أصبحت هذه المدينة ملتقى هذه الطوائف المختلفة من العرب وفيهم المحاربون وأهل الفقه والدارسون للغة والأدب، كان من الطبيعي أن تخط فيها بعض الأسواق تنظيماً للحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ولتحقيق الحياة والعيش. إن الأسواق خطت من القصر والمسجد إلى الوليد بن عقبة من جهة وإلى القلائين من جهة أخرى وإلى منازل ثقيف وأشجع من جهة أخرى[١٧]، ويحتمل أن تكون موضع السوق في الجهة الشرقية أن المسجد بالقرب من دار الإمارة بدليل أن سعداً أغلق باب الدار من جهة السوق حتى لا يتسرب إليه ضجيج القاصدين إليه، كما يذكره الطبري: «أغلق باب القصر وكانت الأسواق في موضعه بين يديه فكانت غوغائهم تمنع سعدا الحديث فلما بنى ادعى الناس عليه ما لم يقل وقالوا قال سعد «سكن عني التصويت»[١٨].

(١) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٨٠.
(٢) الطبري، حوادث سنة ٥١هـ ص١٩٢.
(٣) الطبري، حوادث سنة ٦١هـ ص٥٠٢.
(٤) الطبري، حوادث سنة ٦٦هـ
(٥) الطبري، حوادث سنة ٦٧هـ
(٦) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٨١.
(٧) اليعقوبي، المصدر السابق، ص٧٠.
(٨) الطبري، حوادث سنة١٣هـ
(٩) الطبري، حوادث سنة٦٦هـ
(١٠) الطبري، حوادث سنة ٩٤هـ
(١١) الطبري، حوادث سنة٦٦هـ
(١٢) الطبري، حوادث سنة٦٧هـ
(١٣) الطبري، حوادث سنة٦٠هـ
(١٤) الطبري، حوادث سنة٦٦هـ
(١٥) الطبري، حوادث سنة٦٦هـ
(١٦) الحموي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٩٧.
(١٧) اليعقوبي، المصدر السابق، ص٧١.
(١٨) الطبري، حوادث سنة ١٧هـ ص١٤٩.

كانت الأسواق في بادئ الأمر أرضاً فضاء لا نبات فيها ولا سقوف سوى ظلال (بواري) من الحصير كان يضعها الباعة لتظللهم في الأماكن التي يختارونها للبيع والشراء، وكان نظام الأسواق على سنة المساجد فمن سبق إلى موضع فهو له حتى يفرغ منه كما يقول الطبري: «الأسواق على قلة المساجد فمن سبق إلى مقعده فهو له حتى يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه»[١].

ظلت الأسواق على حالتها تلك حتى ولاية خالد بن عبد الله القسري في العصر الأموي، فقد كان أول من بنى الأسواق في الكوفة بناءً محكماً، يقول البلاذري: «وبنى خالد حوانيت أنشأها وجعل سقوفها أزاجاً معقودة بالآجر والجص»[٢]. تلك هي النسوق العامة وهناك أسواق أخرى تعرض فيها أشياء خاصة كسوق الصيارفة وكانت عند مسجد بني جذيمة، وكان بين حوانيت هذه الأسواق ديوان للمحتسب وقد ذكر الطبري أن «نصر بن مزاحم» كان من الذين تولوا منصب محتسب في أسواق الكوفة[٣].

(٧) المساجد:

لم يقتصر التخطيط على المسجد الجامع وحده، بل خطت مساجد أخرى صغيرة للقبائل حسب مواضعها وبذلك أصبحت كل خطة من الخطط تشتمل على مسجد وجبانه (مقبرة) لدفن الموتى ومن أسماء المساجد القبلية: (مسجد سماك بن مخرمة الأسدي)، و(مسجد بني جذيمة)، و(مسجد بني القاصف بن ذكوان)، و(مسجد بني بهدله بن المثل بن معاوية من كندة)، و(مسجد عبد القيس)، و(مسجد السكون)، و(مسجد أحمس)، و(مسجد بني فرن ابن أود من مذحج)، و(مسجد بني مرة بن ومن كندة)، و(مسجد بني مقاصف)، و(مسجد فزارة)، و(مسجد بني عدي)، و(مسجد الأشعث)، و(مسجد الأنصار)، و(مسجد جهينة)، و(مسجد أبي داود)، و(مسجد بني دهمان)، و(مسجد بني ذهل)، و(مسجد السكون)، و(مسجد شبث)، و(مسجد عدي بن حاتم)، و(مسجد مخزوم)، و(مسجد بني العادل)، و(مسجد بني هلال)، و(مسجد ثقيف)، و(مسجد الحمراء)، و(مسجد السهلة)[٤].

وقد تهدمت جميع المساجد القبلية في الكوفة ما عدا مسجد السهلة الذي ما زال مائلاً ليومنا هذا.

وأما الثوية فهي أقدم جبانه وأهمها وهي (لثقيف وقريش) وهي خارج حدود المدينة[٥].

(١) المصدر السابق، ص١٤٩.
(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٨٤.
(٣) الطبري، المصدر السابق، ص١٤٩.
(٤) الطري، المجلد٢، ص(٧٣٤، ٩٨، ٦٨٧، ٦٥٦، ٦٥٧، ٧٠٣، ٢٨٤، ٧٣٤، ٦٥٦، ٦٧، ٥٣٤، ٦١٧، ٦٢٢، ١٣٠).
(٥) البراقي، السيد حسين السيد أحمد(ت ١٣٣٢)، تاريخ الكوفة، النجف، ١٣٥٦هـ ص١٢.

(٨) مسجد السهلة:

يعتبر من أكبر المساجد وأوسعها في مدينة الكوفة، يقع بظاهر الكوفة في الجهة الشمالية الغربية من المسجد الجامع، على بعد كيلومترين تقريباً، في أرض فضاء خالية من العمران والسكن والأرض من حوله رمال صحراء، فيقول الطبري في صدد كلمة كوفة «كل رملة حمراء يقال لها سهلة وكل حصباء ورمل هكذا مختلطين فهو كوفة» ومن هذا ربما يرجع تسمية المسجد بهذا الاسم[٦].

لا يمكن تحديد تاريخ المسجد لاختفاء العلامات والآثار المميزة للعصور المختلفة[٧]. إلا أنه أن صح القول يكون مسجد السهلة قد شيد في عهد الكوفة الأول أي قبل مجيء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام سنة٣٦هـ أو أثناء إقامته بالكوفة[٨].

(٩) الجبانات:

اختطت لكل قبيلة جبانة أو مقبرة خاصة لها والقصد منها هو المحافظة على سلسلة النسب وتذكير الأبناء بمحبة الآباء وما قدموه من عمل في سبيل الدعوة الإسلامية وردت أسمائها في الطبري: «جبانة كنده كانت لربيعه وكندة»[٩].

وقد شملت بعض الأحياء القبلية بعد تخطيطها على بيع وأديرة لأهل الذمة الذين كانو يعيشون في الدولة الإسلامية، وذلك ليتمكن من أداء شعائرهم الدينية تحت كفالة الدولة، وقد وردت أسماء بعض الأديرة منها «دير الأعور» و«يرقرة»[١٠]. وقد كانت تتخلل هذه الخطط بعض الحمامات التي كان يقصدها الناس منها «حمام أعين» نسب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص و«حمام عمر» و«حمام قطن بن عبد الله»[١١].

لما ولى أمر الدولة أبو جعفر المنصور بقيت هذه المدينة تحت عنايته ما بقيت فحفر لها خندقاً وبنى لها سوراً، يقول الطبري: «خندق أبو جعفر على الكوفة والبصرة وضرب عليهما سوراً وجعل ما أنفق على سور ذلك وخندقه من أموال أهله»[١٢]. ويذكر ابن الأثير أن ثغور الكوفة كانت أربعة وهي (حلوان)، و(ماسيندان)، و(قرقيسياء)، و(الموصل)[١٣].

(٦) الطبري، المصدر السابق، ص١٥٠.
(٧) الجنابي، المصدر السابق، ص٩٠.
(٨) البرقي، المصدر السابق، ص١١٧.
(٩) الطبري، المصدر السابق، ج٢، ص٦٥١.
(١٠) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٨٤.
(١١) الطبري، المصدر السابق، ص٦٤٩.
(١٢) الطبري، حوادث سنة ١٣١هـ
(١٣) ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم،(ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، الجزء الثاني، ١٩٨٠، ص٢٠٥.

الفصل الثاني

المبحث الأول

الكوفة.... تمصيرها.... وخططها

لم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها وإنما كانت أرضاً خالية من السكان حيث كان بينها وبين النهر لسان من الرمل يقترب عمودياً من الفرات يسمى الملطاط[١]، (وكان يقال لظهر الكوفة اللسان وما ولي الفرات منه اللطاط)[٢]، والكوفة المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق ويسميها قوم خذ العذراء وقد ذكر المؤرخون عدة تسميات للكوفة[٣]، فقد سميت الكوفة كوفاناً بضم الكاف وهو ما يطلق على الرميلة المستديرة، وقيل سميت كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم قد تكوف الرمل إذا ركب بعضه بعضاً، وقد ذهب جماعة إلى أنها سميت كوفة لموضعها من الأرض حيث إن كل رملة يخالطها حصباء وتسمى كوفة، ويقال أيضاً إنها سميت بالكوفة لأن سعداً لما افتتح القادسية ونزل المسلمون الأنبار، فآذاهم البق، فخرج فارتاد لهم موضع الكوفة وقال تكوفوا في هذا الموضع أي اجتمعوا والتكوف يعني التجمع وقيل أيضاً إنها سميت كوفة نسبة إلى جبل صغير كان فيها يسمى كوفان، وقيل أيضاً سميت نسبة إلى جبل (ساتيدما) المحيط بها كالكفافة عليها، وقال محمد بن سهل سميت الكوفة لأن جبل (ساتيدما) محيط بها كالكفافة عليها[٤].

وكان تأسيس الكوفة إحدى الضرورات الحربية التي فرضتها دواعي الفتح العربي الإسلامي لبلاد فارس على عهد الخليفة عمر، فبعد اندفاع الجيش بقيادة سعد بن أبي وقاص بعد فتوح السواد الفاصلة إلى بلاد فارس طالت خطوط المواصلات بين المدينة المنورة وميادين القتال فكان لابد للجيش المحارب أن يتخذ نقطة ارتكاز له ليستريح عندها من عناء السفر والحرب لتكون معسكراً ثابتاً قريباً من ميادين القتال[٥]، إضافة إلى ميزة وقوعها على حافة الصحراء لا يفصل بينها وبين العاصمة ماء أو جسر[٦]، ولم يكن هذا العامل هو العامل الوحيد في إرساء الأساس لهذه المدينة وإنما كان هنالك العديد من العوامل التي تظافرت وأدت بالتالي إلى نشوء الكوفة أو غيرها من المدن العربية الإسلامية وأهم هذه العوامل[٧]:

١-**العامل الاقتصادي**: وذلك لتوفر المادة الأولية للبناء وكلفة نقلها القليلة وذلك ما يجعلها عملية غير مكلفة ساعدت على بناء تلك المدن.

٢-**العامل الجغرافي**: فقد أوصى الخليفة عمر قواده عند بناءهم للمدن أن تبنى بين حجر ومدر لتكون قريبة من حافات الصحراء على طرق القوافل وقريبة من مصادر الماء حيث الزراعة وخيراتها الوفيرة إضافة إلى الأثر البيئي والمناخ الذي يلائم المسلمين، لذلك كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى سعد ليرتاد منزلاً لا برياً ولا بحرياً وليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر[٨].

وأضاف «إن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل فارتد لهم موضعاً عدتاً ولا تجعل بيني وبينكم بحراً»[٩].

٣-**العامل الحربي (العسكري)**: إن المدن تلك بنيت أساساً لتكون مدناً عسكرية ونستدل على ذلك من أمر الخليفة عمر لقائده سعد أن (يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا)[١٠]، والقيروان تعني العسكر، فوجود المدن على حافة الصحراء تسهل عمليات النقل ووصول الإمدادات من حاضرة الدولة العربية الإسلامية (المدينة المنورة)[١١].

٤-**العامل الاجتماعي**: إن نشأة أي مدينة يجب أن تكون بجوار مدن آهلة بالسكان أي حضرية، لتسهيل تحويل سكان المناطق الحضرية تلك إلى الإسلام خاصة ونحن نعرف إن الوثنية والمسيحية والمجوسية هي التي كانت سائدة آنذاك.

٥-**العامل الفكري**: إن المدن هذه كانت قريبة من مراكز علمية مهمة وهو ما يؤدي بالتالي إلى عملية الاختلاط العلمي وقد لعبت المراكز العلمية القريبة من هذه المدن دوراً في نمو الحركة الفكرية في هذه المدن.

---

(١) أحمد بن يحيى البلاذري(ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٧، ص٣٧٧.

(٢) شهاب الدين ياقوت بن أبي عبد الله الحموي(ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، بلا ١٩٢/٥.

(٣) ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني(ت ٣٤٠هـ)، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٥، ص٦٣، الحموي، المعجم، ٤٩٠/٤.

(٤) أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري(ت ٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفا السقا، ط١، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٩، ١١٤٦/٤-١١٤٢.

(٥) مصطفى عباس الموسوي، العوامل التأريخية لنشأة المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢، ص٨٢، يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص٢١-٢٣.

(٦) عبد الرحمن محمد بن خلدون (ت٨٠٨هـ)، تأريخ الغبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، ١٩٥٩، ٣٢١/٣.

(٧) حسن عيسى الحكيم، محاضرات في مادة(تخطيط مدن إسلامية) ألقيت على طلبة الدراسات العليا-الماجستير بكلية الآداب بجامعة الكوفة، قسم التأريخ في ٢٠٠١/٤/٧.

(٨) ابن الأثير محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد(ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط٣، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، ٣٦٨/٢.

(٩) البلاذري، ٢٧٦.

(١٠) المصدر نفسه، ٢٧٤.

(١١) الحكيم، المصدر السابق.

٦-**البعد الحضاري**: إن العامل الفكري أدى إلى حدوث احتكاك حضاري نتيجة اقتراح سكان هذه المدن مع سكان المدن القريبة والتي كانت مدناً ذات حضارات عريقة.

بناء الكوفة:

أما أتم سعد بن أبي وقاص فتح العراق كتب له الخليفة عمر يأمره بالنزول في الموضع الذي وصفه له، وقد بدأ لسعد أول الأمر إن عمراً قصد المدائن في أمره في إقامة معسكر الجيش الإسلامي، ولكن على ما يبدو إن جو المنطقة الرطب لا يلائم العرب المتعودين على جو الصحراء الحار والجاف[١]، فتغيرت ألوانهم وضعفت أجسامهم وشكوا أحوالهم إلى الخليفة عمر[٢]، فأمرهم عمر أن يرتادوا منزلاً ينزله الناس لا برياً ولا بحرياً ليس بينه وبينهم بحر ولا جسر فبعث سعد بناءً على أمر الخليفة سلمان وحذيفة رائدين فسار سلمان غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة، وكل رملة وحصباء مختلطين فهو كوفة، وسار حذيفة شرقي الفرات لا يرضى شيئاً حتى وصل الكوفة فأعجبتهما البقعة منزلاً فصليا ودعوا الله تعالى أن يجعلها منزل الثبات فرجعا إلى سعد بالخبر، واتحل سعد بالناس من المدائن حتى نزل الكوفة في المحرم سنة١٧هـ وكان بين نزوله الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهران[٣]، ولما انتهى إلى موضع مسجدها رمى بسهم قبل مهب القبلة وعلم موقعه ثم غلا بسهم قبل مهب الشمال وعلم موقعه ثم علم دار إمارتها ومسجدها في مقام الحالي وفيما حوله[٤].

خطط الكوفة:

ثم اختطت كل قبيلة مع رئيسها، ثم أقطع أصحاب رسول الله ﷺ فكانت عبس إلى جوار المسجد ثم تحول قوم منهم إلى أقصى الكوفة، واختط أصحاب رسول الله ﷺ مثل عبد الله بن مسعود وطلحة بين عبيد الله وعمرو بن حريث وجبير بن مطعم وغيرهم الدور حول المسجد وأقطع الخليفة عمر سعد بن أبي وقاص الدار التي تعرف بدار عمر بن سعد[٥]، ولم تكن الكوفة أول أمرها سوى أكوام وكتل من الخصائص (الأكواخ الخشبية) والخيام التي نصبت بصورة مؤقتة عند تمصيرها سنة ١٧هـ[٦]، وعندما وقع الحريق في الكوفة في شوال بعث سعد نفراً إلى عمر يستأذنونه في البنيان باللبن، فوافق على أن لا يزيد أحدهم على ثلاثة أبيات وقدر المناهج أربعين ذراعاً وما بين ذلك عشرين ذراعاً والأزقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً، وأول شيء خط فيها وبني مسجدها وبنى ظلة في مقدمة مسجد الكوفة على أساطين رخام من بناء الأكاسرة وجعلوا على الصحن خندقاً لئلا يقتحمه أحد بنيانه[٧].

ويصف ابن جبير الجامع بأنه آخر المدينة مما يلي شرقي البلد ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق وهو جامع كبير في الجانب القبلي منه خمسة أبلطة وفي سائر الجوانب بلاطان وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة مفرغة بالرصاص، ولا نهي عليها وهي في نهاية الطول متصلة بسقف المسجد فما أرى في الأرض مسجداً أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفاً[٨].

ومنذ عام٢٢هـ في إمارة المغيرة بن شعبة بدأ الناس بتشييد المساكن الحقيقية من الآجر وأول تلك المساكن بنيت في محلة كندة، ولقد قسمت الكوفة في الثلاثين سنة الأولى من تمصيرها إلى أسباع وهي:

١- كنانة وحلفاءهم (الأحابيش) وجديلة ويكنون بأهل العالية وعددهم ضئيل بالنسبة إلى غيرهم.
٢- قضاعة وغسان وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد وهم من اليمانيين.
٣- مذحج وحمير وهمدان وهم من العناصر اليمانية الخالصة.
٤- تميم والرباب وبنو العصر وهم من العناصر الحضرية التي لم يبق منها سوى تميم.
٥- أسد وغطفان ومحارب ونمير من بكر بن وائل وضبيعة وتغلب ومعظمهم من ربيعة.
٦- أياد وعك وعبد القيس وأهل الهجر والحمراء.
٧- طي، القبيلة التي قل شأنها وعلى الرغم من وجود سهم لهذه القبيلة في الغنائم والفيء منذ البداية، ورغم إنها كانت تشكل في صنفين فيلقاً مستقلاً إلا أن اسم هذا السبع لم يذكر في المصادر.

وقد تغير سكن القبائل في هذه الأسباع مع قدوم الإمام علي عليه السلام إلى الكوفة بعد وقعة الجمل سنة ٣٦هـ[٩]. وفي سنة ٥٠هـ في إمارة زياد بن أبيه تحولت الكوفة من الأسباع إلى الأرباع شأنها شأن البصرة وكما يلي[١٠]:

(١) الموسوي، ص٨٤.
(٢) أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري(ت ٣٤٠هـ)، تأريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف
(٣) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٨/٢.
(٤) الحموي، المعجم، ٣٩١/٤.
(٥) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي(ت ٢٨٤هـ)، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١، ص٣١٠-٣١١.
(٦) لويس ماسينيون، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة تقي محمد المطبعي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، ط١، مطبعة الغري، النجف، ١٩٧٩، ص٣٧.
(٧) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٨/٢-٣٦٩.
(٨) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني(ت ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت-لبنان، ١٩٦٤ص ١٨٧-١٨٨.
(٩) ماسينيون، الخطط، ص٤٢-٤٨.
(١٠) ماسينيون، الخطط، ص٦١.

١- أهل العالية.
٢- تميم وهمدان.
٣- ربيعة وبكر وكندة.
٤- مذحج وأسد.

والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ مما يلي الجانب الشرقي، والذي يتكون من حدائق نخيل ملتقة يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر[١]، وكانت ثغور الكوفة أربعة، حلوان وعليها القعقاع، وماسيندان وعليها ضرار بن الخطاب، وقرقيسيا وعليها عمر بن مالك، والموصل وعليها عبد الله بن المعتم، وولي سعد بن الوقاص الكوفة بعد تخطيطها ثلاث سنين ونصف[٢].

وكان في الكوفة شوراع حقيقية تسمى السكك وعرضها خمسون ذراعاً تنار بالمشاعل ليلاً مثل سكة شبث في منازل تميم وسكة العلاء بن محرز في منازل قريش، وسكة عميرة في منازل كندة وفيها مفارق للطرق تسمى (جهار سوج) وهي كلمة خارجية تعني الجهات الأربع وهي جهار سوج خنيس وبجيلة، وكندة، وهمدان[٣].

وأما المسافات بين الكوفة وما يليها من المدن فمن الكوفة إلى المدينة نحو (عشرين مرحلة) وبين المدينة إلى مكة نحو (عشر مراحل) ومن الكوفة إلى مكة أقصر من هذا الطريق بنحو ثلاث مراحل[٤]. ومسافة الطريق من الكوفة إلى البصرة (٨٥فرسخاً) يبدأ من الكوفة إلى القرعاء والتي بها مسجد سعد ومنه إلى مارق ثم إلى القلع ثم سلمستان ثم أقز ثم الأخاديد ثم إلى عين هيد فعين جمل ومنها إلى البصرة[٥].

ولم يكن في الكوفة بادئ الأمر سور أو خندق بل كانت حفرة في الجهة الشمالية الشرقية تسمى (مستاة جابر) إضافة إلى قنال في الجنوب الشرقي هو نهر البويب ومنه مدت الجداول حيث الحمامات والسقايات ولم تكن في الكوفة آبار صالحة للشرب طيلة الأعوام المائة الأولى بل كان الماء ينتقل من شريعة الفرات، وبعد زمن حفروا بئراً فوجدوا ماءها صالحاً للشرب سميت بـ(بئر علي)[٦].

وكان لكل قبيلة جبانة (مقبرة) تعرف بها مثل جبانة الأزد وجبانة مراد وجبانة كنده وهكذا[٧].

(١) الكناني، رحلة ابن جبير، ص١٨٩.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٩/٢-٣٧١.
(٣) ماسينيون، الخطط، ص٦٦-٧٠.
(٤) الحموي، المعجم، ٤٩٣/٤.
(٥) أبو علي أحمد بن عمر بن رسته(ت ٢٩٠هـ)، الأعلاق النفسية، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١، ص١٨٠.
(٦) ماسينيون، الخطط، ص٧١.
(٧) اليعقوبي، البلدان، ص٣١١.

المبحث الثاني:

الكوفة في كتاب (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع)

سنتناول في هذا الفصل كل ما ورد عن الكوفة في كتاب معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لمؤلفه أبي عبيد البكري (ت٤٨٧هـ)، بعد أن جردناه جرداً كاملاً وبحثنا فيه عن كل شاردة وواردة تتعلق بأي معلومة من الكوفة حيث سنثبت المعلومة دون تدخل فيها....

(١) الكوفة:

معروفة ويقال لها أيضاً كوفان وسميت بالكوفة لأن سعداً لما افتتح القادسية نزل المسلمون الأنبار فآذاهم البق فخرج فارتاد لهم موضع الكوفة، وقال تكوفوا في هذا الموضع أي اجتمعوا والتكوف: التجمع، وقال العتبي والكوفة رملة مستديرة ومنه قولهم كأنهم يدورون في كوفان أي في شيء مستدير، وقال محمد بن سهل سميت الكوفة لأن جبل ساتيدما محيط بها كالكفافة عليها، قال وكانت الكوفة منزل نوح وهو بنى مسجدها ثم مصرها سعد بن أبي وقاص بأمر من عمر بن الخطاب وقيل بل سميت بجبل صغير كان فيها يسمى كوفان[٨].

(٢) ساتيدما:

بكسر التاء وبعدها يا ودال مهملة وهو جبل متصل ببحر الروم إلى بحر الهند وليس يأتي يوم من الدهر إلا سفك عليه دم، وهو الجبل الذي يحيط بالكوفة كالكفافة ولأجله سميت المدينة بالكوفة[٩].

(٣) صحراء أثير:

بضم الهمزة وفتح التاء وهي منسوبة إلى أثير بن عمرو السكوني المتطيب وهو الذي استخرج من رئة شاة عرقاً وأدخله في جراحة علي عليه السلام ثم نفتح العرق واستخرجه فإذا عليه بياض الدماغ فقال: اعهد عهدك يا أمير المؤمنين[١٠].

(٤) أنقرة:

بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر القاف بعدها راء مهملة، وضع بظهر الكوفة أسفل من الخورنق وكانت أباد تنزله في الدهر الأول[١١].

(٥) باجميرا:

بضم الجيم وفتح الميم وبالياء أخت الواو والراء المهملة المفتوحة، وهي موضع من سواد الكوفة وهو الذي عسكر فيه مصعب بن الزبير[١٢].

(٨) البكري، المعجم، ١١٤١/٤-١١٤٢.
(٩) المصدر نفسه، ٧١١/٣.
(١٠) المصدر نفسه، ١٠٩/١.
(١١) المصدر نفسه، ٢٠٣/١.
(١٢) البكري، المعجم، ٢٢٠/١.

(٦) **بارق:**

جبل بالسواد قريب من الكوفة نزله سعد بن عدي بن حارثة بن امرئ القيس فسمي بهذا الجبل باراً فهم بنو بارق، وروى محمود بن لبيد الأنصاري عن ابن عباس إن رسول الله ﷺ قال: الشهداء على بارق نهر في الجنة يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً[١].

(٧) **بانقيا:**

بزيادة ألف بين الباء والنون وكسر النون، أرض بالنجف دون الكوفة، وسبب تسميتها إن إبراهيم ولوطاً عليهما السلام مرا بها يريدان بيت المقدس مهاجرين فنزلا بها وكانت تزلزل كل ليلة وكانت ضخمة جداً، فلما باتا لم تزلزل فمشى بعضهم إلى بعض تعجباً من عافيتهم في ليلتهم، فقال صاحب منزل إبراهيم بأن ذلك بسبب شيخ بات عنده يصلي ليله ويبكي فسألوه المقام عندهم على أن يجمعوا له من أموالهم فقال إنما أمرت بالهجرة، فخرج حتى أتى النجف، فلما رآه رجع أدراجه فاستبشروا وظنوا إنه رغب فيما عندهم فقال لمن تلك الأرض يعني النجف، قالوا لنا، قال أتبيعونها قالوا هلي لك فو الله ما تنبت شيئاً، فدفع لهم غنيمات كن معه والغنم بالنبطية تعني نقيا، وذكر إبراهيم إنه يحشر من ولده من ذلك الظهر سبعون ألف شهيد، فاليهود تنقل موتاها إلى بانقيا لذلك الحديث[٢].

(٨) **ذات التنانير:**

وهي أرض بين الكوفة وبلاد غطفان وفيها قال الشاعر الراعي:

تحملن من ذات التنانير بعدما ... مضى بين أيد بها السوام المسرخ[٣]

(٩) **الثوية:**

بفتح أوله وكسر ثانيه وتشديد الياء أخت الواو، موضع من وراء الحيرة قريب من الكوفة وفيه مات زياد بن أبي سفيان وكان سجناً بناه تبع فكان إذا حبس فيه إنساناً ثوى فيه، وفيها قال الشاعر:

وبتن لدى الثوية ملجمات ... وصبحن العباد وهن شيب[٤]

(١٠) **الجوسق:**

من مصانع الفرس بالكوفة وفيها قال الشاعر قيس بن الأصم الضبي:

إني أدين بما دان الشراة به ... يوم النخيلة عند الجوسق الخرب[٥]

(١١) **حامر:**

موضع على الفرات ما بين الكوفة وبلاد طيء، وقيل هو واد يصب في الفرات[٦].

(١٢) **دومة الكوفة:**

بالضم أيضاً، وهي النجف بعينه وفيها يقول حنين العبادي:

أنا حنين وداري النجف ... وما نديمي إلا الفتى القصف[٧]

(١٣) **دير الجماجم:**

هو دير بظاهر الكوفة على طريق البر الذي يسلك إلى البصرة وفيه كانت الواقعة بين الحجاج بن يوسف وبين عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث، ويقول أبو عبيدة سمي دير الجماجم لأنه كان يصنع أقداح من خشب وقدح الخشب يسمى جمجمة، وفي هذا الدير يقول الضحاك اليربوعي:

إن يهلك الحجاج فالمصر مصرنا ... وإلا فمثوانا بدير الجماجم[٨]

(١٤) **دير قرة:**

ويسمى قرة وهو بأزاء دير الجماجم وهو على قول ابن شبه، وهو ملاصق لطف البر ودير الجماجم مما يلي الكوفة، وفي ثورة ابن الأشعث نزل بدير الجماجم فيما نزل الحجاج دير قرة[٩].

(١٥) **دير هند:**

وهو دير بنته هند بنت النعمان وهو يقارب بني بني عبد الله بن دارم بالكوفة ما يلي الخندق في موضع نزه وقد ذكر عدة من الشعراء وفيه يقول معن بن زائدة الشيباني:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... لدى دير هند والحبيب قريب[١٠]

(١٦) **راسب:**

بكسر السين والباء المعجمة بواحدة موضع قريب من العذيب بالكوفة وفيه قال القطامي:

سأخبرك الأنباء عن أم منزل ... تصيفتها بين العذيب فراسب[١١]

(١٧) **الرهيمة:**

بضم أوله على لفظ التصغير، موضع بقرب الكوفة وإياه على أبو الطيب بقوله:

وردنا الرهيمة في جوزة ... وباقية أكثر ما مضى[١٢]

---

(١) المصدر نفسه، ٢٢١/١.
(٢) البكري، المعجم، ٢٢٢/١-٢٢٣.
(٣) المصدر نفسه، ٣٢٠/١.
(٤) البكري، المعجم، ٣٥٠/١-٣٥١.
(٥) المصدر نفسه، ٤٠٤/٢.
(٦) المصدر نفسه، ٤١٨/٢.
(٧) المصدر نفسه، ٥٦٦/٢.
(٨) البكري، المعجم، ٥٧٣/٢-٥٧٤.
(٩) المصدر نفسه، ٥٩٢/٢-٥٩٣.
(١٠) المصدر نفسه، ٦٠٤/٢-٦٠٥.
(١١) البكري، المعجم، ٦٢٦/٢.
(١٢) المصدر نفسه، ٦٨١/٢.

(١٨) زرارة:

بضم أوله على لفظ اسم الرجل، قرية من قرى الكوفة وهي التي مر بها علي بن أبي طالب عليه السلام فقال ما هذه القرية قالوا قرية تدعى زرارة يلحم فيها وتباع فيها الخمر، قال ابن الطريق إليها قالوا باب الجسر، قال: انطلقوا إلى باب الجسر، فقام يمشي حتى أتاها، فقال علي بالنيران اضرموها عليها فإن الخبيث يأكل بعضه بعضاً[١].

(١٩) العذيب:

بضم أوله تصغير عذ، واد بظاهر الكوفة وفيه قال الشماخ:

فمرت على عين العذيب وعينها
كوقب الصفا جليسها قد تغورا[٢]

(٢٠) الغريان:

على لفظ تثنية الذي قبله معروفان بالكوفة وفيهما قال الكميت:

أتعرف رسماً بالغريين مقفراً لظبية أم أنكرت أو تنكرا[٣]

(٢١) قطوان:

بفتح أوله وثانيه بعده واو على وزن فعلان، موضع على باب الكوفة[٤].

(٢٢) الكناسة:

بضم أوله، معروفة بالكوفة كان بنو أسد وبنو تميم يطرحون فيها كناستهم فكتب خالد بن عبد الله إلى هشام يسأله أن يقطعه إياها فسأل ابن سعيد عنها فقال: ما بالكوفة مثلها، فلم يعطه إياها واتخذها لنفسه[٥].

(٢٣) اللج:

بضم أوله وتشديد ثانيه غدير عند دير هند وفيه قال الأعشى:

فأني وثوبي راهب اللج والتي
بناها قصي والمضاض بن جرهم[٦]

(٢٤) مخيس:

سجن بناه علي عليه السلام بالكوفة وكان له من قبل سجن يسمى نافعاً ولم يكن مستوثق البناء، فكان المسجونون يخرجون منه فهدمه وبنى مخيساً وقال:

ألا تراني كيساً مكيسا بنيت بعد نافع مخيسا
حصناً حصيناً وأميراً كيسا

وقال الخليل مخيس سجن الحجاج[٧].

(١) المصدر نفسه، ٢/٦٩٥-٦٩٦.
(٢) البكري، المعجم، ٣/٩٢٧-٩٢٨.
(٣) المصدر نفسه، ٣/٩٩٥-٩٩٦.
(٤) المصدر نفسه، ٣/١٠٨٤.
(٥) المصدر نفسه، ٤/١١٣٦.
(٦) البكري، المعجم، ٤/١١٥١.
(٧) المصدر نفسه، ٤/١١٩٩.

(٢٥) المذار:

أرض بقرب الكوفة سميت بذلك لفساد ترتبها، والمذر الفساد في الرائحة، وفيها قال العجاج:

بجانب الكوفة يوماً مشجباً وبالمذار عسكراً مشيبا[٨]

(٢٦) نافع:

اسم سجن بالكوفة كان علي بن أبي طالب عليه السلام بناه من قصب فنهبه اللصوص فبنى سجناً من مدر وحجر وسماه مخيساً[٩].

(٢٧) النجف:

بلا هاء وضع معروف بالكوفة وفيه قال الكميت:

فيا ليت شعري هل أبصرن بالنجف الدهر حضارها[١٠]

(٢٨) النخيلة:

تصغير نخلة، بالكوفة وهي التي كان علي عليه السلام يخرج إليها إذا أراد أن يخطب الناس[١١].

(٢٩) نفر:

قرية من سواد الكوفة بكسر أوله وتشديد ثانيه[١٢].

الخاتمة:

لقد تبين من دراستنا لتاريخ وتمصير وتخطيط مدينة الكوفة، وفي ضوء النصوص التاريخية التي وردت في كتابي (الأمم والملوك) للطبري و(معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع)، إن الأسباب الرئيسية لتمصير الكوفة، واختيارها على أطراف الصحراء بالذات، هي أهمية موقعها من الناحية العسكرية، إذ يمكن من خلالها فرض السيطرة الكاملة على الموقع الغربي على طول الفرات، وذلك لقربها من البادية المجاورة للصحراء العربية، إضافة إلى اتصالها بالطرق الرئيسية في جميع الاتجاهات، وكذلك خلو المنطقة من العوارض الطبيعية، مما يسهل عملية إرسال المدر أو سحب القطع الحربية.

ومن ذلك نلاحظ وصية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص، عند اختيار أية مدينة بضرورة، بناءها بين حجر ومدر، لتكون قريبة من حافات الصحراء على طرق إن اختيار مدينة الكوفة لا يختلف عن سابقتها من المدن في إنشاءها إذ أنشأت قرب مدن أهلة بالسكان، فكانت بالقرب من مدينة الحيرة، وغيرها من المدن والمراكز العلمية، مما يؤدي إلى تسهيل عملية نمو الحركة الفكرية والاختلاط العلمي في هذه المدن.

(٨) المصدر نفسه، ٤/١٢٠٣.
(٩) المصدر نفسه، ٤/١٢٩٠.
(١٠) البكري، المعجم، ٤/١٢٩٩.
(١١) المصدر نفسه، ٤/١٣٠٥.
(١٢) المصدر نفسه، ٤/١٣١٨.

ويؤكد الطبري بأن أول ما اختط في الكوفة هي المسجد الجامع الكبير، والذي أصبح من المساجد الأربعة المهمة في العالم الإسلامي، وكذلك كثرت المساجد في الكوفة، وإن لم يتبق منها حالياً سوى مسجد السهلة.

لقد كان منهج الطبري في ما أورده في كتابه عن الكوفة يمتاز بالوضوح والبساطة والتسلسل المكاني والزماني في عملية البناء ولهذا جاء وصفه بسيطاً وواضحاً، أما البكري فقد تميز بتخصيص أغلب صفحات كتابه لأسماء ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، والتي لم يتطرق إليها الكثير من البلدانيين، من أمثال الحموي واليعقوبي وغيرهم، إلا أنه أهمل الكثير من أسماء المواضع والبلدان خارج شبه الجزيرة العربية إذ خصص معظم صفحات كتابه لأسماء المواضع في شبه الجزيرة العربية.

لقد تتبع البكري انتقال وسير القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية إلى أماكن استقرارها. إن منهج البكري يختلف عن منهج الطبري في توضيح الصورة الدقيقة والبينة لخطط مدينة الكوفة، لذا جاء المبحث الأول في كتاب البكري في بيان خطط الكوفة من المصادر والمراجع الأخرى ولم نلاحظ تركيزه بصورة متكاملة لخطط هذه المدينة بسبب اهتمامه بمدن ومواضع الجزيرة العربية.

استخدم البكري لغة يشوبها الإبهام والغموض في وصفه لبعض المواضع والبلاد مثل عبارة (بلد معروف، موضع في ديار مرة أو تميم، أو موضع ذكره فلان ولم يحدده، موضع في البادية... الخ)، وهذه العبارات والمواضع دون تحديد مكانها بالضبط مما يوقع الباحث في حيرة تستلزم في كل منها الرجوع إلى الكتب البلدانية الأخرى لمعرفة مكانها بالضبط.

وأخيراً نلاحظ عدم اهتمام البكري بقياس المسافات بين البلدان سواء المسافات بالليالي والأيام أو المراحل أو الأميال مما شكل هذا الأمر ميزة انفرد بها البكري عن غيره من البلدانيين.

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في البحث وبما توصلت إليه عبر ما ذكرته من شواهد وحوادث ومواضع، راجياً منكم القبول ومن الله عز وجل التوفيق.

المصادر والمراجع

(١) ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ)، الجزء٢، الكامل في التاريخ، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٩٨.

(٢) ابن بطوطة، شرف الدين أبو عبد الله بن محمد (ت٧٧٧هـ)، تحفة النظار في غرائب الأمصار، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٣٨.

(٣) البكري، أبي عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع، تحقيق مصطفا السقا، ط١، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٩.

(٤) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٨.

(٥) الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت عبد الله الرومي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.

(٦) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (ت ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٤.

(٧) ابن خلدون، عبد الرحمن محمد (ت ٨٠٨هـ)، تأريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، ١٩٥٩.

(٨) الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات، دار النشر فرانز شتايز، ط٢، نيسمبادن، ١٩٦١.

(٩) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، طبع الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩.

(١٠) الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، قاموس المحيط الجزء٣، القاهرة ١٣٤٤هـ

(١١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب راضح (ت ٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، الجزء٢، ١٣٥٨، البلدان، النجف، ١٩٥٧.

(١٢) ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن جلال (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، الجزء١١، القاهرة.

(١٣) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٢٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٤) يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.

(١٥) البراقي، السيد حسين السيد أحمد (ت ١٣٣٢هـ)، تاريخ الكوفة، النجف، ١٣٥٦هـ

(١٦) العزاوي، عبد الرحمن حسين، الطبري، السيرة والتاريخ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩.

(١٧) ماسينيون، لويس، خطط الكوفة، ترجمة تقي المصبعي، صيدا، لبنان، ١٩٣٩.

(١٨) حلاق، حسان، مقدمة في مناهج البحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، بيروت، ١٩٨٦.

(١٩) الحكيم، د. حسن عيسى، محاضرات في مادة (تخطيط مدن إسلامية)، ألقيت على طلبة الدراسات العليا- الماجستير، كلية الآداب، جامعة الكوفة في ٢٠٠١/٣/١٩.

(٢٠) الحكيم، د. حسن عيسى محاضرات في مادة (تخطيط مدن إسلامية)، ألقيت على طلبة الدراسات العليا-الماجستير، كلية الآداب، جامعة الكوفة في ٢٠٠١/٤/٧.

(٢١) الجنابي، د. كاظم، تخطيط مدينة الكوفة، مطابع دار الجمهورية بغداد، ١٩٦٧.

* * *

الكوفة
في عيون الرحالة والمستشرقين

الأستاذ رسول كاظم عبد السادة
مركز الأمير لإحياء التراث في النجف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين:

المعلوم أن دراسة المدن التأريخية مما يعين على فهم الكثير من أسرار الحوادث في التاريخ ويفسر الكثير من التحديات التي تواجه المؤرخ حين يقف أمام غموض الأخبار وتدليس الناقلين لها، لاسيما إذا كانت هذه الدراسة مستندة إلى أناس محايدين هدفهم الوحيد تعين الأماكن وضبط الحوادث والنصوص خدمة للعلم،

ومن هؤلاء الرحالة الذين يجوبون الأقطار ويرصدون العادات والتقاليد والديانات في البلدان التي يدخلونها، وممن شدّوا الرحال لتقصي البلدان ومّروا بمدينة هي أول عاصمة إسلامية خارج الجزيرة العربية،ألا وهي الكوفة، «الكوفة مدينة العراق الكبرى، وصرّة بابل، والمصر الأعظم، مجمع الأنبياء وجمجمة العرب، ورمح الله، وكنز الإيمان،وهي قبة الإسلام، وكوفة الجند، ودار هجرة المسلمين، ودار الملك، أهلها أهل الله، وهي معبد الملائكة قبل آدم، والبقعة المباركة التي بارك الله فيها، وهي أيضاً معبد آدم وما بعده من الأنبياء والمرسلين، ومعبد الأولياء والصالحين والصديقين، مسجدها احد المساجد الأربعة، من زاويته فار التنور، وعند الاسطوانة الخامسة صلى إبراهيم الخليل، وما من نبي ولا عبد صالح إلاّ وقد صلّى فيه»[1].

وفي هذا البحث سنتوقف عند مجموعة من هؤلاء الرحالة الذين هم من جنسيات مختلفة،وأديان متعددة،وأزمان متباعدة، لنطلع على ما كان يجري في تلك المدينة المقدسة لكن بعيون هؤلاء الذين عانوا كثيراً في مثل تلك الرحلات لتصل إلينا الأخبار عن تلك المدن، وقد جعلنا التسلسل الزمني منهجا لترتيب لمن عثرنا له على رحلة أشار فيها إلى الكوفة أو مر عليها وأولهم هو:

١- الرحالة الصيني دو هوان

ذكر البرفيسور الصيني زانج هو (prof zhang who) في كتابه بين عمان والصين (oman and between china) واقعة تاريخية تعد واحدة من اقدم الصلات التي تربط الصين بالعالم العربي الاسلامي، عندما كان رحالة صيني اسمه (دو هوان) قد أُسر في الشرق خلال معركة نهر طلاس سنة ٧٥١ م وكان هذا الرحالة ابن شقيق (دويو) العالم الصيني المشهور في أسرة هوان حمل إلى الكوفة، عاصمة الخليفة العباسي وكان العباسيون في أول سنيّ حكمهم وكان على أرجح خلال ولاية داود بن علي بن عبد الله عيسى بن موسى بن محمد للكوفة،وقد شمله الوالي برعايته وحمايته فعاش في الكوفة وتنقل في البلاد طيلة (١٢) عاماً، وعاد إلى مدينة كانتون عن طريق خليج البصرة في سفينة تجارية عام (٧٦٢م) وقد سجل جميع تنقلاته في كتاب عنوانه (جينج اكسنبج جي) أي سجلات الترحال.

ويقول البرفسور زانج هو:

إن ما يبعث على الأسى أن الكتاب الأصلي قد فقد ولكن لحسن الحظ اقتبس عمه (دو يو) فقرات من كتابه عندما وضع كتاب (تونج نيان) (مستودع المواد الأصلية عن التاريخ السياسي والاجتماعي) وبذلك نستطيع ان نلم ببعض مضمون كتاب جينج اكسنج جي،وقد حكى دون هوان عن ازدهار الحكم العباسي في أيامه الأولى فقال: إن كل شيء ينتج على وجه البسيطة يجده المرء متوفراً في هذه المدينة وفي شوارعها وأزقتها وقد جمعت هذه المنتجات من كل مكان والسلع متوفرة ورخيصة والأسواق حافلة بأنواع المجوهرات والحلي الثمينة المختلة، وجميع الأسواق والشوارع تكتظ بقواف الجمال والخيول والحمير والبغال المحملة بالبضائع.

وقال أن الخمر محرمة في الإسلام ، وموسيقى الطرب غير مسموح بها، وقال: وهناك مكان للعبادة يتسع لعدة عشرات الألوف من المصلين، ويأتي الملك (الوالي) في اليوم السابع من كل أسبوع

(١) من كلمة للعلامة المرحوم الدكتور حسين علي محفوظ قالها في الاحتفال بألفية الكوفة، مجلة الكوفة، المجلد الخامس ع١، سنة ٢٠٠١م ص٧

للصلاة، ويلقي خطبة من فوق منبر، انه طبقاً لقانون دا- شي أن الأشخاص يحكم عليهم أساتذتهم وأقاربهم حتى ولو ارتكبوا أخطاء صغيرة وهم لا يستاؤون في حالة تعرضهم للعقاب.

إن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير أو الكلاب أو الحمير أو الخيول وهم لا يركعون حتى للملوك أو لآبائهم ولا يؤمنون بتعدد الآلهة والأشباح وهم لا يسجدون إلاّ لإله واحد فقط ومن عاداتهم إن لهم عيداً كل سابع يوم، وفي ذلك اليوم لا تكون هناك مساومة أو محاسبة (إنا لا نكاد نجد مثل هذا الوصف المسهب عن الإسلام في كتب أسرة سونج ويون)[١].

٢- الرابي بنيامين التطيلي[٢]

هو أول رحالة أوربي وصل إلى الصين ومرّ بالشرق الأوسط ومنها الكوفة إلاّ أنه كان مختصا بشؤون اليهود وتواجدهم في البلدان، لذلك تعد رحلته من الأهمية بمكان حيث بين لنا عدد اليهود حين وصل إليها ولسنا على علم تفصيلي بمصادر إحصاءاته تلك إلاّ أن أهمية ما ذكر عن الكوفة

يكمن في معرفة تواجد هذا العدد الهائل من اليهود في ذلك الزمن في مدينة تعد من أمهات مدن العالم الإسلامي، وعلى مقربة من عاصمة الإسلام بغداد

هو أول رحالة أوربي وصل إلى الصين، قضى أكثر من ثلاثة عشر سنة (١١٦٠- ١١٧٣) في السفر فزار أوربا، الشرق الأوسط إفريقيا الشمالية، أسيا الوسطى، ووضع كتاباً عن رحلته بعد عودته، وكتابه وصف حي للعالم في القرن الثاني عشر ميلادي ويقدم معلومات قيمة عن الدروز في جبل لبنان وسوريا، وعن طائفة الحشاشين في إيران هو أول رحالة أوربي وصل إلى الصين، قضى أكثر من ثلاثة عشر سنة (١١٦٠- ١١٧٣) في السفر فزار أوربا، الشرق الأوسط إفريقيا الشمالية، أسيا الوسطى، ووضع كتاباً عن رحلته بعد عودته، وكتابه وصف حي للعالم في القرن الثاني عشر ميلادي ويقدم معلومات قيمة عن الدروز في جبل لبنان وسوريا، وعن طائفة الحشاشين[٣] في إيران والعراق، وعن طائفة القرائين اليهود في القسطنطينية ودمشق، وفيه وصف شامل لأوضاع اليهود في مختلف البلدان والقارات التي زارها ووصف لمدن صيدا وصور وعكا والقدس وقد سبق بنيامين في رحلته ما ركو بولو الرحالة البرتغالي الشهير بقرن من الزمن وترجم كتاب أسفاره عن العبرية إلى لغات عديدة وعنوانه بالعبرية (SEFER HA MOSSA AT) أي كتاب الأسفار.

لم يعرف الكثير عن الرحالة بنيامين التطيلي وهو رحالة يهودي من الاندلس ولد بتطيلية حوالي ١١٣٠ م وجل ما يعرف عنه مستقى رحلته هذه أو من مقدمة قصيرة وضعها أحد نسّاخ الرحلة كان قريب العهد من زمانه يقول كاتبها:

هذا كتاب رحلة بنيامين بن يونه التطيلي[٤] النباري[٥] الذي جاب المدن العديدة البعيدة وسجل ما شاهده في الأمصار التي مر بها عياناً أو مما نقله عن الثقاة ذوي الأمانة المعروفين لدى يهود اسبانيا، وقد أورد أسماء مشاهير العلماء والرؤساء اليهود في الأماكن التي زارها،وعاد بمعلوماته إلى قشتاله سنة (١١٧٣ميلادية/ ٥٦٩هجرية).

قال الرابي في رحلته:

الكوفة[٦]: يقيم بها نحو سبعة آلاف يهودي، وفيها قبر يكنيه ملك يهوذا حوله كنيس لليهود، وفيها أيضاً مسجد كبير للمسلمين، في رحبته مرقد الإمام علي بن أبي طالب صهر نبيهم محمد[٧] يحجونه للزيارة والتبرك[٨].

(١) الطريحي: محمد سعيد، العتبات المقدسة في الكوفة ص ١٧٤، ط٤ المجمع العلمي الفاطمي - أكاديمية الكوفة ٢٠١٠ هولندة

(٢) رحلة الرابي بنيامين التطيلي وفيها وصف لاوضاع اليهود في مختلف البلدان ولفرق الدروز والحشاشين وغيرها، ترجمه عن العبرية ودراسة وتعليق وذيل عن فرق اليهود بقلم عزرا حداد، دار ومكتبة بيبليون جبيل - لبنان ٢٠٠٨م.

(٣) إن لفظة حشاشين (assassin) والتي ينبز بها الإسماعيلية ليس معناها تعاطي الحشيشة كما أطلقه الكثير من مؤرخي الملل والنحل عليهم وإنما مرجعها من الكلمة العربية (أساس) لان الإسماعيلية جعلوا أساس الدين في مذهبهم: الاعتقاد بالإمام الحي وطاعة أوامره لذلك دعوا: الأساسية أو أهل الأساس (دائرة المعارف الإسلامية ٤٤٠/٧)

(٤) نسبة إلى تطيلية البلدة المعروفة في شمال اسبانيا تبعد مسافة ٧٨ كم عن سرقسطة على الظفة اليمنى النهر إبرة (ebro)

(٥) نسبة إلى نبارة أو نبرة (Navarre) وجاء في معجم البلدان ج ٥ -ص ٢٥٦: نبارة: في كتاب ابن عبد الحكم: ونزل عمرو بن العاص على مدينة طرابلس الغرب فملك المدينة فكان من بسبرة متحصنين، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس واسمها نبارة وسبرة السوق القديم، فهذا يدل على أن طرابلس اسم الكورة ونبارة مدينتها.

(٦) قال محقق الرحلة عزرا حداد: الكوفة المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق يسميها البعض (خد العذراء) مصرت سنة ١٧ أو ١٨ هجرية في أيام عمر بن الخطاب، وكانت الكوفة حاضرة العراق في أيام خلافة الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وكانت في صدر الإسلام محط رجال العلم والفقهاء ورجال الحرب، وظلت محتفظة بشهرتها حتى القرن الثالث للهجرة، وكانت الكوفة كذلك من مراكز اليهود المهمة في العراق من أقام فيها عدد غفير من الجالية التي قدمت إليها من نواحي الحجاز وخيبر، وكانت لهم علاقة وثيقة مع المسلمين في القرن الثاني عشر، ويروى أن بعض أثرياء اليهود من بغداد ومنهم آل نطيرة كانوا يبعثون إلى الكوفة مقدارا من المال يوزع على العلويين وبني هاشم (راجع المقدمة على رسائل صموئيل بن علي ص ٢٢) واشتهر من يهود الكوفة موسى بن إسرائيل الكوفي، خدم أبا إسحاق إبراهيم بن المهدي واختص بخدمته ولد سنة ١٢٥ وتوفي سنة ٢٢٢ هجرية وهرون جهذ بن شيرزاد (طبقات الاطباءج١: ١٦١، تجارب الأمم لابن مسكوية ج٦: ٨-٩)

(٧) قال محقق الرحلة عزرا حداد: يقصد الرحالة مسجد الكوفة الشهير الذي خططه فاتح العراق سعد بن أبي وقاص في عام هجرية/٦٣٨م ولا تزال أطلاله قائمة إلى اليوم بظاهر ناحية الكوفة، إما قوله بان فيه مرقد الإمام علي بن أبي طالب فلا ينطبق على الواقع فانه وان ذهب البعض إلى إن الإمام (رضي الله عنه) دفن في رحبة مسجد الكوفة فان إجماع الشيعة الامامية بان مرقد الإمام بالغري من نجف الكوفة لا يدع مجالا للشك، فشيعة الإمام (رضي الله عنه) اعلم بمثواه الشريف وحكاية اكتشافه في أيام هارون الرشيد معروفة ولزيادة المعلومات راجع (معجم القبور للعلامة السيد محمد مهدي الموسوي الأصفهاني الكاظمي - طبعة بغداد ص ٢٦١ وما يليها)

(٨) رحلة الرابي بنيامين ص٢٥٩

٣- ابن بطوطة[١]

في سنة ٧٢٦ هـ وصل الرحالة ابن بطوطة إلى الكوفة وكان الجزء الأكبر منها مهجوراً بسبب غارات البدو المجاورين لها. فوصف حالها وحال أهلها قائلاً:

الكوفة وهي إحدى أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية، مثوى الصحابة والتابعين، ومنزل العلماء والصالحين، وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، إلاّ أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت إليها، وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها[٢]، فإنهم يقطعون طريقها ولا سور عليها، وبناؤها بالآجر، وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك، وجامعها الأعظم جامع كبير شريف، بلاطاته سبع قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوته، قد صنعت قطعاً، ووضع بعضها على بعض، وأفرغت بالرصاص وهي مفرطة الطول، وبهذا المسجد آثار كريمة، فمنها بيت إزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال إن الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع، وعلى مقربة منه محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع، وهو محراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهنالك ضربه الشقي ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به، وفي الزاوية من هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضاً بأعواد الساج، يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس عليه السلام ويتصل بذلك فضاء، ويتصل بالجدار القبلي للمسجد، يقال: إنه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والبيت الذي غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضاً، إنه بيت نوح عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله.

وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع، يصعد إليه، قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتي الحسين عليه السلام.

وأما قصر الإمارة بالكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص فلم يبق إلا أساسه.

والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها، وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها بعض.

ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضعاً مسوداً شديد السواد في بسيط أبيض، فأخبرت أنه قبر الشقي ابن ملجم، وأن أهل الكوفة يأتون كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت أنها على قبر المختار بن أبي عبيد[٣].

---

(١) هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة (٧٠٣ - ٧٧٩ هـ = ١٣٠٤ - ١٣٧٧ م): رحالة، مؤرخ. ولد ونشأ في طنجة Tanger بالمغرب الأقصى. وخرج منها سنة ٧٢٥ هـ فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط إفريقية. واتصل بكثير من الملوك والأمراء، فمدحهم - وكان ينظم الشعر - واستعان بهباتهم على أسفاره. وعاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده. وأملى أخبار رحلته على (محمد ابن جزي) الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦ وسماها (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - ط) ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والانكليزية، ونشرت بها، وترجمت فصول منها إلى الألمانية نشرت أيضا. وكان يحسن التركية والفارسية. واستغرقت رحلته ٢٧ سنة (١٣٢٥ - ١٣٥٢) ومات في مراكش. وتلقبه جمعية كمبردج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالين المسلمين Prince of moslems travellers وفي نابلس (بفلسطين) أسرة، الآن، تدعى (بيت بطبوط) وتعرف ببيت المغربي وبيت كمال، تقول إنها من نسل ابن بطوطة الأعلام ج ٦ ص ٢٣٥، الدرر الكامنة ٣: ٤٨٠ ودائرة المعارف الإسلامية ١: ٩٩ والرحالة المسلمون ١٣٦ - ١٧١ وسماه الزبيدي، في التاج ٥: ١٠٩ (محمد بن علي) ذكر عن رحلته أن ابن جزي جمعها في كتاب حافل، اختصره محمد بن فتح الله البيلوني في جزء صغير.

(٢) قال الدكتور هشام جعيط في نهاية دراسته عن الكوفة: لم تدمر الكوفة يد المغول ولا بحديد تيمور لنك وناره، بل دمرها النهب الشديد الذي قام به بدو الجزيرة العربية: قرامطة، شمر، خفاجة، لقد بناها العرب ودمرها العرب أنها بعد الآن مدينة ميتة لم يبق منها سوى بعض الآثار المتأخرة عموما لكنها عكست قدسيتها الشيعية على النجف التي يتقاطر إليها الألوف لزيارة العتبات المقدسة ضريح علي (الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ص٣٤٣)

(٣) رحلة ابن بطوطة: ص ١٤٧ وقال في رحلته التي فرغ منها سنة ٧٥٦ هـ ستة وخمسين وسبعمائة في ذكر وروده من مكة إلى مشهد مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام. ذكر الروضة والقبور التي بها، ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة، ولكل وارد ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم، ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة، وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية، فعندما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم - وذلك على قدر الزائر - فيقفون معه على العتبة، ويستأذنون له، ويقولون: عن أمركم يا أمير المؤمنين، هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية، فإن أذنتم له، وإلا رجع، وإن لم يكن أهلا لذلك، فأنتم أهل المكارم والستر، ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة، وكذلك العضادتان، ثم يدخل القبة، وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه، وبها قناديل الذهب والفضة، منها الكبار والصغار، وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء، وارتفاعها دون القامة، وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون أن أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام، والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام، والثالث قبر علي رضي الله عنه، وبين القبور طسوت ذهب وفضة، فيها ماء الورد والمسك، وأنواع الطيب، يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا. وللقبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة، وعليه ستور من الحرير الملون، يفضي إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير، وله أربعة أبواب، عتبتها فضة وعليها ستور الحرير، وأهل هذه المدينة كلهم رافضية. وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم، إن بها قبر علي رضي الله عنه. فمنها: إن في ليلة السابع والعشرين من رجب - ويسمى عندهم ليلة المحيا - يؤتى إلى تلك الروضة بكل مقعد من العراقيين وخراسان وبلاد فارس والروم، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك، فإذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا عند الضريح المقدس، والناس ينتظرون قيامهم، وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة، فإذا مضى من الليل نصفه، أو ثلثاه أو نحو ذلك، قام الجميع أصحاء من غير سوء، وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله. وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات، ولم أحضر تلك الليلة، لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال، أحدهم من أرض الروم، والثاني من أصبهان، والثالث من خراسان، وهم مقعدون، فاستخبرتهم على شأنهم، فأخبروني أنهم لم يدركوا ليلة المحيا، وأنهم ينتظرون أوانها من عام آخر. وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقا عظيمة، مدة عشرة أيام... الخ (رحلة ابن بطوطة: ص ١٤٧).

٤- ابن جبير[١]

وفي سنة ٥٨٠ هـ زار الكوفة الرحالة ابن جبير وشاهد علامات تأخرها وسقوطها وقال: هي مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر منها أكثر من العامر. ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، فهي لا تزال تضربها، وكفاك بتعاقب الأيام والليالي محيياً ومنفنياً. وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة، ولا سور لها. والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد، ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق. وهو جامع كبير، في الجانب القبلي منه خمسة أبلطة، وفي سائر الجوانب بلاطان. وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة من صمّ الحجارة، المنحوتة قطعة على قطعة، مفرغة بالرصاص، ولا قسيّ عليها، على الصفة التي ذكرناها في مسجد رسول الله ﷺ وهي نهاية الطول، متصلة بسقف المسجد، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها. فما أرى في الأرض مسجداً أطول منه ولا أعلى سقفاً.

وبهذا الجامع المكرم آثار كريمة:

فمنها بيت بإزاء المحراب عن يمين المستقبل القبلة، يقال: انه كان مصلى نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، وعليه ستر أسود صوناً له، ومنه خرج الخطيب لابساً ثياب السواد الخطبة. فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه. وعلى مقربة منه، ممايلي الجانب الأيمن من القبلة، محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير، وهو محراب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وفي ذلك الموضع ضربه الشقي اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف، فالناس يصلون فيه باكين داعين.

(١) محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (٥٤٠ - ٦١٤ هـ = - ١١٤٥ - ١٢١٧ م): رحالة أديب. ولد في بلنسية (Valence) ونزل بشاطبة، وبرع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، وحذق الإقراء، وأولع بالترحل والتنقل فزار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة ٥٧٨ - ٥٨١ هـ وهي التي ألف فيها كتابه رحلة ابن جبير - ط ومات بالإسكندرية في رحلته الثالثة. ويقال: إنه لم يصنف كتاب رحلته وإنما قيد معاني ما تضمنته فتولى ترتيبها بعض الآخذين عنه، ومن كتبه نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان وهو ديوان شعره، على قدر ديوان أبي تمام، و نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرن الصالح مجموع ما رثى به زوجته أم المجد (الأعلام ج ٥ ص ٣١٩، نفح الطيب ١: ٥١٥ و ٥٧٥ وشذرات الذهب ٥: ٦٠ وغاية النهاية ٢: ٦٠ ودائرة المعارف الإسلامية ١: ١١٦ ورحلة ابن جبير: مقدمات طبعة ليدن سنة ١٩٠٧ وجذوة الاقتباس ١٧٢ والإحاطة ٢: ١٦٨ وفي زاد المسافر ٧٢ نماذج من شعره. وللدكتور محمد مصطفى زيادة «محاضرة» أوجز بها رحلة ابن جبير في ٢٢ صفحة، نشرها بيت المغرب، في القاهرة، سنة ٩٣٩، (٤٧٨) ٦٢٩: I. S. Brock ٨٧٩: I.
(٢) بغية الرواد ٢٧ وتعريف الخلف ٢: ٣٥٢.)

وفي الزاوية من آخر هذا البلاط القبلي، المتصل بآخر البلاط الغربي، شبيه مسجد صغير محلق عليه أيضاً بأعواد الساج، هو موضع مفار التنور الذي كان آية لنوح عليه السلام، وفي ظهره، خارج المسجد، بيته الذي كان فيه، وفي ظهره بيت آخر يقال إنه كان متعبد إدريس، عليه السلام، ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد، يقال إنه منشأ السفينة. ومع آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، والبيت الذي غسل فيه. ويتصل به بيت يقال إنه كان بيت ابنة نوح، عليها السلام.

وهذه الآثار الكريمة تلقيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، والله أعلم بصحة ذلك كله.

وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد إليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب، رضي الله عنه.

وفي جوف الجامع على بعد منه يسير سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها ثلاثة أحواض كبار.

وفي غربي المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعلي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجى ميتاً على ما يذكر. ويقال: إن قبره فيه، والله أعلم بصحة ذلك.

وفي هذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا، لأنا لم نشاهده بسبب أن وقت المقام بالكوفة ضاق عن ذلك، لأنا لم نبت فيها سوى ليلة يوم السبت. وفي غدائه رحلنا ونزلنا قريب الظهر على نهر متسرب من الفرات. والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ مما يلي الجانب الشرقي. والجانب الشرقي كله حدائق نخيل ملتفة يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر. ورحلنا من ذلك الموضع وبتنا ليلة الأحد منسلخ محرم بمقربة من الحلة ثم جئناها يوم الأحد المذكور[٢].

٥- الرحالة نيبور:

وأكد الرحالة (كارستن نيبور) وقد زارها بعد الأوّل بقرن ونصف تقريباً سنة ١٧٦٥م فقال: «أنّها كانت خالية من السكان تقريباً، بل أنّه وجد مسجدها، ولم يبق منه شيء يذكر سوى الجدران». وانه دخل إلى النجف من جهة الرماحية وقال في رحلته:

وصادفت على الدرب بين الرماحية ومشهد علي أربع جنائز، ومن الأخيرة إلى الحلة خمس جنائز، وحين سألت إن كان العدد لا يتعدى سبع جنائز تنقل من مناطق أخرى إلى هنا لأجبت أن هذا الرقم قليل للغاية، إذ يدفن هنا سنوياً ما يفوق الألفي ميت غريب، ويحصل من يدفع جيداً على قبر قرب مسجد إمامهم، ومن يدفع أقل يدفن داخل أسوار المدينة، أما

(٢) رحلة ابن جبير، أو تذكره بالأخبار من اتفاقات الأسفار ص ١٦٦

ذاك الذي يتعذر عليه الدفع فيعين له مكان خارج المدينة، ولا أظن أن الموتى يدفنون داخل حرم المسجد، أو على الأقل في مساجد المسلمين الأخرى، لا نجد سوى قبر مشيّد المسجد وأحيانا قبور أولاده ونسائه، وبشكل عام لا يحب المسلمون أن المدافن داخل حرم المدينة.

أكد لي علماء سنة أن قبر علي، صهر النبي لا يعرف مكانه ويبدو أن عائلته حاولت أن تغطيه عن أعدائها.

لكن الشيعة يؤكدون أن علي دفن في هذا المسجد ويقولون انه أعطى الأمر ووضع جثمانه بعد وفاته على ظهر ناقة، ويدفن حيث تبرك بعد إخراجها من الكوفة.

ويبدو هذا الأمر غريباً من سيّد عرف بذكائه كعلي، لكن هذا القبر المزعوم[1] سمح ببناء مدينة تقع هذه المدينة في منطقة جرداء قاحلة كالسويس وجدة.

كما تفتقر للمياه، وتجري تلك المستعملة للغسيل في أنابيب جوفية، أما المياه الصالحة للشرب فتنقل على ظهر الحمير من مكان يقع على بعد ثلاثة فراسخ ويكثر الكلس في أحدى جهات المدينة فيكفي بالتالي جرف بعض الرماد والزبل الجاف لصنع كلس جيد للبناء، وبما أن سعر الخشب مرتفع تبنى غالبية المنازل من الآجر المشوي المطلي بالكلس وبشكل مقبب مما يجعلها متينة.

وفي الجهة الأخرى للمدينة تطالعنا منطقة منخفضة يكثر فيها الملح، ويطلق عليها العرب إسم البحيرة (el buheire) وإسم النجف، ويدعون إنها بحيرة سرفة (buheiret sarve) التي جفت عند ولادة محمد[2].

ويتبع قسم من سكان المدينة المذهب السنّي،فيما يتبع القسم الآخر المذهب الشيعي ويكره أتباع هذين المذهبين بعضهم البعض[3] حتى أن السني حين يزور بلاد فارس يضطر للصلاة وفقا لعادات البلاد كي لا يسيء إليه الشعب، شأنه في ذلك شأن الشيعي الذي يقصد بعض المدن التركية.

أما في مشهد علي ومشهد الحسين فيتعايشون قدر المستطاع، ويضطر السنة الى الخضوع لإرادة الشيعة لأنهم يعملون عندهم، ويجب على الشيعة تجنب المشاكل وإلاّ أفسحوا المجال أمام الباشا ليجعل الفرس يدفعون غالياً ثمن زيارة إمامهم الأول ويقصد حوالي ٥٠٠٠ شخص قبري علي والحسين ولا يحجون في أوقات معينة كالذين يقصدون مكة، لكن الشيعة يعتقدون أن صلواتهم تستجاب في أشهر معينة لذا يأمون المكان في ٢٧ رجب وفي شهر رمضان وفي العاشر من محرم.

ونادراً ما نسمع أحداً هنا يستعين بإسم الله ليؤكد كلامه، إذ يقسمون كلهم بإسم علي وبإسم الحسين في مشهد الحسين، وبإسم الشاذلي في المخا، ونسمعهم غالباً يصرخون: (واعلي ! وا شهيداه، واحسيناه، وا شهيداه، كرم الله ذكراكما).

إن المنظر الخارجي لمدينة مشهد علي يشبه إلى حدّ بعيد محيط القدس اليوم، وهي تمتد على المساحة نفسها تقريباً، وقد رسمت الخارطة على اللوحة xlii

يحيط بالمدينة سور فيه بابان، باب المشهد قرب الرقم ١ وباب النهر قرب الر قم ٢ أما باب الثالث الذي يحمل اسم باب الشام قرب الرقم ٣ فمسدود، وقد انهار السور من أماكن عدة حيث يمكن للمرء أن يدخل المدينة من خمسين فتحة ونجد في المدينة ثلاثة مساجد صغيرة فضلاً عن المسجد الذي يضم قبر علي قرب الرقم ٤، وتكونت التلال قرب الر قم ٥ من أقذار الشوارع التي تستقدم على ظهور الحمير.

وجعلت المدافن المشتركة قرب الرقم ٦ أما الرقم ٧فيدل على المنطقة التي تجري منها المياه إلى المدينة عبر أقنية تحت الأرض.

---

(١) في شبهة قبر المغيرة التي أثارها الخطيب البغدادي قال ابن أبي الحديد في شرح «نهج البلاغة» ج ٢ ص ٤٥: سألت بعض من أثق به من عقلاء شيوخ أهل الكوفة عما ذكره الخطيب أبو بكر في تاريخه [ج ١ ص ١٣٨] إن قوما يقولون: إن هذا القبر الذي تزوره الشيعة إلى جانب الغري هو قبر المغيرة بن شعبة ؟ ! فقال: غلطوا في ذلك قبر المغيرة وقبر زياد بالثوية من أرض الكوفة ونحن نعرفهما وننقل ذلك عن آبائنا وأجدادنا، وأنشدني قول الشاعر يرثي زياداً وقد ذكره أبو تمام في الحماسة.

صلى الإله على قبر وطهره — عند الثوية يسفي فوقه المور
زفت إليه قريش نعش سيدها — فالحلم والجود فيه اليوم مقبور
أبا المغيرة والدنيا مفجعة — وإن من غره الدنيا لمغرور

الخ، وسألت قطب الدين نقيب الطالبيين أبا عبد الله الحسين بن الأقساسي -رحمه الله تعالى- عن ذلك فقال: صدق من أخبرك، نحن وأهلها كافة نعرف مقابر ثقيف إلى الثوية وهي إلى اليوم معروفة، وقبر المغيرة فيها إلا أنها لا تعرف قد ابتلعها السبخ وزبد الأرض وفورانها فطمست واختلط بعضها ببعض، ثم قال: إن شئت أن تتحقق أن قبر المغيرة في مقابر ثقيف فانظر إلى كتاب «الأغاني» لأبي الفرج علي بن الحسين، والمح ما قاله في ترجمة المغيرة وأنه مدفون في مقابر ثقيف، ويكفيك قول أبي الفرج فإنه الناقد البصير والطبيب الخبير فتصفحت ترجمة المغيرة في الكتاب المذكور فوجدت الأمر كما قاله النقيب.

وذكر في ج ١: ١٦، إن قبره عليه السلام بالغري، وما يدعيه أصحاب الحديث من الاختلاف في قبره، وانه حمل إلى المدينة، وإنه دفن في رحبة الجامع، أو عند باب الإمارة، أو ند البعير الذي حمل عليه فأخذته الأعراب، باطل كله لا حقيقة له، وأولاده أعرف بقبره، وأولاد كل أحد أعرف بقبور آبائهم من الأجانب، وهذا القبر الذي زاره بنوه لما قدموا العراق، منهم جعفر بن محمد حدثهم وغيره من أكابرهم وأعيانهم

(٢) لعله يريد بحيرة ساوة

(٣) ليس في النجف من أتباع المذهب السني إلا الحاكم وبعض الكتّاب ربما فمن أين أتى نيبور بهذا الزعم؟

ويلفت الأنظار في المدينة، المسجد المشيد فوق قبر الخليفة والإمام علي، وقد رسمته بقدر ما سمحت لي الظروف قرب الحرف (أ A) على اللوحة (xlii) أظن أن ما من صرح في العالم يعلوه سقف ثمين كمسجد الشيعة هذا، وقد دفع كلفته نادر شاه الشهير في بلاد فارس، ولكن الطغاة كهذا الأخير يفعلون المستحيل ليبهروا أنظار الشعب، أن طلاء القبة الكبيرة وسطح المئذنتين بالنحاس ليس بالأمر العجيب لكن هذا النحاس كله مذهب وقد أستعمل لكل ٨ بوصات ونصف مربعة طومان ذهبي أي عشرة دراهم ألمانية[١].

ويشكل هذا المسجد مشهداً رائعاً، لاسيما حين تسطع عليه أشعة الشمس، وبما أن الصرح والمدينة بشكل عام مرتفعان، يمكن أن نرى القبة على بعد خمسة أو ستة أميال ويرتفع فوق القبة حيث نرى عادة في المساجد التركية هلال أو عصا طويلة، كفاً ممدودة لابد أنها تمثل كف علي، وتحيط بالمسجد ساحة مفتوحة يقام فيها السوق يومياً ونجد أمامه ثريا بقناديل عدة، ويقوم حول هذا كله بيبان يقيم فيها بعض المسؤولين وعن خدمة المسجد،ولا يمكن أن يقيموا فيها كلهم، إذ أن عددهم يتجاوز المئة بحسب ما أكدوا لي، ومن ضمنهم العديد من الدراويش الذين يعيشون لشدة فقرهم عند مدخل المسجد،ويعرضون صلواتهم على الحجاج لقاء مبالغ صغيرة، وقد صدمت حين علمت بالطريقة التي يقرؤون فيها الصلوات لقاء صدقة أو على الأصح لدفع الشعب الفقير المتطير إلى التصدق عليهم.

وتجرأت على الاقتراب من مكان يعتبره السنة والشيعة على حدّ سواء مقدساً[٢]، ولو تصرفت بتهور ودخلت المسجد لربما أجبروني على اعتناق الدين الإسلامي ولم أشأ أرضاء حشيرتي بهذا الثمن،لكن رفيق رحلتي والعديد من الشيعة أكدوا لي بأن المسجد يحوي ثروات طائلة،فالقبة مذهبة وقد كتبت عليها آيات من القرآن بأحرف من خزف،كما كتب على الجدران بأحرف ذهبية كبيرة،ونجد أيضاً العديد من الشمعدانات من الفضة والذهب المرصعة بالأحجار الكريمة،ويكثر الحديث عن سعر خنجر كذلك الذي يحمله الهنود في أحزمتهم معلق على قبر علي المسور،ويقال أنه مرصع بأحجار كريمة باهظة الثمن،وأن أورنك زيب (aureng zeb) أهداه للخليفة الذي أغتيل منذ قرون عدة،ووصفوا لي قطعاً أخرى كثيرة في المسجد حتى أني أكاد أشك بما روي عن عربي بهرته هذه الأمور وحين ذكروه بوجوب الصلاة أجاب حقاً الأشياء الفاخرة التي زينت القبر أنستني ذكر الله.

ويهتم بهذا الكنز الكبير المتولي (المشرف على المسجد) والحاكم كما يرسل باشا بغداد سنوياً مسؤولاً كبيراً للتأكد من وجود كافة المحتويات. لكن بما أن هؤلاء من أهل السنة ومن الأتراك الذين يعرفون قيمة الذهب والأحجار الكريمة أكثر من أن يتركوها في أماكن مماثلة حيث تلهيهم عن صلاتهم، يعتقد الشيعة أنهم يعملون على أبدال القطع الحقيقية بقطع مزيفة[٣].

وتقع مدينة الكوفة الشهيرة، على بعد خمسة أرباع الميل من مشهد علي إلى الشمال الغربي في منطقة منخفضة وخصبة،ونجد هنا مجرى كري سعدّه (dejare zaade) (أو بالاكوبار) لكن المياه لاتصل إليه حالياً.

خلت المدينة ومحيطها من السكان، أما أبرز ما نجده فيها فهو المسجد الكبير حيث أقام علي،كما لم يتبق منها سوى الجدران الأربعة التي رسمتها مع الخارطة على اللوحة (xlii) في الحرف (ب b) ويسمى الباب ١ باب الفيل، ورسمت قرب الر قم ٢ صرحاً عميقاً في الأفق وغير مرتفع، يبدوا وكأنه خزان مياه، ويسميه العرب السفينة. وقد ذكر الدليل وهو من سكان مشهد علي يرافق الحجاج الفرس لرؤية الآثار ويدعي أنه من أبناء الكوفة القدامى أن سفينة نوح توقفت في هذا المكان ويطلق على الصرح الصغير المستدير قرب الرقم ٣ اسم السقاخانه (SIKKE KHES) وكانت المياه توزع هنا كما يدل ذلك على اسمه. لكن هذا الصرح ليس بقديم.

ونلاحظ فوق الباب حجراً كتب عليه بأحرف عربية كتلك المستعملة اليوم والتي لم تكن معروفة في زمن علي، وبني صرح صغير قرب الرقم ٤ حيث أعتاد الحسن والحسين أداء صلاتهما، ويلاحظ في الحائط الخلفي كوة في المكان الذي يزعمون أن موسى الكاظم كان يصلي فيه وتدعى الأعمدة ٥،٦،٧ مقام سيدنا عيسى، مقام موسى ومقام إبراهيم الخليل، ويعتقد المسلمون أن المسيح وموسى ومحمد صلوا في هذه الأمكنة.

وقرب الرقم ٨ نرى المكان الذي كان زين العابدين يصلي فيه عادة،وقرب الرقم ٩ أدى كل من علي ونوح صلاتهما، كما

(١) جاء في كتاب تاريخ نادر شاه (فارسي) لمحمد مهدي خان: دفعت التقوى نادر شاه إلى طلاء سطح المسجد المقدس بالذهب (مسجد مشهد علي أو النجف الشريف كما يسمي الكاتب الفارسي المكان) وقد قدرت كلفة هذا العمل بمبالغ طائلة، وتم ترميم جدران هذا الصرح المبارك على نفقة الإمبراطورة الشهيرة (كوهر شاه البيغوم) التي أرسلت مئة ألف نادري (على ما يبدو روبية وبالتالي حوالي (٦٦٦٦٦) درهم ألماني) من حسابها الخاص، كما وهبت مبخرة مرصعة بالأحجار الكريمة وإناء من الذهب الخالص لحرق البخور في البيوت المقدسة ودفعت السلطانة رضية بيغوم ابنة الشاه حسين عشرين ألف نادري (حوالي ١٣٣٣٣درهم)(رحلة نيبور ج٢ ص ٢١٣ الهامش)

(٢) قبل قليل ذكر نيبور أن السنة لا يعتقدون بكونه مرقد علي، فلاحظ.

(٣) ذكرنا ما يتعلق بالنجف الاشرف في هذا المحل لندرته وانه لأول مرة تترجم إلى العربية وإنما كان ينقل عن الأصل موضع الحاجة.

نجد هنا منبراً بدرجه يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام، ويقال أن نوح بنى أول منزل بعد خروجه من السفينة قرب الرقم ١٠،ونجد قرب الرقم ١١ قبر جعفر بن معمّر،وقرب الرقم ١٢ ضريح مسلم بن عقيل ومسلم هذا ابن أخ الخليفة علي وقد قتل مع هاني بن عروة الذي آواه في منزله،ونجد قبر هذا الأخير قرب الرقم ١٣ ولم يبن الشيعة هذين الصرحين إلاّ في وقت لاحق لأنهم يعتبرون مسلماً وهانئاً وكل من مات من أجل علي وأولاده شهداء، كما نجد بعض العواميد في حرم المسجد المذكور مع أجنحة صغيرة لراحة الحجاج الذين يودون البقاء لبضعة أيام.

وجدت في غرفة مسلم كتابة عانت قليلاً من آثار الوقت ونستنتج منها أن محمد بن محمود الرازي وأبي المحاسن بن أحمد التبريزي أقاما هذا الصرح في العام ٦٨١ للهجرة، وتقول الكتابة:

«هذه العمارة مشهد... مسلم بن عقيل بن أبي طالب عليه السلام في أيام الصاحبين المخدومين على الحق والدين... وشمس الدين والدي محمد بن محمد الجويني اعز الله انصار دولتهما بتولي رقاب عبيدهما محمد بن محمود الرازي وأبي المحاسن بن أحمد التبريزي عفى الله عنهما في شهور سنة أحدى وثمانين وستماية وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله».

ونلاحظ قرب لحد جعفر بن معمر الكتابة الكوفية الواردة على اللوحة xliii قرب الحرف (Aأ) أما بالأحرف العربية الحديثة فهي:

«قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد (٤)». هذا قبر جعفر بن معمّر رحمه الله وغفر له صلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما الكتابة الواردة قرب الحرف (ب B) والتي وجدتها على جدار المسجد فليست سوى الآية ٢٥٦ من السورة الثانية في القرآن وفقا لتقسيم ماراقبوس (maraccius)، وبما أن السيد ريسك ود أن أحفر كافة الكتابات الكوفية التي نسختها من أجل الذين يودون معرفة هذه الحروف. لم أكتف بهذه الكتابة بل أضفت كتابات أخرى صغيرة قرب الحرفين (جG) و(دD) ونجد في بغداد حاليا أمثلة عدة عن طريقة تزيين المنازل بالكتابات العربية بالأحرف الكوفية كما في هذه الكتابات الأخيرة.

أمرت عادلة خاتون (Adila chatun) زوجة سليمان باشا، ببناء جزء من الجدار الشمالي الغربي للمسجد وبترميم الجزء الآخر كما أمرت بتشييد صرح صغير معه تكريماً لابنة نوح.

وأشار الدليل إلى المكان الذي غسل فيه جثمان علي والى غرفة صغيرة في هذا الصرح صنعت فيها ابنة نوح الخبز بحسب ما يزعم، ونرى صرحاً صغيراً مخصصاً لبنات علي الثلاث ولعلهن دفن هنا.

وعلى بعد حوالي ربع فرسخ إلى الشمال الغربي من المسجد الكبير أشار الدليل إلى مسجد آخر هو مسجد صاحب الزمان المهدي،وروى لي حكاية طويلة لم أفهم مغزاها، ولا نصادف حتى الكوفة[١] إلاّ بعض التلال الصغيرة والمكونة من بقايا بعض الأبنية، ويبدو أن المنازل كانت تبنى من الحجارة، وبالتالي لا تهدم بسهولة كما في البصرة، كما نجد بين هذه البقايا عملات قديمة لا قيمة لها اليوم،وبما أن المسلمين لا يجمعون أموراً كهذه وبما أن الأوربيون لا يزورون مشهد علي (على حد علمي لم يزرها أي أوروبي)، لا يمكن للمسافر أن يتوقع شراء أي منها هنا.

ولم يثر اهتمامي خادمي في الكوفة سوى بقايا عامود حمله علي بنفسه إلى المدينة، وهو قرب السفينة داخل المسجد الكبير ويتميّز بأنه لا يمكن لامرئ لم تكن أمه وفيه لوالده أن يحضنه تماماً، وأراد الموجودون من عامة الشعب القيام بهذه التجربة للتأكد من هوية والدهم الحقيقي وسرّوا جميعا بالنتيجة باستثناء سائس و احد، وأولوا إيهامه بأن العمود يتمدد بسببه فقام الرجل المسكين بمحاولات بائسة لحضنه كلياً وينظر العقلاء من المسلمين إلى هذه التجربة على أنها تسلية لعامة الشعب[٢].

٦- الرحالة الفرنسي أوليفيه:

قصد الرحالة الفرنسي أوليفيه (olivier) (١٤٩٤ – ١٧٩٦م) الكوفة وسائر العتبة المقدسة وفيما يلي حديثه عن الكوفة والعتبات المقدسة المجاورة لها قال:

وعلى بعد تسعة فراسخ جنوب الحلة: كانت تقوم مدينة عربية تسمى الكوفة لم يبقَ منها سوى بعض أطلال، لقد كانت واقعة على قناة مستمدة من الفرات في أرض خصبه ومزدهرة هي اليوم بدون ماء ويسميها البدو كري سعدة.

إنها البلاكوبا (p allacopa) التي يقول أريان (flavius arrien)[٣] بأنها تتصل بهور كبير حتى الفرات وذلك على الضفة اليمنى من هذا النهر جنوب بابل.

لقد جعل الخلفاء الثلاث الأوائل كما هو المعلوم مقر أقامتهم في المدينة المنورة بينما جعلها علي في الكوفة وفي آخر سنيّ حياته وكذلك الحسن خلفه،أما الأمويون الذين أتوا بعده فقط استقروا في الشام أو مدينة أخرى من مدن سورية وبويع أول الخلفاء العباسيين وترك المنصور وهو الخليفة

(١) كذا في الأصل، المترجم

(٢) كارستن نيبور، رحلة إلى شبه الجزيرة العربية والى بلاد أخرى مجاورة لها، دار الانتشار العربي ج٢ ص٢١٢

(٣) مؤرخ يوناني من القرن الثاني له تاريخ الأسكندر الكبير

الثاني هذه المدينة وأرسى أسس بغداد ولا ندري في أي حقبة خربت الكوفة ومن المحتمل أن ذلك لم يحدث إلاّ بعد استيلاء التتار على بغداد إذ يأتي ذكر الكوفة في عهد العباسيين مراراً.

ويشاهد على بعد فرسخين إلى الغرب والجنوب الغربي من أطلال الكوفة مشهد علي أو مشهد الإمام علي وهي مدينة كبيرة جداً قد تكّونت حول المسجد الذي يفترض بأن هذا الخليفة مدفون فيه وقد شيّد إكراماً له بعد زمن طويل من وفاته.

مشهد علي يسكنه العرب وغيرهم، لذا كان نصف السكان سنيّين[١] يتبعون تعاليم الأئمة الأربعة من الأئمة المسلمين الأولين، والنصف الآخر شيعياً أي من شيعة علي ومن ضمن الأولين بعض الإدراك المتمسكين بسادة الدولة.

يأتي سنويا للحج إلى مشهد علي من العجم بعدد يقدر بخمسة آلاف أو ستة آلاف يمرون جميعهم تقريباً ويتقاضى باشا هذه المدينة على كل حاج أربعة قروش كضريبة وهي واسطة يضمن لها الحماية التي يحتاجونها.

وتحدث اوليفيه عن مشهد الحسين قائلاً:

ليس مشهد علي المدينة الوحيدة التي يقصدها الزوار إذ أنهم يقصدون مشهد الحسين أو الأمام الحسين (رضي الله عنه) حيث يوجد قبر الحسين بن علي الذي قتل مع عدد كبير من أقربائه وأصحابه في واقعة كربلاء، ومعلوم أن الحسين بعد وفاة معاوية قصد الكوفة مع مئة وخمسين شخصاً وسائر آل بيته حيث كان ينتظره أنصاره، غير أن يزيد بن معاوية قد أرسل ضده ستة آلاف شخص قابلوه، فاستشهد الحسين وسلاحه بيده لأنه حارب حتى الرمق الأخير ضد هذا العدد الغفير من المناوئين، وأقيم له ضريح قريب من ميدان المعركة وعلى هذا الضريح شيّد فيما بعد مسجد وتكونت حوله مدينة.

إن مشهد الحسين أقل شأناً من مشهد علي، ويقع على بعد ستة أو سبعة فراسخ الى الشمال الغربي من الحلة، في موقع ممتاز جداً تستمد مياهها من الفرات بواسطة قناة، الأمر الذي يسهل للسكان أن يزرعوا الكثير من النخيل حول مدينتهم[٢].

٧- الرحالة لوفنتس

زار النجف في عام ١٨٥٣ رحالة انكليزي إسمه لو فنتس وقد كان عضواً من أعضاء لجنة الحدود التي تجولت في منطقة الحدود العراقية الإيرانية في عام ١٨٤٩ فعملت على تثبيتها وفي سفرة ثانية إلى العراق لأغراض علمية آثارية تجول في البلاد فكتب رحلته المعروفة[٣] في وصف الموصل فبغداد فالفرات الأوسط فالبصرة فعربستان، وقد جاء إلى النجف الاشرف في صيف ١٨٥٣ من الحلة وفي معيته درويش باشا متصرف الحلة وطاهر بك الحاكم العسكري فيها، مع ثلّة من الجنود الأتراك.

ولذالك نراه يذكر شيئاً عن الكوفة التي وصل إليها من الكفل قبل وصوله إلى النجف بطبيعة الحال فيورد عدداً من الروايات عنها، منها أن موقع الكوفة كان هو الموضع الذي نزل فيه جبرائيل إلى الأرض فصلى لله عز وجل، ومنه انبثقت مياه الطوفان الطاغية على عهد نوح عليه السلام فاستقل فلكه هرباً منها، ويزعم العرب بالإضافة إلى ذلك أن الحية حينما أغوت حواء نفيت إلى هذا المكان عقوبة لها، ومن هذا نشأت فكرة اتصاف أهالي الكوفة بالمكر والخداع[٤].

وبعد ذلك يأتي على ذكر الكوفة في أيام العرب، وأهمية الخط الكوفي، ومقتل الإمام علي عليه السلام فيها من قبل الخوارج، ثم يشير إلى أنها لم يبق منها في وقت زيارته لها (أي عام ١٨٥٣) سوى عدد من التلول وبقايا جدار من جدرانها[٥] مع انها كانت تمتد على ما يقال إلى ما يقرب من كربلاء (مسافة ٤٥ ميلاً)[٦].

٨- جون بيترز:

زار الأستاذ الأمريكي جون بيترز سنة ١٨٩٠ النجف الاشرف بصفته رئيس بعثة بنسلفانيا للتنقيب عن الآثار القديمة في نفّر (منطقة عفك)

وزار الكوفة فقال عنها: إن الرحالة الذين جاءوا إليها في بداية القرن التاسع عشر يشيرون إلى وجود الكثير من أثار البلدة العربية القديمة فيها لكنها لم يبق منها حينما زارها سوى بعض التلول والأساسات لأن طابوقها قد نقل كله للاستفادة منه في بناء أبنية النجف نفسها

ويذكر في كتابه أن هناك في غربي الكوفة نهراً مندرساً كبيراً يسمى (كري سعدة)، ويروي الخرافة التي تروى عن تسميته بهذا الاسم، وهي أن تاجرا غنيا من تجار البصرة كان قد أحب امرأة جميلة اسمها (سعدة) من أهالي المنطقة الكائنة ما بين هيت وعانة في شمال البلاد، وكانت هذه المرأة تهوى

(١) يبدو إن الرحالة والمستشرقين يتبع بعضهم البعض في الأخطاء وفي هذا الموضع تابع اوليفيه نيبور في خطاه في بيان مكونات مدينة النجف الاشرف

(٢) رحلة أوليفيه إلى العراق ترجمة د. يوسف حبي، بغداد ١٤٠٨ه \١٩٨٨ ص ١٥٠ - ١٥١.

(٣) الفصل السادس ص ٤٦ loftus w k travels researches in chaldeae susiaua lo ndon ١٨٥٧.

(٤) لسنا نعلم من أين أتى لوفتس بهذا الكلام ومن أي مصدر نقل بل المروي في التاريخ خلاف ذلك مطلقاً

(٥) ربما كان هناك جدار لأحد المباني القديمة بالكوفة في وقت دخوله إليها ولم يبق منه سواه.

(٦) موسوعة العتبات المقدسة، جعفر الخليلي ج٦، النجف الاشرف/ القسم الأول ص٢٣٣ المقال لجعفر الخياك بعنوان (النجف في المراجع الغربية)

ضفاف الأنهر المظللة، فاشترطت عليه حينما خطبها من أهلها أن تنقل من البصرة في طريق النهر الذي يمر بالأماكن التي يجللها الظل، فما كان إلاّ أن يحفر لها هذا النهر ويغرس الأشجار على ضفافه.

ويعتقد بيترز أن (كري سعدة) هو الجدول الكبير الذي حفره (نبوخذ نصر) فمده من موقع يقرب من هيت إلى الخليج ليحيي به مساحات شاسعة من الأرض الموات[1].

٩- يوسف هرمز:

كاتب صحفي من أبناء الموصل وهو صاحب ورئيس جريدة صوت الشعب اليومية السياسية التي صدرت في بغداد في منتصف الثلاثينات من القرن العشرين طاف في المدن العراقية ومنها النجف الاشرف والكوفة وكتب رحلته هذه ونشرت على شكل حلقات في جريدة صوت الشعب البغدادية بدءاً بالعدد ٣٦٦ الصادر في ٣ شهر رمضان/ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٥م.

قال: وقبل أن استوفي الكلام عن مدينة النجف أحب أن اذكر شيئاً عن الكوفة لان عند وصولي إلى النجف زرت وكيل قائمقام القضاء وكان الوقت عصراً فأخذني معه إلى الكوفة لأبيت هناك ثم ارجع إلى النجف،

والمسافة بين الكوفة والنجف (٧) كيلو مترات، فالكوفة على نهر الفرات، والنجف في الصحراء بعيدة عن الماء لا يحيط بها غير الرمال.

وبين الكوفة والنجف سكة حديد تسير عليها العربات تسحبها الخيل وطريق آخر للسيارات يستغرق من الوقت ربع ساعة[2].

وقبل أن يصل السائر إلى الكوفة من جهة البر يصل إلى الجامع الشهير، جامع الكوفة القديم فهو أعظم جامع رأيته يسع من المصلين أكثر من ثلاثين ألفاً، وهو الجامع الذي صلّى فيه مسلم بن عقيل حينما طلبوا إلى الحسين عليه السلام ليقدم إلى العراق ويتولى الخلافة، ثم نكثوا البيعة معه ووقعت فيه الحوادث المشهورة كما سجلها التاريخ.

(١) موسوعة العتبات المقدسة ج٦ النجف القسم الأول ص ٢٤٣

(٢) أنشئت هذه السكة سنة ١٣٢٦ هجرية وأرخ ذلك المشروع السيد مهدي أبو الطابو في أبيات منها:

خليفة الله فينا ... سلمت عبد الحميد
سعيت أفضل سعي ... قربت كل بعيد
لكوفة الجند سيرت ... محجة من حديد
بأربع أرخوها ... (في خير عصر حميد)

شعراء الغري ٢٩/١٢، تاريخ النجف ٩٥/٣

إلاّ أن بناء الجامع لا يظهر عليه القدم، وقد يكون رمم في أزمان مختلفة، فكأنه الآن حديث العهد ولكن سوية الأرض فيه أخفض من الأرض التي حوله، وهو محاط بجدار عالي، ومن جميع الأطراف غرف كأنها صوامع الرهبان تبلغ المئات

وفي وسط صحن الجامع يوجد غرف تحت الأرض ينزل إليها بسلالم، وفي أرض هذه الطبقة بئر يدعى التنور يقال انه فار من الأرض وخرج الماء منه فصار الطوفان المشهور الذي اغرق جميع الأحياء وسلم من بينهم أبونا نوح عليه السلام[3].

١٠- لويس ما سنيون[4]

وضع لويس ما سنيون خريطة لمدينة الكوفة التأريخية في أول تأسيسها وكلفه ذلك (أن يجوب أطلال الكوفة القديمة بنفسه وان يدرس ويحقق ما تحت تلك الاكمات بما إفادته به المصادر التاريخية، ثم رسم خارطة للكوفة مطابقة للقرنين الأولين من الهجرة)[5] فكان لابد له من الرحلة الى العراق

(٣) مجلة الموسم الهولندية ع ٥ سنة ١٩٩٠ م ص ٣١٣، مجلة آفاق نجفية ع ٢ سنة ٢٠٠٦ م

(٤) ولد في نوجان على المارن، إحدى ضواحي باريس عام ١٨٨٣م لأب فنان كان يوقع تماثيله باسم بيير روش فتعرف بفضله على هويسمان، والأب دي فوكو، وحصل على التوجيه من ليه لوي لجران عام ١٩٠١م فقام برحلة إلى الجزائر وحصل على ليسانس الآداب عام ١٩٠٣م ودبلوم الدراسات العليا في بحث عن المغرب بعد زيارته لها عام ١٩٠٤م واشترك في مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر عام ١٩٠٥م حيث تعرف إلى كوزيهر، وآستي بلا ثيوس فأصبح مع سليفن ليفي وسنوك – هرجو نجه ولي شانيليه، أحب أساتيذه إليه في الاستشراق، ولما نال من المدرسة الوطنية للغات بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة فعنى بالآثار الإسلامية، وقصد بغداد فوصلها في ١٩ كانون الأول ١٩٠٧ م واتصل بالأسرة الآلوسية، وتعرف على العلامة السيد محمود شكري الالوسي، ونزل بدار أحمد أغا في محلة الحيدر خانة القريبة من العاقولية، واكتشف قصر الاخيضر عام ١٩٠٨ م، ثم غادر بغداد عائدا إلى القاهرة في ٨ حزيران ١٩٠٨م واستمع إلى دروس الأزهر بالزي الأزهري، وانتدبته الجامعة المصرية أستاذا لتاريخ الفلسفة عام ١٩١٢- ١٩١٣م، ثم رحل إلى الجزائر عام ١٩١٤م واشترك في حملة الدرنديل عام ١٩١٥- ١٩١٦م وطوف في الحجاز والقاهرة والقدس عام ١٩١٧- ١٩١٩م وأقام في القدس وحلب ودمشق والأستانة، ثم رجع إلى باريس فعين معيداً في كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا عام ١٩١٩م- ١٩٢٤ م وأستاذ كرسي عام ١٩٢٦- ١٩٥٤م ومديراً للدراسات العلمية حتى تقاعد عام ١٩٥٤م وكان قد حصل على الدكتوراه برسالة مأساة الحلاج من السربون عام ١٩٢٢م وتولى تحرير مجلة العالم الإسلامي عام ١٩١٩، توفي عام ١٩٦٢م.

صدرت عنه عدة دراسات منها (ذكرى ما سنيون) القاهرة عام ١٩٦٣(منوعات ما سنيون) دمشق عام ١٩٥٦م (خطط الكوفة المقدمة ص٩، نجيب العقيقي: المستشرقون، نشر دار المعارف بمصر ج١ ص ٢٨٧ – ٢٩١، عبد الحميد العلوجي: من تراثنا العلمي ١٩٦٦، ص ٢٧- ٢٩

(٥) خطط الكوفة ورسم خريطتها، تأليف المسيو لويس ماسينيون، ترجمة: تقي محمد المصعبي، تحقيق: د. كامل سلمان الجبوري ط ١ ١٣٩٩/ ١٩٧٩م مطبعة الغري الحديثة – النجف الاشرف ص٧ من مقدمة المحقق.

والتجول في مواقع و آثار الكوفة ليتسنى له التثبت ميدانياً من المواضع التي سوف يحددها حسب المعطيات التاريخية المدونة، وبالفعل قام بذلك ووضع تلك الخريطة ونشر بحثه تحت عنوان (شرح خريطة الكوفة) في مجلة بحوث المعهد الفرنسي العدد ٦٨ – دار نشر البحوث - الطبعة الثالثة ص ٣٣٦، قام الأستاذ تقي المصعبي وبإجازة من المؤلف بترجمته وطبع عام ١٩٤٦ م بمطبعة العرفان بصيدا بثلاث وأربعين صفحة، ثم قام الدكتور كامل سلمان الجبوري بتحقيق النص المترجم و التعليق عليه وطبع عام١٩٧٩ م، وأخيراً قامت دار الوراق بطبع النص المترجم من غير تحقيق، ولكون المستشرق ما سنيون قد قام برحلة ميدانية في الكوفة أدرجناه ضمن الرحالة واقتصرنا من حديثه على ما كان يتعلق بتلك الجولة مرجئين حديثه الآخر إلى القسم الثاني من هذا البحث[1].

قال ما سنيون:.... لقد زرت أطلال الكوفة مرتين في فترة ربع قرن، ففي زيارتي الأولى سنة ١٩٠٨ (من ١٤ ـــ ١٧ آذار) لم أتمكن من نقل شيء سوى بعض الصور الفوتوغرافية، ولكن زيارتي الأخرى سنة ١٩٣٤ (١٠ آذار) خرجت بالسيارة وليس على ظهر الفرس (كالمرة الأولى) ومعي دليل قد هيأه لي أصدقائي الشيعة بالنجف هو مارد بن الشيخ عطية فزرت أولاً الأنقاض القائمة بالبقعة التي هي اليوم صحراء جرداء والتي كانت فيما مضى مدينة عربية عظيمة وقطباً للمسلمين، ثم زرت الأماكن المجاورة للمسجد وباب الفيل وكذلك قبر هاني بن عروة، ومسلم بن عقيل - (أي في الجهة الشرقية) ـ وفي هذه المرة استطعت الدخول إلى الصحن الداخلي، بينما في سنة ١٩٠٨ لما كنت مع رفقائي السنة تمكنت بالكاد أن ألتقط صورتين فوتوغرافيتين وذلك من بعد ـ ومن ثم ذهبت إلى الأكمات الكائنة في الجهة الجنوبية التي يسمونها قصر الأمارة. وبيت علي وقبر ميثم والسبيلخانة، وهنا انحدرت نحو أقصى الجنوب باحثاً عن قبر إبراهيم الطباطبائي جدّ السيد كاظم، ومن المحتمل أن يكون هذا القبر في أعلى قبر قديم ـــ قبر كميل- وبعد ذلك شاهدت النقطتين ـ وأحدهما مشيده قبل الانكليز اللتين تقعان على سكة تراموای (النجف ـ الشريعة) الذي يشبه تراموای (بغداد ـــ الكاظمية)، ثم زرت مسجد الحنانة وهو الموضع الذي وضع فيه جثمان علي،وبعده توجهت نحو أعراف كربي سعده، الذي يدل تمركزه واتجاهه بأنه لم يكن قنالاً موازياً للشط بل خندقاً حفر في زمن المنصور، وبعده عطفنا نحو الضاحية والتي قد توسعت كثيراً عما كانت عليه في سنة ١٩٠٨،وهي واقعه بين شريعة الفرات والمسجد، ثم انحرفت في مسيري إلى جهة الشمال الغربي حتى زاوية الخندق المحيط بمسجد السهلة ومقامي صعصعة وأخيه زيد وبئر قد حفر حديثاً، ثم عدت إلى أن وصلت إلى مرسى السفن، ولاحظت في طريقي خاناً معدّاً لزوار البهرة ـ الطائفة الداودية الإسماعيلية ـ من أهالي الهند، حتى وصلت نبي يونس.

فالكوفة تقع أمام الحيرة حيث يوجد لسان من الرمل الذي يقترب عمودياً إلى الفرات بين سهل مسقى من الجهة الشرقية وبطن من الجهة الغربيه، وهنا على حافة البادية كانت توجد مسلحة لحراسة جسر الزوارق المنصوب على الفرات، والذي كان يؤدي للجادة المنتهية إلى طيسفون، كما أنها اليوم تصل إلى بغداد،وقبل تأسيس الكوفة كانت الكوفة عاصمة اللخميين، محمية الفرس طيلة ثلاثة قرون، ومع ذلك لم تكن سوى ثغر من ثغور البادية (city-caravan) ومحل لتبادل البضائع بين عمال الإيرانيين ومأموريهم من جهة وكبار أصحاب الإبل – البدو – من الجهة الأخرى بصورة مستمرة، كما أنها كانت تجمع بين أهل المدن والقرى الآراميين الشديدي التنصر، وبين العشائر الصغيرة الأليفة من رعاة الغنم التي اعتادت على التردد هناك.

فالكوفة متقدمة نحو الشط أكثر من الحيرة،وكانت تسيطر على الجسر الذي كان ينبغي أن يظل منصوباً على الدوام لأجل العبور إلى الطريق التجاري الكبير الذي كان يربط أعالي آسيا بأقصى اليمن.

أما أسماء هذه البقعة قبل الإسلام فقد كانت على أساس تشبيك الجداول والأراضي الممسوحة منذ الأزمنة القديمة جداً. كما أن التسميات الإيرانية للتقسيمات الإدارية الساسانية، وكذلك الأسماء العربية لمحطات القوافل كانت تتخلل مراكز تجمع السكان الآراميين ومنازلهم، وإني قد وضعت جدولاً لتلك الأسماء في سنة ١٩١٠ وأذكر هناك فقط الخورنق الذي أخذت لأسّه عدة تصاوير (l. oc. cit. pl. xxxvii) والسدير الذي أعتقد بأنه الأخيضر ذاته، وصنّين الذي أكتشفتها سنة ١٩٠٨ (l. oc. cit. I. ٢٩) أنظر الخارطة رقم ٣. وكانت أراضي الكوفة (سواد الكوفة) عند الفتح الأسلامي تطابق لثلاثة مناطق (طسوج) ماليه ساسانية:

١- للمنطقتين الأولى والثانية من الأستان – الكورة أو الولاية رقم (١٢) المسمى بهقباذ الأسفل.

فالمنطقة الأولى هي السليحين وتشمل الخورنق والطيزناباد ونهر بورسوف والمنطقة الثانية هي فرات بادقلي.

٢- للمنطقة الأولى من الأستان رقم (١١) المسمى بهقباذ الأوسط وتشمل الجبة ونهر البداة وترينا الخريطة بأنها الأراضي الواقعة شرقي الكوفة بل وحتى أنها شرقي الفرات.

(١) هذا البحث مكون من قسمين الأول يتعلق بالرحالة والثاني بالمستشرقين وبين يدي القارى الكريم القسم الأول منه.

وأصبحت الكوفة في القرن الرابع الهجري حاضرة لأحدى الكور – الولايات – العراقية الست تتبعها الأعمال التالية: بابل وعين التمر – المنطقة ١ – و ٢ و ٥ – ٦ في الأستان رقم (١٠) –سورا والنيل –المنطقتان رقم ٢ و ٤ من الأستان رقم (١١).

وفي العهد العثماني نزلت درجتها ناحية بسيطة من قضاء النجف التابع لسنجغ كربلاء، وظلت كذلك في الإدارة العراقية الحالية، غير أن سنجغ كربلاء صار يدعى لواء كربلاء[١].

١١- فرايا ستارك

في سنة ١٩٣٧ زارت النجف الكاتبة الانكليزية القديرة والموظفة في الاستخبارات البريطانية المس (فرايا ستارك) وبقيت فيها أسبوعاً ضيفاً على القائممقام الذي أنزلها في جناح الضيافة الموجودة في نادي الموظفين قد كتبت فصلاً خاصاً عن النجف ضمنته ملاحظاتها عنها في كتابها الموسوم (صور بغدادية)[٢].

وتبدأ ملاحظاتها بما شاهدته عن الكوفة، فهي تستهل الفصل بوصف جلسة مسائية على شاطىء الفرات، مع رئيس البلدية وسبعة من (الأفندية)، وكان ذلك في أوائل ربيع الأول بعد أن انتهى صفر، الشهر الثاني من شهري الحزن المعتادين في كل سنة[٣].

ولذلك تقول أنها شاهدت وهي جالسة من بعيد شعلات من النار طافية في النهر، وقد كانت تنساب منحدرة مع تياره حتى تختفي،وترمى هذه في النهر في نهاية موسم العزاء (نهاية شهر صفر) لتأخذ معها أحزان السنة وتفرج الكربة عن الناس، وهذه على ما تقول عادة قديمة ترجع بقدمها إلى تاريخ هذه البلاد العريق القدم،ثم تشير بالمناسبة إلى أن (الأفندية) الذين شاهدوا معها النار الطافية لمحو هلال الشهر الجديد (هلال ربيع الأول) واخذ كل منهم يتمنى الخير والموفقية لصاحبه، من دون أن يشعروا بان ما فعلوه يعتبر من قبيل عبادة القمر أو التبرك به، وليس من المستغرب أن يحصل مثل هذا فتبقى هذه الوثنية في بلاد لا تبعد كثيراً عن قبر (الكفل) و(برج بابل) اللذين يدلان على ذلك العالم الغابر،

ولكن المرء حينما يعبر جسر الكوفة المستند على الزوارق ينتقل من العالم البابلي إلى عالم الإسلام على حد تعبيرها.

وهي ترى أن الحيرة توجد مدفونة تحت الرمال ما بين النجف والكوفة، وان التلال الرملية المحيطة بالكوفة تحوي في باطنها خرائب كوفة العرب الفاتحين الأولى.

(١) خطط الكوفة ورسم خريطتها ص١٦

(٢) موسوعة العتبات المقدسة ج٦ النجف القسم الأول ص ٣٢١

(٣) يعني أيام عاشوراء في شهري محرم وصفر وهما يكرسان للعزاء الحسيني المتعلق بقتل الحسين عليه السلام في كربلاء سنة ٦١ للهجرة

وبعد أن تشير (فرايا ستارك) إلى جامع الكوفة الكبير وغيره من معالم البلد تقول:

أن قصر الإمارة هدمه عبد الملك بن مروان الأموي، لأنه كان جالساً فيه ذات يوم سمع عجوزاً من الأعراب يقول (ستكون الخامس)، وحينما سأل عمّا كان يقوله هذا أجابه يقول (عندما جئت لأول مرة إلى الكوفة رأيت رأس الحسين عليه السلام بين يدي قاتله عبيد الله هنا، فذهبت وعدت ثانية إليها بعد مدة فشاهدت رأس عبيد الله في نفس المكان بين يدي المختار بن يوسف الذي قتله، وبعد أن خرجت منها وعدت مرة أخرى ألفيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير، ثم ذهبت فعدت هذه المرة، وها أنا أرى الآن بين يديك رأس مصعب، ولذلك خرج عبد الملك من الكوفة وأمر بهدم قصر الإمارة الذي تشاهد خرائبه الآن بجنب دار الإمام عليه السلام[٤].

وقد كان الإمام علي هنا يعمل للخير ويتمسك بالأمور المثلى (على حد تعبيرها) فأفنى نفسه وهو مريض الفؤاد ما بين أهل الكوفة المتلونين

١٢- الليدي درور

هي رحالة تجولت في ربوع العراق من الشمال إلى الجنوب ودونت رحلتها هذه في كتاب عنوانه على ضفاف دجلة والفرات دخلت إلى الكوفة وتجولت في مناطقها وقالت عنها:

أسست الكوفة أيام نهضة الإسلام، ولكن أهلها قديماً دأبوا على التقلّب، فكانوا مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك... فسرعان ما كانوا يمالئون هذا، وسرعان ما ينقضّون عليه ! ومن يقدم كربلاء أو النجف لزيارة عتباتها المقدسة لا بد وأن يعرّج على الكوفة ويزور المسجد الكبير الذي أستشهد فيه الأمام علي

أن أهل الكوفة هم الذين أغروا (الحسين بن علي) على التوجه مع أفراد أسرته عبر الصحراء والى مدينتهم، لكنهم سرعان ما أشفقوا على أرواحهم فخذلوه ولم يلبوا طلبه في الوقوف موقف المؤيد لقضيته.

(٤) أصل الخبر: أن عبد الملك بعد قتل مصعب بن الزبير دعى أهل العراق إلى البيعة وبايعوه، ثم جاء عبد الملك حتى دخل الكوفة وجلس في قصر الإمارة وبين يديه رأس مصعب، وعن مسلم النخعي قال: كنت جالساً فرأى عبد الملك مني اضطراباً فسألني فقلت: يا أمير المؤمنين دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بين يدي ابن زياد في هذا الموضع، ثم دخلت بعد ذلك فرأيت رأس ابن زياد بيدي يدي المختار ثم دخلت فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ودخلت وهذا رأس مصعب بين يديك فوقاك الله يا أمير المؤمنين، فأمر عبد الملك بهدم الطاق وتخريب القصر (ينظر: مجمع الزوائد الهيثمي ج ٩ ص ١٩٦، المعجم الكبير الطبراني ج ٣ ص،١٢٥، نظم درر السمطين الزرندي الحنفي ص ٢١٩، ابن كثير في البداية والنهاية ٨ ص ٣٢٢)

وذكّرهم الحسين بالبيعة التي أخذوها على أنفسهم واليمين التي أقسموها على نصرته، وكان أن حزّ رأس الحسين وأهل الكوفة ينظرون!

وفي الكوفة خذل (زيد) حفيد الحسين أيضاً، أغراه أهلها سراً على الثورة في وجه الخليفة الأموي، وأخذوا عهداً على أنفسهم بأن يكفّروا عن سيئات آبائهم الأقدمين ويزيلوا الوصمة التي ألحقوها بمدينتهم بخذلان جده. وأراد زيداً ورفعت راياته في الكوفة قبل هجوم جيوش الخليفة عليها، ولم يقف في صفه من أهلها سوى ٢٠٠ وسرعان ما تفرق هؤلاء أيضاً فرقاً. وغلق باب المسجد على زيد أشد الناس تظاهراً في نصرته، وخاطبهم زيد عساهم يتذكروا عهدهم ويخجلوا من نقضه،وذهبت الصيحة بلا صدى، وقتل زيد مع من بقي على نصرته منهم، وهم جد قليل، أما الكثرة الكاثرة منهم فبقوا متخفين يخشون إسداء المعونة له أو نجدته.

والكوفة اليوم، على الرغم من نباهة شأنها في تأريخ الإسلام، قصبة صغيرة وهي ترتبط بالنجف بخط ترامواي طوله ٧ أميال وتجرّه الخيول عبر الصحراء، وتتراءى القصبة على شيء من التفه بسبب قربها من مدينة النجف العظمى.

زرت الكوفة مرتين، مرة من الحلة، ومرة أخرى من النجف، ولم تراودني نفسي على زيارتها مرة ثالثة، ويخترق طريق النجف ــ الكوفة صحراء مسطحة نظيفة تزينها أحيانا حدائق زهيرات برية زرقاء، وتتراءى من بعيد قبة النجف الذهبية وهي تتلألأ وتتألق فتسر الناظرين.

وقد يعبر المسافر بين الفينة والفينة جدولاً من تلك الجداول المندرسة، وتروى بصدد أحدى هذه الجداول أسطورة عربية قديمة:

قالوا أن فتاة وضيئة كانت تسكن عمان، وخطبها الكثيرون ولكنها فضلت من بينهم رجلاً بصرياً، ولكنها غالت في صداقها ولم ترض به بعلاً إلاّ بشرط هو أن يقوم بحفر جدول تستطيع أن تنقل بواسطته في قارب يحملها من عمان إلى البصرة. وشمّر خطيبها عن ساعد الجد، وأستغرق حفر الجدول ٨٠ سنة وعندما جاء الخطيب بخطيبته اثر ذلك إلى بيت الزوجية كانت الفتاة الوضيئة قد بلغت من الكبر عتياً، وخلّفت (زهرة العمر) ظهرياً: والظاهر أن مغزى الأسطورة هذه يخالف مغازي أساطير الجان وما فيها من شرط تشترطه الأميرة على خطيبها !

وجامع الكوفة الكبير على بعد أكثر من ميل من القصبة الحالية، إنه قائم في الصحراء، يحيط به جدار يجعله أشبه ما يكون بحصن، وفي الجدار أعمدة شبه دائرية، وهي فيه على مسافات، وفي داخل الجدار ساحة كبيرة وفي وسطها المزار المشبك حيث أستشهد علي، وقيّم المزار شيخ وديع يضع في أصبعه خاتماً بابلياً يزهو به كثيراً، ولم يكن ليغلب على هذا القيّم التعصب شأن غيره، فلقد سمح لي بأن أقف على الباب الرئيس لأصور منها ما أشاء !.

وسألته أهو قديم ؟ فأجاب، وعليه سيماء الجد:

أجل، أنه قديم قدم آدم[1]!

وفي الحق أن ما هو قديم فيه لا يعدو منارة الجامع، أما الجدران التي تحيط به وتتراءى وكأنها من مخلفات القرون الوسطى فلم تبن إلاّ حديثاً.

وهنا عين وحولها أسطورة: قيل أن مياه الطوفان التي غمرت الدنيا كلها في عهد نوح تدفقت من هذا العين بالذات وبأمر من الله وليهلك الناس جميعاً..

وعلى مقربة من الجامع الكبير، وفي الصحراء أيضاً يقوم بيت ينسب إلى الخليفة القتيل وقبران ينسبان إلى مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، وهما ممن يجلّهم الشيعة، والظاهر أن الجامع كان على النهر بدّل مجراه فأخذ أهل الكوفة يبنون بيوتهم أمام الجامع وتقدمت القصبة.

والكوفة ميناء نهري تقع على نهر الفرات السلسال وتكتنفها خمائل النخل العامرة والبساتين المتضوعة، ولها جسر جيد البناء، وتجري أمام المدينة سفائن كسفن الفايكنغ والقوارب النهرية، والمراكب وهي تحمل البضائع من كل نوع والمدينة مفتوحة وتلعب الرياح في جوانبها ، وكان لها سوق جميل قبل ثورة ١٩٢٠ وقصف فبنوا سوقاً جديداً محله.. أنه سوق بارد يتخلله الهواء ويتألف من دكاكين متينة البناء، وبين الحلة والكوفة أجهز الثوار على وحدة الـ (مانجسترز) وأفنوا أفرادها عن بكرة أبيهم ومازالت جثث القتلى ورمم الخيول ومخلفات المعركة باقية شاهدة على ذلك.

وشربت الشاي مع (المدير) في منظرته المطلة على النهر، ولعله حاذر من أن يضيفني وأنا امرأة وحيدة داخل الدار لئلا يثير القيل والقال، ولعلي مخطئة في هذا الظن أيضا.

---

(١) يستند هذا الشيخ الذي رأته درور إلى نصوص في كلمات أئمة الشيعة في شان هذا الأمر منها:

عن زيد بن علي عن أبيه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: أول بقعة عبد الله عليها ظهر الكوفة لما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا على ظهر الكوفة وانه ليحشر من هذا الظهر سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب (فضل الكوفة وفضل أهلها ص٤٥).

قال النبي ﷺ لما أسري بي مررت بموضع مسجد الكوفة وأنا على البراق ومعي جبرائيل فقال: يا محمد هذه كوفان وهذا مسجدها، انزل فصل في هذا المكان. قال: فنزل فصليت، فقلت: يا جبرائيل أي شيء هذا الموضع ؟ قال: يا محمد هذه كوفان وهذا مسجدها، أما إني فقد رأيتها عشرين مرة خراباً وعشرين مرة عمراناً ما بين كل مرتين خمسمائة عام (من لا يحضره الفقيه ٢٣١/١)

ولعلها كانت تعني بقدم البناء والشيخ يقصد المكان والتأسيس.

وتبدو على وجه (المدير) الشاب أمارات الحزن وهو لا يعرف عن العالم الخارجي إلاّ لماما، أنه قريب للقائمقام ورجل عرف بنزعته العدائية للانكليز سبق أن أنزل العلم البريطاني أبان الثورة وداس عليه بقدميه ولقد نحّوه أخيراً عن منصبه لا بسبب هذه النزعة ولكن لعدم كفائته بوجه عام[1]!.

١٣- رحلة مصطفى الشهابي للكوفة

هو مصطفى بن محمد سعيد بن جهجاه الشهابي (١٣١١ - ١٣٨٨ هـ/ ١٨٩٣ - ١٩٦٨ م)، الأمير: أديب لغوي، عالم بالمصطلحات الزراعية، من أمراء الأسرة الشهابية. ترأس المجمع العلمي العربي في دمشق نحو ٩ سنوات. ولد في حاصبيا (وكانت تابعة لسورية) وبدأ دراسته فيها ثم في بعلبك ودمشق، حيث كان أبوه يتنقل. وسافر مع أخيه عارف إلى الأستانة (١٩٠٧) فأقام سنتين في مدرسة فرنسية، وعاد إلى دمشق، فمكث سنة في الثانوية السلطانية (مكتب عنبر) وتبرع بعض الأثرياء بإرساله إلى فرنسة فدخل مدرسة غرينيون Grignon الزراعية، وحصل منها على شهادة مهندس زراعي (١٩١٤) ودخلت الحرب، فكان من ضباط الاحتياط في الجيش العثماني، وعين (١٩١٦) قائداً لسريتين زراعيتين في مرج ابن عامر فبيسان فمجدل طبرية. وبعد الحرب تنقل في خدمات زراعية واقتصادية. ثم كان في العهد الفرنسي | وزيراً للمعارف (١٩٣٦) فمحافظاً لحلب (٣٧ - ٣٩) فوزيراً للمالية، فمحافظاً للاذقية (١٩٤٣) في العهد الوطني، فمحافظاً لحلب (٤٦) فوزيراً للعدل (٤٩) فوزيراً مفوضاً في مصر (٥١ - ٥٤) وكان من أعضاء المجامع العلمية العربية الثلاثة، في دمشق، والقاهرة، وبغداد. وانتخب رئيساً للمجمع في دمشق (١٩٥٩) إلى آخر حياته. أبرز أعماله العلمية ما وضعه من المصطلحات الزراعية والنباتية، وله فيها (معجم الألفاظ الزراعية - ط) و (المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث - ط) ومن كتبه المطبوعة أيضاً (الأشجار والأنجم المثمرة) و (الزراعة العلمية الحديثة) و (البقول) و (معجم الألفاظ الزراعية) و (أخطاء شائعة في ألفاظ العلوم الزراعية) و (الشذرات) و (الاستعمار) جزآن، و (القومية العربية) جزآن. توفي ودفن بدمشق. ولعدنان الخطيب، كتاب (الأمير مصطفى الشهابي - ط) في سيرته. قلت: وسمعته مرة يدعو بأن يموت قبل انتهاء طبع الأعلام[2]!

(١) على ضفاف الفرات - الرحالة الليدي درور، ترجمة فؤاد جميل - نشر دار الوراق ص١٨- ٨٤

(٢) الأعلام ج ٧ ص ٢٤٥، مجلة المجمع العلمي العربي ٢٠: ١٩٠، الأعلام الشرقية ٣: ٨١

قام الأمير مصطفى الشهابي برحلة إلى العراق في خريف سنة ١٩٤٠ ومرّ بالكوفة ووصف جامعها بما يلي:

... أما مسجد الكوفة فلم يبق منه إلاّ صحنه العظيم تحيط به جدرانه الشاهقة وأمامها أروقة بسيطة حديثة، وفي أحد الأروقة عند المحراب قاشاني حديث يستوقف النظر، وهذا المكان هو الذي طعن فيه الأمام علي بيد ابن ملجم، وفي أحد جوانب المسجد أقيم مصلى جديد صغير رأينا الناس يتبركون به ويصلون،ولا شك أن مسجد الكوفة على سعة صحنه وبساطة ما تبقى فيه مثير في نفس المسلم ذكريات تأريخية مشجية، وعندما يبلغ الزائر هذا المسجد قبيل الغروب وهي الساعة التي بلغناه فيها ويدخل صحنه العظيم الذي كان يتسع لألاف المصلين يشعر بخشوع زائد أمام روعة هذه البقعة المقدسة،ولاسيما إذا كان ملماً بتأريخ صدر الإسلام[3]

١٤- السيد محسن الأمين[4]

كانت للسيد محسن الأمين رحلات عديدة في البلدان الشيعية منها ما كان في العراق، قال في رحلاته المطبوعة:

وبعد انقضاء شهر رمضان المبارك ذهبنا لزيارة مسجد الكوفة ومسجد السهلة والصلاة فيهما، وفي سائر المساجد التي بالكوفة، وزيارة ضريح مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وغيرهما.

والمسافة بين النجف ومسجد الكوفة نحو فرسخ، كانت تقطع في السابق على الدواب والأقدام، ثم صارت تقطع اليوم في عربات تجرها الخيل على خط من الحديد لشركة بغدادية نجفية.

وبين النجف والكوفة قبر عليه قبة منسوب إلى كميل بن زياد النخعي صاحب أمير المؤمنين عليه السلام. يقال أنه أستخرجه السيد مهدي القزويني ببعض الأمارات، وقبر آخر عليه قبة

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ج٣ص٣٥١ سنة ١٣٧٤هجرية - ١٩٥٤ص٣٥١

(٤) هو السيد محسن ابن السيد عبد الكريم العاملي ينتهي نسبه الى الحسين «ذي الدمعة بن زيد الشهيد. نزيل دمشق الشام، ولد بقرية شقرا في حدود سنة ١٢٨٢هـ هاجر إلى النجف الاشرف فبقي هناك خمس سنين ثم خرج منها في أواخر جمادى الثانية من سنة ١٣١٩ هـ قرأ في الفقه والأصول على يد: الشيخ محمد طه نجف. الشيخ ملا كاظم الخراساني، توفي في دمشق سنة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م. له عدد من التأليفات المهمة منها: أعيان الشيعة. الرحيق المختوم. ديوان شعره. الحصون المنيعة (رسالة في الرد على صاحب المنار). تحفة الأحباب في آداب الطعام والشراب. كشف الارتياب. معادن الجواهر. المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية. لواعج الأشجان. مقتل الحسين ومراثيه. الدر الثمين. مفتاح الجنان. خطط جبل عامل (ينظر في ترجمته: الأعلام ج٦/ ١٧٤ ، أعيان الشيعة ج٤٠ ، الرحيق المختوم/ ٣٣٩، معجم شعراء الشيعة ج٢٦/ ٢٢٣).

وصندوق لإبراهيم من ولد الحسن عليه السلام. فدخلنا مسجد الكوفة المبارك من باب الفيل ولم يبق من أبوابه اليوم إلاّ باب الفيل من الجهة الشمالية وباب كندة من الجهة الشرقية، وهو من المساجد الشريفة المندوب إلى الصلاة فيها.

ويروون أن الأمام زين العابدين عليه السلام شدّ الرحال من المدينة المنورة إلى الكوفة للصلاة فيه، وهو مسجد الكوفة الجامع الذي لم يزل معموراً بعد خراب كوفة اليوم.

وكلما تهدم منه شيء بادر إلى إصلاحه أهل الخير من المؤمنين وهو متساوي الفناء يحيط به سور عال، وقد سقف قسم منه من الجهة الجنوبية عند المحراب والمنبر، وبني في باقي جوانبه حجر وأواوين يأوي إليها الزائرون والمعتكفون.

وله مئذنة عالية، في وسطه عمود من رخام، الظاهر أنه كان شاخصاً لمعرفة الزوال وأوقات الصلاة، وللعوام فيه خرافات كعادتهم في أمثال ذلك منها: إن من لم يقدر أن يحيطه بباعة بحيث تصل إحدى يديه إلى الأخرى فهو ليس لأبيه فالويل لمن كان باعه قصيراً، وهذا كما كان في بيت المقدس عمودان يزعم العوام أن من لم يستطع أن يخرج من بينهما فهو ليس لأبيه، فالويل لمن كانت جثته كبيرة وبطنه عظيمة، ثم وضع بينهما حديد لمنع ذلك.

وفيه مكان يقال أن منه فار التنور، وأن منزل نوح عليه السلام كان هناك، فجاء أحد العوام على حسب العادة يرشدنا إلى الأماكن التي فيها صلوات وأدعية مخصوصة، حسب ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وبعد الفراغ من ذلك جئنا الى محراب أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يصلي فيه والذي ضربه فيه شقيق عاقر الناقة عبد الرحمن بن ملجم، وصلينا فيه ودعونا الله تعالى.

ثم خرجنا من باب كندة لزيارة قبر مسلم بن عقيل، ومشهده ملاصق للمسجد في الجنوب الغربي، وأمامه فسحة واسعة يحيط بها سور متصل بسور المسجد.

ويقابله في هذه الفسحة من الجهة الشمالية قبر هاني بن عروة المستشهد في حب أهل البيت عليهم السلام وعليه قبة، وفي خارج المسجد من الجهة الشمالية قبة يقال أنه مشهد لبعض بنات الحسن عليه السلام.

ثم خرجنا من مسجد الكوفة وزرنا بيت أمير المؤمنين عليه السلام وتبركنا بآثاره الشريفة وهو في غربي المسجد.

ثم توجهنا إلى مسجد السهلة وبينهما نحو عشر دقائق، ومسجد السهلة في الشمال من مسجد الكوفة، وبينهما آثار خرائب الكوفة وأنقاضها.

وهناك مكان يقال أنه سوقاً للصاغة، ولا يزال يوجد فيه بعض قطع الذهب والفضة، فصلينا ودعونا الله تعالى على الصفة التي جاءت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وهنا كان ما دفعناه للقوّام رسماً مقطوعاً من طلب الزيادة، بخلاف ما كان في مسجد الكوفة فأن صاحبنا لم يستطع التخلص من الخدم إلاّ بجهد، وأضعاف ما دفعه في مسجد السهلة، وهؤلاء الخدم للمساجد والمشاهد إكرامهم من إكرام صاحب المشهد والمسجد.

ثم خرجنا من مسجد السهلة وصلينا في مسجدين منسوبين لصعصة وزيد إبني صوحان العبدي.

ومسجد الكوفة اليوم كمسجد السهلة في فضاء من الأرض ليس حوله عمران.

وبلدة الكوفة اليوم قائمة بجنب الشط فيها دور جيدة وعمارات على الشط ومتنزهات ومتاجر وحمامات، وكانت السفن الكبيرة تأتي إليها من البصرة بأنواع التجارات ولكن بعد مد الخط الحديدي من البصرة إلى بغداد إلى كربلاء ضعفت تجارتها.

وفيها جسر يعبر عليه الناس من الشرق إلى الغرب وبالعكس، وفيها كثير من البساتين للنخيل وغيره من المزارع - وهواؤها جيد جداً وتربتها نامية يخصب فيها الزرع.

مصرها في الإسلام سعد بن أبي وقاص الصحابي بعد فتح العراق، وكانت قبل مصيفاً لجند كسرى لطيب هوائها ولذلك كانت تسمى كوفة الجند ، قال الشاعر:

إن التي ضربت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول

وفيها مشهد للنبي يونس عليه السلام، وفيها مسجد الحمراء وهو من المساجد المباركة المرغوب في الصلاة فيها،وبعدما توطنها أمير المؤمنين علي عليه السلام كثرت فيها شيعته، واستمروا في كثرة حتى صارت من أشهر بلاد الشيعة.

وكان فيها من رواة حديث أئمة أهل البيت وعلمائهم على تطاول الأزمان عدد لا يحصى.

وسكنها بعد الفتح الإسلامي كثير من الصحابة والتابعين والعلماء في سائر الفنون،

ونحاة الكوفة كنحاة البصرة مشهورون، وبلغت الغاية في العمران: وهي أحد العراقيين: (البصرة والكوفة).

ولما ظهرت الدولة العباسية ظهر أول خليفة منها في الكوفة، ثم سكن المنصور الهاشمية بقرب الكوفة ثم تركها إرادة للبعد عن أهل الكوفة المعروفين بالميل إلى آل أبي طالب، وبنى بغداد وسكنها الناس فتراجع أمر الكوفة شيئاً فشيئاً إلى أن خرجت بعد مدة طويلة من كثرة الحروب والفتن، وانتقل أهلها إلى بغداد وغيرها من البلدان.

وفي سنة ورودنا إلى العراق لطلب العلم وهي سنة ١٣٠٨هـ لم يكن فيها بناء، وإنما كان فيها عدة أكواخ من القصب وسوق صغير ثم عمرت تدريجياً حتى صار فيها اليوم

القصور والمتاجر والمتنزهات على جانب الشط وهي متنزه أهل النجف فيها الحدائق والبساتين.

مسجد ملا[1] ظفيرة:

بنت الملا يوسف خازن الحضرة الشريفة العلوية قبل آل الرفيعي، وهو من ذرية ملا عبد الله صاحب الحاشية في المنطق.

وكانت داره في محل المدرسة التي في المشراق بجانب دار آل الطباطبائي، وابنته ملا ظفيرة هذه بنت مسجداً في الكوفة أيام كنا نطلب العلم في النجف[2]، عرف بأسمها وكان في آخر العمران، أما اليوم فأصبح في وسط العمران.

نهر سعد:

وبين النجف والكوفة موضع نهر يسميه العامة كري سعدي، وإنما هو نهر أشتقه لها سعد بن أبي وقاص، والكري في لسان أهل العراق شق النهر وإخراج التراب والرمل منه، وهم ينطقونه بالجيم الفارسية. أما اليوم فالنهر الذي فيها ينشق من نهر الهندية وفي أرضها مزارع يسمى (التاجية)

فيه بساتين النخل والفواكه والخضر والمزارع المتنوعة، وهي منسوبة إلى من أسمه تاج الدين وقريب منها: الحيرة: منازل ملوك الحيرة من المناذرة وغيرهم،وكانوا ملوك العرب من قبل الأكاسرة.

وفيها آثار قصر الخورنق باقية فيه الى اليوم، ومن قصورها السدير.

ويقال إنه إسم نهر، وله وللخورنق شهرة في التاريخ وذكر في الأشعار، وفيهما يقول الشاعر:

فإذا أنتشيت فإنني ... رب الخورنق والسديرِ

وإذا صحوت فإنني ... رب الشويهة والبعيرِ

وتسمى الحيرة اليوم (الجعارة) وهي بقرب النجف.

وبعدما فرغنا من زيارة المشاهد والمساجد المباركة، عدنا إلى النجف الأشرف وبقينا فيها من ١٣ شهر رمضان إلى أوائل ذي القعدة الحرام سنة ١٣٥٢[3].

١٥- السيد حسن الأمين:

تابع السيد حسن الأمين سيرة والدة في التجوال في البلدان الشيعية وحقق في ذلك أهم هدفين في حياته وهما إكمال كتاب والده أعيان الشيعة وانجاز دائرة المعارف الإسلامية الشيعية فحقق بذلك حلماً كبيراً يراود الكثير من مؤرخي الامامية، قال في رحلته من بلد إلى بلد:

تركنا بابل وراءنا وانحدرنا من التلال نمشي على الأقدام إلى ظلال نخيل يحيط بها حتى أدركنا قرية (كويرش) فسرنا في أزقتها وأبصرنا القرويين متجمهرين، ثم خرجنا من القرية وسرنا بين النخيل مرافقين لجموع القرويين الذاهبين لتمضية العيد في عمران وكان الشط يلمع من بين النخيل إلى يميننا، ثم أنقضى النخيل واستقبلتنا الشمس بحرّها اللاذع حتى وصلنا إلى سفح تلال طويلة صعدنا فيها فأنكشف أمامنا في رأس التل مقام (عمران) بقبتيه المكسوتين بالكاشي الأخضر ثم ظهرت الجماهير الحاشدة في الرحبات حول المقام ترقص رقصة (الدبكة) أو (الجوبي) كما يسمونها هناك، فاذكرنا هذا المنظر باحتشادات القرويين عندنا في مواسمهم في مقامات الأنبياء وتجمهرهم أيام الأعياد في أماكن خاصة يهزجون ويرقصون فكان المشهد واحداً هنا وهناك.

ثم انحدرنا من (عمران) قاصدين الشط فأبصرناه مزدحماً بالزوارق الكثيرة التي تقل جماعات القرويين، وقد رأينا أن نعود إلى الحلة نهراً فأخذنا زورقاً مشى يشق بنا عباب الماء وكانت الضفاف حوالينا خضراء زاهية وجماهير القرويين نساء ورجالا تملأ الطرق الظليلة هازجة شادية، وما لبثنا أن كان في الحلة بعد مسير ساعة ونصف الساعة على ظهر الماء.

وعند الأصيل تركنا الحلة في السيارة متجهين إلى الكوفة فكنا نبصر الناس محتشدين في طرق الحلة لاسيما في (باب المشهد) مجتمع البلد في الأعياد والمواسم وما أن خرجنا من الحلة حتى أخذنا في طريق جرداء قاحلة كان يلوح فيها من بعيد النخيل الأخضر ثم أبصرنا إلى يميننا قبة محاطة بالنخيل قيل لنا أنها مقام (النبي أيوب) وبعد سير بدا لنا سواد غطى

---

(١) أصله (مولى) وهو لقب يطلق على علماء الدين والوعاظ وخطباء المنبر الحسيني، ومع أنه لغة خاصة بالرجال ألا أنه صار يطلق على كل من يمارس الوعظ والخطابة رجل كان أو امرأة.

(٢) إن أرض الجامع الأصلية كانت مسناة وضفة لنهر الكوفة وشريعة لوقوف المراكب التجارية – وهي مليئة بالبردي والقصب، ثم دثرت بالتراب عام ١٢٧٧ هج (١٨٥٧ م) وشقت له الأسس، وشيد على نفقة (الملا ظفيرة) بنت الملا محمود بن الملا يوسف – أخت الملا شاكر بن الملا محمود – وقد بناه الاسطة رحيم العجمي والاسطة محمد المعمار، وتم الفراغ من بنائه عام ١٢٧٨، وكتب تاريخه على صخرة من المرمر لا تزال موجودة في المسجد:

ظفيرة أم عفاف سمت ... بنت الملا أجراً علت شانا

عقيلة المجد بنت مسجداً ... فاق لسفح الجسر كيوانا

شيد بأمر الرب مذ أرخوا: ... (على تقى قد تم بنيانا)

وفي عام ١٣٧٣ سعى المرحوم الحاج محمد حسين العطار والحاج ارزوقي محمد بيك، والسيد حيدر السيد مشكور بتهديمه وتشييده على طراز حديث أحسن، وجمعوا له التبرعات من أبناء البلد. وهو أقدم مسجد في الكوفة الحديثة، ويقع في شارع الإمام الحسين عليه السلام بمحلة السراي.(تاريخ الكوفة الحديث ج٢ ص ٣٦٦)

(٣) رحلات السيد محسن الأمين العاملي، محسن الأمين العاملي – الغدير للدراسات والنشر ط١ ١-٢ ص ١١٤.

وجه الأفق عرفنا فيه نخيل (الكفل) ثم بدت لنا منارته الشاهقة ولم نبصر من البلدة شيئاً لأنها كانت مغمورة بالنخيل، بل أبصرنا مضارب شعرية منتشرة حولها ثم كنا بين النخيل نسير في ظلاله. والكفل مقدسة عند اليهود يقصدونها في مواسم خاصة ويحتشدون فيها من كل صوب.

وبعد حين أطل نخيل منتشر في عرض السهل هو نخيل قرية (العباسية) ثم رأينا قرية العباسية إلى يميننا، ووصلنا الفرات فعبرنا الجسر الحديدي الجديد المسمى (الجسر العباسي) وكنا نرى النخيل يلوح أمامنا على مسافات شاسعة كما كنا نبصر في طريقنا بعض القرى المبنية بالطين أو القصب.

وبعد أمد دخلنا في قلب النخل المتكاثف وسرنا في أفيائه الوارفة فإذا بعمارات (الكوفة) تطلع لنا فجأة من وراء النخل وتطل من خلف الظلال، فأي رهبة تعترينا الآن ونحن نطأ الثرى الذي طالما وطأه أبو الحسن ونتطلع إلى الأفق الذي طالما تطلع إليه، فها هنا كان علي يعسكر، وها هنا كان يخطب، وها هنا كان يعلم ويهذب. وها هي قلوبنا تخفق روعة ورؤوسنا تنحني أجلالاً أن كنا في بلده ومقر أمرته.

أيتها الكوفة: مهما قيل فيك فأنك حبيبة إلى القلب عزيزة على النفس[١].

ولئن كنت بلد شبث بن ربعي وشمر بن ذي الجوشن، وعمرو بن الحجاج، فبحسبك أنك عاصمة علي وبلد الأشتر النخعي وحجر بن عدي الكندي وحبيب بن مظاهر الأسدي وسليمان بن صرد الخزاعي وأخدانهم من كل أبي أنوف وكمي شريف.

وصلنا إلى الفرات، وعبرت السيارة عليه جسراً وصلت بعده إلى الجانب الآخر من الكوفة ثم انعطفت إلى اليمين في جادة معبدة مزدحمة بالناس ثم مالت إلى اليسار في سوق مسقف مظلم خرجت منه إلى جادة عريضة رأينا فيها إلى يميننا مدرسة الكوفة الابتدائية، وأبصرنا مظاهر العيد من أراجيح منصوبة وناس محتشدين ثم كنا أمام مسجد الكوفة الجامع، ويقوم على بابه مقهى وبضعة دكاكين وتقع المنارة فوق الباب.

وصلنا المسجد الخالد فإذا هو ساحة رحبة تقوم في فناءها عدة محاريب تنسب إلى بعض الأنبياء ويحوط الساحة سور ضخم وتقع في وسطها فجوة محاطة بجدران أربعة وفيها غرفة وأشكال أواوين. وعلى طول جدران المسجد أواوين وغرف يأوي إليها الزائرون والمعتكفون وفي صدر الجدار القبلي يقع محراب المسجد الذي ضرب فيه الأمام وهو مزخرف بالكاشي وفي وسطه مشبك نحاسي، ويوحي المحراب إلى النفس الروعة حينما يذكر الزائر أن فيه كان يقف علي يناجي ربّه ثم ينثني فيلقي خطبه الرائعات وحينما يذكر أن فيه هوى الأمام مضرجاً بدمه.

(١) للسيد حسن الأمين قصيدة يصف الكوفة، انظر: بداية هذا العدد.

ويقع في الجهة الشرقية من المسجد قبرا مسلم بن عقيل وهاني بن عروة اللذين قال فيهما الشاعر:

لئن كنت لا تدرين ما الموت فانظري
لى هانئ في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشّم السيف وجهه
وآخر يهوي في طمار قتيل

وقبر مسلم بن عقيل في الطرف الشمالي ويقع في الزاوية الجنوبية قبر المختار الثقفي.

وقصدنا إلى قبر مسلم فدخلنا من باب أوصلنا إلى باب آخر رأينا بعده القبر محاطاً بقفص فضي تحت قبة وجدر مزينة بعض التزيين، وأبصرنا هناك بعض المصلين والزائرين ثم انتقلنا إلى قبر المختار وهو داخل حجرة بلا قفص. ومن هناك عدنا إلى قبر هانئ فدخلنا إلى حجرة أوصلتنا إلى باب آخر ظهر بعده القبر يحوطه قفص نحاسي تحت قبة أقل زخرفة من قبة مسلم.

ثم خرجنا من المسجد تعتادنا شتى الأحاسيس متطلعين إلى الماضي البعيد وما كان لهذا المسجد من شأن وما وقع من أحداث أي أحداث.

ومن المسجد سرنا إلى قصر الأمارة المكتشفة آثاره حديثاً وهي عبارة عن جدر مهدمة وبقايا غرف وردهات، وأبصرنا قريباً منه داراً تنسب إلى علي بن أبي طالب.

ثم مضينا نجول في الكوفة فإذا حاضرها لا يتفق في شيء مع ماضيها، فهي اليوم قرية بسيطة ولكنها جميلة المنظر طيبة الهواء.

ثم خرجنا من الكوفة نسير في أرض صحراوية وكنا نبصر عن اليمين واليسار بعض المقامات والمساجد كمسجد السهلة ومقام الشهيد ميثم التمار حتى بدت لنا قبة النجف المذهبة ومنائرها الشاهقة تلمع في الجو وتتلألأ في الأفق[٢].

المصادر:

١- تاريخ الكوفة الحديث، كامل سلمان الجبوري ط١/ ١٩٧٤ - مطبعة الغري الحديثة - النجف.

٢- خطط الكوفة ورسم خريطتها، تأليف المسيو لويس ما سينيون، ترجمة: تقي محمد المصعبي، تحقيق: د. كامل سلمان الجبوري ط ١ ١٣٩٩/ ١٩٧٩م مطبعة الغري الحديثة - النجف الاشرف.

٣- رحلات السيد محسن الأمين العاملي، الغدير للدراسات والنشر ط١ ١-٢.

٤- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، من أعلام القرن ٨، طبع منشورات دار بيروت، بيروت ١٤٠٥ هـ

(٢) من بلد إلى بلد ص٨٨ وقد أعاد طبعه في كتابه حل وترحال.

٥- رحلة ابن جبير الأندلسي (تذكره الأخبار من اتفاقات الأسفار) دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت.
٦- رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، كارستن نيبور،١-٢ دار الانتشار العربي - بيروت لبنان.
٧- رحلة أوليفيه إلى العراق ترجمة د. يوسف حبي،بغداد ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨.
٨- رحلة الرابي بنيامين التطيلي وفيها وصف لأوضاع اليهود في مختلف البلدان ولفرق الدروز والحشاشين وغيرها، ترجمه عن العبرية ودراسة وتعليق وذيل عن فرق اليهود بقلم عزرا حداد، دار ومكتبة بيبليون جبيل - لبنان٢٠٠٨م.
٩- العتبات المقدسة في الكوفة: الطريحي: محمد سعيد، ص ١٧٤، ط٤ المجمع العلمي الفاطمي - أكاديمية الكوفة ٢٠١٠ هولندة.
١٠- على ضفاف الفرات - الرحالة الليدي درور، ترجمة فؤاد جميل - نشر دار الوراق.
١١- محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ج٣ص٣٥١ سنة ١٣٧٤هجرية -١٩٥٤.
١٢- الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية: الدكتور هشام جعيط، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ط٢ ١٩٩٣.
١٣- المستشرقون: نجيب العقيقي، نشر دار المعارف بمصر.
١٤- من تراثنا العلمي: عبد الحميد العلوجي ١٩٦٦.
١٥- موسوعة العتبات المقدسة، جعفر الخليلي ج٦، قسم النجف الاشرف/القسم الأول مؤسسة الاعلمي بيروت ط٢ ١٩٨٧م.
١٦- موسوعة الفرق الإسلامية تأليف الدكتور محمد جواد مشكور، تعريب علي هاشم، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت ط١ ١٩٩٥م.
١٧- loftus w k travels researches in chaldeae susiaua lo ndon ١٨٥٧
١٨- مجلة آفاق نجفية، النجف الاشرف، صاحبها ورئيس تحريرها الدكتور كامل سلمان الجبوري.
١٩- مجلة الكوفة، المجلد الخامس ع١، سنة ٢٠٠١م عدد خاص بمناسبة ألفية الكوفة.
٢٠- مجلة الموسم،أكاديمية الكوفة - هولنده، صاحبها ورئيس تحريرها الدكتور محمد سعيد الطريحي.

* * *

الكوفة
في الأدب النجفي المعاصر

الأستاذ الدكتور محمد حسن علي مجيد الحلي
الكلية الإسلامية الجامعة- النجف الأشرف

ليس من الممكن التحدث عن عموم تراث النجف الأدبي الذي ذكر الكوفة... لأن الوشائج بين الكوفة والنجف أوسع من أن تحشر في بحث أو توجز في بيان سريع. فالكوفة إحدى حواضر العرب الكبرى في عصور النهضة والنجف خليفتها ووارثة نهضتها ومجدها وهما كالبلاد الواحدة، والعلاقة بين أدباء النجف والكوفة متينة، سواء في العصر الحديث أو فيما سبق من العصور، وإنما سنكتفي من هذا وذاك بإشارات سريعة بما يناسب حجم هذا البحث. لأن الأدب النجفي المعاصر تناول الكوفة كثيراً جداً، وإنه كامن في كل مصادر الأدب النجفي ودواوين شعرائه المعاصرين، ومجاميعه الشعرية المطبوعة والمخطوطة، وإن جردها كلها، وإيراد كل ما يتناول الكوفة في كل مصادره فيها يؤلف أكبر بحث يمكن أن يقع في كتاب ضخم وعليه فإننا سوف نقتصر على المشهور والطرف والمهم منه....

فمن تلك الوشائج المتينة بين أدباء النجف والكوفة في العصر الحديث إن الشاعر الكوفي المرحوم (الشيخ علي البازي)، ابن الكوفة وشيخ أول التاريخ الشعري في العراق في زمانه والمتوفى سنة ١٩٧٣م، قرظ وأرخ أضخم موسوعة أدبية ضمن تراث النجف الشعري، وشعرائها لمؤلفها المرحوم (الشيخ علي الخاقاني) المتوفى سنة ١٩٧٥، والموسومة (شعراء الغري) التي وقعت في اثني عشر جزءاً. قد قرض الشيخ البازي وأرخ الجزء الأول من تلك الموسوعة، والذي صدر سنة ١٣٧٢هـ في مقطوعة شعرية طريفة طويلة، قال فيها:

إن (علي) القدر في سعيه ... بكل فضل ومديح حري
وافى بمجهود له قد سما ... شأواً على العيوق والمشتري
مفخرة الأجيال أضحى ألا ... يا أدباء العصر فيه فخري
أحيا لنا حاضر آثارنا ... ومن مضى من سالف الأعصر
وما انتقت بنات أفكارهم ... في سائر الأوزان والأبحر

في شعراء النجفيين قل: أرخت: (بل في أدباء الغري)[1]

ومن شعراء الكوفة القدماء الذين ذكروا النجف وتاقوا إلى بقعتها المباركة الشريفة: الشاعر العباسي (علي بن محمد العلوي الحماني الكوفي).

الذي قال تشوقاً:

فيا أسفي على النجف المعرى ... وأودية منورة الأقاحي
وما بسط الخورنق من رياض ... مفجرة بأفنية فساح
وواأسفاً على القناص تغدو ... خرائطها على مجرى الاشاح[2]

وهذا شاعر آخر يصف النجف وظباءها وأوانسها بهذه الأبيات الطريفة التي تداخل فيها الحنين ووصف الطبيعة بالغزل والتشوق، حين يقول:

وبالنجف الجاري إذا زرت أهله ... مهاً، مهملات ما عليهن سائسُ
خرجن بحب اللهو في غير ريب ... عفائف، باغي اللهو منهن آيسُ
يردن إذا ما الشمس لم يخش حرها ... ظلال بساتين جناهن يابس
إذا الحر آذاهن لذن بفينة ... كما لاذ بالظل الظباء الكوانس
لهن إذا ما استعرضتهن عشية ... على ضفة النهر المليح مجالس
يفوح عليه المسك منه وإن تقف ... تحدث، وليست بينهن وساوس[3]

ويبدو هنا إن الشاعر يمد أرض النجف إلى الكوفة، ويعد الكوفة والنجف بلاداً واحداً، فها هو الشاعر يتحدث عن نهر النجف وبساتينها، ونحن نعرف إن النجف القديمة والحديثة ليست بذا نهر، إلا إذا امتدت إلى الكوفة وكونت بلدة واحدة.....

قال السهيلي في تفسير كلمة (النجف): «وبالفرع لعينان يقال لاحدهما الربى، وللأخرى النجف تسقيان عشرين ألف نخلة، وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنع سيل الماء إن يعلو الكوفة

(١) شعراء الغري-علي الخاقاني ج١/ص٢- المط الحيدرية-النجف- ص١/١٩٤٥، ج٦/١٩٥٤، ج٧/١٩٥٥.
(٢) شعراء الغري ج١/٨.
(٣) شعراء الغري ج١/٩.

ومنابرها»[1]، وكان ظهر الكوفة الذي هو النجف كما اصطلح على ذلك الجغرافيون يدعى (خد العذراء)، لأنه ينبت الشيح والقيصوم والشقائق والخزامى والاقحوان وغيرها من نبات الأرض والبر والصحراء، الذي هو أقرب إلى طبيعة أرض النجف ومناخها فشبهت به، ولكون النجف ذات تربة طيبة ومناخ حسن وهواء نقي اتخذها الملوك منذ أقدم العصور متنزهاً لهم ومصيفاً، فقد اتخذ منها الساسانيون ثم المناذرة ثم العباسيون محل استراحة لهم واستجمام فبنوا فيها القصور الشامخة الضخمة، منها قصر الخورنق والسدير المشهوران، ومنها قصر أبي الخصيب مرزوق بن ورقاء مولى المنصور، وكانوا يأتون إليه وقت الربيع وموقعه قرب السدير يشرف على النجف، وكان إلى جانبه ديارات للنصارى، وكان هناك قصر آخر، يعرف بـ (الأبيض)، يقال أنه أحد أبنية الخليفة هارون الرشيد، ويظهر أنه واسع المساحة يرتبط من جهة بالحيرة، ومن الجهة الأخرى بالكوفة، وقد قال فيه بعض شعراء الكوفة:

يا دار غيّر رسمها ... مرّ الشمال مع الجنوبِ
بين الخورنق والسدير ... فبطن قصر أبي الخصيبِ
فالدير فالنجف الأشم ... خيار أرباب الصليبِ[2]

قلنا: إن الكوفة والنجف كانتا تؤلفان بلداً واحداً، فمدرسة النجف في اللغة والنحو في العصور المتأخرة-إن صحّ افتراض وجود مدرسة نجفية في اللغة والنحو-هي مدرسة الكوفة القديمة المشهورة في اللغة والنحو العربي، التي إحدى مدرستي العلوم اللغوية التأسيسية في العراق، بل في النحو العربي كله، هما مدرستا الكوفة والبصرة المشهورتان.

والشخص الكوفي-في الوقت الحاضر-يقول (أنا نجفي) حينما يسأل في مكان آخر عن بلاد ينتسب إليه أو عن مدينته، ويفخر بهذا الانتساب ويكون معروفاً لدى الناس، لما للنجف من مكانة علمية ودينية وحضارية مرموقة، باعتبار الكوفة والنجف بلداً واحداً... لذلك كونت الكوفة الرئة التي تتنفس منها النجف وكونت الكوفة ومناظرها الطبيعية ونهر فراتها وشواطئها ورياضها ومياهها وزروعها وبساتينها جنة النجفيين وأماكن راحتهم، ومحطات سياحتهم، ففيها يتنزهون شهور السنة كلها، ويقضون فيها أسعد الأوقات وامتع الساعات بعدد أيام العمل وأيام الارهاق، وإليها تهفو نفوسهم كلما سنحت فرصة أو دعا للذهاب إليها داع منهم فيقيمون فيها ليالي وأياماً، وعلى شواطئ نهرها العريض يسرحون، ويمتعون النظر ويريحون الجسد، ويجددون فيها نشاط الفكر، ويأكلون ويشربون وعلى شاطئ نهرها كثيراً ما يفطرون في رمضان، وعلى شواطئه وفي مائها العذب المتسلسل الرقراق يقولون الشعراء ويتناظرون ويصفون ويطنبون، لذلك وجدنا في الأدب النجفي المعاصر ذكراً كثيراً للكوفة وأيامها، ووصفاً ممتعاً لنهرها وبساتينها ونواعيرها. حتى عرفت بعض قصائدهم باسم (المائيات) تلك التي ينظمونها على شط الكوفة وعند مياهها، تحتوي على ذكر الماء وألوانه ولذة العوم به، أو عندما يأخذ أحدهم على الآخر أن يعّين له قافية ووزناً وموضوعاً فيطلب منه أن ينظم حوله بيتاً من الشعر وهو تحت الماء ولا يخرج منه الأنظمة وينشده حال خروجه منه، فإذا تعسر عليه ذلك خسر الرهان، الذي هو في أغالب قدح شاي حار ممتع أو أكلة شهية، وقد وجدت كثيراً من هذا النوع في الأدب النجفي، وهو أقرب إلى المسابقات في الشعر والمساجلات في مياه الكوفة ومناظرها وأجوائها وبساتينها، وأيام أقامتهم فيها، والساعات الممتعة التي قضوها، لجماعات كثرة وعدد كبير من أدباء النجف، نذكر منهم على سبيل المثال الجماعة التي ضمت يوماً ما في الكوفة من شعراء النجف: الشيخ جواد الشبيبي، والشيخ هادي آل كاشف الغطاء، والسيد علي العلاق، والشيخ عبد الحسين الجواهري، والشيخ عبد الحسين الحلي، والسيد رضا الاصفهاني وغيرهم.... وكان هذا النوع من الأدب النجفي في الكوفة وأجوائها يمتاز من غيره بكثير من الظرف والفكاهة وحسن النظم وسلاسة التعبير ورقة الخيال وطرافة المعاني وجمال الصورة، وصدق الوجدان، ولم يكن هذا النوع من الأدب يختص بالشعر النجفي وحده، إنما بنثرها أيضاً، فقد وصف شعراء النجف في كتاباتهم ورسائلهم الكثير من طبيعة الكوفة من ماء وهواء وأنواء وأجواء، وطيور وأزهار وبساتين وفواكه، لاسيما بعد أن يمر زمن على جلساتهم فيها، وتنقضي أيام الانس فيها فيحنون إليها، وتبقى ذكرتها عالقة في نفوسهم واذهانهم حية ممتعة، فيهفون إليها ويتطلعون لأمثالها، فإن استطاعوا وحققوا فذلك غاية المنى وإن سارت فيهم عجلة الزمن وتفرقت جموعهم، وحالت بينهم الأيام والمشاغل دون ذلك، رجعوا إلى ذكرياتها، وحنوا إلى أيامها وتراسلوا شعراً أو نثراً حول لذيذ متعها، ومن ذلك-مثلا-ما جاء في إحدى رسائل الشيخ جواد الشبيبي (ت عام ١٩٤٤م) لصديقه الشيخ هادي آل كاشف الغطاء يذكر فيها ليلة من ليالي الأدب ومجالسه في الكوفة، ولسفرة نهرية قاموا بها في شط الكوفة قبل زمان عاموا فيها على وجه الشط بسفينة شراعية، جاء فيها قوله:

«وبعد: فهل بلغك إن ليلتنا بالجسر (ويقصد جسر الكوفة أو الكوفة نفسها كما كان يسميها النجفيون حينذاك)، أذكرتنا أيام الجزيرة الخضراء (ويقصد بها جزرة في وسط شط الكوفة كانوا يعبرون إليها أو يقيمون فيها) وجلوسنا تحت شعاع القمر،.. وفي صبيحتها حللنا زورقاً جرى من الفرات على مثل

(١) المصدر نفسه ١/ص٨.
(٢) المصدر نفسه ١/ص١٠.

لجة بذلك، وخفقت عليه ذؤابة شراع أوهمتنا أنها مقتطفة من فضل علمك، حتى أوصلتنا جدول الفرات إلى بحر لو قذف اللؤلؤ فيه وكان عذباً لخلته بحر حلمك المتلاطم...»[١]

هذا الوصف الوجداني يدل على تعلق نفوسهم بالكوفة وذكرياتها التي طبعت أيام الكوفة وطبيعتها ومياهها وفراتها وخضرتها ونخيلها في نفس هذا الأديب النجفي ولدى غيره من أدباء النجف، حتى كونت رافداً مهما من روافد التراث النجفي المعاصر...

ولكن الشيخ الشبيبي لم يسطر ذكرياته وخواطره نثراً فحسب، إنما ظل يلهج بها شعراً، ويذكر الكوفة وأيامها ومفاتن جمال الطبيعة فيها ن أشجار وكروم وخرير الجداول وأصوات النواعير وهدير الموج وهو جالس تحت ظلال النخيل وعثاكيل التمر المتهدلة،... ومن ذلك وصفه لمنظر بقي في ذهنه لواحدة من سفراته إلى الكوفة وإقامته فيها، حتى ضمنها في قصيدة طويلة، بعث بها إلى صديقه الشيخ عبد الحسين الحلي، الذي كان قد شاركه تلك الأيام الزاهية الخوالي ومباهجها، وإلى شلة الأنس التي كان عقدها منضوماً أيام ذاك، وكان الشيخ الشبيبي بعد قد سكن في بغداد.... قال في مطلعها:

ميلوا إلى الوصل يا أهل الوفا ميلوا
فالقطع منكم بدا والحبل موصولُ

وبعده بأبيات يعرج على الذكريات فيقول:

أهل الفرات أهل يرضى ضميركم الـ
ـعاني الرسوم به أن يقرن النيلُ
تحيّر الفكر هل كانت زوارقه
أجرى وأثبت من تلك الأساطير
وفي المنافي بيوت بين ساكنها
للركب حلّوا إلى التدريس أو ميلوا
في كل يوم لهم عيد وعادتهم
إن تنحر الخيل والكوم المراسيل

والوجوه التي ضمّها ذلك الجمع من الأحبة أيامئذ فيقول:

وللكروم وراء القصر مثمرة
عفص الجمود وللأعشاب ترحيل
والورق تهدل في الأغصان ساجعة
وللعناقيد في الأوراق تهديل
وفتية كسيوف الهند جوهرها
على المضامين قبل الطبع مجهول
لا تمسك المال أيديهم لجودهم
إلاّ كما تمسك الماء الغرابيل
إن فاكهوا فرزين الحلم تحملـه
إخلافهم، وهو باللذات مشغول
أصولهم شبتات إن دوحهم
له من المجد تفريع وتأصيل
غذاء روحي غذوا والنفس ليس لها
إلاّ الفكاهة مشروب ومأكول
مباني الجسر ناجيني على بعد
فالقلب عندك رهن الحب متبول
هل السواقي على عهدي مناهلها
فبعضها مغمد والبعض مسلول
وهل عرائش ذاك النخل مرسلة
على ترائبها تلك العثاكيل
أحبابنا بالحمى إن ضن وابله
عليكم فركام الدمع مبذول[٢]

لكن ضن الشيخ الشبيبي إلى الكوفة لا ينقطع، إذ هو تترى عليه الأنباء بأن الشلل التي عهدها ما تزال الكوفة وبساتينها وشواطئها وإن مجالس الأصحاب فيها عامرة بجلاسها، فيهيج به الحنين إليها والشوق إليها ولمرابعها مرة أخرى، فيكتب لهم متلهفاً عليهم، ويخبرهم إن سلوانهم وسلوان مجالسهم عاد من المستحيل عليه، وإن فراقه الاضطراري لهم هو فراق الروح للجسد، ثم يعاتبهم على نسيانهم له، وقد كان هو أُنس مجالسها وقطب رحاها ومركز دائرتها وزينة شبانها، لنسمعه في هذا الجزء من قصيدة أخرى يقول:

تناسيتم عهد الإخاء كأنما ... يسير حثيثاً في ممائكم الهجرُ
وجدتم سبيل الهجر سهلاً وإنه ... عليَّ إذا ما رمت أسلكه وعرُ
ولولاكم لم يملك الشعر مقودي ... وإني من يلقي له المقود الشعر[٣]

كما أنبرى الشيخ جواد الشبيبي في وصف مرابع الكوفة وجمال الفرات فيها في قصائد كثيرة، مما ينم عن تعلق شديد بتلك المغاني، وحنين كبير إلى أيامها وانسجام مع أخبارها، ولكن بأسلوب يغلب عليه طابع الجزالة، ومفردات البداوة ومعانيها وقوتها وألفاظها، يزجها في بعض قصائده عندما يعصف به الشوق وتأخذه الذكريات، وحين تهفو إليه نفسه، حين تقول في واحدة منها:

خذوا أثر المرتاد فالمربع النضرُ
بحيث الحيا الهتان سبله الجسرُ
وميلوا عن الحي الحلال فدونه
شفار المواضي والردينية السمرُ

(١) الشبيبي الكبير - حمود الحمادي - ص٢٠٨ مطبعة النعمان النجف ١٩٧٢.

(٢) الشبيبي الكبير/ص٣١٣، شعراء الغري ٣٨٤/١.

(٣) الشبيبي الكبير ٣١٥.

سقى الغيث ربعاً كنت نشر شميمه
ولا لف إلاّ عن عوارضك النشر
وغادي الندى نور الجزيرة مونقاً
يشبّ بقلبي جمرة اللاعج الذكر
وظلاً تفيأناه فليته
يعود علينا بالصفا ذلك العصر[1]

كما وصف الكوفة وأيامها ومجالسها والخيام التي يضربها النجفيون على شاطئ نهر الكوفة شعراء كثيرون، منها مثلاً وصف الشاعر الشيخ محسن الخضري لخيمة ضربها أحد وجهاء النجف على ساحل نهر الكوفة وهي طريفة يمكن مراجعتها في ديوانه[2].

وقد كان لوسائل النقل التي ينتقل بها النجفيون من النجف إلى الكوفة في ذهابهم وإيابهم نصيب من ذلك الوصف والشعر النجفي، وما في تلك الوسائل وفي التنقل من متعة، مما فيها من أعجاب ويصدرون عنها من خيال حين يشقون البر-في ذلك الوقت- بين المدينتين في السياحات الباكرة عند الذهاب، او في ساعات الغروب الساحرة عند الإياب، وهم يتابعون مناظر الطبيعة الفاتنة ومتغيراتها، والشمس ومسارها، والأرض ومرتفعاتها وانحداراتها وسهولها ووديانها وخضرائها وجردائها، هم على ظهور الدواب أو راجلين، أو يمتطون العربات التي كانت تدفع باليد، أو تجرها الحيوانات أو وصف عربة السكة الحديد....

فهذا الشيخ جواد الشبيبي يصف سكة الحديد أو ما كانت تسمى (عربة الترام)- أو الترامواي) التي كانت توصل بين النجف والكوفة والتي كانت الحكومة العثمانية قد أنشأتها بينهما سنة ١٩٠٧م، وهي شركة حكومية- أهلية أو ما تسمى اليوم بالشركات (المختلطة)[3]، وهي عربات تسير على السكة الحديد وتجرها الخيول، والتي بقيت تنقل الناس بين البلدتين حتى عام ١٩٤٥م الذي ألغيت فيه بعد دخول السيارات إلى العراق، والتي لم يكن في العراق كله واسطة نقل مثلها غير سكة الحديد التي كانت تسير بين بغداد والكاظمية، والتي أنشأها الوالي مدحت باشا عندما كان والياً على العراق بين سنتي ١٨٦٩-١٨٧٢م، وقد كانت الواسطة وسيلة متطورة للنقل في وقتها أوآخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حيث كانت وسائل النقل الأساسية حينذاك هي بواسطة الحيوانات من الحمير والبغال وبعض الدواب وبعربات اليد، حيث كانت السيارات لم تدخل بعد إلى العراق... لذلك وصف الشيخ الشبيبي بانبهار شديد حين ركبها أول مرة بين النجف إلى الكوفة، في قصيدة طريفة يغلب عليها طابع التورية والصورة والخيال ومما جاء فيها:

ما بين غاية مسراها ومبدئه
إلاّ بمقدار قول السائق اندفعي
تحملت وهي حبلى في ثمانية
صجاً فقيل لها قبل الغروب ضعي[4]

لأن السفر بين الكوفة والنجف في ذلك الوقت كان يستغرق نهاراً كاملاً أو تسع ساعات على الأقل بينما المسافة بين المدينتين لا تزيد عن ثمانية كيلو مترات تقطعها السيارة الآن في ربع ساعة، أما الوصول على الأقدام فكان يستغرق حوالي يوم ونصف يوم، لذلك جاءت هذه التورية في بيتي الشبيبي.....

وتمتلئ دواوين وشعراء النجف في عصر النهضة بشعر كثير في الكوفة وذكرها لأمجادها، وما فيها من تاريخ علمي وسياسي مجيد، وبما أنجبت من علماء وأدباء ومن كبار الشعراء، وليس من جديد القول إن نذكر إن (أبا الطيب المتنبي) أكبر شعراء العربية وشاعرها الخالد هو كوفي المولد والنشأة والهوى، فدواوين الجواهري وعلي الشرقي ومحمد رضا الشبيبي وأحمد الصافي تمتلئ بذكر الكوفة وأيامها، وللشعراء النجفيين الكثيرين الذين ترجم لهم المرحوم (علي الخاقاني) في سفره الشعري الضخم الموسوم (شعراء الغري) في أجزاءه الاثني عشر....

ولكننا هنا نكتفي برائعة من روائع الشعر النجفي في للشاعر النجفي الفذ الشيخ علي الشرقي (ت ١٩٦٤م)[5] الذي كثر ذكر الكوفة في ديوانه، ولا سيما في قصيدته بعنوان (صوت الكوفة) التي نظمها سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م بمناسبة المهرجان، والقصيدة فضلا عن أحيائها لذكرى شاعر من أكبر شعراء العربية، الذي انجبته الكوفة أيام زهوها العلمي وازدهارها الأدبي في القرن الرابع الهجري، وذكرت مواقفه الشجاعة وبطولاته، وفروسيته وحكمته الخالدة فإنها تتحدث أيضاً عن مجد الكوفة في هذه الرائعة النجفية، وعن منبر الكوفة العالي في العلم والأدب، وأيام تألقها الحضاري حين كانت البلدان تنهل من مواردها وترتشف من مناهلها وعلومها... حين يقول في قسم منها:

(١) الشبيبي الكبير ٣١١-٣١٢.

(٢) ديوان محسن الخضري (ت ١٨٨٤م) ص١٧٨. المطبعة العلمية-النجف ١٩٤٧.

(٣) مدينة النجف الكبرى- د.محسن عبد الصاحب المظفر/ص٣٢، دار الرشيد للنشر-بغداد ١٩٨٢.

(٤) أعيان الشيعة-السيد محسن الأمين ٢١٣/٧ دمشق ١٩٤٥.

(٥) ينظر: ترجمة الشيخ علي الشرقي وحياته وثقافته-في: (الشيخ علي الشرقي-حياته وأدبه) عبد الحسين مهدي عواد ص٢٦-٦٠ بغداد ١٩٨١.

لكوفة الجند وهي المنبر العالي ... صوت يردده تاريخنا الغالي
ترن في مبهمات النفس نغمته ... مثل المفاتيح قد رنت بأقفالِ
كأنه جرس الأرواح تقرعه ... بين التهاليل أجيال لأجيال
من الجزيرة في الآفاق مفتخر ... صوت يهيب بأحرار وأبطال
ضرب من المثل العليا يخلدها ... قول حكيم فصارت ضرب أمثال

إلى أن يقول:

منارة الأدب اللماع ما برحت
وضاءةً بشعاع منه جوال
رسالة المجد للشهبا ترتلها
هذي النوادي بتكريم وإجلال[1]

أما العلاقات بين أدباء النجف وأدباء الكوفة في العصر الحديث، فهي كثيرة والوشائج بينهم متداخلة متصلة، منها -مثلاً- هذه المناظرات والمحاورات والمنابزات الأدبية، والنكت والفكاهات التي قامت بين شعراء النجف وشعراء الكوفة، نذكر منها الواقعة الطريفة التي اشتبك فيها بعض شعراء النجف مع الشاعر الكوفي المرحوم الشيخ علي البازي (ت ١٩٧٠)، حين طلب هذا الأخير من السيد (حسن الجواد) قائممقام النجف في إحدى زياراته للكوفة وكان معه رهط من وجهاء النجف وشعرائها، طلب من القائممقام مشروعاً لماء الكوفة، ولكن الشاعر النجفي المرحوم الشيخ محمد علي اليعقوبي (ت ١٩٦٥) الذي كان في معية القائممقام أراد أن يداعب صديقه الشاعر الشيخ البازي، فطلب من القائمقام أن لا يلبي طلب البازي، ويغفل مشروع ماء الكوفة، فقال له شعراً:

لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً
ودع القوم يهلكون ظماءا
كيف تسقي (يا ابن الحسين) أناساً
منعوا جّدك الحسين الماءا

لكن الشعراء النجفيون الذين كانوا في معية القائممقام لم يكتفوا بتحريض زميلهم النجفي ضد الكوفة وأهلها، بل زادوا في الطين بلّة حين انبرى منهم الشاعر النجفي المرحوم السيد محمد الحبوبي مشطراً بيتي اليعقوبي السابقين مؤكداً في تشطيره للبيتين وجوب حرمان (أهل الكوفة) من الماء، والغرض هو زيادة في مداعبة زميلهم الكوفي وإغاظته ورغبة في إثارته، حين قال:

(لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً) ... خطباء جاؤوك أم شعراءا
طلبوا الماء بعدما فعلوها ... (ودع القوم يهلكون ظماءا)
(كيف تسقي يا ابن الجواد أناساً) ... قد سقوا منكم السيوف دماءا
(حسن) لا تجد بماء القوم ... (منعوا جدك الحسين الماءا)

وهنا استشاط الشاعر الكوفي غضباً، وثارت ثائرته، واهتاج حنقاً، فشمّر عن ساعد الشعر، واندفع مفنداً ما ادعاه مناوئوه، فعكس تشطير الحبوبي، ومشطراً بيتي اليعقوبي، وراداً على الاثنين من خصمائه، ومخاطبا القائممقام:

(لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً) ... عجباً منك يطلبون جفاءا
ويقولون لا تجبهم بشيء ... (ودع القوم يهلكون ظماءا)
(كيف تسقي يا ابن الجواد أناساً) ... وسواهم يكابدون العناءا
أو ترضى تعدُ من حزب قوم ... (منعوا جدك الحسين الماءا)

وهنا انضم الشاعر النجفي المرحوم الشيخ عبد الغني الخضري لركب المحاضرة وتحضر للرد على الشاعر الكوفي زيادة في إغاضة صديقهم البازي ورغبة في المزيد من إثارته ومداعبته، فقال مشطراً بيتي اليعقوبي أيضاً:

(لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً) ... حيث كانوا للمرتضى أعداءا
منعوا السبط بارد الماء عذباً ... (ودع القوم يهلكون ظماءا)
(كيف تسقي يا ابن الجواد أناساً) ... وسواهم يكابدون العناءا
أو ترضى تعدّ من حزب قوم ... (منعوا جدك الحسين الماءا)

لكن الشاعر الكوفي لم يهن ولم يضعف، ولم يترك ساحة النزال، حتى لو وجد نفسه وحيداً في المعركة، فاستبسل في الدفاع عن رأيه، والذب عن مدينته، والمطالبة بحقوق بلدته وإجابة مطلبه، فانبرى لخصومه يردهم رداً عنيفاً وفنداً آراء متحدية، قارعاً الحجة بالحجة وداعماً الدليل بالدليل يشطّر أبيات اليعقوبي والخضري، ويزيد عليهما قائلاً:

لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً ... هكذا الشيخ قالها إغراءا
فضنها الأدعياء صدقاً فقالوا ... حيث كانوا للمرتضى أعداءا
منعوا السبط بارد الماء عذباً ... من بأظمائنا يرون الرواءا
فترفع عمّن يقول اجتنبهم ... ودع القوم يهلكون ظماءا
كيف تسقي يا ابن الجواد أناساً ... دون قوم عدتكم شفعاءا
وسواهم كما علمت عنادا ... كم لطَه قد قتلوا أبناءا
أفتسقيهم وهم من عرفتم ... عاضدوا خصمكم وخانوا الوفاءا
طلبوا منعنا اقتداءاً بمن قد ... منعوا جدك الحسين الماءا[2]

إن هذه المنابزات الأدبية والمناظرات الشعرية كانت كثيراً ما تقع بين سكان المدن المتجاورة، فلا غرابة إذ وجدنا مثل هذه المماحكة والمضاحكة والمناظرة بين هؤلاء الشعراء الفكهاء، وإن كثيرة غيرها ما كانت تحدث بين شعراء النجف أنفسهم وأدبائها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، أو بين شعراء النجف وأدبائها وبين شعراء الكوفة وأدبائها، ورأينا مثلها في الأدب النجفي المعاصر ما وقع بين أدباء النجف وشعرائها، وأدباء(الحلة) وشعرائها أيضاً لقربهما عن بعضهما أيضاً، فإذا أضفنا إلى هذا كله، عامل اتسام الأدب النجفي في هذه الحقبة

(١) ديوان علي الشرقي -ص٢٢٧-٢٣٠ وزارة الثقافة والفنون-بغداد ١٩٧٩.

(٢) انظر هذه المناظرة كاملة في: شعراء الغري ٦/٣٧٠-٣٧١.

بطابع الفكاهة والظرف واللطافة، وحب النجفيين للنادرة والطريفة والمفاكهة في هذه الرحلة من حياة النجف واتسام الأدب النجفي بهذا الطابع الذي تميزت به على كل مدن العراق[1] عرفنا سبب حدوث مثل هذه المناقرات والمطارحات والمماحكات الأدبية، وسبب حدوث مثل هذه المحاجة بين أدباء الكوفة والنجف.. وللتدليل على اتسام الأدب النجفي في هذه الحقبة بطابع الهزل والفكاهة والطرافة، نذكر بعض هذه الوقائع باختصار لا يضاح حبّ النجفيين للطرفة والنادرة:

الواقعة الأولى: ما ذكرته المصادر من أنه حين كان (السيد حيدر الحلي) شاعر الحلة المشهور، مرة يلقي قصيدته في تأبين السيد جعفر بن السيد مهدي القزويني الكبير (ت ١٢٩٨هـ/١٨٧٢م)[2]، وكان معه رهط من الحليين، جاؤوا لتأبين السيد جعفر، وكان من عادة المستمعين حينذاك إن يستعيدوا ما يسمعونه من الشعر الجيد، والأبيات الجيدة، استحساناً للشعر وتقديراً لقائله، ولكن النجفيين بسبب حبّهم للنكتة والفكاهة (والمقالب) حتى في مجالس الجدّ وفي أحرج الأوقات، اتفقوا فيما بينهم إن لا يستعيدوا من قصيدة السيد حيدر شيئاً، وإذ يقرأ السيد حيدر قصيدته العصماء في رثاء السيد جعفر- وهو المعروف بجودته في فن الرثاء، بل هو فارس حلبة شعر الرثاء العراقي في هذه الحقبة من الزمن-[3] من أولها إلى آخرها وجد القوم صامتين، لا يتحركون ولا يهتزون لما يقوله من رثاء بليغ ولا يستحسنون شيئاً منها، ولا يستعيدون منها بيتاً واحداً، أدرك أنها مكيدة مدبرة، فما أن أنهى قصيدته حتى خرج من حفل التأبين غاضباً وتبعه الحليون، ولكن الشاعر النجفي الشيخ محسن الخضري لحق به واعتذر منه، فقال له السيد حيدر: إن كان في المجلس من أعتب عليه فهو أنت، فارتجل الشيخ الخضري هذين البيتين معتذراً من السيد حيدر قائلاً:

ميزتني بالعتب دون معاشرٍ ... سمعوا وما حيّ سواي بسامع
أخرستني وتقول مالك صامت ... وأمتني وتقول مالك لا تعي[4]

فهدأت غضبة السيد حيدر، لكن الطريفة أخذت مداها، وشاعت في المجالس والنوادي والأسواق.....

والطريفة الثانية، مما يدلل على حب النجفيين للنكتة والنادرة: حتى في أكثر المواقف جداً وحزماً.... قيل أنه حين كان الشاعر النجفي الكبير السيد محمد سعيد الحبوبي (١٨٤٩-١٩١٥م) يحاضر في تلاميذه مرة في الصحن العلوي الشريف في (اللغة) بعدما اجتاز فترة الشباب والشعر واتجه إلى التدريس والمحاضرة، في طلاب له في مادة (النحو العربي) وكانت المحاضرة في أدوات التوكيد والتحقيق في اللغة، أن السيد الحبوبي قال لطلابه ضمن المحاضرة:

«إن (قد) إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها تفيده التقليل» فاهتبل أحد تلاميذه النبهاء الظرفاء الخبثاء هذه السانحة، ورفع أصبعه، وسأل أستاذه بأدب واحترام: أستاذنا إذا كانت قد تفيد التقليل إذا دخلت على المضارع فماذا تفيد إذا دخلت على الفعل الماضي يا سماحة الأستاذ؟)، فأدرك الأستاذ قصد تلميذه، فأجابه بسرعة وفور وارتباك بقوله (ما شربتها وجدي)، لأن الأستاذ عرف أن تلميذ يشير إلى قوله المشهور في إحدى موشحاته:

قد شربت الخمر لكن كلماك ... ما رأت عيني ولا ذاق فمي[5]

وبما أن (قد) تفيد (التحقيق) إذا دخلت على الماضي، عرفنا جمال النكتة في سؤال التلميذ الذكي وخبثه العلمي، وعرفنا أيضاً نباهة الأستاذ وسرعة إدراكه لمغزى السؤال....

والطريفة الأخيرة التي نذكرها في هذا المجال بل تذكر مصادر الأدب النجفي:

إن أحد وجهاء النجف المدعو (سعيد ناجي) طلب من الشاعر جعفر الحلي إن يعمل له عبارة جميلة ينقشها على خاتمه، فعمل له السيد جعفر هذه العبارة التي فيها هذه التورية الجميلة وهي (بحب بني النبي سعيد ناجي)...

وفي حينها أشاع النجفيون -حباً للنكتة-: إنه كان في النجف وجيه آخر ينافس سعيد ناجي في الوجاهة وهو (سعيد عجينة) فأخذه الغيظ والغضب والتحدي فذهب إلى أحد الصاغة وطلب منه أن ينقش له على الخاتم له عبارة على غرارها هي (بحب بني النبي سعيد عجينة)[6] حيث أنه لم يدرك التورية في كلمة ناجي، وإلاّ الفرق بين (ناجي وعجينة)... وأنا لا أشك في أن هذه الطرفة موضوعة، ولكن وضعها على هذا الشكل يدل على حب الفكاهة والنكتة لدى النجفيين في هذه الحقبة من الزمن.

* * *

(١) ظاهرة الفكاهة والغزل في الشعر النجفي في القرن التاسع عشر د. محمد حسن علي مجيد في (مجلة آداب المستنصرية)-العدد/١٠السنة١٩٨٤- ص٨٩-١٣٦، و: أثر البيئة في آداب المدن العراقية في القرن التاسع عشر د. محمد حسن علي مجيد-ص٤٨-٩٠، بغداد ١٩٩٨.

(٢) انظر رائعة السيد حيدر في ديوانه ج١٢٢/٢ مطبعة المعارف-بغداد ١٩٦٤.

(٣) انظر-نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر د. محمد مهدي البصير- مطبعة المعارف-بغداد ١٩٤٦.

(٤) نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر-ص٤٣-٤٤، و: شعراء الغري ٢١٧/٧.

(٥) الموشحات العراقية منذ نشأتها حتى نهاية القرن التاسع عشر د. رضا محسن القريشي-دار الرشيد للنشر-بغداد ١٩٨١ أما قصيدة الحبوبي التي منها هذا البيت في ديوان محمد سعيد الحبوبي ص١٩١-ط وزارة الثقافة والإعلام-بغداد١٩٨٠.

(٦) انظر: أثر البيئة في أدب المدن العراقية/ص٧٣، و-ظاهرة الفكاهة والغزل في الشعر النجفي/مجلة آداب المستنصرية/ص١٠١، والعوامل التي جعلت من النجف بيئة شعرية-جعفر الخليلي/ص٤٦-ط النجف ١٩٧٠.

لكوفة الجند وهي المنبر العالي ... صوت يردده تاريخنا الغالي
ترن في مبهمات النفس نغمته ... مثل المفاتيح قد رنت بأقفالِ
كأنه جرس الأرواح تقرعه ... بين التهاليل أجيال لأجيال
من الجزيرة في الآفاق مفتخر ... صوت يهيب بأحرار وأبطال
ضرب من المثل العليا يخلدها ... قول حكيم فصارت ضرب أمثال

إلى أن يقول:

منارة الأدب اللماع ما برحت
وضاءةً بشعاع منه جوال
رسالة المجد للشهبا ترتلها
هذي النوادي بتكريم وإجلال[1]

أما العلاقات بين أدباء النجف وأدباء الكوفة في العصر الحديث، فهي كثيرة والوشائج بينهم متداخلة متصلة، منها -مثلاً- هذه المناظرات والمحاورات والمنابزات الأدبية، والنكت والفكاهات التي قامت بين شعراء النجف وشعراء الكوفة، نذكر منها الواقعة الطريفة التي اشتبك فيها بعض شعراء النجف مع الشاعر الكوفي المرحوم الشيخ علي البازي (ت ١٩٧٠)، حين طلب هذا الأخير من السيد (حسن الجواد) قائممقام النجف في إحدى زياراته للكوفة وكان معه رهط من وجهاء النجف وشعرائها، طلب من القائممقام مشروعاً لماء الكوفة، ولكن الشاعر النجفي المرحوم الشيخ محمد علي اليعقوبي (ت ١٩٦٥) الذي كان في معية القائممقام أراد أن يداعب صديقه الشاعر الشيخ البازي، فطلب من القائمقام أن لا يلبي طلب البازي، ويغفل مشروع ماء الكوفة، فقال له شعراً:

لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً
ودع القوم يهلكون ظماءا
كيف تسقي (يا ابن الحسين) أناساً
منعوا جّدك الحسين الماءا

لكن الشعراء النجفيون الذين كانوا في معية القائممقام لم يكتفوا بتحريض زميلهم النجفي ضد الكوفة وأهلها، بل زادوا في الطين بلّة حين انبرى منهم الشاعر النجفي المرحوم السيد محمد الحبوبي مشطراً بيتي اليعقوبي السابقين مؤكداً في تشطيره للبيتين وجوب حرمان (أهل الكوفة) من الماء، والغرض هو زيادة في مداعبة زميلهم الكوفي وإغاظته ورغبة في إثارته، حين قال:

(لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً) ... خطباء جاؤوك أم شعراءا
طلبوا الماء بعدما فعلوها ... (ودع القوم يهلكون ظماءا)
(كيف تسقي يا ابن الجواد أناساً) ... قد سقوا منكم السيوف دماءا
(حسن) لا تجد بماء القوم ... (منعوا جدك الحسين الماءا)

وهنا استشاط الشاعر الكوفي غضباً، وثارت ثائرته، واهتاج حنقاً، فشمّر عن ساعد الشعر، واندفع مفنداً ما ادعاه مناوئوه، فعكس تشطير الحبوبي، ومشطراً بيتي اليعقوبي، وراداً على الاثنين من خصمائه، ومخاطبا القائممقام:

(لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً) ... عجباً منك يطلبون جفاءا
ويقولون لا تجبهم بشيء ... (ودع القوم يهلكون ظماءا)
(كيف تسقي يا ابن الجواد أناساً) ... وسواهم يكابدون العناءا
أو ترضى تعدُ من حزب قوم ... (منعوا جدك الحسين الماءا)

وهنا انضم الشاعر النجفي المرحوم الشيخ عبد الغني الخضري لركب المحاضرة وتحضر للرد على الشاعر الكوفي زيادة في إغاضة صديقهم البازي ورغبة في المزيد من إثارته ومداعبته، فقال مشطراً بيتي اليعقوبي أيضاً:

(لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً) ... حيث كانوا للمرتضى أعداءا
منعوا السبط بارد الماء عذباً ... (ودع القوم يهلكون ظماءا)
(كيف تسقي يا ابن الجواد أناساً) ... وسواهم يكابدون العناءا
أو ترضى تعدّ من حزب قوم ... (منعوا جدك الحسين الماءا)

لكن الشاعر الكوفي لم يهن ولم يضعف، ولم يترك ساحة النزال، حتى لو وجد نفسه وحيداً في المعركة، فاستبسل في الدفاع عن رأيه، والذب عن مدينته، والمطالبة بحقوق بلدته وإجابة مطلبه، فانبرى لخصومه يردهم رداً عنيفاً وفنداً آراء متحدية، قارعاً الحجة بالحجة وداعماً الدليل بالدليل يشطّر أبيات اليعقوبي والخضري، ويزيد عليهما قائلاً:

لا تعر أهل الكوفة الجند سمعاً ... هكذا الشيخ قالها إغراءا
فضنها الأدعياء صدقاً فقالوا ... حيث كانوا للمرتضى أعداءا
منعوا السبط بارد الماء عذباً ... من بأظمائنا يرون الرواءا
فترفع عمّن يقول اجتنبهم ... ودع القوم يهلكون ظماءا
كيف تسقي يا ابن الجواد أناساً ... دون قوم عدتكم شفعاءا
وسواهم كما علمت عنادا ... كم لطَه قد قتلوا أبناءا
أفتسقيهم وهم من عرفتم ... عاضدوا خصمكم وخانوا الوفاءا
طلبوا منعنا اقتداءاً بمن قد ... منعوا جدك الحسين الماءا[2]

إن هذه المنابزات الأدبية والمناظرات الشعرية كانت كثيراً ما تقع بين سكان المدن المتجاورة، فلا غرابة إذ وجدنا مثل هذه المماحكة والمضاحكة والمناظرة بين هؤلاء الشعراء الفكهاء، وإن كثيرة غيرها ما كانت تحدث بين شعراء النجف أنفسهم وأدبائها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، أو بين شعراء النجف وأدبائها وبين شعراء الكوفة وأدبائها، ورأينا مثلها في الأدب النجفي المعاصر ما وقع بين أدباء النجف وشعرائها، وأدباء(الحلة) وشعرائها أيضاً لقربهما عن بعضهما أيضاً، فإذا أضفنا إلى هذا كله، عامل اتسام الأدب النجفي في هذه الحقبة

(١) ديوان علي الشرقي -ص٢٢٧-٢٣٠ وزارة الثقافة والفنون-بغداد ١٩٧٩.

(٢) انظر هذه المناظرة كاملة في: شعراء الغري ٦/٣٧٠-٣٧١.

بطابع الفكاهة والظرف واللطافة، وحب النجفيين للنادرة والطريفة والمفاكهة في هذه الرحلة من حياة النجف واتسام الأدب النجفي بهذا الطابع الذي تميزت به على كل مدن العراق[1] عرفنا سبب حدوث مثل هذه المناقرات والمطارحات والمماحكات الأدبية، وسبب حدوث مثل هذه المحاجة بين أدباء الكوفة والنجف.. وللتدليل على اتسام الأدب النجفي في هذه الحقبة بطابع الهزل والفكاهة والطرافة، نذكر بعض هذه الوقائع باختصار لا يضاح حبّ النجفيين للطرفة والنادرة:

الواقعة الأولى: ما ذكرته المصادر من أنه حين كان (السيد حيدر الحلي) شاعر الحلة المشهور، مرة يلقي قصيدته في تأبين السيد جعفر بن السيد مهدي القزويني الكبير (ت ١٢٩٨هـ/١٨٧٢م)[2]، وكان معه رهط من الحليين، جاؤوا لتأبين السيد جعفر، وكان من عادة المستمعين حينذاك إن يستعيدوا ما يسمعونه من الشعر الجيد، والأبيات الجيدة، استحساناً للشعر وتقديراً لقائله، ولكن النجفيين بسبب حبّهم للنكتة والفكاهة (والمقالب) حتى في مجالس الجدّ وفي أحرج الأوقات، اتفقوا فيما بينهم إن لا يستعيدوا من قصيدة السيد حيدر شيئاً، وإذ يقرأ السيد حيدر قصيدته العصماء في رثاء السيد جعفر- وهو المعروف بجودته في فن الرثاء، بل هو فارس حلبة شعر الرثاء العراقي في هذه الحقبة من الزمن-[3] من أولها إلى آخرها وجد القوم صامتين، لا يتحركون ولا يهتزون لما يقوله من رثاء بليغ ولا يستحسنون شيئاً منها، ولا يستعيدون منها بيتاً واحداً، أدرك أنها مكيدة مدبرة، فما أن أنهى قصيدته حتى خرج من حفل التأبين غاضباً وتبعه الحليون، ولكن الشاعر النجفي الشيخ محسن الخضري لحق به واعتذر منه، فقال له السيد حيدر: إن كان في المجلس من أعتب عليه فهو أنت، فارتجل الشيخ الخضري هذين البيتين معتذراً من السيد حيدر قائلاً:

ميزتني بالعتب دون معاشرٍ ... سمعوا وما حيّ سواي بسامع
أخرستني وتقول مالك صامت ... وأمتني وتقول مالك لا تعي[4]

فهدأت غضبة السيد حيدر، لكن الطريفة أخذت مداها، وشاعت في المجالس والنوادي والأسواق.....

والطريفة الثانية، مما يدلل على حب النجفيين للنكتة والنادرة: حتى في أكثر المواقف جداً وحزماً.... قيل أنه حين كان الشاعر النجفي الكبير السيد محمد سعيد الحبوبي (١٨٤٩-١٩١٥م) يحاضر في تلاميذه مرة في الصحن العلوي الشريف في (اللغة) بعدما اجتاز فترة الشباب والشعر واتجه إلى التدريس والمحاضرة، في طلاب له في مادة (النحو العربي) وكانت المحاضرة في أدوات التوكيد والتحقيق في اللغة، أن السيد الحبوبي قال لطلابه ضمن المحاضرة:

«إن (قد) إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها تفيده التقليل» فاهتبل أحد تلاميذه النبهاء الظرفاء الخبثاء هذه السانحة، ورفع أصبعه، وسأل أستاذه بأدب واحترام: أستاذنا إذا كانت قد تفيد التقليل إذا دخلت على المضارع فماذا تفيد إذا دخلت على الفعل الماضي يا سماحة الأستاذ؟)، فأدرك الأستاذ قصد تلميذه، فأجابه بسرعة وفور وارتباك بقوله (ما شربتها وجدي)، لأن الأستاذ عرف أن تلميذ يشير إلى قوله المشهور في إحدى موشحاته:

قد شربت الخمر لكن كلماك ... ما رأت عيني ولا ذاق فمي[5]

وبما أن (قد) تفيد (التحقيق) إذا دخلت على الماضي، عرفنا جمال النكتة في سؤال التلميذ الذكي وخبثه العلمي، وعرفنا أيضاً نباهة الأستاذ وسرعة إدراكه لمغزى السؤال....

والطريفة الأخيرة التي نذكرها في هذا المجال بل تذكر مصادر الأدب النجفي:

إن أحد وجهاء النجف المدعو (سعيد ناجي) طلب من الشاعر جعفر الحلي إن يعمل له عبارة جميلة ينقشها على خاتمه، فعمل له السيد جعفر هذه العبارة التي فيها هذه التورية الجميلة وهي (بحب بني النبي سعيد ناجي)...

وفي حينها أشاع النجفيون -حباً للنكتة-: إنه كان في النجف وجيه آخر ينافس سعيد ناجي في الوجاهة وهو (سعيد عجينة) فأخذه الغيظ والغضب والتحدي فذهب إلى أحد الصاغة وطلب منه أن ينقش له على الخاتم له عبارة على غرارها هي (بحب بني النبي سعيد عجينة)[6] حيث أنه لم يدرك التورية في كلمة ناجي، وإلاّ الفرق بين (ناجي وعجينة)... وأنا لا أشك في أن هذه الطرفة موضوعة، ولكن وضعها على هذا الشكل يدل على حب الفكاهة والنكتة لدى النجفيين في هذه الحقبة من الزمن.

* * *

(١) ظاهرة الفكاهة والغزل في الشعر النجفي في القرن التاسع عشر د. محمد حسن علي مجيد في (مجلة آداب المستنصرية)-العدد/١٠السنة١٩٨٤- ص٨٩-١٣٦، و: أثر البيئة في آداب المدن العراقية في القرن التاسع عشر د. محمد حسن علي مجيد-ص٤٨-٩٠، بغداد ١٩٩٨.

(٢) انظر رائعة السيد حيدر في ديوانه ج١٢٢/٢ مطبعة المعارف-بغداد ١٩٦٤.

(٣) انظر-نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر د. محمد مهدي البصير- مطبعة المعارف-بغداد ١٩٤٦.

(٤) نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر-ص٤٣-٤٤، و: شعراء الغري ٢١٧/٧.

(٥) الموشحات العراقية منذ نشأتها حتى نهاية القرن التاسع عشر د. رضا محسن القريشي-دار الرشيد للنشر-بغداد ١٩٨١ أما قصيدة الحبوبي التي منها هذا البيت في ديوان محمد سعيد الحبوبي ص١٩١-ط وزارة الثقافة والإعلام-بغداد١٩٨٠.

(٦) انظر: أثر البيئة في أدب المدن العراقية/ص٧٣، و-ظاهرة الفكاهة والغزل في الشعر النجفي/مجلة آداب المستنصرية/ص١٠١، والعوامل التي جعلت من النجف بيئة شعرية-جعفر الخليلي/ص٤٦-ط النجف ١٩٧٠.